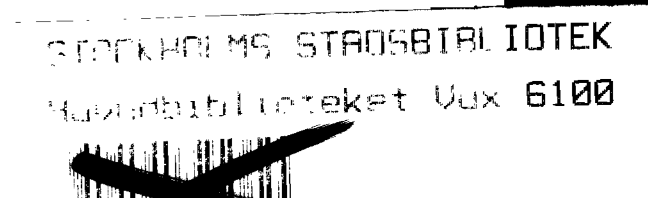


جاك لندن
العقب الحديدية
رواية عقائدية اشتراكية
مع مقدمة بقلم أناتول فرانس
تعريب
منير البعلبكي


STOCKHOLMS STADSBIBLIOTEK
Huvudbiblioteket Vux 6100

جاك لندن

العَقِبُ الحَدِيدِيَّة

رواية عقائدية اشتراكية

مع مقدمة بقلم الكاتب الخالد أناتول فرانس

نقلها إلى العربية

منير البعلبكي

دار العلم للملايين
بيروت

THE IRON HEEL

by

JACK LONDON

الطبعة الرابعة
شباط (فبراير) ١٩٧٩

مقدمة

بقلم الكاتب الفرنسي الخالد
أناتول فرانس

« العقب الحديدية » هو الاسم القوي الذي يرمز به « جاك لندن » الى البلوتوقراطية * · والكتاب الحامل هذا الاسم انما نشر عام ١٩٠٧ · وهو يصور لنا فيه الصراع الذي سينشب ذات يوم ـ اذا ما سمحت بذلك الالهة في لحظة من لحظات غضبها ـ بين البلوتوقراطية والشعب ، وأسفا ! لقد كان جاك لندن يتمتع بتلك العبقرية الفريدة التي تدرك ما هو محجوب عن سواد الناس ، ويملك معرفة خاصة تمكنه من الكشف عن ضمير المستقبل · لقد تنبأ بمجموعة الاحداث تلك التي لم تتكشف لابصارنا الا اليوم · والدراما الرهيبة التي يدعونا اليها لما تحدث ، فعلا ، حتى الان ، ولسنا ندري متى ستتحقق النبوءة الراعبة التي أطلقها هذا المريد الاميركي من مريدي ماركس ·

لقد كان جاك لندن اشتراكيا ، اشتراكيا ثوريا · والرجل الذي يفطن ـ في هذا الكتاب ـ الى الحقيقة ، ويتنبأ بالمستقبل ، الرجل الحكيم القوي الطيب ، يدعى ارنست ايفرهارد · وكان ارنست هذا ، كالمؤلف ، من ابناء الطبقات الكادحة ، وكان يعمل بيديه الاثنتين ، ذلك بأنه يتعين عليك أن تعرف ان مؤلف هذه القصة الذي أنتج خمسين مجلدا مذهلا ، زاخرا بالحياة والذكاء ، والذي مات مع ذلك في ريعان الشباب ، كان ابن فلاح ، وقد شرع يكسب رزقه وهو بعد في العاشرة من عمره ، من طريق بيع الصحف ·

وارنست ايفرهارد مفعم بالشجاعة والحكمة ، مفعم بالقوة والكياسة وكلها صفات مشتركة بينه وبين المؤلف الذي خلقه · ولاتمام الشبه القائم

---

* Plutocracy او حكومة الاغنياء ·

بينهما يهب الكاتب ، المؤلف ، بطله الذي خلقه امرأة ذات روح عالية وذكاء عظيم ، امرأة يشربها زوجها التعاليم الاشتراكية فتعتنقها ، وهو يذكرنا بما نعرفه من أن تشيرميان كيتريدج لندن ، تركت مع زوجها جاك حزب العمال بعد أن ظهرت أمارات الضعف على تلك المؤسسة مباشرة .

ان الثورتين اللتين تشكلان مادة هذا الكتاب الذي أقدمه الى القارىء دمويتان جدا ، وهما تمثلان في خطة اولئك الذين اثاروهما كثيرا من الغدر وفي طريقة تنفيذهما كثيرا من الوحشية ، الى حد يجعل المرء يتساءل : أمن الممكن ان يقع شيء مثل ذلك في أيما يوم من الايام في أميركة ، في أوروبة ؟ أمن الممكن أن يقع شيء مثل ذلك في فرنسة ؟ وأنا شخصيا ما كنت لاصدق بأنه ممكن لو لم تكن أمامي صورة تلك الايام الحزيرانية التي اخضعت فيها ثورة العامة (الكومون Commune) سنة ١٨٧١ ، والتي تذكرنا بأن كل شيء جائز ضد الفقراء . ولقد أثبتت تجارب العصور أن البروليتاريا في كل بلد ، سواء أكان ذلك البلد اوروبيا أو أميركيا ، تشكل اغراء « للعقب الحديدية » على نحو لا يقاوم .

فالاشتراكية في فرنسة ، شأنها في ايطالية واسبانيا ، هي اليوم أضعف من أن يكون لديها ما تخافه من « العقب الحديدية » ، لان الضعف البالغ هو حزام السلامة بالنسبة الى الضعيف . فليس ثمة « عقب حديدية » تجشم نفسها عناء الوطء على هذا الحزب الهزيل الشبيه بالتراب . وما الداعي الى اضعافه ؟ الواقع ان سحقه يقتضي جهدا قليلا ، ليس غير ، في فرنسة حيث البروليتاريا ضئيلة العدد . ولاسباب مختلفة ، وجدنا أن الحرب - التي كانت بالغة القسوة على الطبقات المتوسطة الدنيا ، سالبة اياها من غير ان تنتزع منها صيحة واحدة ، اذ كانت مخلوقات خرساء - لم تكن على مثل هذه القسوة مع العامل المستخدم في الصناعات الكبرى ، ذلك العامل الذي وجد من طريق صنع القنابل ما يسد به رمقه ، والذي كان أجره هزيلا جدا عندما وضعت الحرب أوزارها ومع ذلك فانه لم يهبط اكثر مما ينبغي قط . لقد حرص رجال الساعة على ذلك وجعلوه هما من همومهم ! وعلى أية حال فهذه الاجور لم تكن غير ورق ما كان زعماء الصناعة الاثرياء - الذين تشدهم بالسلطات العليا أقوى الصلات - ليجدوا كبير عناء في الحصول عليه . وهكذا وفق العامل الى العيش على خير وجه استطاعه . وكان قد سمع من الاكاذيب ما جعله لا يعجب ، بعد ، لايما شيء ولا يستغربه . في تلك الفترة بالذات اختار الحزب الاشتراكي ان يتحطم وان يحيل نفسه الى هباء . ولقد كان هذا هزيمة عظمى للاشتراكية ، هزيمة تمت من غير ما قتلى أو جرحى ! ولكن

كيف كان ذلك ؟ ان الاسباب التي ذكرتها كافية لتفسير المسألة · ولا ريب في ان الحرب مسؤولة عن شيء من ذلك ·

ولكن الصراع بين العمل ورأس المال لا بد ان يستأنف يوما · عندئـذ سوف نشهد أياما كأيام ثورتي سان فرانسيسكو وتشيكاغو اللتين تكهن جاك لندن بهولهما الذي يعز على الوصف · وليس ثمة أيما سبب يحمل علـــى الاعتقاد بأن الاشتراكية سوف تسحق في تلك الساعة ـ سواء أكانت عاجلة أم آجلة ـ تحت العقب الحديدية وتغرق في الدماء ·

في عام ١٩٠٧ كان جاك لندن يعتبر متشائما مفزعا ، حتى الاشتراكيون الصادقون لاموه لالقائه الرعب في صفوف الحزب ، لقد كانوا مخطئين ، ذلك بأن أولئك الذين وهبوا القدرة الثمينة النادرة على النفاذ الى ضمير الغيب لا معدى لهم عن اظهار المخاطر التي تتجلى لهم · وأنا اذكر اني سمعـــت « جوريس » العظيم يقول مرات عديدة : « ان قوة الطبقات التي يتعين علينا النضال ضدها لا تحظى منا بالتقدير الكافي · ان تلك الطبقات قوية ، ويقال انها فاضلة · لقد اطرح كهانها اخلاق الكنيسة ليعتنقوا أخلاق المعمل ، وحين يتهدد الخطر تلك الطبقات يسرع المجتمع قلبا واحدا للدفاع عنها · » ولقـد كان من واجبه ، كما كان من واجب جاك لندن ، ان يرفع أمامنا المرآة النبوئية التي تنعكس فيها أخطاؤنا وغفلاتنا ·

الا فلنجتنب تعريض المستقبل للخطر · انه لنا · فالبلوتوقراطية سوف تهلك · ونحن نستطيع منذ الان أن نلحظ في مظـــاهر قوتها ذاتهـــا أمارات انهيارها · انها سوف تهلك ، لان كل حكومة طبقية مقضي عليها بالمـوت · انها سوف تهلك لانها غير عادلة · انها سوف تهلك ، وهي منتفخة بالاعتزاز مطمئنة الى انها بلغت اوج قوتها ، كما قد هلك الاسترقاق وهلكت القنانـة سواء بسواء · وحتى في يوم الناس هذا يستطيع من ينعم النظر أن يرى انها متداعية الى السقوط · ان هذه الحرب ، التي رغبت فيها المصالح التجارية الكبرى في جميع بلدان العالم ، هذه الحرب التي كانت حربها * ، هذه الحرب التي علقت عليها أملها في الفوز بثروات جديدة ، قد احدثت خرابا هـــو من الاتساع والعمق بحيث زعزعت الاوليغاركية ** الدولية نفسها ، وان اليوم الذي تنهار فيه على أوروبة خربة قد أمسى قريبا ·

أنا لا أستطيع أن أزعم لكم ان الاوليغاركية سوف تهلك في الحال ومـــن

* يقصد انها كانت حرب البلوتوقراطية * (المعرب)

** Oligarchy او حكومة القلة · (المعرب)

غير ما كفاح · انها سوف تكافح · ومن يدري ، فقد تكون حربهـا الاخيرة طويلة ، متفاوتة المصائر · ايه يا ورثة البروليتاريين ! ايه يا اجيال المستقبل ، ابناء الايام التي ستهل ! انكم سوف تناضلون ، وحين تشرع الخيبات فـي حملكم على الشك بنجاح قضيتكم فلا ريب في انكم سوف تستعيدون شجاعتكم وترددون مع ايفرهارد النبيل : « لقد خسرناها مؤقتا · ولكن ليس الـى الابد ! لقد تعلمنا أشياء كثيرة · وغدا تنهض القضية من جديد ، وهي اقوى بالحكمة وروح الانضباط · »

أناتول فرانس

الفصل الاول

نسري

ان نسيم الصيف العليل ليثير اغصان « الشجر الاحمر » ، وان مياه « الوايلد ووتر » لتتموج موقعة أنغاما عذبة على صخورها المطحلبة * . الفراشات تسرح في اشعة الشمس ، ومن كل مكان ينبعث طنين النحل الوسنان. ان كل شيء هادىء جدا ، آمن جدا ، واني لاجلس هنا ، واستغرق في التفكير ، مضطربة النفس قلقة . فالهدوء هو الذي يوقع في نفسي الاضطراب والقلق . انه يبدو غير حقيقي . العالم كله هادىء ، ولكنه الهدوء الذي يسبق العاصفة . واني لارهق عيني ، وحواسي كلها ، بحثا عن شيء ينم عن تلك العاصفة الوشيكة . أوه ، شد ما أرجو ان لا تكون مبتسرة فجة ! شد ما ارجو ان لا تكون مبتسرة فجة !

ان اضطرابي وقلقي لا يدعوان الى كبير عجب . فانا افكر ، وافكر ، وليس في استطاعتي ان اكف عن التفكير . فقد عشت أحفل سنوات العمر بالزخم طوال الفترة التي أرهقت فيها بالامن والهدوء ، وليس في ميسوري

---

* المكسوة بالطحالب .

١ كانت « الثورة الثانية » من عمل ارنست ايفرهارد في المحل الاول ، على الرغم من انه تعاون ، طبعا ، مع الزعماء الاوروبيين . ولقد كان اعتقال ايفرهارد واعدامه السري الحدث الاكبر في ربيع ١٩٣٢ ب. م. ومع ذلك فقد كان الاعداد الذي اعده للثورة دقيقا الى درجة جعلت شركاءه في التآمر قادرين ، في قليل من الاضطراب او من التواني ، على وضع خططه موضع التنفيذ . وبعد اعدام ايفرهارد قصدت زوجته الى « وايك روبن لودج Wake Robin Lodge » ، وهو بيت خلوي في « سونوما هيلز Sonoma Hills » بكاليفورنيا .

الاقلاع عن التفكير في دوامة الموت والخراب المجنونة تلك التي ستنفجر عما قريب · ان صيحات البؤساء لتضج في اذني ، وان في وسعي ان أرى ، كما قد رأيت في الماضي [٢] ، تشويه اللحم البشري الغض الجميل وتمزيقه ، وانتزاع الارواح في عنف من الاجساد المغترة بنفسها ودفعها الى الله في قسوة بالغة · وعلى هذا النحو نحقق نحن البشر المساكين أهدافنا ، مناضلين في خضم من الاشلاء والخراب لكي نحمل الى الارض سلما دائما وسعادة مقيمة ·

ثم انني أحيا متوحدة مستوحشة · وحين لا أفكر في الذي سيحدث في مقبلات الايام أفكر في الذي كان ثم زال ــ افكر في نسري وهو يضرب الفراغ بجناحين لا يتسرب اليهما الكلل ، محلقا نحو ما كان شمسه دائما : المثل الاعلى المنير للحرية الانسانية · اني لا أستطيع ان أقعد كسلى متبطلة وأنتظر الحدث العظيم الذي هو من صنعه ، على الرغم من أنه ليس بيننا حتى يرى · لقد وقف سنوات رجولته كلها من أجله ، ومن أجله جاد بحياته · الثورة عمل يده · كان هو صانعها · [٣]

ومن هنا ، عقدت العزم على ان افرغ ، في فترة الانتظار القلق هذه ، للكتابة عن زوجي · ان ثمة ضوءا كثيرا أستطيع انا وحدي من دون جميع الاشخاص الاحياء أن ألقيه على شخصيته ، وشخصية على هذا النبل كله لا يمكن أن ترسم بألوان مشرقة أكثر مما ينبغي · لقد كان روحا عظيمة ، وحينما يصبح حبي عاريا عن الانانية لا آسف لشيء مثل أسفي لانه ليس هنا حتى يشهد فجر الغد · اننا لا يمكن أن نخفق · لقد كان البناء الذي بناه أقوى وأوثق من ان يجعل الاخفاق جائزا · الويل « للعقب الحديدية » ! انها سوف ترد ، وشيكا ، عن الانسانية المنطرحة على الارض خائرة القوى · وحين تطلق كلمة السر تنهض جماهير العمال في أرجاء العالم كله · ان شيئا مثل هذا لم يحدث قط من قبل في تاريخ العالم · لقد توثقت وحدة صفوف العمال ،

---

٢ لا ريب في أنها تشير هنا الى « كومون (ثورة العامة) تشيكاغو » ·

٣ مع احترامي كله لايفيس ايفرهارد Avis Everhard يتعين علي اشير ان أرنست ايفرهارد لم يكن غير واحد من زعماء كثيرين بارعين وضعوا خطة « الثورة الثانية » · ونحن اليوم ، اذ نرجع البصر عبر القرون ، نستطيع ان نقول في اطمئنان انه حتى ولو عاش ارنست ايفرهارد فان حصيلة « الثورة الثانية » ما كان لها ان تكون أقل أرزاء وفواجع مما كانت ·

وللمرة الاولى سوف نشهد ثورة دولية واسعة سعة العالم نفسه ٠ ٤

وهكذا ترى اني مشبعة بالذي يوشك ان يقع ٠ لقد عشته ليلا ونهارا على نحو مطلق ، وطوال فترة مديدة من الزمن حتى لقد أصبح ماثلا أبـدا في ذهني ٠ وبقدر ما يتعلق الامر بهذه القضية لا أستطيع ان أفكر في زوجـي من غير أن أفكر فيها ٠ لقد كان هو روحها ، وأنى لي أن أفصل في ذهني ما بين الاثنيـن ؟

ان ثمة ، كما قلت من قبل ، ضوءا كثيرا لا يقوى أحد غيري على القائه على شخصيته ٠ والناس كلهم يعرفون انه كدح من أجل الحرية كدحا عنيفا وقاسى في سبيلها ما قاسى ٠ أما انا فأعلم أحسن العلم مدى العنف الـذي ميز كدحه والى أي حد كان ما قاساه موجعا ٠ ذلك بأني كنت الى جانبه خلال هذه السنوات القلقة العشرين ، وانا أعرف اصطباره ، وجهده الذي لا يتطرق اليه التعب ، واخلاصه اللانهائي للقضية التي قدم حياته ، منذ شهرين ليس غير ، قربانا لها ٠

اني سأحاول أن أكتب في بساطة ، وأن أروي ههنا كيف دخل ارنسـت ايفرهارد حياتي ــ كيف لقيته أول مرة ، كيف نما حتى أصبحت جزءا منه ، والتغييرات الضخمة التي أحدثها في حياتي ٠ وبهذه الطريقة يكون في ميسورك ان تنظر اليه بعيني وتكتشفه كما اكتشفته انا ــ أروي كل شيء مـا خـلا الاشياء التي تحول سريتها البالغة وعذوبتها البالغة دون الافضاء بها ٠

وانما كان اول اجتماعي به في شباط (فبراير) عام ١٩١٢ ، عندمـا وفد الى بيتنا في بيركلي لتناول طعام العشاء بدعوة من أبي ٥ ٠ وليست أستطيع

---

٤ لقد كانت « الثورة الثانية » دولية حقا ، كانت عملا ضخما ، عملا اضخم من أن يكون عمل رجل واحد ليس غير ٠ والواقع ان العمال ، في جميع اوليغاركيات العالم ، كانوا قد أعدوا للنهوض عند تلقي الاشارة بذلك ٠ كانت المانية ، وايطالية ، وفرنسة ، وأوسترالاسية Australasia كلها بلدانا عمالية ــ دولا اشتراكية ٠ كانت على استعداد لان تمد يد العون الى الثورة ٠ ولقد فعلت ذلك في شهامة ٠ من اجل ذلك ما ان سحقت « الثورة الثانية » حتى سحقت تلك الدول ايضا من قبل اوليغاركيات العالم المتحدة ، واقيمت مكان حكوماتها الاشتراكية حكومات اوليغاركية ٠

٥ كان جون كانينغهام ، والد آيفيس ايفرهارد ،استاذا في جامعـة بيركلـي ، بكاليفورنيا وكان حقله المختار هو الفيزياء ، وبالاضافة الى ذلك قام بنشاط واسع في حقل البحوث الاصلية وكان يتمتع بمكانة مرموقة كعالم ٠ اما مأثرته الرئيسية ، فـي العلم ، فدراساته للالكترون ، وكتابه العظيم « تماثل المادة والطاقة » حيث قرر علـى

ان أقول ان انطباعتي الاولى عنه كانت حسنة · كان واحدا من كثيرين دعوا الى تناول الطعام ، وفي حجرة الاستقبال ، حيث اجتمعنا وانتظرنا وصول المدعوين كافة ، كان ظهوره متنافرا أو يكاد · كانت تلك الليلة « ليلة مبشرين» كما دعاها أبي في ما بيننا ، ولا ريب في ان ارنست كان « في غير موضعه » وسط رجال الكنيسة ·

كانت ملابسه ، في المحل الاول ، لا تلائمه · كان يرتدي بذلة جاهزة الصنع خيطت من قماش داكن ، بذلة غير متناغمة مع جسده ، والواقع انه ليس في طاقة أيما بذلة جاهزة الصنع أن تتناغم مع جسده البتة · وفي تلك الليلة ، كشأنه دائما ، كان القماش متورما بعضلاته ، في حين ان سترته كانت بين منكبيه ، وبسبب من نمو كتفيه نموا كبيرا ، شبكة معقدة من التجاعيد · كانت عنقه أشبه بعنق مصارع محترف طمعا في الجوائز المالية ٦ ، غليظة وقوية · وقلت في ذات نفسي : « واذن فهذا هو الفيلسوف الاجتماعي ونعال الخيل السابق الذي اكتشفه أبي ! » ولا ريب في ان هيئته كانت تنم عن هذا ، بتلك العضلات المنتفخة وهذه الحنجرة الشبيهة بحنجرة الثور · وصنفته في الحال ـ هولة من ضرب ما ، كذلك قلت في ذات نفسي ، « توم اعمى » من أبناء الطبقة العاملة · ٧

وبعد ذلك ، عندما صافحني ! كانت مصافحته ثابتة وقوية ، ولكنه نظر الي في جسارة بعينيه السوداوين ـ بجسارة أكثر مما ينبغي ، كذلك قلت لنفسي · فقد كنت ، كما ترى ، مخلوقة من مخلوقات البيئة ، وكانت تهيمن علي في ذلك الحين غرائز طبقية قوية · ولو قد واجهني رجل من أبناء طبقتي

= نحو نهائي لا يحتمل الجدل ان الوحدة المطلقة من المادة والوحد المطلقة من الطاقة متماثلتان ·

وهذه ألفكرة كان قد طلع بها من قبل ، ولكن من غير ما اقامة الدليل ، السير اوليفر اودج وغيره من الباحثين في ميدان « النشاط الاشعاعي » Radio-Activity الجديد ·

٦ في تلك الايام كان من عادة الرجال ان يتنافسوا في سبيل الفوز باكياس المال · كانوا يتصارعون بالايدي · حتى اذا غلب احد المتصارعين ـ بان فقد وعيه أو سقط في الساحة قتيلا ـ استولى الاخر على المال ·

٧ في قوله « توم اعمى » Blind Tom اشارة غامضة ـ الى موسيقي زنجي أعمى ملا الدنيا وشغل الناس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لميلاد المسيح · شبيها بالمسيح في مظهره وطيبته ، وكان عالما أيضا ·

الاجتماعية بمثل هذه النظرة الجسور اذن لكان صنيعه ذاك شيئا وراء الصفح والغفران · وانا أعلم اني لم أستطع الا أن أخفض عيني ، ولقد تنفست الصعداء عندما اجتزته واستدرت لارحب بالاسقف مورهاوس الاثير عندي — وكان رجلا عذبا مؤثرا للجد ، تخطى مرحلة الشباب وانتهى الى الكهولة ،

ولكن هذه الجسارة التي حسبتها وقاحة كانت مفتاحا حيويا لطبيعة ارنست ايفرهارد · كان بسيطا ، صريحا ، لا يخشى شيئا ، وكان يرفض اضاعة الوقت في ضروب التصنع التي يقضي بها العرف والتقليد · « لقد أعجبتني » ، كذلك أوضح لي بعد ذلك بفترة طويلة ، « ولماذا لا أملأ عيني بما يعجبني ؟ » قلت انه لم يكن يخشى شيئا · لقد كان أرسطوقراطيا بالفطرة — وذلك بالرغم من أنه كان منحازا الى معسكر اللاأرسطوقراطيين · كان « سوبرمان » ، حيوانا أشقر كالذي وصفه نيتشيه ٨ ، وبالاضافة الى ذلك كان متقدا بالديموقراطية ·

وكان في اهتمامي بالاجتماع الى الضيوف الاخرين وفي انطباعتي الاولى غير الملائمة ما انساني كل شيء عن فيلسوف الطبقة العاملة ، على الرغم من اني لمحته على مائدة الطعام مرة أو مرتين ، ولمحت بخاصة ذلك الوميض الذي برقت به عيناه وهو يصغي أولا الى حديث هذا القس ثم الى حديث ذاك · وقلت في ذات نفسي انه ظريف ، وكدت أغفر له ثيابه · ولكن الزمان مر ، والعشاء انقضى ، ولم يفتح فمه ليتكلم قط ، بينما تحدث القسس على نحو لا نهائي عن الطبقة العاملة وصلتها بالكنيسة ، وعما فعلته الكنيسة — أو كانت تفعله من أجلها · ولاحظت ان والدي كان منزعجا لان ارنست لم يتحدث · ومرة أفاد والدي من احدى فترات الهدوء فسأله أن يقول شيئا ، ولكن ارنست هز كتفيه قائلا : « ليس عندي ما أقوله · » وواصل التهامه حبات اللوز المملح ·

ولكن والدي ما كان ليرضى بأن لا يجاب الى رغبته · فقال بعد فترة :

— « ان بيننا ههنا عضوا من أعضاء الطبقة العاملة · وأنا واثق من أن في استطاعته ان يصور لنا الوضع من وجهة نظر جديدة خليق بها أن تكون ممتعة ومنعشة · وانما أشير بذلك الى مستر ايفرهارد · »

فبدت على وجوه الاخرين أمارات اهتمام مهذب ، وسألوا ارنست — في الحاح — ان يبسط وجهة نظره · كان موقفهم منه متسامحا جدا ولطيفا

---

٨ فريدريك نيتشيه ، فيلسوف القرن التاسع عشر المجنون ، الذي بصر بومضات من الحقيقة آبدة ، ولكنه عاد قبيل وفاته فانحرف نحو الجنون ·

جدا الى درجة جعلته راشحا بالتنازل والتفضل حقا · ورأيت ان ارنست قد لاحظ ذلك ، وانه سر به · وفي أناة أجال طرفه في مـــا حوله ،ولمحت ومضة الضحك في عينيه :

لقد استهل حديثه قائلا :

ـ « أنا لست متضلعا من آداب الجدل الاكليركي · »

ثم اعتصم بالصمت في حياء وتردد ؟

وألحوا عليه قائلين :

ـ « تابـــع ! »

وقال الدكتور هامرفيلد :

ـ « نحن لا نمانع في سماع الحقيقة عن أي رجل صدرت · ثم أضاف مستدركا : « اذا كانت مخلصة · »

فقال ارنست ، وهو يسرع الى الضحك :

ـ « اذن فأنت تفصل الاخلاص عن الحقيقة ؟ »

فلهث الدكتور هامرفيلد ، وحاول أن يجيب فقال :

ـ « ان خيارنا قد يخطئون ، أيها الفتى ، أجل خيارنا قد يخطئون ! »

وفي الحال تغير موقف ارنست · لقد أمسى رجلا اخر · وأجاب :

ـ « حسن جدا · دعني ابدأ بالقول انكم جميعا مخطئون · أنتم لا تعرفون شيئا عن الطبقة العاملة · بل ان جهلكم لهذه الطبقة فاضح اكثر من ذلك بكثير · ان صوصيولوجيتكم * لا تقل رداءة وتفاهة عن طريقة تفكيركم ! »

ولم يكن العنصر الموجع كامنا في الكلمات نفسها بقدر ما كان كامنا في اللهجة التي أفرغها فيها · وأفقت لدن سماعي أول نبرة من نبرات صوته · كان ذلك الصوت جسورا مثل عينيه · كان نفخة صور اوقعت الرعدة فـــي أوصالي · واستثيرت المائدة كلها ، ودبت فيها حياة جديدة انتشلتها مـــن رتابتها ونعاسها ·

فسأله الدكتور هامرفيلد :

ـ « وما هو الرديء التافه الى هذا الحد الراعب في طريقة تفكيرنا ، أيها الفتى ؟ » وكان في صوته وفي أسلوب أدائه شيء بغيض ·

ـ « انتم ميتافيزيقيون · وان في استطاعة الواحد منكم ان يقيم الدليل على أي شيء من طريق الميتافيزيقا · ** حتى اذا تم له ذلك استطاع ان يثبت

---

* الصوصيولوجيا : علم الاجتماع ·

** او « ما وراء الطبيعة » ·

ـ تبعا لاغراضه ـ خطأ الميتافيزيقيين الاخرين كافة · انتم فوضويون في دنيا الفكر · أنتم صانعو أكوان Cosmos Makers معتوهون · وان كلا منكم ليقيم في « كون » Cosmos من صنعه هو ، كون مخلوق من أهوائه ورغباته · انكم لا تعرفون العالم الواقعي الذي فيه تعيشون ، وتفكيركم ليس له مكان في العالم الواقعي الا بقدر ما هو ظاهرة من ظواهر الضلال العقلي ·

« هل تدري ما الذي ذكرتني به وانا جالس الى المائدة أصغي لك تتحدث وتتحدث ؟ لقد ذكرتني على وجه الضبط بمدرسيي Scholastics القرون الوسطى الذين تجادلوا بترصن وتعالم في هذه المسألة الممتعة : كم ملاكا يستطيع ان يرقص على رأس ابرة ؟ ولا عجب ، يا سادتي الاعزاء ، فأنتم بعيدون عن حياة القرن العشرين بعد الساحر الهندي الذي كان يصنع الرقى في الغابة البدائية قبل عشرة الاف سنة · »

لقد بدا ارنست ، وهو يتكلم ، مضطرما بانفعال رائع · كان وجهه متقدا ، وكانت عيناه تقدحان وتومضان ، وكانت ذقنه وفكه فصيحين بالنزعة العدوانية · ولكن ذلك كله لم يكن غير طريقة من طرائقه · ان طريقته هذه في الهجوم ، طريقته المهشمة وكأنها تصطنع مطرقة كبيرة ، كانت تثير الناس دائما ، ولطالما جعلتهم ينسون أنفسهم · ولقد شرع ضيفنا ينسون أنفسهم الان · كان الاسقف مورهاوس منحنيا الى أمام يصغي في انتباه بالغ · وكان الحنق والغضب يشيعان الدم في وجه الدكتور هامرفيلد · واستبد الحنق بآخرين أيضا ، وكان فريق ثالث يبتسم في ضرب من التعالي المبتهج · أما أنا فقد وجدت الموقف ماتعا الى أبعد الحدود · واختلست النظر الى أبي ، وكنت أحسب أنه على وشك ان يسترسل في الضحك من جراء هذه القنبلة البشرية التي كان مسؤولا عن تفجيرها بيننا ·

وقاطعه الدكتور هامرفيلد :

ـ « ان تعابيرك غامضة بعض الشيء · ما الذي تعنيه ، على وجه الدقة ، عندما تدعوننا ميتافيزيقيين ؟ »

فتابع ارنست كلامه :

ـ « أنا أدعوكم ميتافيزيقيين لانكم تفكرون ميتافيزيقيا · ان طريقتكم في التفكير مناقضة لطريقة العلم · وليس لاستنتاجاتكم أية صحة · ان في وسعكم ان تثبتوا كل شيء ، وليس في وسعكم ان تثبتوا شيئا ، وكل منكم يفزع الى وجدانه الشخصي لكي يفسر ذاته ويفسر الكون · كما قد ترفعون أنفسكم بعرى احذيتكم ذات الاعناق العالية لكي تفسروا الوجدان بالوجدان »

فقال الاسقف مورهاوس :

ـ « لست أفهم · يخيل الي أن أشياء العقل كلها ميتافيزيقية · والرياضيات ، أكثر العلوم دقة واقناعا ، ميتافيزيقية مئة بالمئة · وكل عملية من العمليات العقلية التي يقوم بها المفكر العلمي هي ميتافيزيقية · انت تقرني على هذا من غير ريب ، أليس كذلك ؟ »

فأجابه ارنست :

ـ « أنت لا تفهم ، كما قلت انت عن نفسك· ان الميتافيزيقي يفكر على نحو قياسي Deductively من خلال ذاتيته · أما العالم فيفكر على نحو استقرائي Inductively من خلال وقائع Facts الخبرة أو التجربة · ان تفكير الميتافيزيقي ينطلق من النظرية الى الوقائع ، في حين ان تفكير العالم ينطلق من الوقائع الى النظرية · الميتافيزيقي يفسر الكون على ضوء ذاته · أما العالم فيفسر ذاته بالكون · »

فغمغم الدكتور هامرفيلد في ارتياح :

ـ « نحمد الله أننا لسنا علماء ! »

فسأله ارنست :

ـ « أي شيء أنتم ، اذن ؟ »

ـ « فلاسفة ! »

فضحك ارنست وقال :

ـ « وهكذا تضيعون · لقد فارقتكم الارض الصلبة الواقعية ورحتم تحلقون في الهواء متخذين من احدى الكلمات طائرة لكم · اتوسل اليكم ان تهبطوا الى الارض وتخبروني على وجه الضبط ما الذي تعنونه بالفلسفة · »

ـ « الفلسفة هي ··· » (وتمهل الدكتور هامرفيلد ، وتنحنح ، ثم أضاف) « شيء لا يمكن تعريفه على نحو جامع الا للعقول والامزجة الفلسفية· ان العالم الضيق التفكير المقحم انفه في أنبوب اختبار لا يستطيع أن يفهم الفلسفة · »

وتجاهل ارنست الطعنة · لقد كان من طريقته أن يتلقف حجة الخصم ويردها الى نحره ، ولقد فعل ذلك الان في وجه وأداء مشرقين بالاخاء :

ـ « اذن فلا ريب في انك سوف تفهم التعريف الذي سأضعه الان للفلسفة · ولكني قبل أن أضعه سوف اتحداك بأن تدلني على اي خطأ فيه أو ان تبقى ميتافيزيقيا صامتا · الفلسفة لا تعدو أن تكون أوسع العلوم على الاطلاق · وطريقتها في التفكير هي عين الطريقة التي تصطنعها العلوم كلها · وبهذه الطريقة نفسها في التفكير ، الطريقة الاستقرائية ، تصهر الفلسفة

جميع العلوم في علم واحد عظيم · وكما يقول سبنسر ، ان حقائق كل علم بعينه هي جزئيا معرفة موحدة · الفلسفة توحد المعرفة التي تقدمها العلوم جميعا · الفلسفة هي علم العلوم ، هي العلم الرئيس ، اذا شئت · هل أعجبك تعريفي ؟ »

فغمغم الدكتور هامرفيلد :

ـ « شيء معجب جدا ، معجب جدا ! »

ولكن ارنست كان قاسيا لا يعرف الرحمة · لقد حذر قائلا :

ـ « تذكر ان تعريفي مهلك للميتافيزيقا · واذا لم تضع اصبعك على أيما صدع في تعريفي فعندئذ تفقد حقك في ان تقدم ، بعد ، أيما حجة ميتافيزيقية · يجب أن تمحص الحياة في عناية بالغة التماسا لذلك الصدع وان تعتصم بالصمت ميتافيزيقيا حتى تعثر عليه · »

وانتظر ارنست · كان السكوت موجعا · ولقد وخز الالم الدكتور هامرفيلد ، وغلب عليه الانشداه أيضا · كان هجوم ارنست العنيف المنقض على الخصم بمثل المطرقة الضخمة قد اربكه وشوشه · فهو لم يكن يألف الطريقة البسيطة المباشرة في الجدل · فأجال طرفه حول المائدة يلتمس العون · ولكن أحدا لم يهرع الى نجدته · ولمحت أبي يخفي ضحكته في منديل المائدة ·

وقال ارنست ، حين جعل هزيمة الدكتور هامرفيلد كاملة :

ـ « هناك طريقة أخرى لتسفيه الميتافيزيقيين · حاول ان تحكم عليهم على ضوء أعمالهم · ما الذي فعلوه للانسانية غير نسج الاخيلة الوهمية ، وغير حسبان ظلالهم نفسها آلهة ؟ لقد زادوا في حبور الجنس البشري ، انا اقر بذلك · ولكن أي خير ملموس قدموه الى الانسانية ؟ لقد تفلسفوا ـ اذا غفرت لي سوء استعمالي هذه الكلمة ـ في الكلام على القلب بوصفه مثوى للعواطف في حين كان العلماء يصوغون دورة الدم في الجسد · لقد خطبوا في الناس بلهجة مؤثرة قائلين ان المجاعة والطاعون قصاصان من عند الله ، بينما كان العلماء يبنون الاهراء ويمدون البواليع في أجواف المدن · لقد خلقوا الالهة على صورتهم ووفقا لرغباتهم ، فيما كان العلماء يشقون الطرق وينشئون الجسور · كانوا يزعمون ان الارض مركز الكون ، بينما كان العلماء يكتشفون أميركة ويسبرون الفضاء بحثا عن النجوم والتماسا لقوانين النجوم · وبكلمة ، ان الميتافيزيقيين لم يفعلوا شيئا على الاطلاق ، لخدمة الجنس البشري · لقد ردوا الى الوراء ، خطوة اثر خطوة ، في وجه تقدم العلم · وما ان استيقنوا ان حقائق العلم قد قوضت تفسيراتهم الذاتية للاشياء حتى اطلقوا تفسيرات ذاتية جديدة للاشياء ، وفي جملتها تفسيرات لآخر

الحقائق المثبتة · وهذا ما سوف يواصلون القيام به ، من غير ريب ، الى اخر الدهر · أيها السادة ، ان الميتافيزيقي هو ساحر دجال · والفرق بينك وبين الاسكيمو الذي يصنع الها يرتدي الفراء ويأكل الاسماك الهلامية لا يعدو أن يكون فرق بضعة الاف سنة من الحقائق المثبتة · هذا كل ما هنالك · »

فأعلن الدكتور بالينغفورد في أبهة :

ـ « ومع ذلك فان فكر ارسطو ساد اوروبة طوال اثني عشر قرنا · ولقد كان ارسطو ميتافيزيقيا · »

واجال الدكتور بالينغفورد طرفه حول المائدة ، فكوفىء على ملاحظته بابتسامات وهزات رؤوس ترشح بالاعجاب ·

فأجابه ارنست :

ـ « ان المثل الذي أوردته هو من أتعس الامثال وأنكدها · أنت تشير الى حقبة مظلمة جدا في تاريخ الانسانية · والواقع اننا ندعو تلك الحقبة العصور المظلمة · فترة اغتصب فيها الميتافيزيقيون العلم كما يغتصب رجل امرأة ، وتحولت الفيزياء الى بحث عن حجر الفلاسفة ، فترة أصبحت فيها الكيمياء Chemistry سيمياء Alchemy وأمسى علم الفلك Astronomy علم نجوم Astrology · مؤسفة هذه السيادة التي كانت لفكر ارسطو ! »

فبدت امارات التوجع على الدكتور بالينغفورد ، ولكن وجهه ما لبث ان استعاد اشراقه وقال :

ـ « وحتى لو سلمنا جدلا بصحة هذه الصورة التي رسمتها فيجب أن تعترف بأن الميتافيزيقيا كانت قوية ، فطريا ، الى حد مكنها من أن تنقذ الانسانية من تلك الفترة المظلمة وتخرجها الى نور القرون التي تلت · »

فقال ارنست :

ـ « لا علاقة للميتافيزيقا بذلك · »

فصاح الدكتور هامرفيلد :

ـ « ماذا ؟ هل تستطيع ان تنكر ان التفكير والتأمل هما اللذان قادا الى رحلات الاستكشاف ؟ »

وهنا ابتسم ارنست ، وقال :

ـ « آه ، يا سيدي العزيز ، لقد حسبت انك فقدت حقك في المناقشة ، فأنت لما تكتشف بعد الصدع في تعريفي للفلسفة · أنت الان تقف على اساس غير مكين ، هي طريقة الميتافيزيقيين ، وأنا أغفر لك ذلك · لا ، اني اكرر : الميتافيزيقا لا علاقة لها البتة بهذا · فالخبز والزبدة ، والحرير والجواهر ،

والدولارات والسنتات ، وعلى نحو عرضي ، اغلاق الطرق التجارية البرية الى الهند ... تلك هي الاشياء التي سببت رحلات الاستكشاف . فما ان سقطت القسطنطينية عام ١٤٥٣ حتى أوصد الاتراك الطريق في وجه القوافل القاصدة الى الهند ، وتعين على التجار الاوروبيين أن يكتشفوا طريقا اخرى. ذلك هو السبب الاصلي لرحلات الاستكشاف . لقد أبحر كولومبس ليكتشف طريقا جديدة الى جزائر الهند الشرقية . هذا ما تنص عليه كتب التاريخ كلها . ومن طريق المصادفة تعلم القوم حقائق جديدة عن طبيعة الارض وحجمها وشكلها ، ولفظ النظام البطليموسي أنفاسه مرسلا ضوءا باهتا مترجرجا . »

ونخر الدكتور هامرفيلد .

فسأله ارنست :

ـ « الا تقرني على ذلك ؟ اذن ، فأين موطن الخطأ في كلامي ؟ » فأجابه الدكتور هامرفيلد في نبرة حريفة :

ـ « لا أستطيع الا أن أؤكد موقفي . وعلى أية حال ، فهذه قصة أطول من أن نخوض فيها الان . »

فقال ارنست في عذوبة :

ـ « ليس ثمة في نظر العالم قصة هي أطول من ان يخاض فيها . وهذا هو السبب الذي من أجله يصل العالم الى مواطن نائية . ذلك هو السبب الذي من اجله وصل الى اميركة . »

انا لن أصف تلك السهرة كلها ، على الرغم من ان مما يمتع فؤادي ان استحضر في ذاكرتي كل لحظة من لحظات تلك الساعات الاولى التي عرفت فيها ارنست ايفرهارد وكل شاردة وواردة من أحداثها .

لقد نشبت معركة ضخمة ، واهتاج القسس وشاع الدم في وجوههم ، وبخاصة في تلك اللحظات التي دعاهم فيها ارنست فلاسفة رومانتيقيين ، ومسلطي ظلال وما الى ذلك . وفي كل مرة كان يردهم الى الحقائق : « الحقيقة Fact ، الانسان ، الحقيقة التي لا تدحض ! » هكذا كان يعلن في انتصار كلما جندل واحدا منهم . كان مفعما بالحقائق . لقد اعثرهم * بالحقائق ، وكمن لهم بالحقائق ، وأمطرهم بوابل من قنابل الحقائق .

وسخر الدكتور هامرفيلد منه ، قائلا :

ـ « يبدو انها تصلي في هيكل الحقيقة . »

---

* جعلهم يعثرون ويسقطون على الارض .

فشرح الدكتور باليغنفورد :
ـ « ليس ثمة اله غير الحقيقة ، ومستر ايفرهارد هو نبيها ٠ »
فأذعن ارنست مبتسما ، وقال :
ـ « انا مثل الرجل التكساسي ٠٠٠ »
وحين سألوه ايضاحا ، أضاف :
ـ « ان ابن ولاية ميزوري يقول دائما : « يتعين عليك ان تريني ٠ ولكن ابن ولاية تكساس يقول : « يتعين عليك ان تدخل هذه المسألة الــى عقلــي » ٠ ومن هنا يتضح لكم انه ليس ميتافيزيقيا ٠ »
وكرة اخرى ، عندما قال ارنست ان الفلاسفة الميتافيزيقيين لا يستطيعون ان يثبتوا لمحك الحقيقة سأله الدكتور هامرفيلد فجأة :
ـ « وما هو محك الحقيقة ، أيها الفتى ؟ هل تتلطف وتفسر لي مـــا حير ، منذ عهد طويل ، رؤوساء أحفل بالحكمة من رأسك ؟ »
فأجابه ارنست :
ـ « من غير ريب ٠ » لقد تحيرت الرؤوس الحكيمة كل ذلـــك التحير الموجع في أمر الحقيقة لانهم راحوا يبحثون عنها في السماء ٠ ولو بقوا على الارض الصلبة اذن لكان خليقا بهم ان يعثروا عليها في سهولة ويسر ـ اجل ، ولكان خليقا بهم ان يجدوا أنهم هم أنفسهم كانوا فيالواقع يختبرون الحقيقة بكل عمل من أعمالهم وبكل فكر يخطر لهم في حياتهم ٠ »
فكرر الدكتور هامرفيلد في فروغ صبر :
ـ « المحك ، المحك ٠ دعنا من المقدمات ٠ أعطنا ما طالما التمسنـــاه وبحثنا عنه : محك الحقيقة ٠ أعطنا اياه وعندئذ نصبح كالالهة ٠ »
كان في كلماته وفي مسلكه كله ريبة ساخرة فظة أدخلت الحبور ، علــى نحو سري ، الى قلوب معظم الجالسين الى المائدة ، وان بدت وكأنها ضايقت الاسقف مورهاوس ٠
فقال ارنست :
ـ « لقد عبر الدكتور جوردان ٩ عنه في وضوح كثير ٠ لقد كان محك الحقيقة عنده هو هذا : « هل تعمل بنجاح ؟ هل تأتمنها على حياتك ؟ »
فسخر الدكتور هامرفيلد :

---

٩ Jordan مرب بارز من مربي أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القــرن العشرين لميلاد المسيح ٠ كان رئيسا لجامعة ستانفورد ، وهي مؤسسة خاصة مــــن مؤسسات الاحسان والبر في تلك العصور ٠

ـ « بيش ! انت لم تدخل الاسقف بيركلي [١٠] في الحساب · انك لم ترد على تحديه قط · »

فضحك ارنست وقال :

ـ « كان انبل الميتافيزيقيين على الاطلاق · ولكن مثلك هذا مثل بائس · لان ميتافيزيقا بيركلي ، كما قرر هو نفسه ، قد اخفقت · »

واستبد الغضب بالدكتور هامرفيلد ، وكان لغضبه ما يبرره · لقد بدا وكأنه أمسك بأرنست متلبسا بسرقة أو بكذبة · وصاح :

ـ « ايها الفتى ، ان هذا الحكم يعدل كل ما قلته الليلة · انه زعم وضيع لا يستند الى أساس مكين · »

فغمغم ارنست في وداعة :

ـ « لقد سحقت سحقا · بيد أني لا أدري ما الذي صرعني · هل لك ان توضح لي ذلك ؟ »

فجمجم الدكتور هامرفيلد :

ـ « سوف افعل · سوف افعل · كيف عرفت ؟ أنت لا تعرف ان الاسقف بيركلي قرر أن ميتافيزيقاه قد اخفقت · ليس لديك برهان · ايها الفتى ، لقد كانت الميتافيزيقا عملية دائما · »

ـ « ان الذي يثبت لي ان ميتافيزيقا بيركلي قد اخفقت هـــو ··· » وتمهل ارنست لحظة ثم اضاف : « هو أنه جعل من دأبه دائما أن يدخل من الابواب لا من الجدران · ولانه آمن بالخبز والزبدة وبلحم البقر المحمر · ولانه حلق بموسى اثبتت نجاحها عندما نزعت الشعر عن وجهه · »

فصاح الدكتور هامرفيلد :

ـ « ولكن هذه أشياء واقعية ! أما الميتافيزيقا فهي شيء عقلي · »

فسأله ارنست في رفق :

ـ « وهذه الاشياء تعمل ··· في العقل ؟ »

فهز الاخر رأسه بالايجاب ·

فتابع ارنست كلامه في سيما تاملية :

ـ « وحتى الملائكة تستطيع جمهرة منها ان ترقص على رأس ابرة ··· في العقل · والاله المتلفع بالفراء الآكل السمك الهلامي يستطيع ان يوجد وان

---

١٠ احد القائلين المثاليين بوحدانية الكون ، ولقد طالما حير فلاسفة ذلك العصـر بانكاره لوجود المادة ، ولكن حججه البارعة انهارت اخر الامر عندما عممت حقائـق العلم التجريبية الجديدة تعميما فلسفيا ·

يعمل ··· في العقل · وليس ثمة براهين على العكس ·· في العقل · أنـــا أحسب ، ايها الدكتور ، انك تحيا في العقل ؟ »

فكان الجواب :

ـ « ان عقلي هو عندي مملكة · »

ـ « هذه طريقة اخرى للقول انك تحيا في السماء · ولكنك تعود الـى الارض كلما حان وقت الطعام ، أنا واثق من ذلك ، أو حين تزلزل الارض زلزالها · أو قل لي ، أيها الدكتور ، الست تخاف على جسدك الاثيري أن تصيبه ، أثناء الزلزال ، آجرة غير مادية ؟ »

وللتو ، وعلى نحو غير واع تماما ، اندفعت يد الدكتور هامرفيلد الى رأسه ، حيث اختفت ندبة * تحت الشعر · فقد اتفق ان كانت الصورة البيانية التي عثر عليها ارنست صورة محكمة كل الاحكام · ذلك ان الدكتور هامرفيلد كاد يلقى حتفه في الزلزال العظيم [11] حين انهارت عليه احدى المداخن · وضج القوم كلهم بضحك هادر ·

وسأله ارنست عندما همدت فورة الابتهاج :

ـ « حسنا ؟ ألديك أدلة على العكس ؟ »

وفي غمرة من الصمت الذي ساد بعد ذلك كرر السؤال :

ـ « حسنا ؟ ومع ذلك فحجتك جيدة ، ولكنها ليست جيدة كثيرا · »

بيد أن الدكتور هامرفيلد كان قد سحق موقتا ، واتخذت المعركــــة اتجاهات جديدة · وفي نقطة اثر نقطة تحدى ارنست القسيس · فحين أكدوا أنهم يعرفون الطبقة العاملة واجههم بحقائق أساسية عن هذه الطبقة ما كانوا يعرفونها ، وتحداهم أن يقدموا براهين داحضة · لقد أمطرهم بالحقائق ، دائما بالحقائق ، وكبح من رحلاتهم الى السماء ، وأعادهــم الى الارض الصلبة والى حقائقها ·

ما أوضح ما يتراءى المشهد ، الان ، في مخيلتي ! انا أستطيع ان أسمعه اللحظة ، وفي صوته نبرة الحرب تلك ، يسلخهم بحقائقه ، وكل حقيقة منهـا سوط يلسع مرة ومرة · ولقد كان فظا قاسيا الى ابعد الحدود · انه لم يتقبل رحمة ولم يمنح رحمة [12] · ولا أستطيع ان أنسى ما حييت الهجوم الكاسح

* الندبة أثر الجرح الباقي في الجلد ·

[11] زلزال عام ١٩٠٦ العظيم الذي دمر سان فرانسيسكو ·

[12] هذه الصورة مستمدة من تقاليد تلك الايام · ففي المباريات التي تصارع فيهـا الرجال حتى الموت ، على طريقتهم البهيمية الضارية ، كان المصارع المنتصر يختار احدى خطتين : اما ان يذبح منافسه المنهزم الملقي السلاح واما أن يبقي على حياته

الذي شنه عليهم اخر الامر :

ـ « لقد اعترفتم الليلة على نحو متكرر ، ومن طريق الاقرار المباشر أو الاحكام الجاهلة ، بأنكم لا تعرفون الطبقة العاملة ، ولكن ليس من حقنـا ان نلومكم على ذلك · وأنى لكم ان تعرفوا شيئا عن الطبقة العاملة ؟ انتم لا تحيون في حي واحد مع الطبقة العاملة · انكم تقيمون مع الطبقة الرأسمالية في حي اخر · ولم لا ؟ ان الطبقة الرأسمالية هي التي تدفع اليكم اجوركم ، والتي تطعمكم ، والتي تضع على ظهورهم حتى هذه الثياب التي ترتدونها ههنا الليلة · وانتم مقابل ذلك تكرزون * مستخدميكم بأنماط الميتافيزيقا التي ترتاح اليها نفوسهم ارتياحا خاصا ، وهذه الانماط المقبولة لديهم انما حظيت بهذا القبول لانها لا تهدد بالخطر نظام المجتمع القائم · »

وهنا ثارت حول المائدة عاصفة من المعارضة والاحتجاج ·

وتابع ارنست كلامه :

ـ « أوه ، أنا لا أتحدى اخلاصكم · أنتم مخلصون · انكم تبشرون بما تؤمنون به · ههنا تكمن قوتكم وقيمتكم ··· بالنسبـة الى الطبقـة الرأسمالية · أما اذا خطر لكم أن تغيروا ايمانكم في شيء يهدد النظام القائم بالخطر فعندئذ يمسي تبشيركم غير مقبول عند مستخدميكم ، وعندئذ تصرفون من الخدمة · وعلى أية حال فبين الفينة والفينة يصرف واحد منكم على هذا النحو ١٣ · الست على صواب ؟ »

هذه المرة لم يكن ثمة معارضة او احتجاج · لقد جلسوا مذعنين على نحو أبكم ، ما خلا الدكتور هامرفيلد الذي قال :

ـ « انما يسألون ان يستقيلوا حين يكون تفكيرهم مخطئا ليس غير · »

فأجابه ارنست :

ـ « هذه طريقة اخرى لقولنا : حين يكون تفكيرهم غير مقبول · »

ثم تابع قائلا :

ـ « وهكذا أقول لكم امضوا في سبيلكم وبشروا واقبضوا جعالاتكـم ، ولكني أتوسل اليكم بحق الاله دعوا الطبقة العاملة وشأنها · انتم تنتسبون الى معسكر العدو · وليس ثمة ايما قاسم مشترك بينكم وبين الطبقة العاملة · ان ايديكم رخصة بالعمل الذي أداه غيركم بالنيابة عنكم · ومعدكم متخمـة

كرز : وعظ وبشر ·

١٣ في خلال تلك الفترة طرد كثير من القسس من الكنيسة لتبشيرهم بعقائد غير مقبولة· وانما كانوا يطردون ، بخاصة ، كلما أمسى تبشيرهم مصطبغا بالاشتراكية ·

بالاسراف بالطعام · » (وهنا انتفض الدكتور بالينغفورد ، واتجهت العيون كلها الى بطنه الضخم · لقد قيل انه لم ير قدميه نفسيهما منذ سنوات ·) « وعقولكم محشوة بتعاليم لا تعدو ان تكون دعائم للنظام القائم · انتــم جنود مستأجرون (جنود مستأجرون مخلصون ، أنا اعترف بذلك) بقدر ما كان افراد الحرس السويسري [١٤] جنودا مستأجرين · أخلصوا لارباب نعمتكم ولرواتبكم · احرسوا ، بمواعظكم ، مصالح مستخدميكم ، ولكن لا تهبطوا الى الطبقة العاملة وتخدموا بوصفكم قادة زائفين · انكم لا تستطيعون · مخلصين، ان تكونوا في كلا المعسكرين في آن معا · لقد كانت الطبقة العاملة وما تــزال مستغنية عنكم وصدقوني ، ان الطبقة العاملة ستظل في غنى عنكم الى الابد وفوق هذا ، فأن في استطاعة الطبقة العاملة أن تنعم بالسعادة ، بدونكم ، اكثر مما تنعم بها معكم · »

---

١٤ الحرس الاجنبي المستأجر الذي كان يحرس قصور لويس السادس عشر ، وهو ملك فرنسي ضرب الشعب عنقه ·

الفصل الثاني

تحديـــات

وبعد انصراف الضيوف ارتمى ابي في أحد الكراسي ، وأطلق العنان لرعود من الضحك المارد الجبار · أنا لم أشهده منذ وفاة أمي ، يضحك من كل قلبه على هذا النحو قط ·

وقال ضاحكا :

ــ « أراهن أن الدكتور هامرفيلد لم يواجه في حياته كلها مثل هـــذا الموقف · « آداب الجدل الاكليركي ! » هل لاحظت كيف استهل كلامه مثـل حمل من الحملان ــ ايفرهارد أعني ، وكيف انقلب فجأة الى أسد مزمجر ؟ ان له لعقلا منظما الى حد رائع · ولقد كان خليقا به ان يصبح عالما ناجحا لو وجهت طاقاته في هذه السبيل · »

ولست أحسبني في حاجة الى القول ان ارنست ايفرهارد وقع في نفسي موقعا حسنا · ولم يكن مرد ذلك الى ما قاله فحسب أو الى الطريقة التـي قاله بها فحسب ، ولكن الى الرجل نفسه أيضا · أنا لم ألق من قبل رجـــلا مثله قط · ويخيل الي أن هذا هو السبب الذي من أجله لم أتزوج على الرغم من اني كنت قد بلغت الخامسة والعشرين · لقد أحببته · ولقد تعين علي أن أعترف بذلك لنفسي · وكان حبي اياه مبنيا على أشياء وراء العقل والمناقشة · فبصرف النظر عن عضلاته المنتفخة وحنجرته الشبيهة بخناجر المصارعيـــن المحترفين أعجبت به بوصفه فتى صادقا صريحا · لقد استشعرت أن فـــي بردي الصلف العقلي روحا رقيقة حساسة · احسست بذلـــك ، بطرائق لا أدريها ، طرائق لا تعدو ان تكون أحداسي * كامرأة ·

---

* جمع حدس ·

لقد كان في نفخة الصور تلك التي أطلقها شيء نفذ الى فؤادي · وظلت تتردد في مسمعي ، وشعرت بأني راغبة في أن أسمعها من جديد ، وفي أن أرى ومضة الضحك في عينيه ، تلك الومضة التي ناقضت جدية وجهه المهتاج · وكانت ثمة أمداء اخرى من المشاعر الغامضة غير المعينة اعتملت في ذات نفسي · لقد كدت أهيم به ، آنذاك ، حبا ، برغم وثوقي من هذه الحقيقة وهي اني لو لم أره كرة اخرى بعد ذلك اذن لتلاشت تلك المشاعر الغامضة واذن لنسيته في سهولة ويسر ·

ولكن الاقدار لم تشأ لي أن لا أراه كرة أخرى · ان عناية والدي المستحدثة بعلم الاجتماع والمآدب التي راح يقيمها ما كانت لتجيز ذلك · والواقع ان والدي لم يكن عالما من علماء الاجتماع · لقد كان زواجه من امي سعيدا جدا ، ولقد كان سعيدا جدا أيضا بالابحاث التي أجراها في الفيزياء ، حقل اختصاصه · ولكن ما ان توفيت أمي حتى عجز عن سد الفراغ الذي خلفته · وفي بادىء الامر عني في غير ما حماسة ، بالدراسات الفلسفية ، ثم انساق ــ بعد أن استثير شوقه ــ الى علمي الاقتصاد والاجتماع · كان لديه حس بالعدالة مرهف ، وسرعان ما استبدت به نزعة متقدة الى رفع المظالم وازالة ضروب الاجحاف · وفي كثير من الحمد والعرفان رحبت بهذه الامارات الدالة على استمتاع بالحياة جديد ، برغم اني لم أحلم الا قليلا بالحصيلة التي كان خليقا بذلك الاستمتاع أن يثمرها · وبمثل حماسة غلام صغير انغمس انغماسا مهتاجا في هذه الهوايات الجديدة ، بصرف النظر على المطارح التي تقوده اليها ·

كان يألف العمل في المختبر ، ومن أجل ذلك حول حجرة الطعام الى مختبر خاص بعلم الاجتماع · الى هناك كان يفد الرجال على اختلاف صنوفهم وأحوالهم : ــ علماء ، وسياسيين ، واصحاب مصارف ، وتجار ، واساتذة ، وزعماء عمال ، واشتراكيين ، وفوضويين · كان يثيرهم الى النقاش ويحلل آراءهم في الحياة والمجتمع ·

كان قد التقى بأرنست قبل « ليلة المبشرين » بأيام قليلة · وبعد انصراف الضيوف عرفت كيف التقاه : كان يهبط أحد الشوارع ذات ليلة ، واذا به يقف ليصغي الى رجل واقف فوق صندوق صابون يخطب في حشد من العمال · وكان الرجل الواقف على صندوق الصابون هو ارنست · وليس معنى هذا انه كان مجرد خطيب من خطباء صناديق الصابون · لا ، لقد كان يحتل مكانة مرموقة في مؤتمرات الحزب الاشتراكي ، كان احد الزعماء ،

وكان الزعيم المعترف له بالسبق في فلسفة الاشتراكية · ولكن كانت له طريقة واضحة في النص على العويص المغلق بلغة بسيطة ، وكان شارحا ومعلما بالفطرة ، ولم يكن ليجد غضاضة في الوقوف على صندوق الصابون بوصفه وسيلة لشرح علم الاقتصاد لابناء الطبقة العاملة ·

لقد وقف أبي ليصغي ، فاستثير شوقه ، وسعى الى الاجتماع به · وبعد أن تمت له معرفة به حسنة دعاه الى عشاء القسس · ولم يخبرني أبي بالقليل الذي عرفه عنه الا بعد أن انفض السامر ، لقد ولد في دنيا الطبقة العاملة ، برغم تحدره من سلالة ايفرهارد العريقة التي عاشت في اميركة طوال مئتي سنة ونيف · [15] وكان لا يزال في العاشرة من العمر عندما مضى ليعمل في المصانع ، وفي ما بعد أنهى فترة التدريب الالزامية فأصبح نعال خيل · كان ذا ثقافة ذاتية ، ولقد تعلم الالمانية والفرنسية على نفسه ، وكان يكسب في ذلك العهد رزقا هزيلا من طريق ترجمة المؤلفات العلمية والفلسفية لدار اشتراكية مناضلة من دور النشر في تشيكاغو · والى جانب دخله هذا كان يتلقى بعض العائدات التي نعم بها لقاء النسخ المحدودة المبيعة من مصنفاته الاقتصادية والفلسفية ·

ذلك كل ما عرفته عنه قبل ان آوي الى فراشي ، وهناك بقيت يقظى فترة طويلة ، أصغي في الذاكرة الى جرس صوته · وروعت لافكاري تلك · فقد كان مختلفا عن سائر الرجال من أبناء طبقتي الاجتماعية الى أبعد الحدود ، غريبا الى ابعد الحدود ، قويا الى أبعد الحدود · وأبهجتني براعته وأفزعتني في وقت معا ، ذلك بأن تصوراتي طوفت على نحو طائش حتى لقد وجدت نفسي أعتبره عشيقا ، وزوجا · لقد طالما سمعت ان قوة الرجال تفتن النساء الى حد لا يقاوم ، ولكنه كان قويا أكثر مما ينبغي ، وصحت : « لا ! لا ! هذا مستحيل ، هراء ! » وفي صباح اليوم التالي افقت لاجد في ذات نفسي توقا الى رؤيته كرة اخرى · لقد وددت ان أراه يفحم الرجال في النقاش ، ونبرة الحرب في صوته ، ان أراه بكامل ثقته وقوته مقوضا رضاهم عن أنفسهم ، مزعجا اياهم عن أخاديد تفكيرهم التقليدي · وأي بأس اذا تكشف عن صلف متفاخر ؟ ان ذلك الصلف ، اذا اصطنعنا تعبيره هو ، « كان يعمل بنجاح » ، كان يحدث آثارا : والى هذا ، فقد كان صلفه شيئا رائعا خليقا بأن يرى · كان يثير المرء كما يثيره استهلال المعركة ·

---

[15] كان التمييز بين من ولد على أرض الوطن ومن ولد خارجها صارما مثيرا للبغضاء في تلك الايام ·

وانقضت ايام عديدة ، طالعت فيها مؤلفات ارنست التي استعرتها من أبي • كانت كلمته المكتوبة مثل كلمته الملفوظة : واضحة مقنعة • وكانت بساطتها المطلقة هي التي تقنع حتى عندما يسترسل المرء في الشك • لقد تمتع بموهبة الوضوح • وكان هو الشارح الكامل • ومع ذلك ، وبرغم أسلوبه ، كان ثمة اشياء كثيرة لم أحبها منه • لقد وضع التوكيد اكثر مما ينبغي على ما دعاه الصراع الطبقي ، والعداء بين العمل ورأس المال وتضارب المصالح•

وفي حبور نقل الي أبي رأي الدكتور هامرفيلد في ارنست ، وكان يتلخص في انه « فتى مغرور ، جعلته الثقافة الهزيلة البالغة الرداءة مخلوقا معجبا بنفسه • » والى هذا فقد أبى الدكتور هامرفيلد ان يجتمع الى ارنست كرة اخرى •

أما الاسقف مورهاوس فتكشف عن اعجاب بأرنست وعن تطلع الى اجتماع اخر • لقد قال : « انه فتى قوي ، مفعم بالحيوية ، مفعم بالحيوية الى حد بعيد • ولكنه واثق من نفسه اكثر مما ينبغي ، واثق من نفسه أكثر مما ينبغي • »

وذات أصيل وفد أرنست علينا مع أبي • كان الاسقف قد وصل قبل ذلك ، وكنا نحتسي الشاي على الشرفة • وبالمناسبة ، فقد كان وجود أرنست في بيركلي على نحو مستمر يعلل بهذه الحقيقة ، وهي انه كان يتلقى دروسا خاصة في علم الاحياء (البيولوجيا) في الجامعة ، وكان منكبا على العمل في وضع كتاب جديد موسوم بـ « الفلسفة والثورة • » ١٦

ـ « الصفحة الثانية والثلاثون بعد المئة • وهكذا يبرز الصراع الطبقي، في المرحلة الحالية من التطور الاجتماعي ، بين الطبقة الدافعة للاجور والطبقة المتلقية للاجور • »

ونظرت اليه في سيما مظفرة • فابتسم لي كرة اخرى •

وأجبت :

ـ « ولكنك تقول : « الصراع الطبقي » •

فقال :

ـ « ذلك شيء مختلف عن البغضاء الطبقية • وصدقيني اننا لا نثير أية بغضاء • نحن نقول ان النضال الطبقي هو قانون من قوانين التطور

---

١٦ ظل هذا الكتاب يطبع ، سرا ، طوال القرون الثلاثة التي سادت فيها « العقب الحديدية » • ان ثمة نسخا عديدة من طبعات مختلفة منه في المكتبة الوطنية في آرديس •

الاجتماعي · ولسنا نحن مسؤولين عن ذلك · اننا لا نصنع الصراع الطبقي · نحن نفسره ليس غيـر ، كما فسـر نيوتن الجاذبيـة · نحن نفسـر طبيعـة تضارب المصالح الذي يحدث الصراع الطبقي · »

فصحـت :

ـ « ولكن يجب ان لا يكون ثمة تضارب مصالح البتة ! »

فأجاب :

ـ « انااقرك علـى ذلـك مـن كـل قلبي · وذلـك مـا نحـاول نحن الاشتراكيين ان نحققـه : الغاء تضارب المصالـح · ألتمس عفوك · دعينـي أقرأ فقرة · »

وأخذ كتابه وقلب عدة صفحات ، ثم قال :

ـ « الصفحة السادسة والعشرون بعد المئة : ان دورة الصراعـات الطبقية التي بدأت بانحلال الشيوعية القبلية الجافية ونشوء الملكيـة الخاصة سوف تنتهي بموت الملكية الخاصة في وسائل الوجود الاجتماعي · »

فاعترض الاسقف ، وقد نم وجهه الشاحب الصارم ، بتوهج ضئيـل ، عن شـدة انفعالـه :

ـ « ولكني اخالفـك في هـذا · ان مقدمتـك المنطقيـة خاطئـة · فليس ثمة شيء اسمه تضارب المصالح بين العمل ورأس المـال ـ أو علـى الاصح يجب أن لا يكون ثمة شيء مثل ذلك · »

فقال ارنست في و قار :

ـ « شكرا · انك بتلك العبارة الاخيرة رددت الي مقدمتي المنطقية · »

فتساءل الاسقف في حرارة :

ـ « ولكن ما الذي يوجب قيام هذا التضارب ؟ »

فهز ارنست كتفيه قائلا :

ـ « لاننا هكذا خلقنا ، في ما أحسب · »

فصاح الاخـر :

لقد بدت الشرفـة ، فجـأة ، وكأنها اصبحت صغيرة عندمـا اقبـل أرنست · لا لانه كان ضخما جدا ـ فقـد كان طوله لا يزيـد علـى خمسـة اقدام وتسع بوصات ـ بل لانه اشع في ما بدا لي جـوا مـن الضخامـة · فحين وقف ليلقاني تكشف عن ارتباك ضئيل كان مغايـرا الى حـد غريـب لعينيه الجسورين ويده الواثقـة الثابتـة التي امسكت بيدي لحظة تحيينـي · وفي تلك اللحظة كانت عيناه على مثل ذينك الوثوق والثبات · لقد بدا هذه المرة

وكأن فيهما سؤالا ، وكفعله في المرة السابقة راح يطيل النظـر الي ٠

وقلـت :

ـ « كنت أطالع كتابك : « فلسفة الطبقة العاملـة » ٠

فأجابني وقد اضاءت عيناه على نحو مبتهـج :

ـ « لقد اخذت بعين الاعتبار ، طبعا ، طبقـة القراء التي يخاطبهـا ذلـك الكتـاب ٠ »

فقلت متحديـة :

ـ اجـل لقد فعلت ، وهذا هـو السبب الذي من اجلـه اريد ان اتشاحن معـك ٠ »

فقال الاسقف مورهاوس :

ـ « وانا ايضا اريد ان اتشاحن معـك ٠ »

فهز ارنست كتفيه على نحو غريب وتقبل كوبا من الشاي ٠

وانحنى الاسقف ومنحني حق التقدم عليه ، فقلت :

ـ « انك تثير البغضاء الطبقية ٠ وانا أعتقد ان من الخطـل والاجرام أن تدغـدغ كل ما هو ضيق وبهيمي في الطبقـة العاملـة ٠ البغضاء الطبقيـة شيء مضاد للاجتماع ، بل انها في ما يبدو لي شيء مضاد للاشتـراكيـة ٠ »

فأجابهـا :

ـ « غير مذنب ٠ ان البغضاء الطبقية ليس لهـا وجود لا في نص ولا في روح أي شيء مما قدر لي ان اكتبه ٠ »

فصحت بنيـرة تأنيبيه :

ـ « أوه ! »

وبسطت ذراعي فتناولت كتابه وفتحتـه ٠

وارتشف شايه وابتسم لي فيما كنت أقلب الصفحات ٠

وقرأت في صوت مرتفع :

ـ « ولكننا لم نخلق هكذا ! »

فسأله أرنست :

ـ « هـل تتحدث عـن الانسان المثالـي ؟ الانسان الغيـري ، الشبيـه بالالـه ، النادر الى حد يجعله في حكم اللاموجود عمليـا ، أم عـن الانسـان المعهـود العادي ؟ »

فكـان الجـواب :

ـ « عن الانسان المعهود العادي ٠ »

ـ « الذي هو ضعيف ، غير معصوم ، ميــال الى الخطــأ ؟ »
فهز الاسقف مورهاوس رأسه بالايجاب ٠
ـ « والذي هو وضيع وانانــي ؟ »
وكرة اخرى هز الاسقف رأسه ٠
فحذره ارنست :
ـ « انتبه جيدا ! لقد قلت : « أناني » ؟ »
فأكد الاسقف رابط الجأش :
ـ « الانسان العادي هو أناني ٠ »
ـ « ويريد كل ما يستطيع الحصول عليه ؟ »
ـ « نعم ، ويريد كل ما يستطيــع الحصول عليــه ٠٠٠ هذا صحيــح ، ولكنـــه مؤسف ٠ »
فأطبق فــك ارنست العلوي على فكــه السفلــي اطباق الشرك وقــال :
ـ « اذن ، لقد أوقعتــك ٠ دعني أريــك ٠ هو ذا رجــل يعمـــل في خــط من خطوط السيارات العامة ٠ »
فاعترضه الاسقف :
ـ « لم يكن في امكانه ان يعمل لولا رأس المال ٠ »
ـ « صحيــح ، ولسوف تسلم معــي بأن رأس المال كان خليقـــا به ان يهلك لو لم يكن ثمة عمال لكسب ارباح الاسهم ٠ »
واعتصم الاسقف بالصمت :
فأصر ارنست :
ـ « ستسلم معي بهذا ، أليس كذلك ؟ »
فهز الاسقف رأسه ٠
فقال ارنست في مثل نبرة الامر الواقع :
ـ « وهكذا فأن كلا من حكمينــا قد نسخ الاخــر ، ورجعنــا الى حيث كنا من قبل ٠ والان فلنبدأ من جديــد ٠ ان العمال في خــط السيارات العامــة يقدمون العمل ٠ وحملة الاسهم يقدمون رأس المال ٠ ومن طريق الجهد المشترك من جانب العمال وجانب رأس المال يكسب المال ٠ ١٧ والفريقان يتقاسمان هذا المال المكتسب ٠ فأما حصة رأس المال فتدعى « ارباح الاسهم » ، واما حصــة

---

١٧ في تلك الايام كانت جماعات من الافراد النهابين تسيطر على جميع وسائل النقل ، ولتخويل الجمهور حق اصطناع تلك الوسائل كانوا يفرضون عليه ضروبا مــن المكوس والاتاوات ٠

العمل فتدعى « الاجور »٠
فاعترض الاسقف قائـلا :
ـ « حسن جدا ، وليس ثمة ايما داع لان تكون القسمة غير وديـة » ٠
وهنـاك أجابـه ارنست :
ـ « يبدو انـك نسيت ما اتفقنا عليـه ٠ لقـد اتفقنا علـى ان الانسان العادي أناني ، انه الانسان الموجود في الواقع ٠ ولكنك ارتقيت الى السمـاء لتحاول اجراء قسمة بيـن نـوع مـن الناس يجب ان يكون ولكنه غير كائـن فعلا ٠ والان ، فلنعد الى الارض ٠ لما كان العامل أنانيا فأنه يطمع في الفـوز بكل ما يستطيع الحصول عليه في القسمة ٠ ولما كان الرأسمالي انانيـا فأنـه يطمع ايضا في الفوز بكل ما يستطيـع الحصول عليـه في القسمـة ٠ وحين لا يكون ثمة غير قدر بعينه من شيء ما ، وحين يطمع الفريقان في انتزاع كل مـا يستطيعان انتزاعه من هذا الشيء نفسه فعندئذ ينشأ تضارب في المصلحـة ٠ ذلك هو تضارب المصالـح بين العمل ورأس المـال ٠ وانه لتضارب يستعصي على التوفيق ٠ فما دام ثمة عمال ورأسماليون فلا بد للنزاع على القسمـة من ان يستمر ٠ ولو كنت في سان فرانسيسكو ، هذا الاصيل ، اذن لتعين عليـك ان تسير على قدميك ٠ فليس ثمة اية سيارة عامة مستعدة لنقل الركاب » ٠
فتساءل الاسقف في جزع :
ـ « اضراب جديد ؟ » ١٨
ـ « اجل ، انهم يتنازعون على قسمة الاموال التي كسبت من طريـق النقل بالسيارات العامة في خطوط المواصلات بالمدينة ٠ »
فاهتاج الاسقف مورهاوس وصاح :
ـ « ولكن هذا خطل ! انه قصر نظر من جانب العمال ٠ كيف يستطيعون ان يرجوا الاحتفاظ بعطفنا ومشاركتنا الوجدانية ٠٠٠ »
فقال ارنست في مكر :

١٨ هذه المنازعات كانت مألوفة جدا في تلك العصور الفوضوية اللاعقلانية ٠ ففي بعض الاحيان كان العمال يرفضون ان يعملوا ، وفي بعض الاحيان كان الرأسماليون يرفضون ان يسمحوا للعمال بأن يعملوا ٠ وبسبب من العنف والهياج الناشئين عن هذه النزاعات كانت ممتلكات كثيرة تتلف ، وأرواح عديدة تزهق ٠ وهذا كله مما يتعذر علينا نحن اليوم ان نتصوره ، كما يتعذر علينا ان نتصور عادة أخرى من عادات تلك العصور ، أعني العادة التي كانت تقضي على الرجال بتحطيـم الاثاث كلما تنازعوا مع زوجاتهم ٠

ـ « حين نضطر الى ان نمشي · »
ولكن الاسقف مورهاوس تجاهله وتابع كلامه :

ـ « ان نظرتهم الى الاشياء ضيقة اكثر مما ينبغي · الناس يجب ان يكونوا ناسا ، لا بهائم · ولسوف يحدث الان عنف وسفك دماء ، ولسوف ترمل نساء وييتم أطفال · ان على العمل ورأس المال ان يكونا صديقين · عليهما ان يعملا يدا بيد ، ومن أجل مصلحتهما المتبادلة » ·

فلاحظ ارنست في جفاف :

ـ « اه ، ها قد عدت الى السماء من جديد · ارجع الى الارض · تذكر لقد اتفقنا على ان الانسان العادي أناني · »

فصاح الاسقف :

ـ « ولكن ثمة ما يحتم عليه ذلك ! »

فكان جواب ارنست :

ـ « وهنا اتفق معك · ليس ثمة ما يحتم عليه ذلك · ولكنه سوف يظل انانيا ما عاش في ظل نظام اجتماعي قائم على اخلاقية الجشع الخنزيري · »

وشده الاسقف ، وارسل والدي ضحكة واهنة ·

ولكن ارنست تابع كلامه في غير رحمة :

ـ « اجل ، اخلاقية الجشع الخنزيري · ذلك هو معنى النظام الرأسمالي · وذلك ما تدافع كنيستكم عنه ، ما تبشرون به كلما ارتقيتم منبر الوعظ · اخلاقية الجشع الخنزيري · ليس هناك اي اسم اخر له » ·

والتفت الاسقف مورهاوس الى والدي مستنجدا ، ولكن والدي ضحك وهز برأسه · ثم قال :

ـ « اخشى ان يكون مستر ايفرهارد على صواب · سياسة « دعه يعمل » Laissez-faire ، سياسة دع كل امرىء وشأنه وليأخذ المتخلف الشيطان · وكما قال مستر ايفرهارد الليلة الماضية فان المهمة التي تؤدونها أنتم ، رجال الكنيسة ، هي الحفاظ على النظام الاجتماعي القائم ، ومجتمعنا اليوم قائم على تلك القاعدة · »

فصاح الاسقف :

ـ « ولكن هذه ليست تعاليم المسيح ! »

فسارع ارنست الى الاعتراض قائلا :

ـ« الكنيسة لا تعلم اليوم مبادىء المسيح · وهذا هو السبب الذي

من اجله لن يكون للعمال اي شأن بالكنيسة · الكنيسة تغض الطرف عن الوحشية الرهيبة التي تصطنعها الطبقة الرأسمالية في معاملة الطبقة العاملة ·»

فاعترض الاسقف :

ـ « الكنيسة لا تغض الطرف عنها » ·

عندئذ اجابه ارنست بقوله :

ـ « ولكن الكنيسة لا تحتج عليها · وما دامت الكنيسة لا تحتج فانها تغض الطرف · اذ يجب ان لا تنسى أن الكنيسة مؤيدة من جانب الطبقة الرأسمالية · »

فقال الاسقف في سذاجة :

ـ « انا لم انظر الى المسألة على ذلك الضوء · ولا بد أنك مخطىء · أنا أدري أن ثمة كثيرا من الاشياء المحزنة والشريرة في هذا العالم · انا ادري ان الكنيسة قد خسرت ·· ما تدعوه البروليتاريا · » ١٩

فصاح ارنست :

ـ « انكم لم تملكوا البروليتاريا في يوم من الايام حتى تخسروها · لقد نشأت البروليتاريا ونمت خارج الكنيسة وبدون الكنيسة · »

فقال الاسقف في صوت خافت :

ـ « لست أفهمك · »

ـ « اذن دعني أشرح · عندما ظهرت الآلات وظهر نظام المصانع في الجزء الاخير من القرن الثامن عشر فصلت الكثرة العظمى من الطبقة العاملة عن الارض ، وهدم نظام العمل القديم ، واخرج ابناء الطبقة العاملة من قراهم وسيقوا كالقطعان الى المصانع المدينية · وعهد الى الامهات والاطفال في العمل وراء الآلات الجديدة · وانتهت الحياة العائلية · كانت الاحوال رهيبة · وانها لقصة من قصص الدماء · »

فقاطعه الاسقف مورهاوس وعلى وجهه سيما معذبة :

ـ « أدري · لقد كان ذلك فظيعا · ولكنه حدث منذ قرن ونصف قرن · »

١٩ Proletariat ، وهي مشتقة في الاصل من Proletarii اللاتينية ، الاسم الذي أعطي في احصاء سيرفيوس توليوس Servius Tullius لاولئك الذين كانت قيمتهم في نظر الدولة منحصرة في كونهم يحتضنون النسل والذرية Proles وبكلمة ثانية ، انهم لم يكونوا ذوي قيمة سواء من حيث الثروة ، أو من حيث المكانة ، اومن حيث المقدرة الاستثنائية ·

فتابع ارنست قائـلا :

ـ « وفي تلـك الفترة ، قبـل قـرن ونصف قـرن ، نشـأت البروليتاريـا الحديثة • وتجاهلتها الكنيسة • وعندما حول الرأسماليون البلاد الى مسلخ كبيرا اعتصمت الكنيسة بالبكم • انها لم تحتج ، كمـا أنها اليوم لا تحتـج • وعلى حد قول اوستن ليويس [٢٠] ، متحدثا عن تلك الايام ، فـأن اولئـــك الذين وجهت اليهـم الوصيـة القائلة « أطعموا حملاني » رأوا الـى تلـك الحملان تبـاع في سـوق النخاسة وتكـره على العمل حتى المـوت مـن غير ان يرفعوا صوتهم باحتجاج [٢١] • كانت الكنيسة خرساء عندئذ ، وقبـل أن امضي في الشرح أطلب اليك اما ان تقرني من غير مواربة واما ان تخالفني من غير مواربة •هل كانت الكنيسة خرساء آنئذ ؟ »

فتردد الاسقف مورهاوس • لقد كان ، كالدكتور هامرفيلد ، غير متعود هذه « المصارعة » الضارية ، كما كان ارنست يدعوها •

وذكره ارنست قائلا :

ـ « ان تاريخ القرن الثامن عشر قد كتب • فلو قد كانت الكنيسـة غير خرساء اذن لوجدناها غير خرساء في كتب التاريخ • »

فاعترف الاسقف :

ـ « أكاد أميل الى الاعتقاد بأن الكنيسة كانت خرساء فعلا • »

ـ « والكنيسة اليوم خرساء أيضا • »

فقال الاسقف :

ـ « ههنا أختلف معـك » •

فتمهل ارنست ، ونظر اليه متفحصا ، وقبل التحدي ، قال :

ـ « حسن • دعنـا نـرى • ان في تشيكاغـو نسوة يكدحـن طوال أيام الاسبوع من اجل تسعين سنتا • هل احتجت الكنيسة ؟ »

---

٢٠ كان مرشحا ، على اللائحة الاشتراكية ، لمنصب حاكم ولاية كاليفورنيا في انتخابات خريف عام ١٩٠٦ عام لميلاد المسيح • كان انكليزيا بالولادة ، وكاتبا الف عددا كبيرا من الاثار في الاقتصاد السياسي والفلسفة ، وواحدا من زعماء ذلك العصر الاشتراكيين •

٢١ ليس ثمة في التاريخ كله صفحة اشد هولا وادعى الى الرعب من معاملة العبيـد الصناعيين ، من اطفال ونسوة ، في معامل انكلترة خلال النصف الاخير من القرن الثامن عشر لميلاد المسيح • وفي امثال هذه الجهنميات الصناعية تكونت بعـض ثروات ذلك العصر الاكثر ضخامة والادعى الى الغرور •

فكان الجواب :

ـ « هذا شيء أسمعه لاول مرة · تسعون سنتا في الاسبوع ؟ انه شيء رهيب ! »

فألح ارنست :

ـ « هل احتجت الكنيسة ؟ »

ـ « الكنيسة لا علم لها بذلك · »

كان الاسقف يناضل في عنف · فسخر ارنست قائلا :

ـ « ومع ذلك فقد كانت الوصية الموجهة الى الكنيسة تقول : « أطعموا حملاني · »

وبعد لحظة اضاف :

ـ « اغفر لي سخريتي ، أيها الاسقف · ولكن هل تستطيع ان تعجب اذا ضقنا بكم ذرعا ؟ متى احتججتم لدى أبناء كنيستكم الرأسماليين على تشغيل الاطفال في مصانع القطن الجنوبية ؟ ٢٢ الاطفال

٢٢ كان في امكان ايفرهارد أن ينتزع مثلا خيرا من هذا من دفاع الكنيسة الجنوبية الصريح عن استرقاق العبيد قبل ما يعرف بـ « حرب التمرد » · وها نحن ننص في هذا الملحق على كثير من تلك الامثلة المنتخبة من وثائق العصر · ففي عام ١٨٣٥ قررت الجمعية العامة للكنيسة المشيخية Presbyterian « أن الاسترقاق معترف به في كل من العهد القديم والعهد الجديد وان الله لا يشجبها » · وأعلنت جمعية تشارلستون المعمدانية ، في خطاب لها القي عام ١٨٣٥ : « ان حق الاسياد في التصرف بوقت عبيدهم الارقاء قد اعترف به اعترافا واضحا من جانب خالق الاشياء كلها الذي يملك من غير ريب كامل الحرية في أن يسبغ حق الملكية على من يشاء · » وكتب المحترم أي· دي· سايمون ، الدكتور في اللاهوت والاستاذ في كلية راندولف مايقون الميثودية في فيرجينيا : « ان شواهد كثيرة من الكتاب المقدس لتؤكد في غير لبس أو ابهام حق امتلاك العبيد ، بالاضافة الى لوازم ذلك الحق المألوفة · وحق بيع العبيد وشرائهم منصوص عليه في وضوح · وعلى الجملة ، فسواء أرجعنا الى السنة اليهودية التي استنها الله نفسه ، أم الى ما ارتأته البشرية ومارسته على نحو اجماعي في العصور كلها ، أم الى وصايا «العهد الجديد » والقانون الاخلاقي ، فلا بد لنا ان ننتهي الى هذا الاستنتاج : وهو أن الرق ليس غير أخلاقي · حتى اذا أثبتنا ان العبيد الافريقيين الاولين قد استرقوا استرقاقا شرعيا فعندئذ نستطيع القول ان حق الاحتفاظ بابنائهم عبيدا أرقاء يلزم عن ذلك لزوم النتيجة المحتومة · وهكذا نرى ان الاسترقاق الموجود في أميركة قد

الذين لا يزيد سن الواحد منهم عن ست سنوات واللذين يعملون كل ليلة في مناوبة مقدارها اثنتا عشرة ساعة ؟ انهم لا يرون الشمس المباركة البتة · وانهم ليموتون كالذباب · ان ارباح الاسهم تدفع من دمائهم · ومن أرباح الاسهم تشيد كنائس فخمة في نيو انجلندا حيث يقدم نوعكم عظمات عذبة مبتذلة الى متسلمي هذه الارباح المترفين المستكرشين · »

فغمغم الاسقف في جرس واهن :

— « لم اكن أدري · »

كان وجهه شاحبا ، ولقد بدا وكأنه يشكو غثيانا ·

— « واذن فأنكم لم تحتجوا ؟ »

فهز الاسقف رأسه ·

— « واذن فالكنيسة خرساء الآن ، كما كانت في القرن الثامن عشر ؟ »

كان الاسقف صامتا ، وللمرة الاولى استنكف ارنست عن الالحاح على النقطة ·

— « ولا تنس ان كل قس يحتج مصيره الطرد · »

فاعترض الاسقف قائلا :

— « يخيل الي انك ظلمت الكنيسة في هذا · »

فسأله أرنست :

— « امستعد انت للاحتجاج ؟ »

— « أرني مساوىء ، من مثل التي تشير اليها ، في بيئتنا هذه ، وعندئذ لا أحجم عن الاحتجاج · »

أقيم على أساس من الحق · »

وليس غريبا البتة ان تكون الكنيسة قد نقرت على هذه النغمة نفسها بعد جيل أو نحو ذلك في ما يتصل بالدفاع عن حق الملكية الراسمالية · ففي متحف أزغارد Asgard الكبير كتاب اسمه « مقالات في التطبيق » من تأليف هنري فاندايك · ولقد نشر ذلك الكتاب في عام ١٩٠٥ لميلاد المسيح · ويبدو لنا من تضاعيف الكتاب ، اذا صح استنتاجنا ، ان فاندايك كان رجلا من رجال الكنيسة · والكتاب مثل صالح على ما كان خليقا بايفرهارد أن يدعوه « التفكير البورجوازي» · لاحظ الشبه بين كلام جمعية تشارلستون المعمدانية المنقول اعلاه وبين قول فاندايك بعد سبعين سنة : « ان الكتاب المقدس يعلمنا ان الرب يملك العالم · انه يعطي كل انسان وفقا لرغبته الالهية الخاصة وتبعا للنواميس العامة · »

فقالت ارنست في هدوء :

ـ « سوف أريك · انا تحت تصرفك · سوف آخذك في سياحة عبر الجحيم » ·

ـ « ولسوف احتج · »

وتصدر الاسقف في كرسيه ، وانتشرت على وجهه الرقيق قسوة المحارب ، واضاف :

ـ « ان الكنيسة لن تكون خرساء ! »

فحذره ارنسئت :

ـ «سوف يطردونك » ·

فجاءه جواب الاسقف :

ـ « سأثبت لك العكس · سأثبت ، اذا كان ما تقول عن تشغيل الاطفال صحيحا ، ان الكنيسة قد تاهت في دياجير الجهل · وفوق هذا ، فأنا اذهب الى ان كل ما هو رهيب في المجتمع الصناعي مرده الى جهل الطبقة الرأسمالية· ولسوف تصلح كل خطأ من هذه الاخطاء حالما تتلقى الرسالة · وهذه الرسالة سوف يكون من واجب الكنيسة ان تؤديها » ·

وضحك ارنست : لقد ضحك على نحو بهيمي ، فوجدت نفسي مسوقة الى الدفاع عن الاسقف ، وقلت :

ـ « انتبه ، انت لا ترى غير جانب واحد من الصورة · ان في انفسنا كثيرا من الخير ، على الرغم من انك تجردنا من الخير كله · الاسقف مورهاوس على حق · فالمظالم الصناعية ، وأنا معك في انها رهيبة جدا ، مردها الى الجهل · ان اقسام المجتمع قد انتهت الى ان تصبح مفصولة بعضها عن بعض اكثر مما ينبغي » ·

فأجاب ، وفي تلك اللحظة ابغضته :

ـ « ان الهندي الاحمر الجافي هو اقل قسوة ووحشية من الطبقة الرأسمالية » ·

فكان جوابي :

ـ « أنت لا تعرفنا · نحن لسنا قساة ولا وحشيين » ·

فتحداني :

ـ « برهني ذلك »

فقلت ، وكان الغضب قد شرع يعصف بي :

ـ « كيف استطيع ان أبرهنه ··· لك ؟ »

فهز رأسه ، وقال :

ـ « أنا لا اسألك ان تبرهنيه لي ٠ انا اسألك ان تبرهنيه لنفسك » ٠

فقلت :

ـ « أدري ٠ »

فكان جوابه الجافي :

ـ « انت لا تدرين شيئا » ٠

فقال ابي مهدئا :

ـ « على رسلكما ٠٠٠ على رسلكما ايها الطفلان ٠٠ »

فقلت في حنق :

ـ « انا لا أبالي ٠٠٠ »

ولكن ارنست قاطعني :

ـ « اني اعرف ان لديك مالا ، أو ان لدى ابيك ـ فالنتيجة واحدة ـ مالا موظفا في مصانع سييرا » ٠

فصحت :

ـ « وما علاقة هذا بموضوعنا ؟ »

فبدأ في بطء :

ـ « ليس من علاقة كبيرة ٠٠٠ ما خلا ان الفستان الذي ترتدينه مخضب بالدم ٠ والطعام الذي تأكلينه طعام دام ٠ ان دم الاطفال الصغار والشبان الاقوياء ليقطر من عوارض سقوف بيتك الخشبية نفسها ٠ وفي استطاعتي الان ان اغمض عيني ، وان اسمعه يقطر ويقطر من أقطاره جميعا » ٠

ولاءم ما بين العمل والكلمات فأغمض عينيه وانحنى الى الوراء في كرسيه ٠ وانخرطت في بكاء الاهانة والكرامة الجريح ٠ فأنا لم أعامل في حياتي كلها قط مثل هذه المعاملة الوحشية ٠ كان أبي والاسقف كلاهما مرتبكين مشوشين ٠ لقد حاولا ان يوجها الحديث نحو مجار أسهل وايسل ٠ ولكن ارنست فتح عينيه ، ونظر الي ، وأومأ اليهما بأن يلزما الصمت ٠ كان فمه كالحا ، وكذلك كانت عيناه ٠ ولم يكن في هاتين العينين وميض ضحك ٠ أي شيء كان على وشك ان يقوله ؟ اي تقريع رهيب كان يعتزم ان يرشقني به ؟ هذا ما لم اعرفه قط ٠ ذلك بأنه في تلك اللحظة بالذات اجتاز الرصيف رجل ما لبث ان وقف وراح ينظر الينا ٠ كان رجلا ضخم الجسم حقير البزة ، وكان على ظهره حمل كبير من الكراسي والستائر الخيزرانية ٠ لقد نظر الى البيت وكأنه يسائل نفسه أيدخل ويحاول ان يبيعنا بعض بضاعته ام لا ؟

وقال ارنست :

ـ « هذا الرجل يدعى جاكسون · »

فقلت في اقتضاب وجفاء :

ـ « كان خليقا به ، بمثل هذا الجسد الضخم أن ينكب على العمل بدلا من الطواف [23] في الشوارع لبيع البضائع · »

فقال ارنست في لطف :

ـ « لاحظي ردن ذراعه اليسرى · »

ونظرت ، فرأيت أن الردن كان فارغا ·

فأضاف ارنست في لطف موصول :

ـ « ان ما سمعته يقطر من عوارض سقوف بيتك الخشبية هو بعض دم هذه الذراع · لقد فقد ذراعه في مصانع سييرا ، ومثل جواد متهدم مريض طردته انت الى الطريق ليموت على قارعتها · وحين أقول « أنت » أعني مدير المصنع والموظفين الذين تدفعين انت وسائر حملة الاسهم الرواتب اليهم لكي يدبروا شؤون المصنع نيابة عنك · لقد كان ذلك حادثا من حوادث العمل · وانما نشأ هذا الحادث عن محاولته ان يوفر على الشركة بضعة دولارات ـ فلم يكن من طنبور « دافع المكوك » المسنن الا أن انشب أظفاره في ذراعه · لقد كان في امكانه ان يترك تلك القطعة الصغيرة من الصوان التي رآها في الاسنان
كان في امكانه ان يترك تلك القطعة الصغيرة من الصوان التي رآها في الاسنان
نتخذ سبيلها عبرها · ولقد كان خليقا بها أن تسحق صفا مزدوجا من المسامير · ولكنه بسط ذراعه لانتزاع القطعة الصوانية ، فأنشبت الالة برائنها فيها فهرستها من رؤوس الاصابع الى الكنف · وكان ذلك في موهن من الليل · فقد كان المصنع يعمل طول الليل · ولقد دفعوا الى حملة الاسهم أرباحا سمينة في ذلك الفصل · كان جاكسون قد عمل ساعات عديدة ، وكانت عضلاته قد فقدت مرونتها وحيويتها ، فاذا بها تجعل حركاته بطيئة بعض الشيء · وهذا هو السبب الذي من اجله استطاعت الالة ان تبتلع ذراعه · كانت له زوجة وثلاثة أولاد · »

---

٢٣ في تلك الايام كانت الشوارع تحفل بالاف مؤلفة من هؤلاء التجار الفقراء الذين كانوا يعرفون باسم « الباعة المتجولين » · كانوا يحملون كل ما يملكون من بضاعة على ظهورهم ويتنقلون من بيت الى بيت · وكان في ذلك هدر ليس أعظم منه للطاقة البشرية · لقد كان التوزيع لا عقلانيا ومشوشا كالنظام الاجتماعي العام كله سواء بسواء ·

فسألتــه :

ـ « وماذا فعلت الشركة من أجله ؟ »

ـ « لا شيء · أوه ، أجل لقد فعلت شيئا · لقد وفقت الى رد دعــوى العطل والضرر التي اقامها عليها عند مغادرته المستشفى · فالشركة تستخدم، كما تعلمين ، محامين بارعين جدا · »

فقلت في اقتناع :

ـ « انك لم ترو القصة كاملة · أو لعلك لا تعرف القصة كاملة · جائز ان الرجل كان وقحا سفيها · »

ـ « وقح وسفيه ! ها ! ها ! » كان ضحكه ابليسيا · « يا الهي العظيم ! وقح وسفيه ! وبعد أن هرست يده وابتلعت ! ومع ذلك فقد كان خادما وديعــا مستضعفا ، وليس في صفحته ما يدل على أنه تكشف عن وقاحة ما · »

فألححــت :

ـ « ولكن المحاكم ؟ انه ما كان في الامكان ان ترد دعواه لو لم يكــن للقصة التي رويتها بقية · »

ـ « ان الكولونيل انغرام هو كبير محامي الشركة · انه محام داهية · »

وأنعم ارنست النظر الي لحظة ، ثم اضاف :

ـ « سوف اقول لك ما الذي يتعين عليك ان تفعليه ، أيتها الانســة كاذنغهــام · »

ـ « أجري تحقيقا في قضية جاكسون · »

فقلت في برود :

ـ « لقد اعتزمت اجراء هذا التحقيق منذ شرعت تحدثنا حديثه · »

فأشرق وجهه في دماثة :

ـ « حسن جدا · وسأدلك على المكان الذي تجدينه فيه · ولكني ارتجف عنك اذ افكر في كل ما سوف تقيمين الدليل عليــه بواسطة ذراع جاكسون » ·

وهكذا اتفق ان قبلت أنا والاسقف تحديات أرنست · لقد انطلقا معا ، بعد أن خلفاني وقد وخزني حس بالظلم الذي أنزل بي وبطبقتي · كان الرجل وحشا · ولقد أبغضته انذاك ، وعزيت نفسي بالقول ان سلوكه هذا هــو السلوك الذي ينبغي للمرء ان يتوقعه من رجل من رجال الطبقة العاملة ·

الفصل الثالث

نراع جاكسون

لم أتصور الا قليلا أي دور خطير كان مقدرا لذراع جاكسون ان تلعبه في حياتي · فجاكسون ذاته لم يقع في نفسي موقعا حسنا حين رحت أبحث عنه في كل مكان · لقد وجدته في منزل كثير الصدوع ، متداع الى السقوط ٢٤ ، قائم قرب الخليج عند حافة المستنقع · كانت تحيط بالمنزل برك من الماء الراكد يعلو سطوحهـا زبد أخضر ذو منظر عفن ، في حين كانت الرائحة المنبعثة منها كريهة الى حد لا يطاق ·

وألفيت جاكسون وديعا مستضعفا ، كما وصفه ارنست · كان يقـــوم ببعض اشغال الخيزران ، وكان يكدح في عناد بينا كنت أتحدث معه · بيد أنه يخيل الي ، على الرغم من وداعته وضعفه ، أني وقعت على اول نبرة مـــن نبرات المرارة المستحدثة عنده حين قال :

– « لقد كان في امكانهم ان يعينوني حارسا ٢٥ ، على أية حال · »

---

٢٤ نعت يصطنع في وصف البيوت الخربة المتهدمة التي كان يقطنها جماعات كبيرة من العمال في ذلك الايام · وكانوا يدفعون الى الملاكين أجورا من غير ريب – أجورا تعتبر ، بالقياس الى قيمة تلك البيوت ، ضخمة فاحشة ·

٢٥ في تلك الايام كانت اللصوصية منتشرة الى حد لا يصدق · كان كل امرىء يسرق بعض ممتلكات غيره من الناس · أما أبناء الطبقات المهيمنة على المجتمع فكانوا يسرقون شرعيا ، أو يخلعون صبغة شرعية على لصوصيتهم ، في حين كان أبنـاء الطبقات الفقيرة يسرقون على نحو غير شرعي · ولم يسلم من السرقة شيء البتة الا ما كان خاضعا لحراسة قوية · وكان عدد كبير من الرجال يستخدمون بوصفهم حراسا لحماية الممتلكات · وكانت بيوت الاغنياء مزيجا من خزانة حديدية وسرداب وقلعة · ونزعة الاولاد في عصرنا هذا الى وضع اليد على ممتلكات الاخريـــن الشخصية انما تعتبر أثرا باقيا من « خاصة السرقة » التي كانت في تلك العهود السالفة شيئا عامـا ·

ولم أستطع أن أفوز منه بشيء كثير · لقد وقع في نفسي أنه رجل أبله ، ومع ذلك فان الانكباب الاصم الذي عمل به بيده الواحدة بدا وكأنه يتنافى مع بلاهته · وأوحى ذلك الي بفكرة ·

فسألتـــه :

ـ « كيف اتفق للماكينة أن ابتلعت يدك ؟ »

فنظر الي في أناة وتأمل ، وهز رأسه وقال :

ـ « لست أدري · كل ما أدريه هو أن ذلك قد حدث · »

فأوحيت اليه قائلة :

ـ « بسبب من الاهمال ؟ »

فأجـــاب :

ـ « لا · ليس من رأيي ان نعزو ما حدث الى الاهمال · لقد كنت أعمل ساعات اضافية ، وأحسب ان ذلك قد أرهقني بعض الشيء · اني عملت سبع عشرة سنة في تلك المصانع ، وقد لاحظت ان معظم حوادث العمل تقع قبـــل اطلاق الصفارة ٢٦ مباشرة ، وأنا مستعد لان أراهن أن حوادث العمل التـــي تقع في الساعة الاخيرة قبل اطلاق الصفارة تفوق مجموع الحوادث التي تقع في سائر ساعات النهار كلها · ذلك أن الرجل لا يكون رشيق الحركة بعد عمل موصول طوال ساعات وساعات · لقد رأيت عددا كبيرا من العمال تمزقهـم الالات تمزيقا وتمضغهم مضغا ··· »

فسألتـــه :

ـ « رأيت عددا كثيرا منهم ؟ »

ـ « مئات ومئات · وبعضهم أطفال أيضا · »

وباستثناء بعض التفاصيل الرهيبة كانت رواية جاكسون للحادث الذي ألم به كالتي سمعتها من قبل · وحين سألته هل خرق قاعدة من قواعد تشغيل الالة هز رأسه وقال :

ـ « لقد دفعت الحزام بيدي اليمنى ، ومددت ذراعي اليسرى لالتقـط القطعة الصوانية · انا لم أتمهل لارى ما اذا كان الحزام قد نزع ، لقد حسبت ان يدى اليمنى قد أتمت ذلك ـ والواقع انها لم تكن · ومددت ذراعي فـي سرعة ، ولم يكن الحزام قد أقصي نهائيا · وعندئذ ابتلعت ذراعي وهرست ·»

فقلت بلهجة تنضح بالمشاركة الوجدانية :

٢٦ كان العمال يدعون الى الشغل ثم يصرفون الى بيوتهم بواسطة صفارات بخاريـة وحشية زعاقة محطمة للاعصاب ·

ـ « لا ريب في أنك استشعرت ألما بالغا · »

فكان جوابه :

ـ « ان سحق العظام لم يكن شيئا مستحبا · »

وكان ذهنه ضبابيا في ما يتعلق بدعوى العطل والضرر · ولكن شيئا واحدا ليس غير كان واضحا عنده وهو انه لم يتلق أي تعويض البتة · وكان لديه شعور بأن شهادة ملاحظي العمال ومدير المصنع قد أدت الى قرار المحكمة المشؤوم · فشهادتهم ، على حد قوله ، « لم تكن ما ينبغي ان تكونه »· فعقدت العزم على الذهاب اليهم ·

كان شيء واحد واضحا : ان حالة جاكسون بائسة · كانت زوجته معتلة الصحة ، وكان عاجزا عن أن يكسب ـ من طريق اشغال الخيزران والبيع المتجول ـ ما يسد حاجة أسرته الى الطعام · وكان قد تخلف ، لضيق ذات يده ، عن دفع اجرة البيت ، وكان ابنه البكر ـ وهو غلام في الحادية عشرة ـ قد شرع يعمل في المصانع ·

ـ « لقد كان في ميسورهم أن يعهدوا الي بوظيفة حارس ، » تلك كانت كلماته الاخيرة وأنا أودعه ·

حتى اذا اجتمعت الى المحامي الذي تولى الدفاع في قضية جاكسون وملاحظي العمال ومدير المصنع الذين أدلوا بشهاداتهم في المحكمة شرعت أشعر اخر الامر ، بأن في ما ذهب اليه ارنست بعض الوجاهة ·

كان المحامي رجلا ضعيفا تبدو عليه سيما القصور وعدم الكفاءة ، وحين وقع نظري عليه زال عجبي لخسارة جاكسون دعواه · وكانت اول فكرة راودت ذهني هي أن جاكسون قد عوقب لاختياره مثل هذا المحامي عقابا يستحقه · ولكن اثنتين من عبارات ارنست ما لبثتا أن أومضتا في وجداني : « الشركة تستخدم محامين بارعين جدا ، » و « الكولونيل انغرام محام داهية · » وقمت بشيء من التفكير السريع · حتى لاح لي ان الشركة كانت ، طبعا ، اقدر على اصطناع المواهب الحقوقية اللامعة من عامل بسيط مثل جاكسون · ولكن هذا لم يكن غير تفصيل ثانوي · فقد كنت على مثل اليقين من ان ثمة سببا ما ، سببا وجيها جدا لخسارة جاكسون دعواه ·

وسألته :

ـ « لماذا خسرت الدعوى ؟ »

واستبد الارتباك والقلق بالمحامي ، لحظة ، فمالت نفسي الى الاشفاق على هذا المخلوق الضئيل البائس · ثم انه شرع يتظلم ويتشكى · وأنا أعتقد

ان نزعته الى التظلم والتشكي نزعة فطرية ، فقد كان رجلا مغلوبا على امره بالولادة · لقد نق حول شهادة الشهود · فأولئك الشهود لم يقدموا غير البينة التي تساعد الفريق الاخر · لقد عجز عن ان ينتزع منهم ايما كلمة خليق بها ان تساعد جاكسون · ولا عجب ، فقد كانوا يدركون اي الفريقين هو القادر على تزويد أرغفتهم بالزبدة · وتكشف جاكسون عن بلاهة صارخة · لقد أوقع الكولونيل انغرام الرعب في فؤاده فتشوش وارتبك · وكان الكولونيل انغرام لامعا في الاستجواب · ولقد طلب الى جاكسون ان يجيب على أسئلة مؤذية ·

وسألته :

ـ « كيف يمكن لاسئلته ان تكون مؤذية اذا كان الحق في جانبه ؟ »

فسألني بدوره :

ـ « وما علاقة الحق بالمسألة كلها ؟ هل ترين الى هذه الكتب كلها ؟ » وأمر أصابعه على صف المجلدات المرصوفة على جدران مكتبه الهزيل · « لقد علمتني دراستي لها وقراءتي فيها ان القانون شيء والحق شيء اخر · اسألي أي محام تشائين · ان المرء يذهب الى « مدرسة الاحد الدينية » ليتعلم الحق · ولكنه يذهب الى هذه الكتب ليتعلم ·· القانون · »

فسألته في شيء من التردد :

ـ « أتريد ان تقول لي ان الحق كان في جانب جاكسون ، ومع ذلك فقد هزم ؟ أتريد ان تقول لي انه لا عدالة في محكمة القاضي كالدويل ؟ »

وحدق المحامي الضئيل الي ، لحظة ، ثم زايلت وجهه سيما المقاتلة · لقد شرع يثق ويتشكى من جديد :

ـ « أنا لم أعط فرصة عادلة · لقد خدعوا جاكسون وخدعوني ايضا · وأي فرصة أعطيتها ؟ ان الكولونيل انغرام محام كبير · ولو لم يكن كبيرا هل كان يعهد اليه في تولي الاعمال القانونية الخاصة بمصانع سييرا ، و « اتحاد أرستون للاراضي » ، « وتجمع شركات بيركلي » ، وكهرباء اوكلاند ، وسان ليندرو ، وبليزانتون ؟ انه محامي شركات ، والشركات لا تدفع الرواتب الضخمة الى المحامين لبلاهتهم ٢٧ · ما الذي يجعل مصانع سييرا وحدها

٢٧ كانت مهمة محامي الشركات أن يخدم ، بطرائق ملتوية فاسدة ، نزعة الشركات الى اختطاف المال · ولقد جاء في كتب التاريخ ان ثيودور روزفلت ، وكان في ذلك الوقت رئيسا للولايات المتحدة الاميركية ، قال عام ١٩٠٥ في خطاب له في حفلة توزيع الشهادات بجامعة هارفرد : « نحن كلنا نعرف من واقع الاشياء ان

تدفع اليه عشرين الف دولار في العام ؟ لانه يساوي عندهم عشرين الف دولار في العام ، ذلك هو السبب · أما انا فلا أساوي هذا المقدار كله · ولو كنت أساوي هذا المقدار لما كنت خارج الحلقة المحظوظة ، ولما ذقت طعم الجوع وتوليت الدفاع عن قضايا مثل قضية جاكسون · أي شيء تعتقدين أنه كان خليقا بي أن أقبض لو كسبت لجاكسون دعواه ؟ »

فأجبته :

– « كان خليقا بك ان تنهبه في أغلب الظن ٢٨ · »

فصاح مغضبا :

– « من غير ريب ، ان علي ان أعيش ، أليس كذلك ؟ »

فقلت بلهجة معنفة :

– « ولكن له زوجة وأولادا · »

فكان جوابه :

– « وأنا أيضا لي زوجة واولاد · وليس في العالم كله مخلوق واحد ، غيري ، يبالي سواء أجاعوا أم لم يجوعوا · »

ورق وجهه فجأة ، وفتح ساعته وأراني صورة فوتوغرافية صغيرة ملصقة داخل غطاء الساعة · وكانت تلك الصورة تمثل امرأة وبنتين صغيرتين ·

– « ها هم · انظري اليهم · لقد مرت بنا أيام عصيبة ، أيام عصيبة ، وكنت أرجو ان أبعث بهم الى الريف اذا ما كسبت دعوى جاكسون · انهم لا ينعمون بالصحة هنا ، ولكني لا أستطيع ارسالهم الى الريف · »

وحين نهضت معتزمة الانصراف ، عاد الى نقه وتظلمه :

– « لم يتح لي شبح فرصة · ان بيني وبين الكولونيل انغرام والقاضي كالدويل صداقة حسنة · لست أقول اني لو فزت بالبينة الملائمة من شهودهما

عددا كبيرا من أقوى المحامين نفوذا وأعلاهم أجرا لا هم لهم الا استنباط الخطط الجريئة البارعة التي يستطيع بها موكلوهم ، أفرادا كانوا أو شركات ، التهرب من القوانين الموضوعة لتنظيم اصطناع الثروات الكبيرة اصطناعا يكون في صالح الجماهير · »

٢٨ هذا مثل نموذجي على الكفاح القائل الذي كان يصبغ المجتمع كله في تلك الايام · كان الناس يسطو بعضهم على بعض كالذئاب الضارية · كانت الذئاب الكبيرة تأكل الذئاب الصغيرة ، وفي القطيع الاجتماعي كان جاكسون واحدا من أصغر الذئاب ·

عند الاستجواب اذن لقررت تلك الصداقة مصير الدعوى : ومع ذلك فيتعين علي ان أقول ان القاضي كالدويل بذل جهدا كبيرا للحؤول بيني وبين الفوز بتلك البينة · وكيف لا ، والقاضي كالدويل والكولونيل انغرام ينتسبان الى محفل ماسوني واحد والى ناد واحد ، انهما يقطنان في حي واحد ـ حتى لا تمكنني مواردي من السكنى فيه · وزوجتاهما تتبادلان الزيارة على نحو موصول · انهما لا تنفكان تحييان ليالي الهويست * وما اليه · »

فسألته متمهلة لحظة على العتبة :

ـ « ومع ذلك فأنت تحسب ان الحق كان في جانب جاكسون ؟ »

فكان جوابه :

ـ « أنا لا أحسب ذلك ، ولكني أعرفه معرفة اليقين ، ولقد ظننت بادىء الامر ان له حظا من أمل ، أيضا · بيد اني لم أخبر زوجتي · ذلك بأني كنت لا أريد ان أخيب امالها ، فقد كانت تمني النفس بالقيام برحلة الى الريف · »

وسألت بيتر دونلي أحد ملاحظي العمال اللذين شهدا في المحكمة :

ـ « لماذا لم تلفت نظر المحكمة الى هذه الحقيقة : وهي ان جاكسون كان يحاول دفع الاذى عن الالة ؟ »

ففكر فترة طويلة قبل ان يجيب · ثم انه أجال في ما حوله طرفا قلقا وقال :

ـ « لان لي زوجة صالحة وثلاثة من أجمل الاولاد الذين قدر لعينيك ان تقعا عليهم · ذلك هو السبب · »

فقلت :

ـ « لست أفهم ما تقول · »

فأجاب :

ـ « بكلمة أخرى ، لان اقدامي على مثل ذلك كان خليقا به ان يكون عملا أحمق · »

ـ « تعني ··· »

ولكنه قاطعني في انفعال :

ـ « أنا أعني ما قلته · فقد سلخت سنوات طويلة وانا أعمل في تلك المصانع · لقد دخلتها غلاما صغيرا مهمتي الوقوف أمام نصل المغزل · ومنذ ذلك الحين وأنا اتقدم وأترقى · وبكثير من الجهد الشاق انتهيت الى مركزي الحالي المرموق · وفي استطاعتي ان اؤكد لك ان أيما رجل في المصنع

* لعبة من العاب الورق ·

لم يمد الي يدا ـ في ايما يوم من الايام ـ لانقاذي من الغرق · لقد كنت من قبل منتسبا الى النقابة · ولكني واصلت العمل في الشركة خلال اضرابين · لقد أطلقوا علي لقب « الوغد » · وليس فيهم اليوم رجل واحد يرضى بأن يحتسي معي كأسا لو رغبت اليه في ذلك · هل ترين الندوب على رأسي حين رشقت بالآجر الطائر ؟ وليس أيما طفل يعمل وراء نصل المغزل الا ويلعن اسمي · ان صديقي الوحيد هو الشركة · وليس الوقوف في صف الشركة واجبي ، ولكنه خبزي وزبدتي وحياة زوجتي وأولادي · ذلك هو السبب · »

وسألته :

ـ « وهل كان جاكسون حقيقا باللوم ؟ »

ـ « كان من حقه ان يعطى عطلا وضررا · فقد كان عاملا صالحا لم يسبق له أن أورث الشركة اية متاعب · »

ـ « واذن فلم تكن تستشعر انك تملك الحرية لتقول الحقيقة كاملة ، كما اقسمت ان تفعل ؟ »

فهز رأسه ·

فقلت في خشوع :

ـ « الحقيقة ··· الحقيقة كاملة ··· ولا شيء غير الحقيقة ؟ »

وغلب الانفعال على وجهه من جديد · ورفعه ، لا نحوي ، ولكن نحو السماء ·

وكان جوابه :

ـ « انا مستعد لان أرى روحي وجسدي يحترقان في جهنم الى الابد من اجل اولادي الثلاثة · »

أما هنري دالاس ، مدير المصنع ، فكان مخلوقا ثعلبي الوجه نظر الي في ازدراء كبير ورفض ان يتكلم · اني لم استطع ان انتزع منه كلمة واحدة في ما يتصل بالمحاكمة وبالشهادة التي ادلى بها فيها · اما مع ملاحظ العمال الآخر فكنت احسن حظا · كان جايمس سمث رجلا ذا وجه صارم ، ولقد غار فؤادي عندما واجهته · وأوقع في نفسي ، هو أيضا ، انطباعا اشعرني انه لم يكن متحررا من بعض القيود التي تحول بينه وبين التعبير عما في سريرة نفسه ، وفيما كنا نتحدث شرعت ارى انه كان ارقى ، عقليا ، من افراد زمرته العاديين · لقد أقر بيتر دونيلي على ان جاكسون كان ينبغي ان يحظى بتعويض ، وذهب الى ابعد من ذلك فاعتبر طرد العامل ـ بعد ان جعله الحادث شخصا عاجزا ـ عملا يرشح قسوة وبرود دم · ليس هذا فحسب ، بل لقد

اوضح لي ان المصنع شهد كثيرا من حوادث العمل المماثلة ، وان سياسة الشركة كانت تقضي بالاستماتة في احباط جميع دعاوى العطل والضرر اللاحقة ٠

وقال :

ـ « أتدري ما الذي يعنيه ذلك ؟ انه يعني مئات الالاف من الدولارات ، كل عام ، بالنسبة الى حملة الاسهم ٠ »

وفيما كان يتحدث تذكرت آخر مبلغ دفع الى أبي كربح حققته أسهمه في الشركة ٠ وتذكرت الفستان البديع الذي اشتريته أنا والكتب التي اشتراها ابي بفضل ذلك الربح ٠ وتذكرت اتهام ارنست القائل بأن فستاني ملطخ بالدم ، وهكذا شرع جلدي ينمل تحت ثيابي ٠

وقلت :

ـ « عندما شهدت في اثناء المحاكمة لم تشر الى ان جاكسون اصيب بما اصيب به نتيجة لمحاولته انقاذ الآلة من الاذى ؟ ٠٠ »

فأجابني في مرارة بالغة :

ـ « لا ٠ لم أشر الى ذلك ٠ لقد شهدت أن جاكسون انزل الاذى بنفسه نتيجة للاهمال والتهاون ، وأنه لا مجال البتة الى لوم الشركة او اعتبارها مسؤولة عما حدث ٠ »

فسألته :

ـ « وهل كان الحادث ثمرة التهاون حقا ؟ »

ـ « سميه تهاونا ، او اي شيء تشائين ٠ الحقيقة هي هذه : ان المرء يستشعر الارهاق بعد ساعات من العمل الموصول ٠ »

وكنت قد بدأت استمتع بحديث الرجل ٠ لقد كان قماشه ، غير شك ، خيرا من قماش ابناء زمرته ٠

وقلت :

ـ « انت تتمتع بثقافة أوسع من ثقافة معظم العمال ٠ »

فأجاب :

ـ « لقد اتممت دراستي الثانوية في احدى المدارس العالية ٠ ولقد وفقت الى ذلك من طريق القيام بأعمال الحجاب والفراشين ٠ وكنت اطمع الى الالتحاق بالجامعة ، ولكن أبي توفي ، فاضطررت الى العمل في المصنع ٠ »

وصمت لحظة ثم اوضح خجلا وكأنه يعترف بموطن من مواطن الضعف :

ـ « لقد اردت ان اصبح عالما طبيعيا : انا احب الحيوانـــات · ولكني اضطررت الى العمل في المصنع · وحين رقيت الى مرتبة ملاحظ عمال تزوجت ، ثم كبرت العائلة ··· و ··· حسنا ، لم اعد منذ ذلك الحين سيد نفسي · »

فسألته :

ـ « ماذا تعني بذلك ؟ »

ـ « كنت اشرح لماذا شهدت في المحاكمة على النحــو الذي شهـــدت به ··· لماذا اتبعت التعليمات · »

ـ « تعليمات من ؟ »

ـ « الكولونيل انغرام · لقد رسم الخطوط الكبرى للشهــادة التي كان علي ان ادلـــي بها · »

ـ « والتي افسدت على جاكسون قضيته · »

فهز رأسه ، وشرع الدم يرتفع قائما في وجهه ·

ـ « وكان لجاكسون زوجة وولدان هو عائلهم الوحيد · »

فقال في هدوء ، برغم ان وجهه كان يزداد قتاما على قتام :

ـ « ادري · »

عندئذ تابعت مضيفــة :

ـ « قل لي ، أكان من اليسير أن ترتفع بنفسك مما كنت عليه ، في المدرسة الثانوية مثلا ، الى الرجل الذي كان لا بد ان تصبحه ، حتى تتصرف اثنـــاء المحاكمة كما تصرفت ؟ »

واذهلتني فجاءة ثورانه واوقعت الرعب في نفسي · لقد انفجــر ٢٩ مرسلا شتيمة وحشية ، وجمع كفه وكأنه يبغي ان يضربني ·

وقال بعد لحظــة :

ـ « اسألك العفو · لا ، لم يكن ذلك يسيرا · والآن ، يخيل الي ان في استطاعتك أن تنصرفي · لقد فزت بكل ما تريدينه مني · ولكن دعيني اقول لك هذا قبل ان تذهبي : لن يفيدك شيئا ان تكرري اي شيء مما قلته · ذلـــك اني سوف انكره ، وليس ههنا اي شهود علي · سوف انكر كل حرف منــه · واذا اضطررت الى ذلك فسوف انكره مقسما على الكتاب المقدس عند منصــة

---

٢٩ من الممتع ان نلاحظ « رجولة » اللغة التي كانت سائرة على الالسن في تلك الايام كظاهرة دليلية indicative من ظواهر الحياة « الحمراء ببرثن وناب » التي كانت تعاش انذاك · والاشارة هنا ليست ، طبعا ، الى الشتيمة التي اطلقها سميث ، ولكن الى فعل « انفجر » الذي اصطنعته ايفيس ايفرهارد ·

الشهـــود · »

وبعد اجتماعي بسميث قصدت الى مكتب والدي في « بناية الكيميـاء » وهناك التقيت بأرنست · لقد كان ذلك غير متوقع بالمرة ، ولكنه استقبلـني بعينيه الجريئتين وبكفه المصافحة الثابتة . وبذلك المزيج الغريب من الخـرق والثقـة · لقـد بدا وكأن اجتماعنـا الاخيـر العاصف قد نسـي ، ولكنـي لم اكن في وضع نفسي يساعدني على نسيانه ·

وقلت في اقتضاب :

ـ « كنت احقق في قضية جاكسون · »

كان كله انتباها واهتماما ، وانتظرني حتى أكمل على الرغم من انـــه كان في ميسوري ان ارى في عينيه آيات اليقين بان معتقداتي قد زعزعت ·

واعترفت قائلـــة :

ـ « يبدو انه قد عومل معاملة رديئة · وانا ··· انا اعتقد ان بعضـا من دمه يقطر من عوارض سقوفنا الخشبية · »

فأجاب :

ـ « من غير ريب · لو عومل جاكسون وجميع رفاقه معاملـة رحيمة لما كانت ارباح الاسهم على مثل هذه الضخامة · »

وأضفـت :

ـ « لن يكون في مكنتي ان أجد أيما متعة في ارتداء الفساتين الجميلـة بعد اليـــوم · »

واستشعرت اني حقيرة منسحقـة القلب ، ووعيت احساسا عذبا بان ارنست كان ضربا من « كاهن اعتراف » · وعندئذ راقتني قوته كما راقتنـي منذ ذلك الحين الى آخر الدهر · لقد بدت وكأنها تشع وعدا بالامن والحماية ·

وقال في شيء من كآبة :

ـ « لا ، ولن يكون في مكنتـك ان تجدي متعة في ارتداء الخشن من الثياب ان ثمة معامل الجوت * ، كما تعلمين ، والشيء نفسه يجري كل يوم هناك · انه يجري في كل مكان · ان حضارتنا التي نفخر بها مبنية على الـدم ، منقوعة بالدم ، وليس في وسعك انت ولا في وسع اي منا ان يهرب من اللطخة القرمزية · ولكن من هم الرجال الذين تحدثت اليهم ؟ »

فأنبأته بكل ما قد حدث ·

فقال :

---

* نسيج مصنوع من خيوط القنب الهندي ·

ـ « ولم يكن أيما واحد منهم مالكا حرية التصرف ٠ كانوا كلهم موثقين الى الالة الصناعية التي لا ترحم ٠ والعنصر الفاجع في المسألة انهم موثقون الى تلك الآلة بنياط قلوبهم : فلذات اكبادهم ، الكائنات الغضة التي ينزعون بغريزتهم الى حمايتها ٠ ان هذه الغريزة هي اقوى من ايما اخلاقية يملكونها ٠ ابي ! لقد كذب ، لقد سرق ، لقد ارتكب كل المخازي ليضع لقمة الخبز في فمي وفي افواه اخوتي واخواتي ٠ كان عبدا رقيقا للآلة الصناعية ، ولقد محقت حياته واكرهته على العمل حتى الموت ٠ »

فقاطعته :

ـ « ولكن انت ٠٠٠ انت من غير ريب تملك حرية التصرف ٠ »

فأجاب :

ـ « ليس على نحو كامل ٠ انا لست موثقا بنياط قلبي ٠ وكثيرا ما يلهج لساني بالشكر لاني لا اولاد لي ٠ انا احب الاولاد حبا جما ، ومع ذلك فاذا ما قدر لي ان أتزوج فلن اجرؤ على انجاب ولد واحد ٠ »

وهنا صحت :

ـ « هذا من غير ريب مذهب رديء ٠ »

فقال في جرس حزين :

ـ « انا اعرف انه كذلك ٠ ولكنه مذهب ملائم ٠ انا رجل ثوري ، وانها لمهنة خطرة ٠ »

فضحكت ضحكة من لم يصدق ٠

ـ « لو اقتحمت بيت ابيك ، في موهن من الليل ، لاسرق ارباح اسهمه في مصانع سييرا ، فما الذي تحسبينه يفعله ؟ »

فأجبته :

ـ « انه ينام وعلى الطاولة المجاورة لسريره مسدس ٠ واغلب الظن انه سوف يطلق عليك النار اذا اقتحمت عليه بيته ٠ »

ـ « واذا ما قدت انا ونفرا اخرين مليونا ونصف مليون رجل ٣٠ الى جميع بيوت الاثرياء ، فعندئذ ينهمر وابل من نار المسدسات ، أليس كذلك ؟ »

---

٣٠ هذه اشارة الى مجموع الاصوات التي نالها الاشتراكيون في الولايات المتحدة في انتخابات عام ١٩١٠ ٠ وارتفاع هذا الرقم يدل على النمو السريع الذي عرفه حزب الثورة ٠ ففي عام ١٨٨٨ كانت قوته الانتخابية ٢،٠٦٨ ، وفي عام ١٩١٢ كانت ١٢٧،٧١٣ ، وفي عام ١٩٠٤ كانت ٤٣٥،٠٤٠ ، وفي عام ١٩٠٨ كانت ١،١٠٨،٤٢٧ وفي عام ١٩١٠ أمست ١،٦٨٨،٢١١ ٠

فاعترضت قائلة :

ـ « اجل ، ولكنك لا تقوم بشيء من ذلك الان · »

ـ « ذلك على وجه الضبط ما افعله · ونحن نعتزم ان نستولي ، لا على مجرد الثروة التي في البيوت ، بل على جميع موارد تلك الثروة ، على جميع المناجم ، والسكك الحديدية ، والمصانع ، والمصارف ، والمحال التجارية · تلك هي الثروة · وانها لخطـرة حقـا · ويخيل الي ان الرصاص سوف ينهمـر باكثر مما احلم ، اجل باكثر مما احلم · ولكن كما كنت اقول ، ان ايا منا ليس اليوم مالكا حريـة التصرف · فنحن كلنا صرعـى دواليب الالة الصناعيـة واسنانها · لقد اكتشفت انك ايضا صريعة هذه الدواليب والاسنان ، وكذلك الرجال الذين تحدثت اليهم · تحدثي الى رجال اخريـن · اذهبي وقابلـي الكولونيل انغرام · عرجي على المندوبين الصحفيين الذين ابعدوا قضيـة جاكسون عن الصحافة ، ورؤساء التحرير الذين يشرفون على سياسة الصحف تجديهم كلهم عبيدا للالة · »

وبعد برهة يسيرة وجهت اليه سؤالا صغيرا بسيطا عن تعرضية العمال للحوادث فتلقيت في الجواب محاضرة معززة بالاحصاءات ·

ـ « كل ذلك منصوص عليه في الكتب · فقد جمعت الارقام ، واقيـم الدليل قاطعا على ان الحوادث نادرا ما تقع في ساعات العمل الصباحيـة الاولى ، ولكنها تزداد بسرعة في الساعات التوالي بعد ان يصبح العمـال متعبين واكثر بطؤا في عملياتهم العضلية والعقلية · هل تعرفين ان حيـاة العامل واوصاله معرضة للخطر ثلاث مرات اكثر من حياة ابيـك واوصاله ؟ ولكن هذا هو الواقع · وشركات التامين ٣١ تعرف ذلك · انهم يقتضون العامل خمسة عشر دولارا كل عام لقاء صك تامين ضد الحوادث بقيمة الف دولار في حين لا يقتضون اباك لقاء صك التامين عينه غير اربعة دولارات وعشرين سنتا سنويـا · »

---

٣١ في خضم النضال الذئبي الرهيب الذي عرفته تلك العصور لم يكن أيما رجل امنـا مهما جمع من ثروة ومال · وبسبب من خوفهم أن تتعرض أسرهم للفاقة من بعدهم ابتدع الرجال خطة التأمين · ان هذه الوسيلة تبدو لنا نحن الذين نحيا في هـذا العصر الحصيف ، خرقاء بدائية على نحو مضحك · أما في تلك الايام فكان التأمين مسألة جدية الى حد بالغ · والعنصر الطريف فيها هو أن الموظفين المكلفيـن بالحفاظ على أموال شركات التأمين وتدبيرها كثيرا ما كانوا هم انفسهم ينهبون تلك الاموال ويبددونهـا ·

فسألته :

ـ « وانت ، كم يتقاضونك ؟ »

وما ان طرحت عليه سؤالي هذا حتى وعيت قلقا لم يكن بقليل ٠

فأجابنـــي في غيــر مبالاة :

ـ « اوه ، ان تعرضي للاذى او القتل ـ بوصفي رجلا ثوريا ـ هـــو اكثر من تعرض العامل لهذين الخطرين بثماني مرات تقريبا ٠ فشــركـــات التأمين تقتضي الكيميائيين البارعين الذين يشتغلون في المتفجرات ويقلبونهــا بأيديهم ثمانية اضعاف ما تقتضي العمال ٠ ولست احسب انهم يرغبــون في التأمين على حياتي بأي ثمن ٠ لماذا وجهت الي هذا السؤال ؟ »

وصفق قلبي ، واستطعت ان أحس بالدم حارا في وجهي ٠ ولم يكن ذلك لانه امسك بي متلبسة بالقلق ، ولكن لاني أمسكت بنفسي على تلك الحال ، وفي حضرتــه ٠

في تلك اللحظة دخل ابي وشرع يعد العدة للانصراف معـــي ٠ وأعــاد ارنست بضعة كتب كان قد استعارها ، ومضى لسبيله قبلنا ٠ ولكنه ما ان خطا خطوات معدودة حتى استدار وقال :

ـ « أوه ، بالمناسبة ، فيما أنت تقوضين أمنك العقلي وفيما أنا اقوض امن الاسقف يحسن بك ان تعرجي على السيدة ويكسون والسيدة بيرتونوايث ان زوجيهما ، كما تعرفين ، هما حاملا الاسهم الرئيسيان في مصنع سييرا ٠ وهاتان السيدتان ، مثل البشر جميعا ، موثقتان الى الآلة ، ولكن على نحــو يجعلهما متربعتين في قمتها ٠ »

الفصل الرابع

عبيد الآلة

كنت كلما فكرت في ذراع جاكسون يتعاظم انتفاضي · لقد واجهت الواقع · وللمرة الاولى قدر لي ان ارى الحياة · ان دراستي وثقافتي وحياتي الجامعية لم تكن واقعية · انا لم اتعلم ثمة غير نظريات في الحياة والمجتمع كانت تبدو حسنة جدا على القرطاس المطبوع ، اما الان فقد رأيت الحياة نفسها · كانت ذراع جاكسون حقيقة من حقائق الحياة · وكانت كلمة ارنست « الحقيقة ، الانسان ، الحقيقة التي لا تدحض » ترن في وجداني ·

لقد بدا لي ان من الرهيب ، من المتعذر ، ان يكون مجتمعنا كله مبنيا على الدم · ومع ذلك ، فقد كان ثمة جاكسون · أنا لم استطع ان أنأى بنفسي عنه · كان فكري يرتد نحوه ، على نحو موصول ، كما ترتد ابرة البوصلة الى القطب · لقد عومل معاملة راعبة ، ولم يعوض عن دمه المسفوح لكي يكون في ميسور الشركة ان تدفع الى حملة الاسهم ربحا أعظم · ولقد عرفت عشرات من الاسر الراضية السعيدة التي تلقت هذه الارباح ، فافادت ـ كل على قدرها ـ من دم جاكسون · واذا جاز ان يعامل رجل فرد مثل هذه المعاملة الرهيبة ويظل المجتمع سائرا في طريقه لا يلوي على شيء أفليس يجوز ان يعامل جمهرة من الرجال هذه المعاملة نفسها ؟ وتذكرت نسوة تشيكاغو اللواتي تحدث عنهن ارنست واللواتي يكدحن اسبوعا كاملا من اجل تسعين سنتا ، والاطفال الذين اشار اليهم والذين كانوا يعملون كالعبيد في مصانع القطن الجنوبية · وكان في ميسوري ان أرى ايديهم البيضاء الشاحبة التي اعتصر منها الدم تعمل على صنع القماش الذي خيط منه فستاني · وعندئذ فكرت في مصنع سييرا وفي الارباح التي دفعت ، فرأيت دم جاكسون على فستاني أنا أيضا · لا ، لم يكن في استطاعتي أن أولي من جاكسون فرارا·

كانت تأملاتي تردني اليه على نحو موصول ٠

وهناك في اعمق أعماقي غلب علي شعور بأني أقف على شفا جرف هار ٠ لقد بدا وكأنني على وشك ان أرى صورة للحياة جديدة رهيبة ٠ ولم اكن أنا وحدي اعاني هذه الازمة الروحية ٠ فقد كان عالمي كله ينقلب رأسا على عقب٠ كان ثمة أبي ٠ ولقد استطعت ان ارى الاثر الذي كان ارنست قد شرع يتركه في نفسه ٠ وكان ثمة الاسقف ، ايضا ٠ لقد بدا ، حين رأيته اخر مرة ، رجلا مريضا ٠ كان يعاني توترا عصبيا عاليا ، وكان في عينيه فزع يمتنع على الوصف ٠ ومن القليل الذي اتصل نبأه بي ، عرفت ان ارنست كان مقيما على عهده بأن يريه جهنم رأي العين ٠ أما أي مشاهد جهنم رأتها عينا الاسقف فذلك ما لم أعرفه ، ذلك بأنه بدا مشدوها الى درجة جعلته يمسك لسانه عن الكلام عليها ٠

وذات مرة ، وكان ذلك الشعور مستبدا بي حتى لقد انقلب عالمي الصغير والعالم كله رأسا على عقب ، فكرت في ارنست بوصفه هو السبب في ذلك كله ٠ وقلت في ما بيني وبين نفسي ايضا : « لقد كنا سعداء جدا ، آمنين السرب جدا ، قبل ان يجيء ! » وبعد لحظة وعيت ان تلك الفكرة كانت خيانة للحقيقة ، وبرز ارنست امام عيني متجليا على صورة رسول الحقيقة : في اشراق جبين ، وجراءة ملاك من ملائكة الله ، يناضل من اجل الحقيقة والحق ويكافح من اجل انجاد الفقراء والمتوحدين والمضطهدين ٠ وعندئذ برزت امام ناظري صورة اخرى : المسيح ! كان هو ايضا قد انحاز الى وصف المتوحدين والمضطهدين ، متحديا سلطان الكهان والفريسيين ٠ وتذكرت نهايته على الصليب ، وانقبض صدري بمثل النزع الاخير حين فكرت في ارنست ٠ هل قدر عليه ، هو ايضا ، ان يموت على صليب ؟ ـ هو ، بدعوته النفيرية ونبرته الحربية ، وكل ما في برديه من قوة الرجل الذكي وعزمه ٠

وفي تلك اللحظة عرفت اني احبه ، واني كنت اتحرق بالرغبة الى اسعاده ٠ وفكرت في حياته ٠ لا ريب في أنها كانت حياة هزيلة ، قاسية ، بائسة ٠ وفكرت في أبيه الذي كذب وسرق من اجله ، والذي أكره على العمل حتى الموت ٠ وهو نفسه اضطر الى العمل في المصانع وهو بعد في العاشرة من عمره ! وبدا لي وكأن فؤادي كله يتفجر توقا الى تطويقه بذراعي ، والى اراحة رأسه على صدري ـ رأسه الذي كان من غير ريب مضنى بأفكار وهموم كثيرة ، والى منحه الراحة ـ مجرد الراحة ـ والسلوان والنسيان طوال فترة رخصة من الزمان ٠

والتقيت الكولونيل انغرام في حفلة من حفلات الكنيسة · والواقع انــي كنت اعرفه معرفة جيدة ، وكنت اعرفه جيدا منذ سنوات عدة · لقد اوقعته في الشرك خلف نخلات وشجرات مطاط ضخام ، برغم انه لم يدر أنه قد وقع · والتقاني ببهجته وكياسته المعهودتين · فقد كان أبدا رجلا دمثا يحسن سياسة الناس ، رجلا لبقا رصينا . أما من حيث المظهر ، فقد كان أبرز رجل فـــي مجتمعنا · كان رئيس الجامعة الجليل نفسه يبدو الى جانبه تافها وصغيرا ·

ومع ذلك فقد وجدت الكولونيل انغرام راسفا بمثل اغلال الميكانيكيين الاميين · انه لم يكن يملك حرية التصرف · كان هو نابضا موثقا الى دواليب الآلة · ولن انسى ما حييت التغير الذي طرأ عليه حين اشرت الـــى قضية جاكسون · لقد تلاشت دماثته البسامة مثل شبح · وشوهت وجهه المهـذب انطباعة مفاجئة رهيبة · واستشعرت مثل الذعر الذي استشعرته عندما انفجر جايمس سميث · ولكن الكولونيل انغرام لم يجدف ولم يلعن · وكان هذا هو الفرق الضئيل الذي ابقي بينه وبين العامل · كان معروفا بالنباهة وحضور الذهن ، ولكنه كان عاطلا الان ، عن هاتين الميزتين · وعلى نحو غير واع راح يجيل طرفه ههنا وههناك التماسا لطريق تنجيه مني · ولكنه كان قـد وقع في الشرك وسط النخلات وشجرات المطاط ·

أوه ، لقد أسقمه سماع اسم جاكسون · لماذا أثرت هذه القضية ؟ انـه لم يستسغ نكتتي · لقد كان ذلك قلة ذوق مني وعدم تبصر · ألم أكن اعلـم ان الاحاسيس الشخصية لا تقدم ، في مهنته ، ولا تؤخر ؟ لقد ترك احـاسيسه الشخصية في البيت عندما مضى الى مكتبه ، وفي المكتب لم تكن لديه غيـــر أحاسيس مهنته ·

وسألتـــه :

– « هل كان من حق جاكسون ان ينال تعويضا ؟ »

فأجـــاب :

– « من غير شك · أعني انني ، شخصيا ، اشعر ان من حقه ان ينـال تعويضا · ولكن هذا لا علاقة له البتة بالوجوه القانونية للقضية » ·

كان قد شرع يستجمع حضور ذهنه المبدد ويهيمن عليه ·

وسألتـــه :

– « قل لي ، هل للحق Right اي علاقة بالقانون ؟ »

فأجاب مبتسما :

– « لقد استعملت الحرف الصامت المغلوط في أول الكلمة » ·

فقلت مستفهمة :
ـ « تقصد انه كان علي ان قول : Might (القوة) ؟
فهز رأسه أن نعم ·
وأضفت :
ـ « ومع ذلك فيفترض فينا ان نحصل على العدالة بواسطة القانون » ؟
فأجاب :
ـ « ذلك تناقض ظاهري ليس غير · اننا نحصل على العدالة فعلا » ·
فسألته :
ـ « انت تتكلم بمنطق المهنة ، الان ، اليس كذلك ؟ »
فشاع الدم في وجه الكولونيل انغرام ، شاع بكل ما في الكلمة من معنى ، وكرة اخرى اجال بصره في ما حوله التماسا لسبيل من سبل الفرار · ولكني اعترضت طريقه ، ولم أبد اي رغبة في الانصراف ·
وقلت :
ـ « قل لي ، حين يتخلى المرء عن أحاسيسه الشخصية لاحاسيسه المهنية ألا يمكن أن يوصف هذا العمل بأنه ضرب من التمثيل* الروحي ؟ »
ولم أفز بجواب · كان الكولونيل انغرام قد ولى فرارا ، على نحو غير ماجد · · ·
وبعد ذلك جربت الصحف · لقد كتبت عرضا هادئا ، موزونا ، غير متحيز لقضية جاكسون · ولم اوجه ايما تهمة الى الرجال الذين كنت قد تحدثت معهم ، بل لم اسمهم ايضا · لقد بسطت حقائق القضية الواقعة ، السنوات الطويلة التي سلخها جاكسون وهو يعمل في المصنع ، ومحاولته انقاذ الآلة من الاذى ، والحادث الذي تلا ذلك · وحالته الحاضرة البائسة ، الجائعة · ولكن الصحف المحلية اليومية الثلاث رفضت نشر رسالتي وكذلك فعلت المجلتان الاسبوعيتان ·
وأمسكت بتلابيب بيرسي لايتون · كان خريجا من خريجي الجامعة ، درس الصحافة ، وكان يمضي انذاك فترة تدربه كمراسل لاقوى تلك الصحف الثلاث وأبعدها نفوذا · ولقم ابتسم عندما سألته عن السبب الذي من أجله أغفلت الصحف كل اشارة الى جاكسون او الى قضيته ·
وقال :
ـ « سياسة قلم التحرير · ليس لنا نحن اية علاقة بهذه الامور ، ان

* مثل بالقتيل : جدعه وظهرت اثار فعله عليه تنكيلا ·

رئيس التحرير هو الذي يقرر ذلك » ٠
فسألتـــه :
ـ « ولكن ما صلة هذه المسألة بسياسة الصحيفة ؟ »
فأجـــاب :
ـ « نحن كلنا نقف صفا واحدا مع الشركات ٠ وحتى لو دفعت التعرفة الاعلانية لما استطعت ان تنزلي مما كتبت حرفا واحدا في تلك الصحف ٠ ولو قد حاول احدنا ان يدسها في احدى الصفحات دسا ، اذن لخسر وظيفتـــه ٠ بل انك ما كان في امكانك ان تطمعي في نشر مقالك ولو دفعت عشرة اضعـــاف التعرفة الاعلانية ٠ »
« ـ وسياستك انت ؟ يبدو لي ان مهمتك هي تحريف الحقيقة نزولا عند أمر مستخدميك ، الذين يطيعون ـ هم بدورهم ـ مشيئة الشركات » ٠
ـ « انا لا علاقة لي البتة بذلك » ٠ وبدا عليه الضيق لحظة ، ثم أشرق وجهه حين لمح سبيلا الى الخلاص ٠ « انا ، شخصيا ، لا اكتب اشياء تنافي الحقيقة ٠ اني استوحي ضميري قبل كل شيء ٠ طبعا ، هناك اشياء تعافها النفس في العمل اليومي ٠ ولكن هذه كلها ، كما ترين ، لا تعدو ان تكـــون جزءا لا يتجزأ من العمل اليومي » ٠
على هذا النحو الصبياني ، ختم حديثه ٠
« ومع ذلك فأنت تتوقع ان تجلس على كرسي رئيس التحرير ، في يـــوم من الايام ، ان توجه سياسة الصحيفة ٠٠٠ »
فكان جوابـــه :
ـ « الى ان يحين ذلك يكون معدني قد أصبح صلبا قاسيا » ٠
ـ « وما دام معدنك لم يصبح صلبا قاسيا بعد قل لي ما رأيك ، في هـــذه اللحظة الحاضرة ، في سياسة رؤساء التحرير العامة » ٠
فسارع الى الاجابة :
ـ « ليس لي رأي ، ان المرء لا يستطيع ان يرفس الحبال اذا كـــان يطمح الى النجاح في الصحافة ٠ هذا مقدار ما علمتني اياه الايام ، علـــى أيـــة حال »
وهز رأسه الغض هزة الرجل العاقل الحكيم ٠
فاصـــررت :
ـ « والحق ؟ »
ـ « انت لا تفهمين اللعبة ٠٠ لا ريب في ان ذلك كله حق لانه ينتهي الى

نتيجة حسنة · ألا ترين ؟ »

فغمغمــــت :

ـ « كلام غامض على نحو بهيج » ·

ولكن فؤادي كان يتوجع أسفا على هذا الشاب ، واستشعرت ان علـي اما ان اصرخ واما ان انخرط في البكاء ·

كان بصري قد شرع ينفذ الى ما وراء مظاهر المجتمع الذي عشت فيه دائما ، ويكتشف الحقائق الرهيبة المحجوبة تحتها · لقد بدا وكأن مؤامرة ضمنية حيكت ضد جاكسون · واستشعرت رعشة عطف على المحامي المتظلم الذي كان قد دافع عن قضيته دفاعا غير ماجد · ولكن هذه المؤامرة الضمنية أخذت تكبر وتتسع · انها لم تكن موجهة ضد جاكسون وحده · لقد وجهت ضد كل عامل شوه المصنع خلقته او أفقده عضوا من اعضائه · واذا وجهت الى كل امرىء في المصنع فلم لا تكون موجهة الى كل امرىء في جميع المصانع الاخرى ؟ الا ينطبق هذا على الصناعات كلها ؟

واذا كان ذلك كذلك فعندئذ يكون المجتمع اكذوبـــة · واجفلت مـــن استنتاجاتي هذه · فقد كانت من الفظاعة بحيث يشك المرء في واقعيتها ولكـن كان ثمة جاكسون ··· وكانت ثمة ذراع جاكسون ، والدم الذي لطخ فستاني ، والذي كانت قطراته تسيل من عوارض السقف في بيتنا · وكان ثمة كثير من مثل جاكسون ـ مئات منهم في مصنع سييرا وحده ، كما كان جاكسون نفسه قد قال · لا ، لم يكن في وسعي ان انسى جاكسون او أتناساه ·

واجتمعت الى السيد ويكسون والسيد بيرتونوايت ، الرجلين اللذيـن يحملان كثرة الاسهم في مصنع سييرا · ولكني لم استطع ان اهز وجدانهمـا كما قد هززت وجدان الميكانيكيين المشتغلين في خدمتهما · لقد اكتشفت ان لهما اخلاقية فوق اخلاقية سائر افراد المجتمع · وهي ما استطيع ان ادعوه الاخلاقية الارسطوقراطية او اخلاقية الاسياد ٣٢ · كانا يتحدثان في السياسة علـــى نطاق واسع ، وكانا يعتبران السياسة والحق شيئا واحدا · ولقد تحدثـــا الي بطريقة أبوية ، مترفقين بشبابي وقلة خبرتي · والواقع اني قطعت الرجاء من اقناعهما بخطل موقفهما كما لم أقطعه مع اي ممن اتصلت بهم في استطلاعي ذاك · فقد اعتقدا اعتقادا جازما بأن مسلكهما كان سليما · لم يكن ثمـــة

---

٣٢ قبل ان تولد آيفيس ايفر هارد كتب جون ستيوارت مل مقالة دعاها « في الحرية »، وقد جاء في تلك المقالة : « حيثما تنشأ طبقة سائدة نجد ان جزءا كبيرا مـــن الاخلاق ينبع من مصالحها الطبقية ومن أحاسيسها الطبقية بالاستعلاء والامتياز » ·

مجال ، عندهما ، للشك في ذلك او لمناقشته · وكانا مقتنعين بأنهما منقذا المجتمع ، وبأنهما هما اللذان كانا يدخلان السعادة على قلوب كثير من الناس· ولقد رسما صورا مؤثرة للآلام التي كان خليقا بالعمال ان يعانوها لولا فرص العمل التي كانا هما ، وهما وحدهما ، يتيحانها لهم ، بحكمتهما وبعد نظرهما ·

وبعيد اتصالي بهذين الرجلين المتمتعين بأعظم النفوذ التقيت ارنست وحدثته بنتائج استطلاعي ، فنظر الي والارتياح باد على محياه ، وقال :

– « هذا رائع حقا · لقد بدأت تبحثين عن الحقيقة بنفسك · انه تعميم تجريبي انتهيت اليه بجهدك الخاص ، وانه لصحيح · ليس ثمة رجل حر التصرف بين المشتغلين في دنيا الآلة الصناعية ، ما خلا الرأسمالي الكبير ، وليس هو بحر التصرف ، اذا غفرت لي هذا الاسلوب الايرلندي ٣٣ · وهكذا ترين ان الاسياد واثقون كل الثقة من انهم مصيبون في ما يفعلون · وتلك هي قمة السخف في الموقف كله · انهم موثقون الى طبيعتهم البشرية الى حد يجعلهم لا يستطيعون ان يفعلوا شيئا الا اذا اعتقدوا انه عدل · انهم يحتاجون دائما الى فتوى تدعم أعمالهم وتسمها بسمة القبول · »

« وهم حين يريدون ان يفعلوا شيئا ، على صعيد الاعمال التجارية والصناعية طبعا ، مضطرون الى الانتظار ريثما ينشأ في عقولهم ، بطريقة ما تصور ديني ، او اخلاقي ، او علمي ، او فلسفي ، يشعرهم بأن ذلك الشيء عادل · وعندئذ يتقدمون الى فعله ، غافلين عن ان من مواطن الضعف في العقل البشري ان الرغبة هي ام الفكرة · وأيا ما كان العمل الذي يرغبون في القيام به فان الفتوى تسعفهم دائما · انهم سفسطائيون سطحيون · انهم « جزويتيون » احتياليون · ليس هذا فحسب ، بل انهم ليعتقدون ان العدل ينبثق من طريقتهم في انزال الظلم · ومن الاساطير الماتعة المتعارفة التي خلقوها انهم اسمى من سائر افراد الجنس البشري حكمة وفعالية · ومن ههنا تنبثق فتواهم التي تخولهم حق الاشراف على خبز سائر افراد الجنس البشري وزبدتهم · بل لقد ذهبوا الى ابعد من ذلك ، فبعثوا من العدم نظرية حق الملوك الالهي – أليسوا هم ملوكا تجاريين ؟ ٣٤

---

٣٣ كانت التناقضات اللفظية ، ويدعونها Bulls (الاخطاء المضحكة) ضعفا محببا عند الايرلنديين القدامى ·

٣٤ عزت الصحف الصادرة في العام ١٩٠٢ من تلك الحقبة الى رئيس « تروست فحم الانتراسايت » ، جورج ف· باير ، اعلان المبدأ التالي : « ان حقوق ومصالح

« ان عنصر الضعف في موقفهم كامن في انهم مجرد رجال اعمال ٠ انهم ليسوا فلاسفة ٠ انهم ليسوا بيولوجيين ولا علماء اجتماع ٠ ولو قد كانـوا كذلك اذن لكان كل شيء حسنا ٠ فرجل الاعمال ، الذي يجمـع الى هـذه الصفة صفة العالم البيولوجي والعالم الاجتماعي ، خليق به ان يعرف ــ على وجه التقريب ــ الشيء الذي يحسن به ان يصنعه لصالح الانسانية ٠ ولكن هؤلاء الرجال هم ، خارج نطاق الاعمال التجارية ، حمقى مغفلون ٠ انهم لا يعرفون غير العمل التجاري ٠ انهم لا يعرفون لا الجنس البشري ولا المجتمع، ومع ذلك ينصبون نفسهم قضاة يتحكمون في مصائر ملايين الجياع وجميـع الملايين البشرية الاخرى التي تخلى عنها المجتمع ٠ ان التاريـخ لا بد ان يطلق ، في يوم من الايام ، ضحكة جارحة على حسابهم » ٠

ولم يأخذني العجب عندما تحدثت الى السيـدة ديكسون والسيـدة بيرتونوايت ٠ لقد كانتا سيدتين من سيدات المجتمـع [35] ٠ كانت بيوتهما قصورا ٠ وكان لهما بيوت كثيرة متفرقة في البلاد : في الجبال ، وعند البحيرات وعلى شواطيء البحر ٠ كان يسهر على راحتهما جيش من الخدم ، وكانت نشاطاتهما الاجتماعية مذهلة ٠ لقد شملتا الجامعة والكنائس برعايتهمـا ، ولقد ركع القسس بخاصة عند اقدامهما في خضوع ذليل [36] ٠ كانتا قوتيـن هائلتين ، هاتان المرأتان ، بسبب من الاموال التي كانت ملكا لهما ٠ وكانت قوة رعاية الفكر ومناصرته بالمنح والهبات طوع ايديهما الى حد بعيد ، كما علمت بعد قليل من الدروس التي لقنني اياها ارنست ٠

لقد قلدتا زوجيهما وتحدثتا على النطاق الواسع نفسه عن السياسة ، وعن واجبات الاغنياء ومسؤولياتهم ٠ وكانت تهيمن عليهما الاخلاقية نفسها

العامل سوف يصونها الرجال المسيحيون الذين منحهم الله ، في حكمته اللامتناهية، ثروات البلاد وحق امتلاكها » ٠

٣٥ ان لفظة « المجتمع » هنا مستعملة في معنى خاص محدود ، وهو تعبير شائـع من تعابير تلك الايام كانوا يعنون به النسوة الكسالى المتحليات بالذهب واللواتي كـن لا يقمن بأي عمل غير اتخام انفسهن من دنان العسل التي يتعب العمال في جنيها ٠ فلا رجال الاعمال ولا العمال كانوا يجدون متسعا من الوقت او فرصة من الفرص لولوج باب « المجتمع » ٠ لقد كان « المجتمع » اختراع الاغنياء العاطلين الذين لم يعرفوا الكدح والذين انفقوا حياتهم في اللهو والعبث ٠

٣٦ « ايتوا باموالكم الملطخة بالعار » ، تلك كانت العاطفة التي صرحت بها الكنيسة في ذلك العهد ٠

التي سيطرت على زوجيهما ـ اخلاقية الطبقة التي انتسبتا اليها · وكانتا تنطقان بعبارات دربة لم تكن آذانهما نفسها تفهم معناها ·

واستبد بهما الحنق حين حدثتهما عن الحالة المحزنة التي تردت فيها اسرة جاكسون وحين أبديت عجبي لعدم مدهما يد المساعدة الطوعية الى ذلك الرجل · وقيل لي انهما ما كانتا لتحمدا لاي امرىء لفت نظرهما الى واجباتهما الاجتماعية · وعندما طلبت اليهما في صراحة ان تسعفا جاكسون رفضتا طلبي في صراحة مماثلة · والمذهل في الامر انهما رفضتا ذلك بعبارات تكاد تكون متماثلة ، برغم اني قابلت كلا منهما على انفراد ، وبرغم ان احداهما لم تعرف اني كنت قد رأيت او كنت أعتزم ان ارى الاخرى · كان جوابهما المشترك انهما سعيدتان بأن تتاح لهما الفرصة للنص في وضوح لا يعتوره لبس على انهما لن تعمدا في اي يوم من الايام الى مكافأة المهملين على اهمالهم ، ولن تغريا الفقراء بايقاع الاذى بأنفسهم ، قصدا وعمدا ، بواسطة آلات المصنع ٣٧ ·

وكانتا صادقتين ··· هاتان المرأتان · كانتا ثملتين بالايمان بتفوق طبقتهما وتفوقهما الذاتي · كانتا تملكان فتوى مبررة ، وفق اخلاقية طبقتهما الخاصة ، لكل عمل كانتا تأتيانه · وفيما كانت العربة تنأى بي عنمنزل السيدة بيربونوايث الكبير التفت اليه وتذكرت قول ارنست ان تينك السيدتين موثقتان الى الآلة ، ولكن على نحو يجعلهما متربعتين على قمتها ·

---

٣٧ في مجموعات مجلة « استشراف » Outlook ، وهي صحيفة اسبوعية نقدية من صحف تلك الايام ، وفي عددها المؤرخ في ١٨ آب (اغسطس) عام ١٩٠٦ نبأ عن عامل فقد ذراعه · وتفاصيل قصة هذا العامل تشبه شبها كاملا قضية جاكسون كما روتها آيفيس ايفرهارد ·

الفصل الخامس

الفيلوماثيون

وشرع ارنست يختلف الى بيتنا حينا بعد حين · ولم يكن مجرد الاجتماع الى ابي ، ولا المآدب الحافلة بالجدل والمناظرة ، الجاذب الذي دعاه الى التعريج علينا · فحتى في تلك الفترة تمدحت ، في ما بيني وبين نفسي ، بأنني لعبت دورا جريئا في حمله على الاكثار من زيارتنا ، وسرعان ما كشفت لي الايام عن صدق حدسي · ذلك بأن تاريخ الحب لم يعرف قط عاشقا مثل ارنست ايفرهارد · لقد ازدادت نظرته ومصافحته قوة وثباتا ، لو كان ذلك ممكنا · والسؤال الذي نشأ منذ البدأ في عينيه لم تزده الايام الا الحاحا ·

لقد كانت انطباعتي عنه ، ، اول ما رأيته ، غير مشجعة · ثم اني وجدت نفسي منجذبة اليه · وبعد ذلك استشعرت نفورا منه ، عندما هاجمني على ذلك النحو الضاري وهاجم طبقتي الاجتماعية · ومن ثم ـ وكنت قد أخذت أرى انه لم يطعن على طبقتي في غير وجه حق ، وان الاشياء المريرة القاسية التي قالها عنها كان لها ما يبررها ـ من ثم ألفيت نفسي منجذبة اليه كرة أخرى · لقد أصبح نبيي · لقد نزع بالنسبة الي ، برقع الرياء عن وجه المجتمع ، وفتح عيني على لمحات من الحقيقة كانت مريرة بقدر ما كانت صحيحة على نحو لا سبيل الى انكاره ·

ان تاريخ الحب لم يعرف قط ، كما قلت ، عاشقا مثله · والواقع انه ما من فتاة في ميسورها ان تحيا في مدينة جامعية حتى تبلغ الرابعة والعشرين من غير ان تتم لها بعض الخبرات الغرامية · كان قد راودني عن نفسي شباب مرد من طلاب السنة الثانية في الجامعة ، وأساتذة جامعيون وخط الشيب رؤوسهم ، ورياضيون وعمالقة من لاعبي كرة القدم · ولكن أيا من هؤلاء لم يراودني عن نفسي كما قد فعل ارنست · لقد طوقتني ذراعاه

قبل أن أدري . وأطبقت شفتاه على شفتي قبل ان أوفق الى الاحتجاج او المقاومة . لقد كانت كبرياء العذراء التقليدية شيئـــا مضحكا أمام جـــده وحماسته . ولقد ملك عواطفي باندفاعه الرائع الذي لا يغلب . انه لم يقصد الى ذلك . لقد طوقني بذراعيه ، وقبلني ، واعتبر ان من واجبنا كأمر مسلـــم به ان نتزوج . ولم تكن هذه المسألة لتحتمل ، عنده ، جدلا او نقاشا . ان النقاش الوحيد الذي نشأ حول ذلك ـ ولقد نشأ في ما بعد ـ انما دار حـــول موعد الزواج .

لقد كان ذلك شيئا لم يسبق الى مثله . كان أمرا أقرب الى الخيـــال . ومع ذلك ، فان زواجنا ـ اذا اصطنعنا في الحكم عليه محك ارنست للحقيقة ـ كان ناجحا . لقد وهبته حياتي . ولقد كان هذا قرارا سعيدا . ومع ذلـــك ، ففي أيام حبنا الاولى استبد بي الخوف من المستقبل عندما فكرت في مغازلته، وعلى الرغم من هذا فقد كانت هذه المخاوف باطلة . فلم يقيض لاي امرأة ان تنعم بزوج أرق وأكثر حنانا منه . وهذه الرقة وذلك العنف عنده كانا مزيجا غريبا مماثلا لذلك المزيج السلوكي الذي اشرت اليه من قبل والمؤلف من خرق ورشاقة . يا لذلك الخرق الطفيف ! انه لم يوفق الى التغلب عليه قط ، ولقد كان حلوا محببا الى القلب . والحق ان سلوكه في قاعة الاستقبال في بيتنـــا ذكرني بثور حذر في دكان من دكاكين الخزف ٣٨ .

في هذه الفترة بالذات تلاشى آخر ظل لشكي في اكتمال حبي له (ولقد كان شكا لا واعيا ، في الغالب) . وكان هذا في ليلة رائعة دارت فيها المعركة ، في نادي الفيلوماثيين ، حيث تحدى السادة في عرينهم . وانما كان نـــادي الفيلوماثيين هذا هو النادي الاكثر امتيازا في شاطىء المحيط الهادىء . وكان من خلق المس برينتوود ، وهي عانس ذات ثراء هائل . كان ذلك النادي هـــو زوجها ، وأسرتها ، ودميتها . وكان أعضاؤه اغنى افراد مجتمعنا ، واقوى الاغنياء عقلا . بالاضافة ـ طبعا ـ الى عدد محدود من العلماء لاضفاء الصبغة الفكرية على المؤسسة .

ولم يكن لنادي الفيلوماثيين مقر . فهو لم يكن من ذلك الضرب مـــن

---

٣٨ في تلك الايام كانت العادة لا تزال تقضي بأن يملأ الناس غرف الجلوس بمختلف الطـرف العتيقـة . انهـم لـم يكونوا قـد اكتشفوا بساطـــة العيش بعـد . ولقـد كانـت تلـك الغـرف متاحـف يقتضي الحفاظ على نظافتهـا جهدا موصولا لا نهاية له . كان « شيطان الغبار » هو سيد البيت . فقد كانت ثمة الاف مـــن الوسائل لالتقاط الغبار ، ولكن لم يكن ثمة غير وسائل قليلة للتخلص منه .

النوادي · ان اعضاءه كانوا يجتمعون مرة كل شهر في بيت واحد منهم للاستماع الى محاضرة · وكانت المحاضرات عادة ، ولكن ليس دائما ، محاضرات مأجورة · فاذا ما وفق كيميائي في نيويورك الى اكتشاف جديد في حقل الراديوم مثلا دفع اليه النادي جميع نفقات انتقاله عبر القارة ، وقدم اليه فوق ذلك تعويضا سخيا عن وقته · والشيء نفسه كان يفعله النادي مع مكتشف عائد من الاصقاع القطبية ، او مع اديب او فنان احرز منذ برهة قصيرة نجاحا مرموقا · ولم يكن ليجيز ان يتسرب شيء من مناقشاته الى الصحف · وهكذا كان في ميسور كبار السياسيين ورجال الدولة ــ وما كان اكثر المناسبات التي كانت تتاح لهم ــ ان يعبروا عن افكارهم تعبيرا كاملا ·

لقد نشرت امامي الان رسالة متغضنة كتبها الي ارنست منذ عشرين عاما ، وها انذا انسخ عنها ما يلي :

« ان والدك عضو في نادي الفيلوماثيين ، وهكذا ففي امكانك ان تحضري· تعالي ، اذن ، مساء الثلاثاء القادم · و انا اعدك بأن تلك الليلة سوف تكون أروع ليالي عمرك · لقد عجزت ، في مقابلاتك الاخيرة ، عن زعزعة السادة الارستقراطيين ، ولكني سوف ازعزعهم لك اذا جئت · سوف أجعلهم يعوون كالذئاب · لقد أبديت انت شكك في اخلاقيتهم ليس غير ، والواقع ان الشك في اخلاقيتهم لا يزيدهم الا لطفا وشعورا بالامتياز · اما انا فسوف أهدد بالخطر جيوبهم · ان ذلك يهزهم حتى جذور طبائعهم البدائية · واذا استطعت ان تجيئي فلا بد ان تري رجل الكهف ، في ثياب السهرة ، يعوي وينهش عظمة من العظام · اني اعدك بأن تسمعي مواء كثيرا ونفاذا بصيرا الى طبيعة البهيمة ·

« لقد دعوني لكي يمزقوني اربا اربا · تلك هي فكرة المس برينتوود · لقد ألمعت الى ذلك ، في شيء من الخرق ، عندما دعتني · ولقد سبق لها ان أتاحت لاعضاء النادي هذا الضرب من الهزل الساخر · انهم يبتهجون في ان يروا المصلحين الآمنين الوادعين يمثلون امامهم · والمس برينتوود تعتقد اني وديع مثل هرة صغيرة ، ساذج غبي مثل بقرة الاسرة · ولست انكر اني ساعدتها على تكوين تلك الانطباعة · كانت كثيرة الحذر والتردد بادىء الامر ، حتى اكتشفت بالحدث اني لست بمؤذ ولا ضار · انهم سوف يدفعون الي مكافأة حسنة ــ مئتين وخمسين دولارا ــ تليق بالرجل الذي رشح نفسه ذات مرة، على الرغم من انه راديكالي ، لمنصب حاكم الولاية · والى هذا ، فان علي ان أرتدي بذلة سهرة ، ذلك شيء الزامي · والحق اني لم أرتد مثل

هذه البذلة في أي يوم من أيام حياتي . وأحسب انـي سوف اضطر الـى استئجارها من مكان ما . ولكني مستعد لان افعل اكثر من ذلك في سبيـل الفوز بفرصة تتيح لي الكلام في نادي الفيلوماثيين » .

تلك الليلة التأم شمل اعضاء النادي الوافدين من كل حدب وصوب في بيت آل بيربونوايت . وكان اصحاب الدار قد جاؤوا بكراسي اضافية الى قاعة الاستقبال الكبرى ، فقد كان عدد الفيلوماثيين الذين قعدوا للاستمـاع الى ارنست لا يقل عن المئتين بحال . لقد كانوا سادة المجتمع حقا . وسليت نفسي بأن استعرضت في ذهني مجموع الثروات التي كانوا يمثلونها ، فاذا بها تبلغ مئات الملايين . ولم يكن اصحابها من كسالى الاغنياء . كانـوا رجال اعمال لعبوا أدوارا فعالة الى ابعد الحدود في الحياتين الصناعيـة والسياسية .

وكنا كلنا قد اتخذنا مقاعدنا عندما وفدت المس برينتوود وأدخلت ارنست علينا . وتقدما في الحال الى صدر القاعة ، وهو الموضع الذي كان مقررا ان يلقي منه خطابه . كان يرتدي بذلة سهرة ، ولقد بدا بسبب من منكبيه العريضين ورأسه المهيب ، رائعا بهيا . والى هذا ، فقد كان ثمة مسحة الخرق الخفيفة الواضحة في حركاته . ويكاد يخيل الي انه كان في امكاني ان احبه من اجل هذا ليس غير . وعندما اجلت الطرف في ما حولي استشعرت ابتهاجا عظيما. لقد أحسست كرة اخرى ، بنبض راحة يده على راحة يدي ، ولمسة شفتيه . وغلب علي الاعتزاز الى حد غامر حتى لقد استشعرت ان من واجبي ان انهض واصرخ على مسمع من الجمع الحاشد : « انه فتاي ! لقد ضمني بين ذراعيه، وانا ــ انا وحدي ــ استطعت ان املأ ذهنه على نحو كاد يشغله عن جميـع فكراته التي لا تعد ولا تحصى ! »

وفي صدر القاعة قدمته المس برينتوود الـى الكولونيل فان جيلبرت ، وعرفت ان هذا الاخير سوف يرئس الاجتماع . وكان الكولونيل فان جيلبرت محاميا كبيرا من محامي الشركات . وفوق هذا ، كان ذا ثراء هائل . وكان اصغر تعويض اتعاب يتنازل للنظر فيه هو مئة الف دولار . كان اماما مـن أئمة القانون ، وكان القانون دمية يعبث بها كيف يشاء . لقد قولبه وكأنـه الطين ، ولواه وحرفه وكأنه احجية صينية على اي شكل احب . كان مـن حيث المظهر والاسلوب البلاغي تقليديا عتيق الزي ، امـا من حيث الخيال والمعرفة والدهاء فكان اكثر جدة وفتاء من اخر قانون سن للناس . وانمـا

لم نجمه اول ما لمع عندما نقض وصية شاردويل ٣٩ · ولقد تقاضى على هذا العمل وحده خمسمئة الف دولار · ومنذ ذلك الحين ارتفع ارتفاع الصاروخ· وكثيرا ما كان يدعى محامي البلاد الاكبر · والمراد بلفظة « محام » هنا محامي الشركات طبعا · وما كان يمكن لايما تصنيف لاعظم ثلاثة محامين في الولايات المتحدة ان يغفله ·

وذهض وشرع يقدم ارنست في عبارات قليلة منتقاة في عناية ، عبارات تحمل ظلا من سخرية خفيفة · ولقد كان الكولونيل فان جيلبرت ظريفا علـى نحو رقيق في تقديمه المصلح الاجتماعي وعضو الطبقة العمالية ، حتـى لقد ابتسم النظارة · وأغضبني ذلك ، ورنوت الى ارنست · ولكن مشهده جعل غضبي مزدوجا · لقد بدا وكأنه لم يع تعريض الكولونيل به · لقد خيل الـى الناظر اليه انه ابله حقا · وتساءلت ، لحظة ، ماذا لو ارعبته هذه الصفوف المهيبة المؤلفة من عقول وسلطان ؟ ثم اني تبسمت · انه لم يستطع ان يخدعني· ولكنه خدع الاخرين ، كما قد خدع المس برينتوود من قبل · لقد احتلت كرسيا في مقدمة القاعة تماما ، وكثيرا ما كانت تلتفت نحو هذا الزميل او ذاك مبدية اعجابها بالملاحظات في ابتسامة ·

حتى اذا ختم الكولونيل فان جليبرت كلمته نهض ارنست وأنشأ يتكلم · لقد استهل حديثه بصوت خفيض ، وفي تردد واستحياء ، وقد بدت عليه سيما ارتباك واضح · فتكلم عن ولادته في الطبقة العمالية ، وعن حقـارة بيئتـه وبؤسها ، حيث كان الجسد والروح مجوعين معذبين على حد سواء · لقـد

---

٣٩ كان نقض الوصايا هذا مظهرا فريدا من مظاهر تلك الحقبـة · ذلك ان تركيم الثروات الهائلة جعل مشكلة التخلص من هذه الثروات بعد الوفاة مشكلة تكدر صفو جامعيها · وهكذا اصبح وضع الوصايا ونقض الوصايا تجارتين معاصرتين مثل صنع الدروع وصنع البنادق · فكان أذكى المحامين البارعين في وضع الوصايا يكلفون وضع وصايا لا تحتمل النقض · ولكن هذه الوصايا كانت تنقض دائمـا ، وكثيرا ما كان ناقضوها هم أنفسهم المحامين الذين وضعوها · ومع ذلك فقد استمر في أوساط الطبقة الثرية الوهم القائل بأن في الامكان صياغة وصايا لا سبيل الـى نقضها البتة ، وهكذا سعى الموكلون والمحامون في اثر هذ االوهم ، جيلا بعـد جيل · ولقد كان سعيا شبيها بذلك الذي قام به سيميائيو Alchemists القرون الوسطى التماسا لحجر الفلاسفة الذي زعموا انه يحيل المعادن الخسيسة الـى معادن نفيسة ·

صور آماله ومثله العليا ، وتصوره لتلك الجنة التي كان ابناء الطبقات العليا ينعمون بالعيش فيها · قال :

– «وعرفت انه كان ثمة فوقي أريحية الروح ، والتفكير الطاهر النبيل، والعيش الفكري الفطن · لقد عرفت ذلك كله لاني طالعت روايات « مكتبة الشاطيء » ٤٠. حيث كان جميع الرجال والنساء ما خلا الاوغاد والمغامرات ، يفكرون فكرات جميلة ، ويتكلمون بلسان جميل ، ويقومون بأعمال ماجدة · وعلى الجملة فكما تقلبت اشراق الشمس كشيء طبيعي ، تقلبت هذه الفكرة : انه كان ثمة ، فوقي ، كل ما هو بديع ونبيل وخير ، كل ما يخلع على الحياة الذوق والكرامة ، كل ما يجعل الحياة حديرة بأن تعاش وما يكافيء المرء على قدر كده وشقائه » ·

وتدفق في الحديث واستعرض حياته في المصانع ، وتعلمه صناعة تنعيل الخيل ، واجتماعه بالاشتراكيين ، وبينهم – كما قال – وجد مفكرين البـاء وظرفاء لامعين ، وكهنة من حملة الانجيل الذين جردوا من سلطانهم لان نصرانيتهم كانت ارحب من أن تغض الطرف عنها أية جماعة من المتعبدين للمال ، واساتذة سحقوا تحت دولاب عبودية الجامعة للطبقات الحاكمة · كان الاشتراكيون ثوريين ، كما قال ، يناضلون من اجل هدم المجتمع اللاعقلاني الحاضر واصطناع المادة الناشئة عن ذلك في انشاء مجتمع المستقبل العقلاني · وقال اشياء كثيرة لا يتسع المقام للنص عليها ولكني لن انسى ما حييت كيف وصف الحياة بين الثوريين · لقد تلاشى كل اداء متردد · لقد غدأ صوته قويا واثقا ، لقد تألق مع تألق ارنست ، ومع تألق الفكرات التي تدفقت على لسانه · لقد قال :

– « وبين الثوريين وجدت ، ايضا ، ايمانا حارا بالمثالية الانسانية المتحمسة ، وبحلاوات الايثار وانكار الذات والاستشهاد في ساحة الفداء – وجميع أشياء الروح البهية اللاسعة · ههنا كانت الحياة طاهرة ، نظيفة ، ناشطة · لقد كنت على اتصال بنفوس كبيرة ترفع الروح والجسد مقاما عليا فوق الدولارات والسنتات ، نفوس كان النواح الرقيق المنبعث من صدر الطفل الجائع في احياء العمال القذرة يعني عندها شيئا أكثر من كل أبهة التوسع التجاري والامبراطورية العالمية وما ينطويان عليه من ثروات ضخمة · كان

---

٤٠ ضرب من الادب الغريب المذهل الذي كان يهدف الى تضليل الطبقة العمالية واعطائها فكرة غير صحيحة البتة عن طبيعة الطبقات الثرية ·

كل ما حولي نبالة قصد وبسالة جهد ، وكانت نهاراتي ولياني كلها اشعة شمس وضياء قمر ، كلها نار وندى ، وامام ناظري كانت « كأس القربان المقدس » تتقد وتتوهج أبدا ، كأس قربان المسيح نفسه ، الجسد البشري الحار الـذي طالما تعذب وأسيء اليه والذي لا بد ، رغم ذلك ، من ان ينقذ ويخلص آخر الامـر »٠

وكما رأيته من قبل متجليا فمجدا كذلك رأيته الان متجليا ممجدا أمـام ناظري ٠ كان جبينه مشرقا بالنور الالهي المنبعث منه ، وكانت عيناه اكثر اشراقا وسط الاشعاع الذي بدا وكأنه يلفه مثل وشاح ٠ ولكن الاخرين لـم يروا هذا الاشعاع ، وافترضت انه ناشىء عن دموع الفرح والحب التـي جعلت رؤيتي ضبابية ٠ وعلى أية حال ، فان مستر ديكسون ، الجالس خلفي، كان ابعد ما يكون عن التأثر ، ذلك بأني سمعته يقول ساخرا بصوت عـال : « طوباوي » [٤١] Utopian

ومضى ارنست فتحدث عن ارتقائه سلم المجتمع ، حتى لقد اصبـح ، اخر الامر ، على اتصال ببعض ابناء الطبقات العليا ، وتدافع بالمناكب مـع الرجال المتصدرين في المراتب السامية ٠ ثم كان انقشاع غشاوة الوهم عـن عينيه ٠ وهذا الانقشاع وصفه ارنست في صيغ لم تتملق المستمعين اليه تلـك الليلة ٠ لقد دهش لحقارة الطين فالحياة اثبتت انها ليست رفيعة ولا خيرة ٠ لقد هالتـه الانانية التي واجهها ، وهالـه اكثر من ذلك انعـدام الحياة الفكرية ٠ لقد اصيب بصدمة قوية ، وذكرى رفاقه الثوريين طرية في ذهنـه ، حين اكتشف الغباء العقلي عند الطبقة السيدة ٠ والى هذا فانه كان قـد اكتشف ان هؤلاء السادة ، رجالا ونساء ، كانوا — برغم كنائسهم الفخمـة ومبشريهم ذوي الرواتب العالية — ماديين الى حد مفرط ٠ صحيح انهـم كانوا يتكلمون عن مثل عليا صغيرة عذبة وعن اخلاقيات صغيرة غاليـة ،

---

٤١ كان الناس في ذلك العصر عبيدا للالفاظ ٠ والحق ان خساسة عبوديتهم ممتنعـة على فهمنا ٠ كان ثمة في الالفاظ سحر أعظم من السحر الذي في فن المشعوذ ٠ ذلك بأن عقولهم كانت مشوشة سديمية الى حد أن النطق بكلمة مفردة كان قادرا على ان ينقض الوقائع التي انتهى اليها عمر كامل من البحث والتفكير الجديين ٠ ومن هذه الالفاظ « طوباوي » أو « مثالي » ٠ فقد كان مجرد النطق بها قادرا علـى تعطيل ايما خطة ، مهما كانت سليمة ، من خطط التحسين او الاحياء الاقتصادي ٠ وكانت جماعات هذه العبارات تعتبر عندهم نفحة من نفحات العبقرية ٠

ولكن مفتاح حياتهم المهيمن كان برغم لغوهم الطفلي ذاك ماديا صرفا · ولقد كانوا في الواقع عاطلين عن ايما اخلاقية حقيقية ـ مثلا ، تلك الاخلاقية التي كان المسيح قد بشر بها ولكن أحدا لم يعد يبشر بها · قال :

ـ «لقد لقيت رجالا يتضرعون الى « امير السلام » * في خطبهم التشهيرية ضد الحرب ويضعون في الوقت نفسه المسدسات في ايدي « زبانية بينكرتون » ٤٢ ليصوبوا نارها الى المضربين في عقر مصانعهم · ولقد لقيت رجالا ساخطين على وحشية المصارعة المحترفـــة ولكنهم يشاركون في الوقت نفسه في غش الطعام الذي كان يقتل كل عام عددا من الاطفال لم يقتـــل نظيره هيرودوس الملطخة يداه بالدماء ·

« فذا رجل رقيق ، ارستوقراطي السمات يعمل مديرا دمية ، وآلة فـــي ايدي الشركات التي تسرق ، خلسة ، اموال الارامل والايتام · وهذا رجـــل فاضل يجمع طبعات الكتب المترفة ويناصر الحركة الادبية ويدفع الاتاوة الى متزعم كثيف اللحية اسود الحاجبين · وهذا محرر صحيفة ينشر اعلانات عن « المستحضرات الطبية المسجلة » ويدعوني « مهيجا ديماغوجيا لئيما » لانني تحديته أن ينشر في صحيفته الحقيقة عن « المستحضرات الطبية المسجلة » ٤٣· وهذا رجل يتحدث في وقار وحماسة عن جمال المثالية وخيرية الله وكان قبل دقائق يخدع رفاقه في صفقة تجارية · وذاك رجل يعدونه دعامـــة الكنيسة والمتبرع السخي للارساليات التبشيرية في الخارج ، ومع ذلك يشغل عاملات مخازنه عشر ساعات يوميا برواتب لا تكاد تسد منهن رمقهن ، مشجعا اياهن بذلك ، تشجيعا مباشرا ، على البغاء · وذلك رجل ينشىء على نفقته كراسي لتعليم الفروع في الجامعة ويشيد الكنائس الفخمة ، ومع ذلك يقسم في دور القضاء يمينا كاذبة من اجل بضعة دولارات وبضعة سنتات · وهذا قطب من اقطاب السكة الحديدية يخنث بعهده كمواطن ، وكرجل ، وكمسيحي فيمنـــح

---

* يسوع المسيح ·

٤٢ كانوا في الاصل رجال مباحث خصوصيين ، ولكنهم ما لبثوا أن أمسوا محاربين مستأجرين يعملون في خدمة الرأسماليين · ثم انتهوا اخر الامر الى ان يصبحوا جند الاوليغاركية المرتزق ·

٤٣ كانت « المستحضرات الطبية المسجلة » أكاذيب مسجلة · ومع ذلك فقد خدعـــت الناس كما خدعتهم رقى العصور الوسطى وغفراناتها · والفرق الوحيد هـــو ان المستحضرات المسجلة كانت اشد أذى وأغلى ثمنا ·

حسما سريا على الاسعار ، وما اكثر ما يمنح هذا الحسم ! وهذا عضو في مجلس الشيوخ يجعل من نفسه آلة وعبدا ودمية صغيرة في يد متزعم سياسي قاسي الفؤاد غير مثقف ٠ ٤٤ ، وكذلك كان يفعل هذا الحاكم وذاك القاضي العضو في مجلس القضاء الاعلى ٠ وكانوا ثلاثتهم يتنقلون بالسكة الحديدية بجوازات مجانية ٠ وكان هذا الرأسمالي نفسه يملك الجهاز الحزبي ، والمتزعم المهيمن على الجهاز الحابي ، والسكك الحديدية التي تصدر الجوازات المجانية ٠

« وهكذا وجدت نفسي ، لا في الجنة ، ولكن في صحراء النزعة التجارية القاحلة ٠ انا لم اجد غير الغباء في كل شيء ، ما خلا التجارة ، ولم اجد احدا طاهرا ، نبيلا ، وحيويا ، على الرغم من اني وجدت كثيرا من المفعمين بالحيوية ـ ولكن في فساد ٠ ان الذي وجدته كان انانية وقسوة مهولتين ، ومادية جسيمة شرهة بارعة عملية » ٠

وأنبأهم ارنست اشياء كثيرة اخرى عن انفسهم وعن خيبة امله فيهم ٠ لقد اوقعوا السأم في نفسه عقليا ، أما اخلاقيا وروحيا فقد اصابته مسالكهم بالغثيان ، حتى لقد سعد بالعودة الى رفاقه الثوريين ، الذين كانوا طاهرين ، نبيلين ، مفعمين بالحيوية ، متحلين بكل الصفات الحميدة التي كانت تعوز الرأسماليين ٠

وقال :

ـ « والان ، دعوني احدثكم عن تلك الثورة ٠ »

ولكن يتعين علي ان اقول ان نقده المرير هذا لم يكن قد حرك عواطفهم ٠ لقد اجلت بصري في ما حولي متطلعة الى وجوههم فرأيت انهم ظلوا مترفعين ، في رضا واطمئنان ، عن التهم التي وجهها اليهم ٠ وعندئذ تذكرت ما كان قد قاله لي يوما : ان ايما اتهام يوجه الى اخلاقيتهم يظل ، مهما قسا ، عاجزا عن ان يهزهم ٠ وعلى اية حال ، فقد كان في ميسوري ان

---

٤٤ حتى في عام ١٩١٢ لميلاد المسيح كانت الكثرة العظمى من الناس ما تزال تظن انها تحكم البلاد بأصواتها يوم الانتخاب ٠ والواقع ان البلاد كانت خاضعة لحكم جماعة من المتزعمين الصغار الموجهين لسياسة الاحزاب والمعروفين بالـ Political Machines وفي بادىء الامر كان هؤلاء المتزعمون يتقاضون اتاوات ضخمة من الرأسماليين الكبار ، ولكن هؤلاء الرأسماليين ما لبثوا ان وجدوا ان من الارخص لهم ان يملكوا بأنفسهم الاجهزة الحزبية ويستأجروا المتزعمين استئجارا ٠

اری ان جسارة لغته كانت قد مست مشاعر المس برينتوود · كانت امارات القلق والخوف قد بدت على محياها ·

وشرع ارنست يصف جيش الثورة ، وفيما كان يعطي الارقام الدالة على قوته (الاصوات التي نالها في المعارك الانتخابية في البلدان المختلفة) بدأ القلق يستبد بالمستمعين · لقد تجلى الجزع على وجوههم ، فأصبحت لا ارى ألا شفاها مطبقة في احكام · واخيرا ألقى ارنست قفاز التحدي في وجه القوم · لقد وصف منظمة الاشتراكيين الاممية التي تشد اشتراكيي الولايات المتحدة البالغ عددهم مليونا ونصف مليون الى اشتراكيي سائر العالم البالغ عددهم ثلاثة وعشرين مليونا ونصف مليون وتوحد ما بينهم ·

لقد قال :

ـ « ومثل هذا الجيش ، جيش الثورة ، المؤلف من خمسة وعشرين مليون رجل شيء جدير بأن يحمل الحكام والطبقات الحاكمة على التروي والتفكير · وشعار هذا الجيش : « لا هوادة ! نحن نريد كل ما تملكون · نريد ان نقبض بأيدينا على أزمة السلطة وقدر الجنس البشري · هي ذي ايدينا · انها أيد قوية · اننا سننتزع منكم حكومتكم ، وقصوركم ، وكل رخائكم المتدثر بالارجوان * ، وفي ذلك اليوم سوف يتعين عليكم ان تشتغلوا من اجل كسب خبزكم اليومي ، كما يكدح الفلاح في الحقل ، او المستخدم المجوع الناقص النمو في حواضركم ومراكزكم التجارية · هي ذي ايدينا · انها ايد قوية ! »

وفيما هو يتكلم بسط من كتفيه المهيبتين ذراعيه الضخمتين ، فاذا بيدي نعال الخيل تتشبثان بالهواء مثل براثن نسر · كان روح العمال المتسلطة فيما كان يقف هناك ، ويداه مبسوطتان لتمزيق المستمعين اليه وسحقهم · وادركت ان اولئك المستمعين كانوا ينكمشون انكماشا ملحوظا بعض الشيء امام صورة الثورة هذه ، وهي صورة واقعية ، كامنة ، مهددة وانما أعني ان النسوة انكمشن ، وبدا الخوف على وجوههن · اما الرجال فلم تكن تلك حالهم · فقد كانوا من الاثرياء الفعالين ، لا من الاثرياء الكسالى وكانوا قوما مقاتلين · وارتفعت قرقرة خافتة ، مبحوحة ، وتلبثت في الهواء لحظة ، ثم انحسرت · كانت هي طليعة الزمجرة ، ولقد قدر لي ان اسمعها مرات عديدة تلك الليلة ـ علامة البهيمة في الانسان ، باكورة تيقظ عواطفه البدائية · ولقد كانوا لا يعون انهم اطلقوا ذلك الصوت · كانت زمجرة القطيع

---

* اشارة الى العز والسلطان اللذين يعتبر الارجوان رمزا لهما ·   (المعرب)

اطلقها القطيع ، واطلقها في لا وعي كامل · وفي تلك اللحظة ، بينا رأيت القسوة تتشكل على وجوههم ورأيت وميض القتال يلتمع في اعينهم ، ادركت انهم لن يتخلوا ، في سهولة ويسر ، عن سيادتهم على العالم ·

ومضى ارنست في هجومه · ففسر وجود المليون ونصف مليون ثوري في الولايات المتحدة باتهامه الطبقة الرأسمالية بأنها اساءت تدبير المجتمع ولم تحسن سياسته · لقد رسم الخطوط الكبرى للحالة الاقتصادية كما كانت عند رجل الكهف وكما هي عند الشعوب المتوحشة اليوم ، مشيرا الى انهم لم يكونوا يملكون لا ادوات ولا ماكينات ، بل مجرد القدرة الطبيعية التي يتمتع بها الفرد على انتاج القوة ·ثم تتبعتطور الالات والنظامالاجتماعي حتى لقد بلغت طاقة الانسان المتمدن المنتجة ، اليوم ، اعظم الف مرة من طاقة الانسان المتوحش ·

قال :

ـ « في استطاعة خمسة رجال ان ينتجوا من الخبز ما يكفي ألفا وفي استطاعة رجل واحد ان ينتج من الاقمشة القطنية ما يكفي مئتين وخمسين شخصا ، ومن المنسوجات الصوفية ما يكفي ثلاثمئة ، ومن الاحذية ما يكفي الفا · وفي امكان المرء ان يستنتج من هذا ان الانسان الحديث المتمدن قادر ، في ظل ادارة صالحة للمجتمع ، على ان يكون في وضع افضل جدا من وضع رجل الكهف · ولكن هل هو كذلك فعلا ؟ دعونا نرى · في الولايات المتحدة اليوم خمسة عشر مليون شخص ٤٥ يحيون في فقر · وانما يقصد بكلمة « فقر » هنا تلك الحالة التي لا يستطاع معها ، بسبب من نقص الغذاء وفقدان المأوى الصالح ، الاحتفاظ بفعالية العمل القياسية · ففي الولايات المتحدة اليوم ، على الرغم من جميع تشريعاتكم التي تدعونها تشريعات عمل ، ثلاثة ملايين من العمال الاطفال ٤٦ · لقد تضاعف عددهم خلال اثنتي عشرة سنة · وبالمناسبة ، احب ان اسألكم انتم يا مديري المجتمع لماذا تنشروا على الملأ ارقام احصاء ١٩١٠ ؟ وانا أجيب بالنيابة عنكم فأقول انكم كنتم خائفين · لقد كان خليقا بأرقام البؤس ان تعجل بالثورة التي تتحفز

---

٤٥ نص روبرت هانتر ، عام ١٩٠٦ ، في كتاب موسوم بـ « الفقر » ، على انه كان في تلك الايام في الولايات المتحدة عشرة ملايين يحيون في فقر وفاقة ·

٤٦ جاء في احصاء عام ١٩٠٠ (وهو اخر احصاء اجري في الولايات المتحدة ونشرت أرقامه على الملا) ان عدد العمال الاطفال ١٨٧ر٧٥٢ر١ ·

للاندفاع حتى في هذه اللحظات ·

« ولكن فلنرجع الى الاتهام الذي اوجهه اليكم · اذا كانت طاقة الانسان الحديث الانتاجية اعظم الف مرة من طاقة انسان الكهف فلماذا تجد في الولايات المتحدة اليوم خمسة عشر مليون شخص محرومين من المأوى الصالح والغذاء الصالح ؟ لماذا نجد في الولايات المتحدة اليوم ثلاثة ملايين من العمال الاطفال ؟ انه اتهام صحيح · لقد اساءت الطبقة الرأسمالية تدبير المجتمع وسياسته · فأمام الحقيقة القائلة بان الانسان الحديث يحيا على نحو اشد بؤسا من انسان الكهف والقائلة بان طاقته الانتاجية اعظم الف مرة من طاقة انسان الكهف لا يستطيع المرء الا ان يخلص الى هذا الاستنتاج : ان الطبقة الرأسمالية قد اساءت التدبير ، وانكم يا سادتي قد اسأتم التدبير ، انكم قد اسأتم التدبير على نحو اجرامي وأناني · ومن اجل هذا لا تستطيعون ان تردوا علي ههنا الليلة وجها لوجه ، اكثر مما تستطيع طبقتكم كلها ان ترد على المليون ونصف مليون ثوري في الولايات المتحدة · انتم لا تستطيعون ان تجيبوا · انا اتحداكم ان تجيبوا · وفوق هذا ، اجد في نفسي الجرأة على ان اقول لكم الآن انكم لن تجيبوا حين انهي كلامي · ان السنتكم سوف تصاب بالعي في كل ما يتصل بهذه النقطة ، على الرغم من انكم سوف تتكلمون على اشياء اخرى في هذر بالغ ·

« لقد أخفقتم في تدبير أمر المجتمع · لقد حولتم الحضارة الى مسلخ · لقد كنتم عميانا وشرهين · لقد نهضتم (كما تنهضون اليوم) على غير استحياء ، في ندواتنا التشريعية ، واعلنتم ان تحقيق الارباح مستحيل اذا لم يكره الصبية والاطفال الرضع على العمل الكادح · انا لا اطلب اليكم ان تتكلوا على كلامي في هذه القضية · فكل هذه الحقائق مدونة في المحاضر ، وهي تدينكم ادانة رسمية · لقد دغدغتم ضميركم حتى ينام بثرثرات طفلية عن مثل عليا وعن اخلاقيات غالية · انتم مترهلون بالسلطان والثروة ، نشاوى بالنجاح، وليس لكم من أمل في التغلب علينا اكثر من الامل الذي لليعاسب* المتهافتة على دنان العسل ، عندما تنقض عليها النحلات العاملات لتضع حدا لوجودها المترهل المتخم · لقد أخفقتم في تدبير المجتمع ، فلا معدى من أن تنتزع هذه المهمة منكم · ان مليونا ونصف مليون من رجال الطبقة العمالية ليقولون انهم سوف يحملون سائر ابناء الطبقة العمالية على الانضمام اليهم

* اليعسوب : ذكر النحل ·

وانتزاع تلك المهمة من ايديكم · هذه هي الثورة ، يا سادتي · اوقفوهـــا اذا استطعتم · »

وطوال فترة من الوقت غير يسيرة ظل صوت ارنست يرن في ارجـاء القاعة الكبيرة · ثم ارتفعت القرقرة المبحوحة التي سمعتها من قبل ، ونهض اثنا عشر رجلا واقفين على اقدامهم مطالبين الكولونيـل فان جيلبـرت ان يمنحهم حق الكـلام · ولاحظت كتفي المس برينتـوود تتحركـان على نحـو تشنجي ، فاستبد بي الغضب باديء الامر ، ذلك بأني حسبت انها كانـت تضحك ساخرة من ارنست · ولكني اكتشفت بعد ذلك ان هذا لم يكن ضحكا ، ولكن هيستيريا · لقد روعها ما كانت قد اقدمت عليه من فتح ابواب ناديها الفيلوماثي المبارك في وجه هذا الثوري المشاغب ·

ولم يلاحظ الكولونيل فان جيلبرت الرجال الاثني عشر ، ذوي الوجوه المنفعلة ، الذين كانوا يناضلون من اجل حمله على منحهم حق الكلام · لقد وثب واقفا على قدميه ، ملوحا بذراعيه ، ولم يوفق ــ طوال لحظة ــ الـى أكثر من النطق ببعض الاصوات المتقطعة المتنافرة · ثم ان الكلام تدفق من على لسانه · ولكنه لم يكن كلام محام يتقاضى مئة الف دولار في الدعـوى الواحدة ولم يكن ذا ديباجة بلاغية عتيقة الزي ·

لقد صاح :

ــ « مغالطة في مغالطة ! انا لم اسمع قط في حياتي مثل هذا القـــدر الهائل من المغالطات ينطبق به في ساعة واحدة ليس غير · والى هذا فأن من واجبي ان اقول لك ، ايها الفتى ، انك لم تأت بشيء جديد · فقد تعلمت كـل ذلك في الجامعة قبل ان تولد انت ، لقد اعلن جان جاك روسو نظريتك الاشتراكية منذ قرنين تقريبا · عودة الى الارض ، حقا ! ارتداد ! ان علم البيولوجيا ليعلمنا سخف هذه المزاعم · لقد قيل ، وحق ما قيل ، ان المعرفة الناقصة شيء خطر ، وها قد قدمت انت ، الليلة ، خير مثل على ذلك بنظرياتك الطائشـة الرعناء · مغالطة ! انا لم استشعر قط الحاجة الى التقيؤ بقدر ما أستشعرها الآن لكثرة ما سمعت من مغالطات · ذلك هو رأيي في تعميماتك الفجة وتفكيرك الصبياني ! »

وفرقع اصابعه علامة الازدراء والاستخفاف وجنح الى الجلوس · لقد اطلقت النسوة من رؤوس شفاههن هتافات استحسان ، واطلق الرجـــال عبارات تأييد اتسمت بالبحة اكثر من ذي قبل · أما الرجـال الاثنا عشـر الذين كانوا يطالبون رئيس الاجتماع بأن يجيز لهم الكلام فقد شرع نصفهـم يتكلمون في وقت معا · كانت الفوضى والبلبلـة ممتنعتيـن على الوصف ·

والواقع ان جدران السيدة بيرتونوايث الرحبة لم تر مثل هذا المشهد قط من قبل · هؤلاء ، اذن ، كانوا اقطاب الصناعة واسياد المجتمع المترصنين ، هؤلاء المتوحشون المزمجرون المكشرون عن انيابهم الرافلون في ثياب السهرة! لقد زلزلهم ارنست حقا عندما بسط يديه التماسا لحافظ نقودهم ، يديه اللتين بدتا في اعينهم وكأنهما ايدي مليون ونصف مليون ثوري ·

ولكن ارنست ما كان ليضيع صوابه في موقف من المواقف · فقبل ان يوفق الكولونيل فان جيلبرت الى الجلوس كان ارنست قد نهض واقفا ووثب الى أمام ، وهدر في وجههم :

ــ « تكلموا واحدا واحدا ! »

لقد ارتفع الصوت من رئتيه الضخمتين وهيمن على العاصفة البشرية · لقد فرض عليهم الصمت بقوة شخصيته ليس غير ·

وكرر في رقة :

ــ « تكلموا واحدا واحدا ! دعوني ارد على الكولونيل فان جيلبرت · وبعد ذلك تستطيع بقيتكم ان تتصدى لي ــ ولكن واحدا بعد واحد ، تذكروا ! فلا مجال هنا للالعاب الجماعية · اننا لسنا الان في ملعب لكرة القدم · »

ثم اردف ملتفتا الى الكولونيل فان جيلبرت :

ــ « اما في ما يتصل بك فإنك لم تجب عن ايما شيء مما قلته · أنت لم تزد على ارسال بعض الاحكام الاعتباطية المهتاجة حول مقدرتي العقلية · ان هذا قد يساعدك في مهنتك ، ولكنك لا تستطيع ان تتحدث الي على هذا النحو · انا لست عاملا من العمال ، يتقدم اليك متذللا ، سائلا ان تزيد اجره او ان تحميه من الالة التي يعمل وراءها · انت لا تستطيع ان تقف من الحقيقة موقفا اعتباطيا او تعسفيا حين يتعلق الامر بي · وفر مثل هذه المواقف لاصطناعها في تعاملك مع عبيد اجورك · انهم لن يستطيعوا الرد عليك لان في يدك خبزهم وزبدتهم وحياتهم ···

« اما في ما يتصل بمسألة هذه « العودة الى الطبيعة » التي تزعم انك تعلمتها في الجامعة قبل ان اولد فاسمح لي ان اذهب الى انه لم يكن في امكانك ، على ما يبدو ، ان تتعلم منذ ذلك الحين اي شيء البتة · فالاشتراكية لا دخل لها « بالحالة الطبيعية » الا اذا صح ان لحساب التفاضل differential Calculus دخلا بصف من صفوف تدريس التوراة · لقد سبق لي ان رميت طبقتك الرأسمالية بالغباء في كل ما هو خارج نطاق العمل التجاري · وها انت ذا ، يا سيدي ، تزودني بمثل صارخ يثبت صحة ما

رميتكـــم بــه ٠ »

وكان هذا التقريع الفظيع لمحاميها الذي يرتفع اجره في القضية الواحدة الى مئة الف دولار شيئا اكثر مما تستطيع اعصاب المس برينتوود احتماله ٠ فاذا بهستيريتها تمسي عنيفة ، فيضطر القوم الى اخراجها من الحجرة وهـي تبكي وتضحك في آن معا ٠ ولقد احسنوا صنعـا ، ذلك بأن اشياء اسوأ مـا لبثت ان تلت ٠

وتابع ارنست كلامه :

ـ « لا تركن الى رأيي في هذا الموضوع ٠ ان سلطاتكـم نفسها خليـق بها أن تثبت بالاجماع أنكم اغبياء ٠ ان « المتعهدين » المأجورين الذين يقدمون اليكم الزاد الثقافي سوف ينبؤونك بانكم على خطأ ٠ اذهب الى اصغر مدرس من مدرسي علم الاجتماع في جامعتكم وسله ما الفرق بين نظرية روسو فـي العودة الى الطبيعة ونظرية الاشتراكية ، سل اعظم اخصائييكم البورجوازيين المستقيمي الرأي في علم الاقتصاد السياسي وعلم الاجتماع ، قلب صفحـات اي كتاب من كتب التدريس المؤلفة في هذا الموضوع والمدخرة فوق رفـوف المكتبات التي تغدقون عليها منحكم ، تجد جوابا واحدا ليس غير ، وهو انـه ليس ثمة ايما تناغم او انسجام بين العودة الى الطبيعة وبين الاشتراكيـة ٠ ليس هـذا فحسب ، بـل ان الجواب الايجابـي الاجماعـي سوف يقـرر ان الاشتراكية والعودة الى الطبيعة هما على طرفي نقيض ٠ وكما قلت ، لا تركن الى رأيي في هذا الموضوع ٠ فغباؤكم منصوص عليه هناك في كتبكم ، كتبكـم انتم التي لا تقرأونها ابد الدهر ٠ اما غباؤك الشخصي فليس الا صورة عـن غبـاء طبقتـك ٠

« انك تعرف القانون والعمل التجاري ، ايها الكولونيل فان جيلبرت ٠ انت تعرف كيف تخدم الشركات وتزيد أرباح حملة الاسهم بتحريف القانون وتشويهه ٠ حسن جدا ٠ الزم هذه السبيل ٠ انت شخصية مرموقة ٠ انـت محام بارع جدا ، ولكنك مؤرخ رديء ٠ انت لا تعرف شيئا من علم الاجتماع ، ومعلوماتك البيولوجية ترقى الى عصر بليني Pliny ٠ »

وهنـا تلوى الكولونيـل فان جيلبرت في كرسيـه ٠ وران على الغرفـة سكون عميق ٠ لقد جلس كل امرىء مسحورا ـ او على الاصح ، مشلولا ٠ فمثل هذا الهجوم الرهيب على الكولونيل فان جيلبرت العظيم كان شيئا لـم يسمع بمثله من قبل ، شيئا متعذر التصديق ـ الكولونيل فان جليبرت العظيم الذي كان القضاة يرتعدون امامه كلما وقف في قاعة المحكمة ٠ ولكن ارنست ما كان ليهاود عدوا ابدا ٠

وقال ارنست

ـ « وهذا طبعا لا ينتقص من قدرك ٠ فكل امرىء ميسر للصناعة التي خلق لها ٠ ولكن عليك ان تلزم انت صناعتك ، ولسوف الزم انا صناعتي٠ لقد اخترت لنفسك حقل اختصاص ٠ فحين يقتضي الامر معرفة بالقانون ، معرفة بأحسن الطرق الى التهرب من القانون او الى سن قانون جديد لمصلحة الشركات المتلصصة ، تجدني متمرغا في التراب عند قدميك ، اما حين يكون الامر ذا صلة بعلم الاجتماع ـ اي بصناعتي انا ـ فعندئذ تتمرغ انت في التراب عند قدمي ٠ تذكر ذلك ٠ وتذكر ايضا ان قانونك هو مادة يوم واحد ، وانك غير متضلع من المادة التي تنسحب على اكثر من يوم واحد ٠ واذن فتوكيداتك الاعتباطية وتعميماتك الطائشة في قضايا التاريخ وعلم الاجتماع لا تساوي النفس الذي تضيعه عليها ٠ »

وتمهل ارنست لحظة وانعم النظر الى الكولونيل فان جيلبرت ، ملاحظا وجهه المكفهر بالغضب ، وصدره اللاهث ، وجسده المتلوي الما ، وكفيه البيضاوين النحيلتين اللتين كانتا تنقبضان ثم تنبسطان على نحو عصبي ٠

ـ « ولكن يبدو لي ان لديك انفاسا تريد ان تصطنعها ، ولسوف اتيح لك انا فرصة اصطناعها ٠ لقد اتهمت طبقتك الرأسمالية ٠ ارني ان اتهامي هذا غير صحيح ٠ لقد كشفت لك عن بؤس الانسان الحديث ـ ثلاثة ملايين من الاطفال المسترقين في الولايات المتحدة ، الذين يتعذر ، لولا كدحهم ، حصول الرأسماليين على الارباح ، وخمسة عشر مليونا من الذين يعوزهم الغذاء الصحيح ، والملابس الملائمة ، والبيت الصالح ٠ ولقد لفت نظرك الى ان طاقة الانسان الحديث الانتاجية اصبحت ، بفضل التنظيم الاجتماعي وتسخير الآلات ، أعظم الف مرة من طاقة انسان الكهف ٠ ونصصت على انه ليس في مستطاع المرء ان يخلص من هاتين الحقيقتين الا الى استنتاج واحد : ان الطبقة الرأسمالية قد اساءت التصرف والتدبير ٠ تلك كانت هي التهمة التي وجهتها ، ولقد تحديتك بخاصة ، اخر الامر ، ان تدفعها ٠ لا ، لقد ذهبت الى ابعد من ذلك ٠ لقد تنبأت بأنك لن تحاول دفعها ٠ وكان من واجب نفسك ان يسحق نبوءتي ٠ لقد زعمت ان خطابي مغالطة ٠ ارني المغالطة ، ايها الكولونيل فان جيلبرت ٠ رد على التهمة التي وجهتها ، انا ورفاقي البالغ عددهم مليونا ونصف مليون ، اليك والى طبقتك الرأسمالية ٠ »

ونسي الكولونيل فان جيلبرت نسيانا تاما انه كان يرئس الاجتماع ، وان اللياقة تقتضيه ان يفسح في مجال الكلام لطالبيه ٠ لقد نهض واقفا واطرح ذراعيه وبلاغته وسيطرته جانبا ، شاتما ارنست لفتوته وديماغوجيته،

ومهاجما ـ في وحشية ـ الطبقة العاملة ، متفننا في تصوير تفاهتها وعـــدم فعاليتهـــا ٠

ورد ارنست على هذه الحملة فقال :

ـ « ان فتوتي لا علاقة لها البتة بما اعلنته ٠ لا ، وليس لتفاهة الطبقة العمالية اية علاقة به ايضا ٠ لقد اتهمت الطبقة الرأسمالية بأنها اساءت تدبير المجتمع ولم تحسن سياسته ٠ انت لم ترد على هذا الاتهام ٠ بل انك لم تقـم بأية محاولة للرد ٠ لماذا ؟ الانك لا تملك جوابا ؟ انت بطل هذا النادي كلـه ٠ وكل امرىء هنا ، باستثنائي أنا ، يتطلع الى شفتيك التماسا لذلك الجواب ، لانهم هم انفسهم لا جواب لديهم ٠ أما انا فكنت اعلم ـ كما ذكرت من قبل ـ انك غير قادر على الاجابة ، ليس هذا فحسب ، بل كنت أعلم انك لن تحاول الاجابـــة ٠ »

وصاح الكولونيل فان جيلبرت :

ـ « هذا شيء لا يحتمل ! هذه اهانة ! »

فأجابه ارنست في وقار :

ـ « الذي لا يطاق هو احجامك عن الاجابة ٠ ما من رجل يمكن ان يهان فكريا ٠ ان الاهانــة هي ، في طبيعتهـا ذاتها ، انفعالية ٠ استعـد هدوءك وسيطرتـك علـى حواسـك ٠ اعطني جوابـا فكريـا عن اتهامـي العقلـي الذي قلت فيه ان الطبقة الرأسمالية قد أساءت تدبير المجتمع وأفسدته ٠ »

واعتصم الكولونيل فان جيلبرت بالصمت ، وعلى وجهـه انطباعـــة مترفعة مكفهرة ، كالانطباعة التي تعلو وجه من يأنف ان يتبادل الكلام مـع وغد من الاوغـــاد ٠

فقال ارنست :

ـ « لا يأخذنك الغم وانكسار الخاطر ٠ حسبك عزاء ان واحدا مـــن ابناء طبقتك لم يوفق حتى اليوم الى الرد على هذه التهمة ٠ »

ثم التفت الى اولئك الذين كانوا يتحرقون للكلام :

ـ « والان ، لقد سنحت فرصتكم ٠ هاتوا ما عندكم ، ولا تنسوا انـي اتحداكم هنا بأن تقدموا الي الجواب الذي عجز الكولونيل فان جيلبـــرت عن تقديمـــه ٠ »

انه لمن المتعذر علي ان أسجل ههنا كل ما قيل في تلك المناقشة ٠ فانـا لم ادرك من قبل قط اي قدر من الكلمات يمكن ان يتلفظ به في ثلاث ساعــات ٠ وعلى اية حال ، فقد كان ذلك ماجدا ٠ كان ارنست كلما عصف الاهتيـاج بخصومه لا يزيدهم الا هياجا ٠ كانت له هيمنة موسوعيـة على المعرفـة ،

وبكلمة او عبارة ، وبوخزات حادة كطعنات السيف راح يثقبهـم ويبزلهم ٠ لقد كشف عن « لامنطقهم » ووضع ايديهم عليه ٠ فهذا قياس منطقـي فاسد ، وذاك استنتاج لا صلة له بالمقدمة المنطقية ، على حين ان تلك المقدمة المنطقية خادعة لانها حجبت في ثناياها بكثير من المكر ، الاستنتاج الذي كانوا يحاولون اقامة الدليل عليه ٠ وهذا خطأ ، وذاك ادعاء ، وذلك توكيد يتنافى مع الحقيقة المقررة كما نصت عليها كتب التدريس كلها ٠

وهكذا ، وهكذا ٠ وفي بعض الاحيان كان يستبدل الهراوة بالسيف * ، وينقض بها على فكراتهم ، ذات اليميـن وذات الشمال فيهشمهـا تهشيما ٠ وكان يلح ، ابدا ، في طلب الحقائق ، ويأبى ان يناقش النظريات ٠ ولقـد هزمتهم حقائقه هزيمـة منكرة ٠ كانوا كلما هاجموا الطبقة العاملة يـرد عليهم بالقول : « ان مثلكم كمثل قدر يكسوها السخام ومع ذلك تقـول لركوة القهوة : انت سوداء ! أن هذا ليس جوابا على التهمة القائلة ان وجهكـم قذر ٠ » وكان يقول لهم ولكل فرد منهم : « لماذا لم تجيبوا علـى اتهامـي لطبقتكم بسوء التصرف والتدبير ؟ لقد تحدثتم عن اشياء اخرى ، وعن اشياء اخـرى تتصل بأشياء اخرى ، ولكنكم لم تجيبوا ٠ أيكون ذلك لانه لا جواب لديكـم ؟ »

ولم يتكلم مستر ويكسون الا عندما آذنت المناقشة بالانتهاء ٠ كـان هو الشخص الوحيد الذي احتفظ بهدوئه وبروده ، ولقد عاملة ارنست فـي احترام لم يسبغه على أحد من الاخرين ٠

لقد قال مستر ويكسون في روية وأناة :

ـ « ليس ثمة ضرورة لاي جواب ٠ لقد تابعـت المناقشة كلهـا في دهش وتقزز ٠ اني متقزز من حضراتكم ، يا ابناء طبقتي الاجتماعية ٠ لقد تصرفتم تصرف غلمان مدرسة اغرار ، ومن اسباب ذلك اقحامكم الاخلاق وهزيـم ** السياسي العـادي في هـذه المناقشة ٠ لقـد هزمتـم وانتـزع منكم شرف السبق ٠ وما كان اكثر لغوكم وهذركم ، ولكن ذلك كله لم يكن غير طنين ٠ لقد طننتم كالبعوض حول دب ٠ ايها السادة ، هو ذا الـدب ماثلا أمامكم (وأشار الى ارنست) ، وان طنينكم لم يزد على ان داعـب أذنيـه ٠

---

* اي يترك السيف ويأخذ الهراوة بدلا عنه ٠

** الهزيم : صوت الرعد ، والرعد نفسه ٠

« صدقوني اذا قلت ان الوضع خطير · لقد بسط ذلك الدب مخالبه الليلة ، لسحقنا · ولقد قال ان في الولايات المتحدة مليونا ونصف مليون ثوري · هذه حقيقة· · وقال ان هؤلاء يعتزمون ان ينتزعوا منا حكوماتنا وتصورنا وكل رفاهيتنا الارستوقراطية · وهذه أيضا حقيقة · ان تغيرا ، تغيرا عظيما ، يعتور المجتمع اليوم · ولكن المصادفة قد تشاء ان لا يكون هو التغير الذي يتوقعه الدب · لقد قال الدب انه سوف يسحقنا · ولكن ما قولكم اذا ما سحقنا نحن الدب ؟ »

وارتفعت قرقرة الحناجر في القاعة ، وهز بعض القوم رؤوسهم لبعض معبرين عن تأييدهم ويقينهم · كانت امارات الصرامة بادية على وجوههم · لقد كانوا مقاتلين ، ذلك شيء راهن لا ريب فيه ·

وتابع مستر ويكسون حديثه في برود ورزانة :

ـ « سوف نقتنص الدب · ونحن لن نرد على الدب بالالفاظ · لا ، ان جوابنا سوف يفرغ في لغة الرصاص · اننا نحن اصحاب السلطان · ليس في وسع احد ان ينكر ذلك · وبفضل ذلك السلطان سوف نحتفظ بالسلطان · »

والتفت فجأة نحو ارنست · كانت اللحظة دراماتيكية :

ـ « ذلك ، اذن ، هو جوابنا · ليس عندنا كلمات نضيعها في مجادلتك · ولكن ما ان تمد يديك القويتين المتبجحتين الى قصورنا والى رفاهيتنا الارستوقراطية الرافلة بالارجوان حتى نريك ما هي القوة · ان جوابنا سوف يفرغ في دوي القنابل وشظاياها وفي قصف المدافع الالية السريعة ٤٧ · اننا سنسحقكم ، ايها الثوريون ، تحت عقبنا ، ولسوف نمشي على وجوهكم · ان العالم هو عالمنا ، نحن اسياده ، وسيبقى عالمنا ابد الدهر · أما جماهير العمال فقد تمرغوا في القذر منذ فجر التاريخ ، واني لاقرأ التاريخ كما ينبغي ان يقرأ · وفي القذر سوف يظلون متمرغين ما دمت انا وابناء طبقتي ومن سوف يخلفنا نملك السلطان · هذه هي الكلمة · انها مليكة الكلمات : ـ السلطان ـ لا الاله ، لا الثروة ، ولكن السلطان · أدرها على لسانك حتى يتخدر بها · السلطان · »

---

٤٧ تبيينا لمجرى التفكير في تلك العهود تنقل التعريف التالي من « معجم الساخر » (عام ١٩٠٦ ب·م) وقد وضعه رجل يدعى آمبروز بيرس Bierce وكان من أعنف مبغضي البشر في ذلك الزمان : « القنبلة العنقودية ، اسم : حجة يهيؤها المستقبل جوابا على الاشتراكية الاميركية » ·

فقال ارنست في هدوء :

ـ « لقد فزت بجواب · انه الجواب الوحيد الذي يمكن ان يعطى · السلطان · ذلك ما ندعو اليه نحن ابناء الطبقة العاملة · نحن نعرف ، ونعرف جيدا من طريق الخبرات المريرة ، انه لا الحق ولا العدل ولا الانسانية قادرة على ان تلين قناتكم · ان قلوبكم قاسية مثل اعقابكم التي تدوسون بها وجوه الفقراء · وهكذا نادينا نحن بضرورة الفوز بالسلطان · وبسلطان اصواتنا يوم الانتخاب سوف ننتزع حكومتكم من ايديكم ··· »

فاعترضه مستر ويكسون سائلا :

ـ « ان حصولكم على الاغلبية الغامرة ، يوم الانتخاب ، لن يغير من الوضع شيئا · لنفرض اننا رفضنا أن نسلم اليكم مقاليد الحكومة بعد ان تستولوا عليها من طريق صندوق الاقتراع ؟ »

فأجابه ارنست :

ـ « هذا الافتراض حسبنا حسابه ايضا · ولسوف نقدم اليكم جوابنا في لغة الرصاص · لقد أعلنت ان كلمة « السلطان » مليكة الكلمات · حسن جدا · ولسوف يكون السلطان هو الحكم · ويوم ننتزع النصر من طريق صندوق الاقتراع ، وترفضون ان تسلموا الينا مقاليد الحكومة التي استولينا عليها على نحو دستوري وسلمي ، وتسألون ما الذي سوف نفعله ازاء هذا ـ أقول ، في ذلك اليوم سوف نجيبكم ، ولسوف يكون جوابنا مفرغا في دوي القنابل وشظاياها ، وفي قصف المدافع الآلية السريعة ·

« انكم لا تستطيعون ان تنجوا بأنفسكم منا · صحيح انك قرأت التاريخ كما ينبغي ان يقرأ · صحيح ان جماهير العمال قد تمرغت في القذر منذ فجر التاريخ وما تزال · وصحيح أيضا انه ما دمت انت وابناء طبقتك ومن سوف يخلفكم قابضين على زمام السلطان فان اولئك العمال سيظلون متمرغين في القذر · انا أقرك على هذا · انا أقرك على كل ما قلته · ان القوة سوف تكون الحكم ، كما كانت هي الحكم دائما · انه صراع الطبقات · فكما أسقطت طبقتكم طبقة النبلاء الاقطاعيين القديمة هكذا سوف تسقط بدورها ، ولسوف تكون طبقتي ، الطبقة العاملة ، هي صاحبة الفضل في اسقاطها · ولو انك قرأت علم البيولوجيا وعلم الاجتماع بمثل الوضوح الذي تقرأ به التاريخ اذن لرأيت ان هذه النهاية التي وصفتها امر محتوم · وسواء أتم ذلك في عام ، ام تم في عشرة اعوام ، ام تم في الف

فالذي لا ريب فيه هو ان طبقتكم سوف تسقط عن عرشها ، ولسوف يكــون سقوطها ثمرة السلطان · لقد أدرنا هذه الكلمة في رؤوسنا حتى لقد تخدرت بها عقولنا · السلطان · انها كلمة ملوكية ! »

وهكذا ختمت تلك الليلة التي قضيناها في نادي الفيلوماثيين ·

الفصل السادس

تلميحات

حوالى هذه الفترة بالذات شرعت نذر الاحداث القادمة تطلع رؤوسها حولنا في سرعة وكثرة · كان ارنست قد لفت نظر ابي الى سوء مغبة ما درج عليه مؤخرا من استقبال الزعماء الاشتراكيين والعماليين في بيته ، وحضور الاجتماعات الاشتراكية جهارا · فما زاد ابي على ان ضحك ساخرا من مخاوفه · اما انا فكنت أفيد كثيرا من هذا الاحتكاك بزعماء الطبقة العمالية ومفكريها · كنت قد بدأت أرى الوجه الآخر من القطعة النقدية · وابتهجت بالايثار وبالمثالية اللذين لمستهما ، على الرغم من اني روعت بوقرة المؤلفات الفلسفية والعلمية الباحثة في الاشتراكية ، هذه المؤلفات التي وضعت في متناولي · كنت اتعلم في سرعة ، ولكني لم اتعلم بالسرعة الكافية التي تجعلني ادرك ، انذاك ، خطورة وضعنا ·

لقد كانت ثمة نذر ، ولكني لم أنتبه اليها · كانت السيدة بيرتونوايث والسيدة ويكسون مثلا ، تتمتعان بنفوذ اجتماعي هائل في جامعة مدينتنا ، فأذاعتا في الناس أني شابة تقدمية اكثر مما يجب · واني ذات نزعة مؤذية الى الفضول والتدخل في شؤون الآخرين · وخيل الي ان ذلك طبيعي جدا ، نظرا الى الدور الذي قمت به في التحقيق في قضية ذراع جاكسون · ولكني لم أقدر الاثر السيء الذي كان خليقا بتلك الدعاوة ، الصادرة عن مثل هاتين السيدتين المتمتعتين بنفوذ اجتماعي عظيم ، ان تحدثه في نفوس الناس حق قدرها ·

حقا ، لقد لاحظت بعض الانكماش تصطنعه صديقاتي وأصدقائي ،

ولكني عزوت هذا الى الاستهجان الذي ساد حلقات بيئتي بسبب من اعتزامي الزواج من ارنست · ولم يوضح لي ارنست ، الا بعد ذلك بقليل ، ان موقف طبقتي العام هذا كان شيئا اكثر من تلقائي ، وان دوافع محجوبة لسلـوك منظم كانت من ورائه · قـال :

ـ « لقد آويت عدوا من اعداء طبقتك · ليس هذا فحسب ، بـل لقد منحته حبك ، منحته نفسك · هذه خيانة لطبقتك · حـذار ان تحسبي انـك سوف تنجين من العقوبة · »

ولكن حتى قبل ذلك بفترة من الزمان رجع ابـي ذات اصيـل الـى البيت · كان ارنست الى جانبي ، ولقد استطعنا ان نرى ان ابـي كـان غاضبا ـ غاضبا على نحو فلسفي · والواقع ا نابـي كـان نادرا ما يستبد به الغضب الجامـح ، ولكنه كان يجيز لنفسـه قـدرا بعينـه مـن الغضب المكبوح· كان يدعو هذا القدر من الغضب علاجا مقويـا · ولقـد كـان في ميسورنا ان نرى انه كـان قد تجـرع شيئا من هذا « العلاج المقـوي » عندمـا دخـل الغرفـة ·

ـ « ما رأيكما ؟ لقد تناولت طعام الغداء مع ويلكوكس · »

وكان ويلكوكس رئيس الجامعة المحال الى التقاعد ، وكـان عقلـه الذاوي محشوا بتعميمات كانت غضة عام ١٨٧٠ ولكنـه لم يحاول منـذ ذلك الحين ان يعيد النظر فيها ·

وأعلـن ابـي :

ـ « لقد دعيـت · لقد طلب الي ان اذهب · »

وتمهل · وانتظرنا ·

ـ « اوه ، لقد أتم ذلك في براعة بالغة · انا أسلم بهذا ، ولكنـي وبخت · أنا ! ومن قبل ذلك الاحفور Fossil العتيق ! »

فقال ارنست :

ـ « أراهنك اني اعرف علام وبخت · »

فضحـك ابـي وقال :

ـ « لن تعرف ولو أعطيتك الفرصة لكي تحزر ثلاث مرات · »

فأجابه ارنست :

ـ « حسبي فرصة واحدة · ولن يكون ذلك حزرا على اية حال ، انـه سوف يكون استنتاجا · لقد وبخت على حياتك الخاصة · »

فهتف أبـي : ·

ـ « ذلك هو على وجه الضبط ! كيف حزرت ؟ »

ـ « كنت اعلم ان ذلك لا بد ان يحدث · لقد حذرتك قبل اليوم من مثل هذه النتيجة · »

فقال ابي مستغرقا في التفكير :

ـ « اجل لقد حذرتني · ولكني لم استطع ان اصدق ان ذلك ممكن · وعلى اية حال ، فان هذا يزودني ببينة جديدة أكثر افحاما أنص عليها في كتابي · »

فتابع ارنست كلامه :

ـ « ليس هذا شيئا مذكورا بالنسبة الى ما سيطالعك به المستقبل ، اذا ما لزمت خطتك ولم تقلع عن استقبال هؤلاء الاشتراكيين والراديكاليين على اختلاف ضروبهم ، في بيتك ، واستقبالي انا في جملتهم · »

ـ « ذلك ما قاله ويلكوكس العجوز بالحرف الواحد · لقد تحدث عن جميع الاشياء غير المباحة ، وقال ان ذلك ينم عن ذوق سقيم وانه لا غناء فيه البتة ، ولا ينسجم مع تقاليد الجامعة وسياستها · ولقد تكلم عن اشياء اخرى كثيرة من هذا القبيل الغامض نفسه ، ولم اوفق الى حمله على حصر كلامه في مسألة بعينها · لقد احرجته كثيرا ، فلم يجد معدى عن اجترار نفسه وعن انبائي بمدى احترامه لي ، ومدى احترام العالم كله لي بوصفي عالما · والحق ان مهمته تلك لم تكن مستساغة لديه ·لقد كان في وسعي ان ألاحظ انه لم يحبها · »

فقال ارنست :

ـ « انه هو الآخر لم يكن مالكا حرية التصرف · ان المصفدة قدماه بالاغلال ٤٨ leg-bar لا يحذر ، دائما ، في كياسة ولطف · »

ـ « اجل · ذلك مقدار ما فهمته منه · لقد قال ان الجامعة محتاجة هذا العام الى اموال تزيد كثيرا على ما ترغب الولاية في تقديمه اليها ، وان هذه الاموال يجب ان تأتي من بعض الاثرياء الذين لا بد ان يؤذي نفوسهم انحراف الجامعة عن مثلها الاعلى وهو البحث الرصين يقوم به العقل الرصين · وحين حاولت ان احمله على تركيز النقاش في علاقة حياتي

---

٤٨ كانوا في تلك الايام يصفدون أقدام العبيد الافريقيين على هذا النحو ، وكذلك كانوا يفعلون بالمجرمين · ولم تنسخ هذه العادة الا عند اشراق عصر « الاخاء بين البشر » ·

البيتية بانحراف الجامعة عـن مثلها الاعلى اقترح منحي اجازة سنتين ، براتب كامل ، اقضيهما في اوروبة ابتغاء الاستجمام والقيام ببعض البحوث العلمية · وواضح اني لم أستطع ، في ظـل هـذه الظروف والملابسات ، ان اقبل عرضـه · »

فقال ارنست في كآبة :

ـ « لو قبلت لكان ذلك خيرا لك الف مرة · »

فاحتج ابـي قائـلا :

ـ « كان عرضه رشوة ليس غير · »

فهز ارنست رأسه علامة الموافقة ، وتابع ابـي كلامـه :

ـ « وفوق هذا ، فقد قال الشحاذ ان ثمـة حديثا ، قيـلا وقالا يدور حول موائد الشاي ، خلاصتـه ان ابنتي ترافـق ، على مشهـد من الناس ، شخصية مثلك سيئة السمعة الى ابعد حد ، وان هذا لا يتفق بحال مع روح الجامعة وكرامتها · وليس معنى ذلك انه هو شخصيا يعترض ـ اوه ، لا ، ولكن الناس تتحدث ، وخليق بي انا ان أفهـم · »

وفكر ارنست في هذا الكلام لحظة ، ثم قال وعلى وجهه كآبة عميقـة يشوبها غيـظ قاتـم :

ـ « ان وراء هذا كله شيئا اكثر من مجرد مثل اعلى جامعي · لا ريب في ان أحدا قد ضغط على الرئيس ويلكوكس · »

فسأله أبي وقد بدا على وجهه ما يفيد ان كلام ارنست اثار فضولـه اكثـر مما اثـار روعـه :

ـ « هل تظـن ذلـك ؟ »

فقال ارنسـت :

ـ « اتمنى لو استطيع ان انقل اليك الفكرة التي تتشكل ، على نحـو ضبابي ، في ذهني · ان تاريخ العالم لـم يعرف فترة كـان فيهـا المجتمـع خاضعا لتغير رهيب موصول اكثر من هذه الفترة التي نعيش فيها · وهـذه التغيرات السريعة الطارئة على نظامنا الصناعي انما تحـدث تغيـرات لا تقل سرعة في بنيتنا الدينيـة ، وبنيتنا السياسيـة ، وبنيتنا الاجتماعيـة · ان ثورة رهيبة غير منظورة لتجري اليوم في نسيج المجتمع وبنيته · تلـك امور لا يستطيع المرء ان يستشعرها الا على نحو غامض · ولكنها اليـوم في حالة سديمية · ان في ميسور المرء ان يلمح ظلها الضبابي ـ اشياء ضخمة غامضة ، فظيعة · وان عقلي ليجفل مـن التفكير في الصورة النهائيـة التي

ستتبلور فيها · لقد سمعت انا ويكسون يتحدث تلك الليلة · ولقد كانت وراء كلماته عين الاشياء التي لا اسم لها ولا شكل والتي أستشعرها الآن · كان يصدر في حديثه عن توقع واع ابعد ما يكون الوعي » ·

فقال ابي ، ثم تمهل ولم يتـم :

ـ « تعنـي ··· »

ـ « أعني ان ثمة ظل شيء هائل متوعد شرع يهبط ، حتى في يـوم الناس هذا ، على البلاد · سمه ظل اوليغاركية ما ، اذا شئت ، تلك اقـرب صورة اجرؤ على رسمها له · اما ما ستكون عليه طبيعته فذلك ما ارفض ان اتخيله ٤٩ · ولكن مـا اردت ان اقولـه هو هذا : انت في مركـز محفوف بالخطر ، وانه لخطر يزيده خوفي هولا ، لانى عاجز حتى عن قياسه او سبره · اعمل بنصيحتي ، واقبل الاجازة · »

فاحتج قائـلا :

ـ « ولكن مثل هذا القبول خليق به ان يكون جبنا ··· »

ـ « لا ، على الاطلاق · انت رجل عجوز · لقد اديت رسالتك في هـذا العالم ، ولقد كانت رسالة عظيمة · دع المعركة الحالية للشباب وللقـوة · كنا نحن الشبان ، لما نؤد رسالتنا بعد · ولسوف تقف آيفيس الى جانبـي في مواجهة احداث المستقبل · انها ستكون هي ممثلتك في جبهة النضال · »

فاعترض ابـي :

ـ « ولكنهـم لا يستطيعون ان يؤذوني · انا احمد اللـه على نعمـة الاستقلال · اوه ، انا اعرف الاضطهاد الرهيب الذي يستطيعـون انزالـه بايما استاذ ليس له مورد رزق غير جامعته · ولكني في غنى عنهـم · وانـا

---

٤٩ على الرغم من أن الناس لم يحلموا ، مثل ايفرهارد ، بطبيعة ذلك الظـل ، فقد كـان ثمة ، حتى قبل زمانه ، قوم بصروا بلمحات منها · قال جون كالهـون Calhoun : « لقد نشأت في الحكومة قوة أعظم من الشعب نفسه ، تتألف من مصالح كثيرة متباينة قوية ، اتحدت في كتلة مفردة وتماسكت بفضل الفائض الضخم في المصارف وقدرته اللاحمة · » وقال الانساني الكبير ، ابراهيم لنكولن ، قبيل مصرعه مباشرة : « اني ألمح في المستقبل القريب ازمة زاحفة تخلع فؤادي وتوقع الرعدة في أوصالي جزعا على سلامة وطني ··· ان الشركات قد توجت وان عهدا من الفساد في الدوائر العليا سوف يتلو ، وان سلطة المال في البلاد سوف تحاول اطالة حكمها من طريق استغلال احقاد الناس حتى تتجمع الثروة في أيد قليلة وحتى تنهـار الجمهورية · »

لم اعمل استاذا في الجامعة طمعا في الراتب الذي تجريه علـي • لا ، ان في استطاعتي ان احيا على دخلي الخاص ، وانا احيا في كثير من الرفـه • وان الراتب هو كل ما يستطيعون انتزاعه مني • »

فأجابه ارنست :

ـ « ولكنك تغفل عن حقيقـة الموقف • اذا مـا تحققت مخاوفي كلهـا فعندئذ يكون في امكانهم ان ينتزعوا منك دخلك الخاص ، ورأسمالك الخاص ، بمثل السهولة التي ينتزعون بها راتبـك • »

واعتصم ابي بالصمـت بضع دقائـق • كان مستغرقـا في التفكير ، ولقد كان في ميسوري ان ارى اسارير العزم تتشكل على وجهه • واخيـرا تكلـم فقـال :

ـ « انا لن آخذ الاجازة ••• »

وصمت من جديد ، ثم اضاف :

ـ « سوف اواصل تأليف كتابي ٥٠ انك قد تكون مخطئا ، ولكـن سواء اكنت مخطئا او مصيبا فسألزم موقفي وادافع عن فكراتي • »

فقال ارنست :

ـ « حسن جـدا • أنت تسلك السبيل نفسهـا التي يسلكهـا الاسقف مورهاوس في هذه الايام ، وتتجه نحو كارثة مماثلة • ولسوف يصبـح كل منكما بروليتاريا قبل ان تبلغا نهاية المطاف • »

وانعطف الحديث شطر الاسقف ، فطلبنا الى ارنست ان يشرح لنـا ما الذي كان يفعله به •

ـ « لقد اسقمت روحه تلك الرحلة التي رافقته خلالها الـى جهـنم • لقد اخذته الى بيوت نفر من عمال مصانعنا • لقد أريته الحطام البشري الذي طرحته الآلة الصناعية جانبا ، واستمع الى قصص حياتهـم • لقد قدتـه الى احياء سان فرانسيسكو القذرة ، وفي غمرة الادمان ، والبغاء ، والاجرام

---

٥٠ هذا الكتاب ، « علم الاقتصاد والتربية » ، نشر في تلك السنة • ولا يزال لدينـا ثلاث نسـخ منه • اثنتان في آرديس Ardis وواحـدة في آزغارد Asgard . وهو يبحث ، في تفصيل محكم ، في عامل واحد من عوامل استمرار النظام القائم ، اعني تعصب الجامعات والمدارس العامة ومحاباتها للرأسماليين • لقد كان اتهاما منطقيا وماحقا لنظام التربية كله الذي لم ينشىء في عقول الطلاب غير الفكـرات المؤيدة للنظام الرأسمالي ، بحيث تطرد جميع الفكرات المعادية الهادمة • لقـد أحدث صدور ذلك الكتاب هياجا بالغا ، فسارعت الاوليغاركية الى مصادرته •

اكتشف قضية غير قضية الفساد الفطري . انه يستشعر تقززا غامرا . ولقد اصبح من المتعذر كبح جماحه ، وهذا اسوأ . انه اخلاقي اكثر مما ينبغي . ولقد استثيرت عواطفه على نحو عنيف لا يكاد يحتمل . وهو ، كدأبه دائما ، غير عملي . انه يحلق في سماء الخيال راسما مختلف ضروب الخطط الاخلاقية الواهمة لشن حملة تبشيرية في حلقات المثقفين . انه يستشعر ان من واجبه المحتوم ان يبعث الكنيسة القديمة من عدم ، وان يؤدي رسالتها الى المتحكمين والاسياد . انه مضنى يهده الاجهاد ، ولا بد ان ينفجر عاجلا أو آجلا ، وعندئذ تقع كارثة . اما الشكل الذي سوف تتخذه فذلك ما لا استطيع ان اتكهن به . انه نفس طاهرة سامية ، ولكنه غير عملي الى ابعد الحدود . لقد استعصى امره علي ، فليس في امكاني ان ابقي قدميه على الارض . انه يندفع ، عبر الخيال ، نحو جثمانيته * . وبعد ذلك يصار الى صلبه . مثل النفوس السامية انما خلقت لتصلب . »

فسألته ، وكانت وراء بسمتي جدية قلق الحب :

ـ « وانت ؟ »

فأجابني ضاحكا بدوره :

ـ « لا ، لا ، انا قد أعدم او أقتل ، ولكني لن أصلب . ان جذوري ممتدة في الارض باكثر مما ينبغي من تصلب وتشبث . »

فقلت :

ـ « ولكن ما الذي يحملك على دفع الاسقف نحو الصلب ؟ انت لا تستطيع ان تنكر انك سبب ذلك كله . »

فسألني بدوره :

ـ « وما الذي يحملني على ابقاء احدى النفوس المطمئنة ناعمة بالاطمئنان ، على حين يحفل العالم بملايين الانفس الغارقة في حمأة الالم المبرح والشقاء المقيم ؟ »

ـ « اذن فلماذا نصحت أبي بأخذ الاجازة ؟ »

فكان جوابه :

ـ « لانني لست نفسا طاهرة سامية . لاني صلب ، متشبث ، أناني .

---

* الجثمانية Gesthsemane المكان الذي اعتقل فيه المسيح خارج بيت المقدس .
(المعرب)

لاني احبك ، ولان أهلك ، مثل « روث » * القديمة ، هم أهلي • اما الاسقف فليس له بنت • والى هذا ، فأن اعوال الاسقف ، الخير ، على الرغم من عدم ملاءمته وضآلته ، لا بد ان يؤتي خيرا ما في الثورة • ان لمثقال الذرة الواحد وزنه واعتباره • »

ولم استطع ان اقر ارنست على ما ذهب اليه • فقد كنت اعرف طبيعة الاسقف مورهاوس النبيلة معرفة جيدة ، ولم يكن في ميسوري ان اتصور ان صوته اذ يرتفع داعيا الى العدالة والحق لن يكون اكثر من اعوال ضئيل غير ملائم • ولكنني لم اكن آنذاك ملمة ، مثل ارنست ، الماما كاملا بحقائق لحياة • لقد رأى ، على نحو واضح ، بطلان نفس الاسقف الكبير وعبثها ، وهو شيء ما لبثت الاحداث التي تلت ان كشفته لي بوضوح مماثل •

وبعد ذلك اليوم بفترة وجيزة انبأني ارنست ، وكأنه يروي حكاية طريفة ، العرض الذي تلقاه من الحكومة بتعيينه مفوضا للعمل في الولايات المتحدة • وغمرني الابتهاج • فقد كان الراتب ضخما نسبيا ، وكان في امكانه ان ييسر امر زواجنا • وفوق هذا ، فليس من ريب في ان مثل تلك المهمة كانت ملائمة لارنست اقصى ما تكون الملاءمة • ثم ان اعتزازي به اعتزازا غيورا جعلني ارحب بالعرض كأقرار من جانب الحكومة بمواهبه وكفاياته •

عندئذ لاحظت الوميض في عينيه • كان يسخر مني •

وقلت مرتعدة :

ـ « انك لن ••• ترفض ؟ »

فقال :

ـ « انها رشوة • ان وراءها يد ويكسون الرفيقة ، وان وراء ويكسون رجال اعظم منه شانا • تلك حيلة عتيقة ـ عتيقة كالنضال الطبقي نفسه تهدف الى اختطاف القادة من قلب جيش العمال • ما اكثر ما عرف العمال المساكين من ضروب التخلي والخيانة ! ليتك تعرفين كم زعيم من زعمائهم اشترته الاوليغاركية بمثل هذه الاساليب في الايام الخالية ! فلأن تشتري جنرالا ارخص ، بل ارخص بكثير ، من ان تقاتله وتقاتل جيشه برمته • لقد كان ثمة ••• ولكني لن اسمي اسماء • ان الوضع ليرمضني ، في صورته الحاضرة ، ارماضا كافيا • انا ، يا حبيبة فؤادي ، قائد عمال • انا لا استطيع ان ابيع قضيتي واخون رفاقي • ان ذكرى والدي العجوز المسكين

* Ruth هي احدى بطلات الكتاب المقدس • (المعرب)

والطريقة التي اكرهوه فيها على العمل حتى الموت خليق بها وحدها ، لـو لم تكن ثمة اسباب أخرى ، ان تحول بيني وبين ذلك · »

وترقرقت الدموع في عينيه ، في عيني بطلي القوي ذاك · كان عاجـزا عن ان يغفر للقوم ، مهما تطاول الدهر ، الطريقة التي شوهـو بها ابـاه ـ ان يغفر الاكاذيب الخسيسة والسرقات الصغيرة التي اكره عليها ، لكـي يضع لقمة الخبز في افواه اولاده ·

لقد قال لي ارنست ذات يوم :

ـ « كان ابي رجلا صالحا · كانت نفسه طيبة ، ومع ذلك فقد جعلتها وحشية حياته محرقة ، شائهة ، كليلة · لقد احاله اسياده ـ الوحوش الكبار ـ الى وحش محطم الفؤاد · لقد كان من حقه ان يكون الان على قيد الحياة ، مثل ابيك انت · فقد كانت له بنية قوية · ولكن الالة ادركته ، فراح يعمل حتى الموت من اجل الربح ، تأملي في ذلك · من اجل الربح ـ لقد تحول دم حياته الى عشاء مخمور ، او الى حلية رخيصة مرصعة بالجواهر ، او الى لهـو خليع من ملاهي الاثرياء الطفيليين العاطلين عن العمل ، ملاهي سادتـه الوحوش الكبار · »

الفصل السابع

رؤيا الاسقف

كتب الي ارنست يقول : « اصبح من المتعذر كبح جماح الاسقف ، انه يحلق عاليا في سماء الخيال · انه يعتزم ، الليلة ، ان يستهل اصلاح عالمنا هذا بالذات ، عالمنا الغارق في البؤس · انه يعتزم اداء رسالته · ذلك ما انبأني به ، وليس في استطاعتي ان اثنيه عن عزمه · وهذه الليلة سوف يرئس جلسة الـ I.P.H [51] ، ولسوف يفرغ رسالته تلك في ملاحظاته التمهيدية ·

« هل لي ان ادعوك الى سماعه ؟ لقد قدر على جهده ان يكون عبثا باطلا · انه سوف يفطر فؤادك ـ سوف يفطر فؤادك ، ولكن ذلك سيكون بالنسبة اليك درسا عمليا ممتازا · انت تعرفين ، يا حبيبة فؤادي ، مبلغ اعتزازي بحبك لي · وبسبب من ذلك اريدك ان تعرفي قيمتي الكاملة ، اريد ان احررك من قدر ضئيل من الشعور بتفاهتي · وهذا هو الذي يجعل اعتزازي راغبا في ان تدركي ان تفكيري سليم صحيح · ان آرائي قاسية ، ولكن عبث نفس في مثل نبل نفس الاسقف سوف يريك ضرورة هذه القسوة · وهكذا ، تعالي الليلة · صحيح ان ما سيحدث الليلة خليق به ان يوقع الحزن في نفسك ، ولكنه سوف يزيدك قربا مني · »

وعقدت منظمة الـ .I.P.H مؤتمرها تلك الليلة في سان

---

٥١ لسنا ندري على وجه الضبط إسم المنظقة التي ترمز اليها هذه الحروف الاولى ·

فرانسسكو [52] وكان ذلك المؤتمر قد دعي للنظر في الفساد الاخلاقي العـــام والبحث عن علاج له · ورئس الاسقف مورهاوس الجلسة · كان متوتـــر الاعصاب حين استوى على المنبر ، ولقد كان في استطاعتي ان استشعر وطأة التوتر العالي عليه · وجلس الى جانبه كل من الاسقف ديكنسون ، و هـ· هـ· جونز ، رئيس دائرة علم الاخلاق في جامعة كاليفورنيا ، والسيدة و· و· هيرد ، المنظمة الكبيرة لمشروعات الاحسان ، وفيليب وارد ، صاحب الايادي الخيرية الضخم ، وجمهرة من الكواكب الاقل سطوعا في سماء الفضيلـــة والاحســـان ·

ونهض الاسقف مورهاوس واستهل كلامه في غير تمهيد :

ـ « كنت في عربتي المقفلة اطوف في الشوارع · وكان الليل قد هبط · وبين الفينة والفينة رحت انظر من خلال نوافذ العربة ، وفجأة بدا لي وكأن عيني قد انفتحتا فرأيت الاشياء على حقيقتها · لقد حجبت عيني ، بـادىء الامر ، بيدي لكي لا تقعا على المشهد الرهيب ، وفي غمرة من الظلام جبهني هذا السؤال ، ما الذي ينبغي ان يعمل ؟ ما الذي ينبغي ان يعمل ؟ وبعـد برهة يسيرة جبهني السؤال في صورة اخرى : ما الذي كان خليقا بالسيـد (المسيح) ان يفعله في مثل هذا الموقف ؟ ومع هذا السؤال بدا لي وكأن ضياء ساطعا غمر المكان ، فرأيت واجبي واضحا كالشمس في رائعة النهار ، كمـا رأى شاوول واجبه في الطريق الى دمشق ·

« وأوقفت العربة ، وترجلت منها ، وبعد محادثة لم تستغرق غيـــر دقائق معدودة اقنعت المومستين بأن تمتطيا العربة معي · واذا كان يسوع على صواب فلا ريب في ان هاتين المرأتين التعستين كانتا اختي ، وان املهمـــا الاوحد في التوبة والتطهر كان رهنا بمحبتي وحناني :

« انا اقطن في حي من اجمل احياء سان فرانسسكو · والمنزل الذي احيا فيه كلف بناؤه مئة الف دولار ، وكلف ما فيه من اثاث وكتب وأعمال فنيـة مئة الف اخرى · انه دار كبيرة ، بل انه قصر يضم عددا من الخدم كبيرا · انا لم اعرف قط من قبل لاي شيء تصلح القصور · كنت احسب انها جعلت لكي يحيا المرء فيها · ولكني اصبحت اعرف ، الان · لقد اخذت بنتي الهـوى الى قصري ، ولسوف تقيمان فيه معي · واني لارجو ان املأ كل غرفة مـن

٥٢ كان المرء لا يحتاج الى غير بضع دقائق لكي ينتقل بالمعبر (أو المعدية) من بيركلي الى سان فرانسيسكو · والواقع أن هاتين المدينتين ، وغيرهما من مدن الخليج ، كانتا تؤلفان مجتمعـا واحـدا ·

غرف قصري بأخوات من مثلهن ٠ »

كان القلق قد شرع يستبد بالنظارة اكثر فأكثر ، وكانت وجوه الجالسين على المنبر تنم عن قدر متعاظم من الرعب والذعر ٠ وعند هذه النقطة نهض الاسقف ديكنسون ، وغادر المنبر والقاعة وعلى وجهه انطباعة اشمئزاز ٠ ولكن الاسقف مورهاوس واصل كلامه ، غافلا عن القوم كلهم ، مفعم العينين برؤياه :

ـ « اوه ، ايها الاخوة وايتها الاخوات ، لقد وجدت في عملي ذاك حلا لجميع مصاعبي ٠ انا لم اعلم لاي غرض جعلت العربات المقفلة ، ولكني امسيت اعرف ، الان ٠ لقد جعلت لنقل الضعيف ، والمريض ، والطاعن في السن ٠ لقد جعلت لاضفاء الشرف على اولئك الذين فقدوا حس الخجل نفسه ٠

« انا لم اكن اعلم لاي غرض جعلت القصور ، ولكني وجدت لها الان وجه استعمال ٠ ان قصور الكنيسة يجب ان تكون مستشفيات وبيوت تربية لاولئك الذين سقطوا على جوانب الطريق فهم يقاسون سكرات الهلاك ٠ »

وصمت فترة ، وقد بدا واضحا انه كان متوتر الاعصاب يحاول ان يلتمس افضل الطرق الى التعبير عن الفكرة التي استحوذت عليه ٠

ثم ما لبث ان اضاف :

ـ « انا لست مؤهلا ، يا اخوتي الاعزاء ، لان احدثكم حديثا ما عن الاخلاق ٠ لقد عشت في حمأة العار والرياء فترة اطول من ان تجعلني قادرا على مد يد العون الى الاخرين ٠ ولكن العمل الذي قمت به نحو تينك المرأتين، اللتين أعتبرهما اختي ، يظهر لي ان الطريق الفضلى ميسور الاهتداء اليها ٠ وبالنسبة الى اولئك الذين يؤمنون بيسوع وانجيله لا يمكن ان يكون ثمة ايما صلة بين الانسان والانسان غير صلة الوداد ٠ المحبة وحدها اقوى من الخطيئة ـ اقوى من الموت ٠ ومن اجل ذلك اقول للاثرياء فيكم ان الواجب يقتضيهم ان يفعلوا ما قد فعلته وما انا فاعله ٠ ليفتح كل غني منكم باب بيته في وجه لص من اللصوص وليعامله وكأنه أخوه ، او في وجه بغي من البغايا وليعاملها وكأنها اخته وعندئذ لن تكون سان فرانسسكو في حاجة لا الى قوة من البوليس ولا الى جيش من القضاة ٠ عندئذ تحول السجون الى مستشفيات، ويزول المجرم وجريمته ٠

« ان علينا ان نجود بنفوسنا ، لا بأموالنا فحسب ٠ علينا ان نفعل كما فعل المسيح ، تلك هي رسالة الكنيسة اليوم ٠ لقد ضللنا السبيل وابتعدنا

عن تعاليم « السيد » · اننا مستغرقون في ملذاتنا ومتارفنا · لقد أحللنا شيطان الجشع محل المسيح · وان لدي ههنا قصيدة تروي القصة كلها · وانا اود ان اتلوها على مسامعكم · لقد نظمتها نفس ضالة استطاعت ، برغم ضلالها ، ان ترى بوضوح · ٥٣ ولا يحسبنها أي منكم هجوما على الكنيسة الكاثوليكية · انها هجوم على الكنائس جميعا ، على ابهة وفخفخة جميع الكنائس التي تنكبت سبيل المسيح واقامت ما بينها وبين خرافه سياجا واقيا· واليكم نص القصيدة :

«لقد نفخ في الابواق الفضية عبر القبة ،
فركع الناس على الارض في رهبة ،
وعلى أعناق الرجال رأيت سيد روما القديس محمولا مثل
الـه عظيم ·

لقد ارتدى ، كالكهان ، ثوبا اشد بياضا من الزبد ،
وتجلبب ، كالملوك ، بالارجوان النفيس ·
وفي بهاء وضياء مضى البابا الى مقره ،
وقد اشرأبت على رأسه ثلاثة تيجان من الذهب ·

« وارتد فؤادي ، خلسة ، الى سنوات ممعنة في القدم ،
الى رجل كان يطوف على مقربة من بحر موحش ،
ويبحث ، ولكن عبثا ، عن مكان ما يستريح فيه ·
وسمعته يقول : للذئب وجاره ولكل طير عشه ،
أما أنا فيتعين علي من دون الجميع ان أطوف وأطوف
وأن أدمي قدمي وأشرب الخمر وقد ملحتها عبراتي · »

وعصف الاهتياج بالنظارة ، ولكنهم ظلوا ممتنعين عن الاستجابة : ومع ذلك فأن الاسقف مورهاوس لم يع هذه الواقعة · لقد واصل اندفاعه في غير ما تردد :

ـ « وهكذا اقول للاغنياء ، فيكم ، ولجميع الاغنياء ، انكم تنزلون بخراف « السيد » ابشع الظلم · لقد جعلتم قلوبكم قاسية كالجلاميد · ولقد اوصدتم آذانكم دون صرخات المعذبين في الارض ـ صرخات الالم والاسى التي

٥٣ اوسكار وايلد ، أمير من أمراء البيان في القرن التاسع عشر من التاريخ الميلادي·

لن تسمعوها ، والتي سوف تسمع برغم ذلك في يوم من الايام ٠ وهكـــذا اقـــول ٠٠٠٠٠ »

ولكن هـ٠ هـ٠ جونز وفيليب وارد اللذين كانا قد نهضا عن كرسيهما ، سارعا عند هذه النقطة الى انزال الاسقف عن المنبر ، فيما لزم سائر المستمعين مقاعدهم مصعوقين لاهثين ٠

وضحك ارنست ضحكا قاسيا ووحشيا عندما انتهى الى الشـــارع ، وهزني ضحكه هزا عنيفا ٠ وبدا قلبي وكأنه يوشك ان ينفجر بعبرات مكبوحة٠

وصرخ ارنست :

ـ « لقد ادى رسالته ٠ لقد انفجرت رجولة اسقفهم وطبيعته الرقيقة المحجوبة عميقا في ذات نفسه ، فاستنتج مستمعوه الذين كانوا يحبونه ، ان مسا قد اصابه ! هل رأيتهم ينأون به عن المنبر في قلق وجزع بالغين ؟ ان عاصفة من الضحك محمومة قد هبت ، من غير ريب ، حين وقعت أعين القوم على هذا المشهـد ٠ »

فقلـــت :

ـ « ومع ذلك فان ما قام به الاسقف وما قاله ، الليلة ، سوف يخلف انطباعة قويـــة ٠ »

فتساءل ارنست في سخريـــة :

ـ « اتظنين ذلك ؟ »

فقلت له مؤكدة :

ـ « انها سوف تحدث ضجة ٠ ألم تر مراسلي الصحف يدونون كلماته فيما كان يتكلم تدوينا خاطفا تعوزه العناية ، فكأن ما سمعوه قد أفقدهـــم صوابهـــم ؟ »

ـ « لن ينشر سطر واحد من ذلك كله في صحف غد ٠ »

فصحـــت :

ـ « لا أستطيع ان اصدق ذلك ٠ »

فكان الجواب :

ـ « ليس عليك الا ان تنتظري وتري ٠ لن ينشر سطر واحد ، لن تنشر فكرة واحدة مما نطق به ٠ الصحافة اليومية ؟ انها الطمس اليومي ! »

فاعترضت قائلـــة :

ـ « والمراسلون ؟ لقد رأيتهم بأم عيني ٠ »

ـ « لن يقدر لكلمة مما قال ان تتحول الى حروف مطبوعة ، لقد نسيت

رؤساء التحرير · انهم يقبضون رواتبهم ثمنا للسياسة التي يلزمونهـــا · وسياستهم هي ان لا ينشروا شيئا يهدد مصالح النظام القائم تهديدا حيويا · ان كلمات الاسقف كانت هجوما عنيفا على الاخلاقية القائمة · لقد كانـت هرطقة · لقد انزلوه عن المنبر ليحولوا بينه وبين النطق بقدر من الهرطقـة اكبر · ان الصحف اليومية سوف تخنقها بنسيان الصمت · صحافة الولايات المتحدة ؟ انها نمو طفيلي يسمن على هبات الطبقة الرأسمالية وعطاياهـا · ووظيفتها هي ان تخدم النظام الاجتماعي القائم من طريق قولبة الرأي العام ، وانهم ليؤدون هذه الوظيفة على خير وجه ·

« دعيني اتنبأ · ان صحف الغد سوف تجتزىء بالنص على ان الاسقف يشكو اعتلالا في الصحة ، وانه ارهق نفسه منذ فترة طويلة بعمـــل شـاق موصول ، وانه سقط في الليلة البارحة صريع الارهاق · حتى اذا انقضـت على ذلك ايام معدودات عمدت الصحف الى النص على ان الاسقف يعانـي انهيارا عصبيا ، وان رعيته المعترفة بالجميل قد منحته اجازة · ثم ان واحدا من شيئين سوف يحدث في ما بعد : اما ان يدرك الاسقف خطأ مسلكه ويعود من اجازته رجلا معافى ليس في عينيه ايما رؤى جديدة ، واما ان يصر على حماقته ، وعندئذ يكون في ميسورك ان تتوقعي ان تنشر الصحف نبأ جنونه مفرغا في كلمات رقيقة مثيرة للشجون · ومن ثم سوف يترك ليتمتم بـــرؤاه للجدران الصماء · »

فصحت !

ــ « انك تذهب الى ابعد مما ينبغي ! »

فأجــــاب :

ــ « ولسوف يكون ذلك ، في عيني المجتمع ، جنونا حقا · وهل ثمـــة رجل محترم ، رجل ليس بمجنون ، يقدم على فتح ابواب بيته في وجه الساقطات واللصوص ليعيشوا معه وكأنهم اخوته واخواته ؟ صحيح ان المسيح مــات بين لصين ، ولكن هذه حكاية اخرى · الجنون ؟ ان العمليات العقلية التـــي يقوم بها من لا نقره على آرائه هي دائما خاطئة · واذن فعقل ذلك الرجـــل مخطىء · اين الخط الفاصل بين العقل المخطىء والعقل الذي اصابه مس ؟ انه ليس في امكان الناس ان يتصوروا ان في ميسور ايما رجل عاقـــل ان يخالفهم مخالفة جذرية في استنتاجاتهم الموغلة في التعقل · .

« ان في صحف هذا المساء مثلا صالحا على هذه الحقيقة · فمـــاري ماكينا تقطن الى الجنوب من « ماركت ستريت » · انها امرأة فقيرة ، ولكنهـا

شريفة ٠ وهي ايضا مفعمة النفس بالروح الوطنية ٠ ولكن لها آراء خاطئة في ما يتصل بالراية الاميركية والحماية التي يفترض ان ترمز اليها ٠ واليك ما حدث لهذه المرأة ٠ لقد ألم بزوجها حادث أدخل على أثره الى المستشفى حيث مكث ثلاثة شهور ٠ وعلى الرغم من انها أخذت تغسل في بيتها ملابس الناس فقد عجزت عن دفع البيت في مواعيدها ٠ وأمس طردوها منه ٠ ولكنها رفعت، قبل ان تغادر المكان ، راية أميركية ٠ ومن تحت طياتها اعلنت انهـــــم لا يستطيعون ، بفضل ما تسبغه عليها من حماية ، ان يخرجوها الى الشــارع البارد ٠ ولكن ما الذي حدث بعد ذلك ؟ لقد اعتقلت واتهمت بالجنون ٠ ولقد أخضعت اليوم لفحص طبي أجراه نفر من الاختصاصيين في الامراض العقلية٠ فحكموا بأنها مصابة بالجنون ٠ ومن ثم اقتيدت الى مستشفى في نابا ٠ »

فاعترضت قائلة :

ـ « ولكن هذا المثل متكلف ، او قل انه مغتصب اغتصابا ، لنفــرض اني اختلفت مع الناس جميعا حول الاسلوب الادبي لكتاب من الكتب ٠ انهم طبعا لن يبعثوا بي الى مستشفى المجاذيب بسبب من ذلك ٠ »

فأجــاب :

ـ « هذا صحيح ٠ ولكن مثل هذا الاختلاف في الرأي لا يشكل أي خطر على المجتمع ٠ ههنا يكمن الفرق ٠ اما الاختلاف في الرأي ، كما يتجلى في قضيتي ماري ماكينا والاسقف مورهاوس فيشكل خطرا على المجتمع ٠ اذ ما الذي يحدث اذا ما رفض جميع الفقراء ان يدفعوا أجور بيوتهم ويعتصمــوا بحماية الراية الاميركية ؟ عندئذ تتقوض الملكية العقارية وتنهـــار ٠ وآراء الاسقف لا تقل خطرا على المجتمع ٠ واذن ، فليسق الى مستشفى المجاذيب ! »

ومع ذلك فقد أبيت ان أصدق ٠

فقال ارنست :

ـ « انتظري وانظري ٠ »

وانتظرت ٠

وفي صباح اليوم التالي اشتريت الصحف جميعا ٠ فألفيت ان ارنست كان ، حتى تلك المرحلة ، على حق ٠ فلم تنشر الصحف ايما كلمة من كلمات الاسقف مورهاوس ٠ واجتزأت صحيفة او صحيفتان بالاشارة الى ان عواطفه غلبت عليه فأخرجته عن طوره ٠ ومع ذلك فقد أوردت الصحف كلام الخطباء المبتذل ، الذي ألقي على أثر خطبة الاسقف ، بنصه الكامل ٠

وبعد ايام اعلنت الصحف ، في كثير من الايجاز ، ان الاسقف قد فارق

البلد في اجازة يستعيد بها عافيته ويتغلب على آثار الارهاق · كان كل شيء حسنا حتى الان ، ولكن لم يكن ثمة ايما الماع الى الجنون ، او حتى الى الانهيار العصبي · أنا لم أتصور الا قليلا اي درب رهيب كان مقدرا على الاسقف ان يسلكه ـ درب الجثمانية والصلب الذي كان ارنست قد أنعم النظر فيه ·

الفصل الثامن

مدمرو الآلات

وقبيل ترشح ارنست لعضوية الكونغرس ، على اللائحة الاشتراكية ، أقام ابي العشاء الذي كان يدعوه فيما بيننا « عشاء الربح والخسارة » · اما ارنست فقد دعاه « عشاء مدمري الآلات » · والواقع أنه كان مجرد عشاء ينتظم ثلة من رجال الاعمال ـ رجال الاعمال الصغار طبعا · واني لاشك في ان يكون أي منهم معنيا بصناعة او عمل تجاري يزيد رأسماله الاجمالي على مئتي الف دولار · لقد كانوا يمثلون رجال الاعمال من ابناء الطبقة الوسطى خير تمثيل ·

كان ثمة أووين ، من مؤسسة سيلفيربيرغ وأووين وشركائهما ـ وهي بقالة ضخمة ذات فروع عديدة · وكنا نشتري موادنا الغذائية منها · وكذلك شهد العشاء كل من صاحبي مؤسسة كووالت وواشبورن الكبيرة لبيع العقاقير وصنوف الطعام والشراب ، ومستر آسمونسين وهو صاحب مقلع ضخم من مقالع الغرانيت في مقاطعة كونترا كوستا · وكان ثمة ايضا عدد كبير من أضراب هؤلاء الرجال ، بين أصحاب مصانع صغيرة وبيوتات تجارية صغيرة او مساهمين في مثل تلك المصانع والبيوتات · وبكلمة مختصرة ، كانوا كلهم رأسماليين صغارا ·

كانوا رجالا اذكياء ممتعين ، ولقد تحدثوا في بساطة ووضوح · كانت شكواهم الاجتماعية منصبة على الشركات الكبيرة والتروستات الاحتكارية · وكان مذهبهم : « روضوا التروستات » · كان البلاء كله ناشئا عن التروستات ، ولقد أطلق كل منهم صيحة الذعر نفسها · لقد طالبوا بأن تنتزع



الحكومة ملكية هذه التروستات ، كتروست السكك الحديدية وتروست البرق او التلغراف وغيرهما ، وان تفرض ضرائب دخل باهظة ، متدرجة في ضراوة، لتفتيت تراكم الثروة الهائل · كذلك طالبوا ، كعلاج لبعض الادواء المحلية ، ان تستولي البلديات على ملكية شركات الماء والبنزين والتلفون والاوتوبيس وغيرها من المصالح العامة ·

وكانت حكاية مستر آسمونسين عن بلاياه كصاحب مقلع غرانيت طريفة على نحو خاص · لقد اعترف بأنه لم يكسب في يوم من الايام أيما ربح من غرانيته ، وذلك برغم ضخامة الطلب على الغرانيت بسبب من الدمار الذي انزله الزلزال الكبير بمدينة سان فرانسسكو · فمنذ ست سنوات واعادة تعمير سان فرنسسكو قائمة على قدم وساق ، ونطاق اعماله يتسع حتى لقد بلغ اربعة اضعاف ما كان عليه من قبل بل ثمانية اضعاف ما كان عليه من قبل ، ومع ذلك فان وضعه المالي ظل كما هو لم يطرأ عليه تحسن ما ·

لقد قال :

ـ « ان السكك الحديدية تعرف صناعتي احسن مما اعرفها انا بقليل · انها تعرف نفقات الانتاج عندي بالفلس الواحد ، وهي تعرف احكام عقودي ونصوصها · اما كيف تستطيع ان تعرف ذلك فهذا ما احزره مجرد حزر · لا ريب في ان لها بين مستخدمي عيونا وجواسيس ، وانها على اتصال بجميع الفرقاء في مختلف العقود التي وقعتها · لاحظوا مثلا اني ما ان اوقع عقدا ضخما خليقا بأحكامه ان تعود علي بربح وفير حتى ترفع اجور النقل من مقلعي الى السوق · وكانت الشركة لا تقدم الي اي تفسير · وهكذا كانت السكة الحديدية تسلبني ربحي · وفي مثل تلك الملابسات لم اوفق قط الى حمل السكة الحديدية على اعادة النظر في قرار زيادة الاجور · ومن ناحية ثانية فقد كنت اوفق ـ كلما كثرت حوادث العمل وزادت نفقات الانتاج وانطوت احكام العقود على قدر من الربح اقل ـ الى ان اقنع السكة الحديدية بخفض اجورها · فماذا تكون النتيجة ؟ ان تفوز السكة الحديدية دائما بأرباحي ، سواء أكانت تلك الارباح كبيرة او صغيرة · »

فقاطعه ارنست ليقول :

ـ « وان ما يبقى لك بعد هذا كله ليعادل ، تقريبا ، راتبك كمدير لو ان السكة الحديدية امتلكت المقلع · »

فأجابه مستر آسمونسين :

ـ « تماما · منذ فترة قصيرة ليس غير ألقيت نظرة فاحصة على

دفاتري خلال العشر السنوات الماضية ، فاكتشفت ان ربحي كان طوال هـذه السنوات العشر معادلا لراتب مدير · ولقد كان في امكان السكة الحديدية ان تمتلك مقلعي وان تستأجرني لادارته · »

فضحك ارنست وقال :

ــ « ولكن مع هذا الفرق : هو أنه سوف يتعين على السكة الحديدية ، في حال امتلاكها المصنع ، ان تتحمل جميع المخاطر التي تتحملها انت اليـوم من اجله في كثير من الارتياح · »

فأجابه مستر آسمونسين في نبرة محزونة :

ــ « هذا صحيح مئة في المئة · »

حتى اذا تركهم ارنست يقولون ما يريدون ان يقولوه شرع يطرح الاسئلة يمنة ويسرة · وبدأ بمستر أووين ·

ــ « لقد انشأت فرعا لبقالتك هنا ، في بيركلي ، منذ ستة اشهر تقريبا ؟ »

فأجابه مستر أووين :

ــ « نعـم · »

ــ « ومنذ ذلك الحين لاحظت ان ثلاثا من بقالات الزوايا الصغيرة قد اغلقت أبوابها · هل كان فرعك الجديد هو السبب في ذلك ؟ »

فأكد له مستر أووين ذلك ، في ابتسامة راضية :

ــ « لم يكن في امكانها ان تصمد في وجهنا بحال من الاحوال · »

ــ « لمـاذا ؟ »

ــ « كنا نملك رأسمال أكبر · ان الاعمال الكبيرة تتميز بقدر من الهدر اقل . وقدر من الفعالية اعظم · »

ــ « ولقد امتص فرعك الجديد أرباح المحال الصغيرة الثلاثة · فهمت · ولكن قل لي ، ما الذي حل بأصحاب تلك المحال الثلاثة ؟ »

ــ « ان احدهم يسوق اليوم عربة من عربات التوزيع لحسابنا · امـا الرجلان الآخران فلست ادري ما الذي حل بهما · »

وفجأة التفت ارنست الى مستر كووالت :

ــ « انت تبيع مقادير كبيرة من السلع بأسعار مخفضة ٥٤ · ما الذي

---

٥٤ Cut-rates كانوا في ذلك العهد كثيرا ما يخفضون الاثمان الى حد سعر الكلفة بل الى ما دون سعر الكلفة ايضا · وهكذا يكون في استطاعة الشركة الكبيرة ان تبيع بيع خسارة ، مدة أطول مما تستطيع الشركة الصغيرة ، وبذلك تطرد الشركة الصغيرة من السوق · وكان هذا الصنيع وسيلة شائعة من وسائل المنافسة ·

حل بأصحاب المحال الصغيرة الماثلة المعنية ببيع العقاقير وصنوف الطعام والشراب ، اولئك الذين اكرهتهم على الارتداد الى الجدار ؟ »

فكان الجواب :

ـ « ان واحدا منهم ، هو مستر هاسفوردزر ، مسؤول اليوم عن دائرة الوصفات الطبية في محلنا · »

ـ « ولقد امتصصتم الارباح التي كانوا يجنونها ؟ »

ـ « من غير ريب · ذلك ما نزلنا الى حلبة العمل التجاري من اجله · »

فقال ارنست لمستر آسمونسين ، فجأة :

ـ « وانت ؟ انت ناقم لان السكة الحديدية قد امتصت ارباحك ، اليس كذلك ؟ »

فهز مستر آسمونسين رأسه علامة الايجاب ·

ـ « ان ما تريده هو ان تجني انت الارباح ؟ »

فهز مستر آسمونسين رأسه كرة اخرى ·

ـ « من الآخرين ؟ »

وهنا لم يفز ارنست بجواب · فألح في السؤال :

ـ « من الآخرين ؟ »

فأجابه مستر آسمونسين في اقتضاب جاف :

ـ « تلك هي الطريقة التي تجنى بها الارباح · »

ـ « اذن فاللعبة التجارية هي ان تجني الارباح من الآخرين ، وان تحول بين الاخرين وبين ان يجنوا الارباح منك · أليس كذلك ؟ »

وتعين على ارنست ان يكرر سؤاله قبل ان يجيبه مستر آسمونسين بقوله :

ـ « اجل ، هذا هو الوضع ، الا اننا لا نعترض على جني الاخرين الارباح ما دامت غير فاحشة · »

ـ « تقصد ما دامت غير ضخمة · ومع ذلك فلست ترى بأسا في ان تجني انت مثل هذه الارباح الضخمة · هذا امر لا ريب فيه ، أليس كذلك ؟ »

وفي دماثة أقر مستر آسمونسين بهذا الضعف · وكان ثمة رجل اخر امتحنه ارنست الان ، هو مستر كالفين الذي كان يملك مصنعا كبيرا للالبان ومشتقاتها ·

لقد قال له ارنست :

ـ « كنت منذ فترة خلت تقاتل « تروست الحليب » ، وها انت اليوم

منغمس في نشاط حزب غراينج السياسي [55] · فكيف كان ذلك ؟ »

فأجابه مستر كالفين ، وقد بدت على وجهه سيما المحارب حقا :

ـ « اوه ، انا لم أطرح القتال · انا أقاتل « التروست » في الميـــدان الوحيد الذي يمكن للمرء ان يقاتل فيه ـ اعني في الميدان السياسي ، دعنــي أريك · اننا نحن اصحاب مصانع الالبان كنا منذ بضع سنوات نفعل كــل شيء على هوانا : »

فقاطعه ارنست قائلا :

ـ « ولكنكم كنتم تتنافسون في ما بينكم · »

ـ « اجل ، وذلك كان سببا في ابقاء الارباح على مستوى منخفض · ولقد حاولنا ان ننظم انفسنا ، ولكن اصحاب مصانع الالبان المستقلة كانــوا يخترقون صفوفنا دائما · ثم جاءت تروست الحليب · »

فقال ارنست :

ـ « ممولة برأسمال فائض من ستاندرد أويل · » [56]

فأقر مستر كالفين :

ـ « اجل · ولكنا لم نعرف هذه الحقيقة آنذاك · لقد جاءنا عملاؤهــا متوعدين · قالوا لنا : « انضموا الينا واكسبوا الربح الوفير ، أو ابقــوا خارج التروتست وجوعوا ! » وانضم معظمنا الى التروست · أما الذين لم يفعلوا فقد جاعوا · أوه ، لقد عاد علينا ذلك بكسب حسن ··· بادىء الامر · فقد رفع سعر الحليب سنتا لكل ربع غالون · وكان ربع هذا السنت يدخــل جيوبنا · اما ثلاثة ارباعه الباقية فكانت تذهب الى التروست · ثم ان سعر الحليب زيد سنتا آخر ، ولكننا لم نفز بأيما جزء مهما يكن من ذلك السنت · وذهبت شكاوانا ادراج الرياح · كانت التروست قد امست هي صاحبـــة الامر والنهي · واكتشفنا أننا كنا كميات مهملة · وأخيرا حرمونا ربع السنت الاضافي · ثم شرعت التروست تعتصرنا اعتصارا · فما الذي كان في امكاننا ان نفعله ؟ لقد ابتزت منا أموالنا · ولم يعد ثمة اصحاب مصانع ألبان ، لــم يبق غير تروست الحليب · »

فلاحظ ارنست في مكـر :

---

٥٥ لقد بذلت ، خلال تلك الحقبة ، جهود كثيرة لتنظيم طبقة المزارعين في حزب سياسي هدفه القضاء على التروستات والشركات الكبرى من طريق اصدار تشريعات فعالة ولكن هذه المحاولات كلها باءت بالاخفاق ·

٥٦ أول تروست كبيرة ناجحة ـ ولقد كانتتقدم سائر التروستات جيلا كاملا تقريبا ·

ـ « ولكني اعتقد انه كان في امكانكم ان تنافسوا التروست بعد ان رفعت السعر سنتين اثنين ٠ »

ـ « لقد توهمنا نحن ذلك ، ايضا ٠ لقد حاولنا ذلك ٠ » وتمهل مستر كالفين لحظة ، « ولكن هذه المحاولة انزلت الخراب في ساحتنا ٠ فقد كان في وسع التروست ان تنزل الحليب الى الاسواق بأرخص مما استطعنا نحن ٠ ومع ذلك فقد كانت تحقق بهذه الطريقة ربحا ضئيلا ، في حين كنا نحن نبيع بخسارة حقيقية ٠ ولقد خسرت خمسين الف دولار في تلك المخاطرة ٠ وتردى معظمنا في هاوية الافلاس ٠ ٥٧ ومحي اصحاب مصانع الالبان من الوجود ٠ »

فقال ارنست :

ـ « وهكذا سلبتك التروست ارباحك ، ولقد انصرفت الى السياسة لكي تحمل الدولة على سن تشريع يزيل التروست من الوجود وتسترد ارباحك ٠ »

واشرق وجه مستر كالفين وقال :

ـ « هذا على وجه الضبط ما اقوله في خطبي الموجهة الى المزارعين ، تلك هي فكرتنا كلها مفرغة في كلمات معدودات ٠ »

فسأله ارنست :

ـ « ومع ذلك فأن التروست تنتج الحليب بأرخص جدا مما يستطيع أصحاب المصانع المستقلة انتاجه ؟ »

ـ « كيف لا تنتج الحليب بمثل هذا الرخص ورأسمالها الضخم يمكنها من التمتع بتنظيم رائع وآلات حديثة ؟ »

فأجابه ارنست :

ـ « لا مجال للمناقشة ٠ ان امكانياتها تيسر لها ذلك ، وانها لتحققه عمليا ٠ »

وهنا أطلق مستر كالفين خطابا سياسيا عرض فيه آراءه ، وتبعه في ذلك آخران فتحدثوا في حرارة بالغة ، وكانت صيحتهم جميعا تدعو الى القضاء على التروستات ٠ »

وقال لي ارنست في صوت كالهمس :

ـ « يا لهم من قوم مساكين بسطاء ٠ انهم يرون في وضوح بقدر ما

---

٥٧ الافلاس ـ مؤسسة عجيبة كانت تمكن الفرد ، الذي أخفق في صناعة تنافسية ، من الامتناع عن تسديد ديونه ٠ ولم يكن من آثارها غير تحسين الاحوال الوحشية التي اكتنفت « صراع الظفر والناب » الاجتماعي ٠

تسمح لهم ابصارهم ان يروا · ولكنهم لا يرون غير رؤوس انوفهم · »

وبعد برهة قصيرة نهض للتحدث كرة اخرى ، ولقد تمكن بطريقته المميزة من الاستحواذ على مشاعر الحاضرين والاستئثار بحق الكلام بقية السهرة ·

استهل حديثه قائلا :

ـ « لقد أصغيت ، في اهتمام ، اليكم جميعا · وانا ارى بوضوح انكم تلعبون اللعبة التجارية على الطريقة « الارثوذكسية » القويمة · ان الحياة لتتلخص عندكم في ارباح · ان عند كل منكم مؤسسة وايمانا راسخا بأنكم خلقتم لغرض وحيد ، هو كسب الارباح · بيد ان ثمة عقبة · ففيما انتم منغمسون في السعي لتحقيق الربح تنشأ التروستات الاحتكارية وتنتزع ارباحكم من جيوبكم · وتلك ورطة تتعارض بطريقة ما مع هدف الخليقة · والطريقة الوحيدة للخروج منها ، فيما يتراءى لكم ، هي القضاء على التروستات التي تسلبكم ارباحكم ·

« لقد اصغيت اليكم في اهتمام ، وليس ثمة غير اسم واحد قادر على ان يختزلكم · ولسوف اطلق عليكم هذا الاسم · انتم مدمرو آلات · أتدرون من هو مدمر الالات ؟ دعوني اخبركم · في القرن الثامن عشر ، وفي انكلترة ، كان الرجال والنساء ينسجون القماش في اكواخهم ، على انوال يدوية · ولقد كان نظام الصناعة المنزلي هذا طريقة في نسج القماش ليس ابطأ منها ولا اشد خرقا وابهظ تكاليف · وفجأة جاءت الالة البخارية والالات المنطوية على اقتصاد في جهد العامل · ان الفا من الانوال المجتمعة في مصنع كبير ، والمسيرة بآلة بخارية مركزية ، كان في وسعها ان تنتج القماش بأرخص كثيرا مما كان في ميسور النساجين المنزليين انتاجه على انوالهم اليدوية · هنا ، في المصنع كان تضامن ، وفي وجه هذا التضامن تلاشت المنافسة · ان الرجال والنساء الذين كانوا من قبل يشغلون الانوال اليدوية لحسابهم قصدوا الان الى المصانع وشغلوا الانوال الالية ، لا لحسابهم هم ، ولكن لحساب المالكين الرأسماليين · والى هذا ، فان الاولاد الصغار مضوا للعمل خلف الانوال الالية ، وبأجور ادنى ، مزاحمين الرجال على اللقمة اليومية · وعانى الرجال من جراء ذلك كله أزمة قاسية · لقد هبط مستوى عيشهم · لقد جاعوا · ولقد قالوا ان الالات هي المسؤولة عن بلائهم هذا · وهكذا شرعوا يدمرون الالات· ولكنهم لم يفلحوا ، لقد كانوا بلهاء الى حد بعيد ·

« ومع ذلك فانكم لم تتعظوا من امثولتهم · فها انتم اولاء ، بعد قرن

ونصف قرن ، تحاولون ان تدمروا الالات · ان آلات التروستات الاحتكارية لتعمل ، باعترافكم انتم ، على نحو اكثر فعالية واقل كلفة مما تستطيعون انتم ان تعملوا · وهذا هو السبب الذي من اجله تعجزون عن منافستهم · ومع هذا فأنكم لا تخفون رغبتكم في تدمير تلك الالات ، انتم اشد بلاهة حتى من عمال انكلترة البلهاء · وفيما انتم تهذون حول احياء المنافسة تمضي التروستات الاحتكارية في انزال الخراب بساحتكم ·

« اذكم كلكم تكررون القصة نفسها ـ انقضاء عهد المنافسة وبزوع عهد التجمع والتضامن · ومع ذلك ، فأنت يا مستر اووين قضيت على المنافسة هنا في بيركلي عندما أكره فرعك الجديد ثلاثا من البقالات الصغيرة على الانسحاب من الميدان · لقد كانت مؤسستك التجمعية اشد فعالية ومع هذا فأنت تستشعر وطأة الاحتكارات الاخرى عليك ، وطأة التروستات الاحتكارية ، فترفع عقيرتك بالشكوى · وانت انما تفعل ذلك لانك لست صاحب تروست · ولو قد كنت تملك تروستا للبقالة تهيمن على اسواق الولايات المتحدة كلها اذن لكان خليقا بك ان تغني اغنية اخرى ، ولكان خليقا بتلك الاغنية أن تهتف : « مباركة هي التروستات » · ثم انك ، بالاضافة الى ان مؤسستك التجمعية الصغيرة ليست تروستا بالمعنى الصحيح ، تدرك ان هذه المؤسسة لا تتمتع بالقوة الكافية · وهكذا شرعت تتكهن بالنهاية التي ستصير اليها · فأنت تشعر انك لا تعدو ان تكون ، انت وشبكة بقالاتك ، مجرد عامل ثانوي في العبة · انت ترى المؤسسات القوية تلمع وتاداد قوة يوما بعد يوم ، انت تحس بأيديها المدرعة تسقط على ارباحك وتختطف قبضة من هنا وقبضة من هناك : تروست السكة الحديدية ، تروست النفط ، تروست الفولاذ ، تروست الفحم الحجري · وانت تعرف انها سوف تقضي عليك ، في نهاية الشوط ، وتسلبك آخر نسبة مئوية من ارباحك الهزيلة ·

« انت يا سيدي لاعب بسيط مستضعف · ولكنك حين اخذت بخناق البقالات الثلاث الصغيرة ، هنا في بيركلي ، لانك اقوى منها رأسمال وخير تنظيما ، انتفخت تيها ، ورحت تتحدث عن الفعالية وروح الاقدام ، وارسلت زوجتك لتقوم برحلة الى اوروبة ما كانت لتتسنى لها لولا الارباح التي كسبتها من طريق التهام البقالات الصغيرة الثلاث · لقد كانت تلك البقالات كلابا يأكل بعضها بعضا ، ثم جئت انت فأكلتها جميعا · ولكن ها هي ذي الكلاب الكبرى قد شرعت ، بدورها ، تنهش لحمك ، وهذا ما يجعلك تزعق · وما اقوله لك يصح فيكم جميعا ، يا من تجلسون الليلة الى هذه المائدة · انتم كلكم تزعقون · انكم كلكم تلعبون لعبة خاسرة ، وتندبون حظكم بسبب من ذلك ·

« ولكنكم حين تزعقون لا تشرحون الوضع في صراحة ، كما شرحته انا · انتم لا تعلنون انكم ترغبون في ابتزاز الارباح من الآخرين ، وانكم انما تثيرون هذه الضجة كلها لان الآخرين يبتزون ارباحكم منكم ، لا ، انتم اذكى من ان تفعلوا ذلك · انكم تعلنون شيئا آخر · انكم تلقون خطبا سياسية تمثل وجهة نظر صغار الرأسماليين ، خطبا من مثل ذلك الخطاب الذي القاه مستر كالفين · ما الذي قاله ؟ اليكم بضعا من عباراته كما دونتها : « ان مبادئنا الاصلية سليمة لا غبار عليها · » ، « ان ما تحتاج اليه هذه البلاد هو عودة الى الطريق الاميركية الاساسية : اتاحة الفرص الحرة للمواطنين جميعا » ، « روح الحرية التي ولدت فيها هذه الامة · » ، « فلنعد الى مبادىء آبائنا واجدادنا · »

« وهو حين يقول « اتاحة الفرص الحرة للمواطنين جميعا » يقصد اتاحة الفرص الحرة لابتزاز الارباح ، وهي حرية تنكرها عليه الآن التروستات الكبرى · فوجه السخف في المسألة هو انكم كررتم هذه العبارات على نحو موصول حتى لاصبحتم تؤمنون بها · انتم تطالبون بالحرية لتنهبوا اخوانكم في الانسانية على طريقتكم الصغيرة الخاصة ، ولكنكم تنومون انفسكم مغنطيسيا لتحملوها على الظن بأنكم تريدون الحرية · انتم شرهون اكتسابيون ، ولكن سحر عباراتكم يقودكم الى الاعتقاد بأنكم وطنيون · ليس هذا فحسب ، بل انكم لتصورون رغبتكم في الارباح ، وهي انانية خالصة ، وكأنها جزع غيري على الانسانية المتألمة · فتعالوا الآن ، هنا في هذا الموطن الذي لا يشهده غيرنا ، واصطنعوا الصدق والامانة مرة في حياتكم · انظروا الى المسألة في وجهها ، وعبروا عنها في صيغ لا التواء فيها · »

وشاع الدم في وجوه القوم ، وبدت عليها امارات الغضب · ليس هذا فحسب ، بل لقد غلب عليها قدر من الذعر · لقد روعوا ، بعض الشيء ، لرؤية هذا الفتى ذي الوجه الناعم ، ولزخم كلماته المهشمة ، ونزعته الرهيبة لتسمية الاشياء باسمائها الحقيقية · وانبرى مستر كالفين للاجابة متسائلا :

ـ « ولم لا ؟ ولم لا نستطيع ان نعود الى الطرائق التي سلكها آباؤنا وأجدادنا عندما انشئت هذه الجمهورية ؟ لقد نطقت بحقائق كثيرة ، يا مستر ايفرهارد ، على الرغم من انها كريهة غير سائغة · ولكن دعونا ، ههنا ، في ما بيننا ، نتصارح · فلنطرح الاقنعة كلها ولنقبل الحقيقة كما نص عليها مستر ايفرهارد في غير مواربة · صحيح اننا نحن الرأسماليين الصغار نسعى وراء الارباح ، وان التروستات تسلبنا ارباحنا هذه · وصحيح اننا نريد ان

نقضي على التروستات لكي يكون في امكاننا الاحتفاظ بأرباحنا · ولكن أي بأس في ذلك ؟ ولم لا نستطيع تحقيق هذه الرغبة ؟ لم لا ؟ اقول لم لا ؟ »

فقال ارنست وعلى وجهه سيما ارتياح :

ـ « آه ، لقد انتهينا الان الى بيت القصيد · سوف اشرح لك لم لا ، على الرغم من ان هذا الشرح سوف يكون عسيرا بعض الشيء · لقد درستم ، ايها السادة ، التجارة دراسة محدودة ولكنكم لم تدرسوا التطور الاجتماعي البتة · وأنتم تعيشون اليوم في غمرة مرحلة انتقال في التطور الاقتصادي ، بيد انكم لا تفهمونها ، وهذا ما يسبب كل هذا الاضطراب وذاك التشويش · لماذا لا تستطيعون العودة الى طرائق الاباء والاجداد ؟ لانكم لا تستطيعون · انكم لا تقدرون على وقف مد التطور الاقتصادي واعادته من حيث اتى الا بمقدار ما تستطيعون اكراه ماء الشلال على التدفق من ادنى الى أعلى · لقد اوقف يوشع الشمس فوق « جبعون » اما انتم فتريدون أن تبزوا يوشع · انتم تريدون ان تكرهوا الشمس على الارتداد ، في سمائها ، الى الوراء · انتم تريدون ان يرجع الزمان القهقرى من الظهيرة الى الصباح ·

« لقد راعتكم الآلية الموفرة للجهد العمالي ، والانتاج المنظم ، وفعالية الاحتكار المتعاظمة ، فوددتم ان ترجعوا الشمس الاقتصادية جيلا بكامله ، او نحو ذلك ، الى الوراء ، الى العهد الذي خلا من رأسماليين كبار ، وآلية ضخمة ، وسكك حديدية ـ يوم كان جمهرة من الرأسماليين الصغار يقاتلون في فوضى اقتصادية ، ويوم كان الانتاج بدائيا ، متلافا ، غير منظم ، باهظ النفقة · صدقوني ، لقد كانت مهمة يوشع اسهل ، ولقد كان الــرب وراءه يساعده · ولكن الله تخلى عنكم انتم ، صغار الرأسماليين · ان شمس الرأسماليين الصغار تجنح الى الغروب · انها لن تبزغ كرة اخرى ابد الدهر · لا ، ولن يكون في وسعكم ان توقفوها حيث هي على الاقل · انتم ماضون في سبيلكم الى الهلاك ، ولقد كتب عليكم أن تبيدوا ، نهائيا ، من وجه المجتمع ·

« ذلك هو حكم التطور الذي لا يرد · انها كلمة الله · التضامن أقوى من المنافسة · لقد كان الانسان البدائي كائنا ناقص النمو يختبىء في فجوات الصخور · ثم تجمع وتضامن وشن الحرب على اعدائه اللواحم · لقد كان اعداؤه بهائم متنافسة · اما هو فكان بهيمة متضامنة ، وبسبب من ذلك استطاع التفوق على الحيوانات جميعا · ومنذ ذلك الحين والانسان

يحقق تضامنات اعظم فأعظم ٠ ان القضية هي قضية الصراع بين التضامن والتنافس ، وهو صراع قديم يرقى الى الف قرن خلت ، منيت خلالها المنافسة بهزائم موصولة ٠ ان كل من ينحاز الى جانب المنافسة لا بد هالك ٠ »

فاعترضه مستر كالفين :

ـ « ولكن التروستات نفسها لا تعدو ان تكون ثمرة المنافسة ٠ »

فأجابه ارنست :

ـ « صحيح الى ابعد الحدود ٠ والتروستات نفسها قضت على المنافسة وهذا هو السبب الذي من أجله ، كما قلت انت بالذات ، انسحبت من صناعة الالبـــان ٠ »

وسرت ضحكة السهرة الاولى حول المائدة ٠ وحتى مستر كالفين شارك في الضحك على نفسه ٠

وتابع ارنست حديثه :

ـ « والان ، ما دمنا في الكلام على التروستات فلنحاول ان نقرر بضعة امور ٠ اني سوف اطلق احكاما بعينها ، فاذا خالفتموني فيها فاعلنوا رأيكم ٠ ان الصمت سوف يعني الموافقة ٠ اليس صحيحا ان النول الآلي قادر على ان ينسج مقدارا من القماش اعظم من ذلك الذي ينسجه النول اليدوي وبكلفـة اقل بكثيـر ؟ »

وتمهل قليلا ، ولكن احدا منهم لم ينطق بكلمة ،فأضاف :

« واذن أليس من الحماقة واللاعقلانية البالغة ان ندمر الالات ونرجـع الى طريقة النسج بالنول اليدوي ، هذه الطريقة الخرقاء والاكثر كلفة ؟ »

فهز القوم رؤوسهم بالموافقة ٠ فتابع :

ـ « اليس صحيحا ان ذلك التجمع المعروف بالتروست ينتج على نحو اكثر فعالية وأرخص سعرا مما تستطيع ان تنتجه الف من المؤسسات الصغيرة المتنافســة ؟ »

ومع ذلك ، فلم يعترض احد :

ـ « اذن اليس من الحماقة اللاعقلانية ان ندمر ذلك التجمع الرخيص الفعـــال ؟ »

واعتصم القوم كلهم بالصمت فترة غير يسيرة ٠ ثم ان مستر كووالت تكلـم متسائلا :

ـ « ما الذي يتعين علينا ان نفعله اذن ؟ ان القضاء على التروستات هو السبيل الوحيد الذي نستطيع تصوره للتخلص من سيطرتها ٠ »

وفي الحال أمسى ارنست كله نارا وحيوية · وصرخ :

ـ « سوف اريك طريقة اخرى · فلنقلع عن التفكير في تلك الآلات الرائعة التي تنتج في فعاليـــة ورخص · فلنخضعها لسلطاننا · فلنفد من فعاليتهـا ورخصها · فلندرها بأنفسنا · فلنطرد مالكي الآلات الرائعة الحاليين ولنملك نحن تلك الآلات · تلك ، ايها السادة ، هي الاشتراكية · انها تجمع تضامنـي أعظم من التروستات ، تجمع اقتصادي واجتماعي اعظم من اي تجمع ظهـر حتى اليوم على سطح هذا الكوكب · انه منسجم مع التطور · نحن نواجـه التجمع بتجمع اعظم · ذلك هـــو الجانب الرابع · انضموا الينـــا ، نحن الاشتراكيين ، وراهنوا على الجانب الرابع » ·

وهنا نشأت معـــارضة · لقد هز القوم رؤوسهـــم وانشأوا يهمهمون ويغمغمون ·

فضحك ارنست وقـــال :

ـ « حسن جدا ، اذن فأنتم تفضلون ان تكونوا مناقضين للتطور · انتم تؤثرون ان تمثلوا ادوارا ارتدادية · لقد كتب عليكم ان تهلكوا كما كتب على كل نزعة ارتدادية ان تهلك · هل خطر لكم ذات يوم ان تتساءلوا ما الذي سيحل بكم عندما تظهر تجمعات تضامنية اعظم حتى من التروستات الحالية ؟ هـل فكرتم ذات يوم في المصير الذي ستنتهون اليه عندما تتحد التروستات الكبـرى نفسها في تجمـع التجمعـــات ـ في التروست الاجتماعية ، الاقتصاديـــة ، السياسية ؟ »

وهنا التفت الى مستر كالفين فجأة ، وقال :

ـ « قل لي ، اذا كان هذا غير صحيح ·انتم مضطرون الى تشكيـــل حزب سياسي جديد لان الاحزاب القديمة خاضعة كلها لسلطان التروستات · ان العقبة الرئيسية التي تعترض دعايتكم « الغراينجية » هي التروستات · فوراء كل عقبة تلاقونها ، وكل ضربة تنزل بكم ، وكل هزيمة تمنون بهـــا ، يد التروستات الاحتكارية · اليس هذا صحيحا ؟ قل لي ! »

فلزم مستر كالفين الصمت ، في شيء من الضيق والانزعاج ·

فشجعه ارنست قائلا :

ـ « هيا ! تكلـم ! »

فاعترف مستر كالفين :

ـ « ذلك صحيح · لقد احرزنا اكثرية المقاعـــد في المجلس التشريعـي لولاية اوريغون وأصدرنا تشريعا وقائيا ، ولكن حاكم الولاية ، الذي كـــان

صنيعة التروستات ، وضع عليه « الفيتو » (حق النقض) ٠ وانتخبنا حاكما لكولورادو ، ولكن المجلس التشريعي ابى ان يجيز له تولي المنصب ٠ ومرتين اثنتين أقررنا مشروعا بضريبة دخل وطنية ، وفي كلتا المرتين داست المحكمة العليا المشروع بقدمها وسحبته بدعوى انه غير دستوي ٠ ان المحاكم لفي أيدي التروستات ٠ ونحن أبناء الشعب ، لا ندفع الى قضاتنا رواتب كافية ٠ ولكن لا بد ان يجيء زمان ٠٠٠ »

فقاطعه ارنست قائلا :

ـ « ٠٠ زمان يسيطر فيه تجمع التروستات على الهيئات التشريعية كلها ، زمان يصبح فيه تجمع التروستات هو الحكومة نفسها » ٠

فارتفعت الصيحات :

ـ « هذا لن يكون ! هذا لن يكون ! »

لقد كان كل امرىء بالغ الاهتياج ، تبدو على وجهه امارات الرغبة في القتال ٠ وسألهم ارنست :

ـ « قولوا لي ، ما الذي سوف تفعلونه عندما يجيء ذلك الزمان ؟ »

فصاح مستر آسمونسين ، وأيدت أصوات عديدة قراره هذا :

ـ « سوف نلجأ الى اصطناع قوتنا » ٠

فحذرهم ارنست :

ـ « ولكن هذا سوف يعني الحرب الاهلية » ٠

فأجابه مستر آسموسين ، ومن ورائه صيحات جميع الرجال الجالسين الى المائدة :

ـ « اذن فلتكن الحرب الاهلية ! اننا لما ننس الاعمال الماجدة التي قام بها آباؤنا واجدادنا ٠ وحين تتعرض حرياتنا للخطر تجدنا على استعداد لان نقاتل ونموت » ٠

فابتسم ارنست وقال :

ـ « لا تنسوا اننا اتفقنا ، ضمنيا ، على ان الحرية تعني عندكم ، ايها السادة ، حرية ابتزاز الارباح من الاخرين » ٠

وعصف الغضب بالمتحلقين حول المائدة ، وكان غضبهم هذه المرة غضبا مقاتلا ٠ ولكن ارنست عرف كيف يضبط الجلبة ويوصل صوته الى آذانهم ٠

ـ « بقي سؤال اخر ٠ حين تلجأون الى اصطناع قوتكم تذكروا ان سبب لجوئكم هذا الى القوة سوف يكون سيطرة التروستات على الحكومة ٠ ومعنى ذلك ان الحكومة سوف تجرد عليكم الجيش النظامي ، والاسطول ،

والميليشيا ، والبوليس ـ وبكلمة واحدة ، سوف تجرد عليكم آلـــة الحــرب الاميركية المنظمة كلها · أي شيء تستطيع قوتكم ان تفعله في تلك الحال ؟ »

وغلب الرعب على وجوههم ، وقبل ان يثوبوا الى رشدهم ضرب ارنست ضربته الجديدة :

ـ « هل تذكرون ذلك العهد ، غير الممعن في البعد ، يوم كان جيشنـــا النظامي لا يتجاوز عدده خمسين الف مقاتل ؟ لقد تزايد هذا العدد ، سنة بعد سنـــة ، حتى لقد بلغ اليوم ثلاثمائة الف مقاتل » ·

وعاود الضرب من جديد :

ـ « ولكن هذا ليس كل شيء · ففيما كنتم تطاردون طيفكم المحبـــب ذاك الذي تدعونه الارباح ، وفيما كنتم تنشئون فلسفة اخلاقية ترفع من مقام صنمكم الاثير ذاك ، الذي تدعونه المنافسة ، حقق الاحتكار أشياء أعظم شأنا وأشد هولا · لقد أنشأ الميليشيا » ·

فصاح مستر كووالت :

ـ « الميليشيا قوتنا ، وبها نستطيع ان نصد غزوة الجيش النظامي » ·

فكان جواب ارنست :

ـ « سوف تلتحقون انتم انفسكم بالميليشيا ، وسترسلون الى ماين ، أو فلوريدا ، أو الفيليبين ، او الى أي مكـــان آخر ، لكي تغرقوا في دمـــاء رفاقكم المقاتلين ، مدنيا ، من أجل حرياتهم · في حين سوف يأتي رفاقكـــم أنفسهم من كانساس أو ويسكونسين أو أي ولاية اخرى الى هنا ، الـــى كاليفورنيا ، لكي يغرقوا في دماء رفاقكم المقاتلين مدنيا » ·

كان القوم قد صدموا الان ، صدمة حقيقية · ولقد ظلوا صامتين غير ناطقين بكلمة ، حتى غمغم مستر أووين :

ـ « لن ننضم الى الميليشيا · ان في هذا ما يحسم المسألة · نحن لـــن نكون على هذا القدر كله من الحمق »·

فضحك ارنست ضحكة صارخة وقال :

ـ « انتم لا تفهمون حقيقة التجمـــع الذي تم ، وليس في امكانكم ان تنهضوا بعبء الدفاع عن أنفسكم بأنفسكم · ومن أجل هـــذا سوف تجرون الى الميليشيا جرا » ·

فأصر مستر اووين :

ـ « ولكن ثمة شيئا اسمه القانون المدني » ·

ـ « ليس حين تعلق الحكومة القانون المدني · في اليوم الذي تتحدثـــون

فيه عن التجائكم الى اصطناع قوتكم سوف تنقلب قوتكم هذه عليكم · انكم سوف تلتحقون بالميليشيا طوعا او كرها · واذا ما رفضتم الانضمام الى الميليشيا ، أم عصيتم الاوامر بعد انضمامكم اليها ، فعندئذ تمثلون أمام مجلس عرفي ، منعقد في ساحة القتال نفسها ، وتعدمون رميا بالرصاص كالكلاب ، سواء بسواء · ذلك هو القانون ! »

فأكد مستر كالفين في جزم :

ـ « لا ، ليس هذا هو القانون · ليس ثمة قانون كهذا · ايها الفتى ، لقد حلمت بذلك كله · كيف لا ، وقد تحدثت عن ارسال الميليشيا الى الفيليبين · هذا شيء مخالف للدستور · ان الدستور ينص في توكيد ، على ان الميليشيا لا يجوز ان توجه الى خارج البلاد » ·

فسأله ارنست :

ـ « وأي شأن للدستور بهذه المسألة ؟ ان المحاكم تفسر الدستور ، والمحاكم ، كما أقر مستر آسمونسين ، هي صنيعة التروستات · والى هذا فذاك هو القانون كما قلت · ذلك هو القانون النافذ منذ سنوات ، القانون النافذ منذ تسع سنوات ايها السادة ! »

فتساءل كالفين غير مصدق :

ـ « القانون ينص على سوقنا الى الميليشيا ؟ القانون ينص على محاكمتنا أمام المجالس العرفية المنعقدة في ساحة القتال نفسها اذا ما عصينا ؟»

فقال ارنست :

ـ « نعم ، القانون ينص على ذلك بالضبط » ·

فتساءل أبي ، وكان في امكاني ان أرى أن الامر كان جديدا عليه ايضا :

ـ « ولكن كيف جاز ان لا نسمع قبل اليوم بهذا القانون ؟ »

فقال ارنست :

ـ « لسببين اثنين · اولا لانه لما تنشأ بعد الحاجة الى وضعه موضع التنفيذ · ، ولو قد نشأت هذه الحاجة اذن لسمعتم به في الحال · وثانيا ، لان القانون عرض على الكونغرس ومجلس الشيوخ سرا ، وعلى وجه الاستعجال ، فأقرته الهيئتان التشريعيتان في غير ما مناقشة تقريبا · ولم تشر الصحف ، طبعا ، الى شيء من ذلك · ولكننا عرفنا ، نحن الاشتراكيين ، بما حدث · لقد نشرناه في صحفنا · ولكنكم لا تقرأون صحفنا البتة » ·

فقال مستر كالفين في عناد :

ـ « انا لا أزال أصر على انك تحلم · ان البلاد لا يمكن ان تجيز مثل

هذا التشريع » ٠

فأجابه ارنست :

ـ « ولكن البلاد قد أجازته فعلا ٠ وفي ما يتصل بقولك اني أحلم ٠٠ » وهنا وضع يده في جيبه وأخرج منه كراسة صغيرة ، « قل لي ، هل يبدو هذا اضغاث أحلام ؟ »

وفتح الكراسة ، وشرع يقرأ :

ـ « المادة الاولى ٠٠٠ ان الميليشيا سوف تؤلف من كل مواطن ذكر سليم الجسم من مواطني الولايات المختلفة ، والمقاطعات ، واقليم كولومبيا ، تتجاوز سنة الثامنة عشرة وتقل عن الخامسة والاربعين » ٠

« المادة السابعة : ان كل ضباط او مجند ـ تذكروا المادة الاولى ، ايها السادة ، اذكم جميعا مجندون ـ يرفض او يتلكأ عن المثول أمام ضابط التحشيد عند دعوته وفقا لاحكام هذا القانون يحال الى المحكمة العسكرية وتنزل به العقوبة التي يحكم بها قضاتها » ٠

«المادة الثامنة : ان المحاكم العسكرية الخاصة بمحاكمة ضباط الميليشيا وجنودها تشكل من ضباط الميليشيا ليس غير » ٠

المادة التاسعة : ان الميليشيا ، حين تدعى للقتال فعليا من أجل الولايات المتحدة سوف تخضع لنفس قواعد الحرب وأحكامها التي تخضع لها قوات الولايات المتحدة النظامية » ٠

« تلك هي الوقائع ، ايها السادة ، أيها المواطنون الاميركيون ، يا رفاق السلاح الميليشيين ! قبل تسع سنوات اعتقدنا نحن الاشتراكيين ان القانون كان موجها ضد العمال ٠ ولكن الذي يبدو انه وجه ضدكم انتم ايضا ٠ لقد قال عضو الكونغرس « ويلي » خلال المناقشة الموجزة التي سمح بها رئيس المجلس ، ان مشروع القانون « يقضي باتخاذ العدة لانشاء قوة احتياطية ابتغاء الاخذ بخناق الرعاع ـ ولا تنسوا انكم انتم الرعاع ايها السادة ـ وتحمي حياة الناس وحريتهم وممتلكاتهم من الاخطار جميعا » ٠ وفي مقبلات الايام ، عندما تلجأون الى اصطناع قوتكم تذكروا انكم سوف تصطنعوها ضد ممتلكات التروستات ، وحرية التروستات ـ وفقا للقانون ـ في ابتزاز الارباح منكم ٠ ان أنيابكم لمقلوعة ، ايها السادة ، وان براثنكم لمقلمة ٠ ويوم تلجأون الى اصطناع قوتكم ، وقد حرمتم الانياب والبراثن ، فعندئذ لن تكونوا قادرين على الاذى مثل جيش من الاسماك الصدفية ! »

فصاح كووالت :

ـ « لست اصدق ذلك ! ليس ثمة قانون كهذا · انها قصة اخترعتموها، انتم الاشتراكيين ، ابتغاء الاثارة والتهييج » ·

فكان الجـواب :

ـ «لقد قدم هذا القانون الـــى مجلس النواب في ٣٠ تموز (يوليو) ولقد قدمه النائب « دك » نائب اوهيو · وكان تقديمه عى وجه الاستعجـال ، الشديد ، ولقد أقره مجلس الشيوخ ، بالاجماع ، في ١٤ كانون الثاني (يناير) ١٩٠٣ · وبعد سبعة أيام ليس غير صدق عليه رئيس الولايات المتحدة ٥٨ » ·

---

٥٨ كان ايفرهارد على صواب في الوقائع الاساسية ، على الرغـم من انـه اخطـأ في تعيين التاريخ الذي قدم فيه مشروع القانـــون · فقد قـدم مشروع القانون في ٣٠ حزيران (يونيو) لا في ٣٠ تموز (يوليو) · ان لدينا هنا في آرديس ، « سجل الكونغرس » ، وان مراجعة هذا السجل لتظهر ان الاشارة الى ذلك القانون وردت في ٣٠ حزيران (يونيو) ، و ٩ ، و ١٥ ، و ١٦ ، و ١٧ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٠٢ ، و ٧ و ١٤ كانون الثاني (يناير) ١٩٠٣ · اما الجهل الذي تكشف عنـه رجال الاعمال في تلك المادبة فلم يكن شيئا غير مألوف · ان نفرا قليـلا من الناس عرفوا بوجود هذا القانون · ولقد نشر اي · اونترمان ، وهو ثوري ، في تمـــوز (يوليو) ١٩٠٣ ، كراسة في جيرارد ، كانساس ، عن « قانون الميليشيا » · ولقـد كان لهذه الكراسة رواج محدود بين العمال · ولكن عملية عزل الطبقات بعضهـا عن بعض كانت قد بلغت من التقدم حدا جعل أبناء الطبقة الوسطى لا يسمعـــون البتة بهذه الكراسة ، وهكذا ظلوا في جهل من هذا القانون ·

الفصل التاسع

رياضيات حلـــم

وفي غمرة من الذعر الناشيء عما كشفه من وقائـــع استأنف ارنست من جديد :

ـ « لقد قال اثنا عشر رجلا منكم ، هذه الليلة ، ان الاشتراكية مستحيلة· أما وقد أكدتم المستحيل فدعوني الان ابين لكم المحتوم · انـــه ليس محتوما فحسب ان تزولوا انتم ، الرأسماليين الصغار ، من الوجود ولكن من المحتوم ان يزول الرأسماليون الكبار والتروستات ايضا من الوجود · تذكروا ، ان مد التطور لا يذكفيء الى الوراء أبدا · انه يندفع الى أمام ، على نحو موصول ، وانه ليتقدم من المنافسة الى التجمع التضامني ، ومن التجمع الصغير الـــى التجمع الكبير ، ومن التجمع الكبير الى التجمع الضخم ، ومن ثم يتقدم الـــى الاشتراكية التي هي اضخم التجمعات على الاطلاق ·

« انتم تقولون لي انني احلم · حسن جدا · سوف اعطيكم رياضيات حلمي · وها اني اتحداكم ، مقدما ، ان تظهروا ان رياضياتي تنطوي علـــى خطأ · سوف أريكم اولا حتمية انهيار النظام الرأسمالي ، ولسوف ابين لكم ، رياضيا ، لماذا كان انهياره امرا واجب الحدوث · واليكم التفصيل · وانـــي لاسألكم ان تحتملوني قليلا اذا ما بدا كلامي ، اول الامر ، خارجا علـــى الموضوع ·

دعونا ، قبل كل شيء ، نستطلع عملية بعينها من العمليات الصناعية ، وكلما نصصت على أمر تخالفونني فيه ارجوكم ان تقاطعوني · لنفرض ان لدينا مصنعا للاحذية · هذا المصنع يأخذ الجلد ويحوله الى احذيـــة · وهوذا

مقدار من الجلد يساوي مئة دولار · انه يدخل الى المصنع ثم يخرج منه على صورة أحذية تساوي ، على سبيل الفرض ، مئتي دولار · ما الذي حدث ؟ لقد أضيفت مئة دولار الى قيمة الجلد · كيف تمت هذه الاضافة · دعونا نرى ·

« ان رأس المال والعمل **labour** هما اللذان أضافا هذه المئة دولار الى قيمة الجلد · فأما « رأس المال » فقدم المصنع والآلات ودفع النفقات جميعا · وأما « العمل » فقدم نشاط العمال · وبفضل الجهد المشترك الذي بذله « رأس المال » و « العمل » اضيفت على قيمة الجلد مئة دولار · هل تقرونني كلكم على ما قلته حتى الآن ؟ »

فهز القوم المتحلقون حول المائدة رؤوسهم هزة الموافق ·

« حتى اذا انتج « رأس المال » و « العمل » هذه المئة دولار تقدما الى قسمتها في ما بينهما · والاحصاءات الخاصة بهذه القسمة هي كسرية · واذن ، دعونا نجعلها ، تسهيلا للبحث ، تقريبية · فنقول ان « رأس المال » يأخذ حصة مقدارها خمسون دولارا ، وان « العمل » يأخذ ، على صورة أجور ، حصة مقدارها خمسون دولارا · ونحن لن نحاول الكلام على التشاحن الذي يقع بين الفريقين حول القسمة [٥٩] فمهما طال التشاحن فأن القسمة تسوى على اساس من هذه النسبة المئوية او تلك · والفت نظركم هنا الى ان ما يصدق على هذه العملية الصناعية الخاصة يصدق ايضا على جميع العمليات الصناعية · هل انا على صواب ؟ »

وكرة اخرى ، وافق المتحلقون حول المائدة على ما قاله ارنست ·

ـ « والان لنفرض ان « العمل » ، وقد تلقى دولاراته الخمسين ، أراد ان يشتري الاحذية التي صنعها · انه لا يستطيع ان يشتري منها أكثر من مقدار يساوي خمسين دولارا · هذا واضح ، أليس كذلك ؟

«والان فلننتقل من هذه العملية الخاصة الى مجموع العمليات الصناعية

٥٩ يوضح ايفرهارد هنا سبب جميع المشاكل العمالية في ذلك العهد · ففي قسمة النتاج المشترك يطمع « رأس المال » في الاستيلاء على اقصى ما يستطيع الاستيلاء عليه ، ويطمع « العمل » في الاستيلاء على اقصى ما يستطيع الاستيلاء عليه · وهذا النزاع على القسمة أمر يستعصي على التوفيق · ولقد استمر نزاع رأس المال والعمل على قسمة النتاج المشترك ما بقي نظام الانتاج الرأسمالي · ان ذلك ليبدو في اعيننا امرا مضحكا ، ولكن علينا أن لا ننسى ان سبعة قرون كاملة تفصلنا عن أبناء ذلك العصر ، وكفى بذلك ميزة لنا عليهم ·

في الولايات المتحدة برمتها ، هذه العمليات التي تشمل الجلد نفسه ، اي المادة الخام ، والشحن ، والبيع ، وكل شيء · ولسوف نقول ، حرصا منا على ان تكون ارقامنا مدورة كما يقولون ، ان انتاج الثروة الاجمالي في الولايات يبلغ كل عام اربعة مليارات دولار · واذن فقد نال « العمل » ، على صورة أجور ، خلال المدة نفسها ، ملياري دولار · وهذا شيء لا يحتمل المناقشة ، انا واثق من ذلك · مع العلم بأن النسب المئوية التي انص عليها لا مبالغة فيها · لان « العمل » يعجز ، بسبب من الف وسيلة من الوسائل الرأسمالية ، عن شراء حتى نصف ما صنعه من انتاج اجمالي ·

« ولكن فلنعد الى صميم موضوعنا · سنقول ان « العمل » يشتري سلعا بملياري دولار · وهذا ما يجعل العقل السليم يقر بأن « العمل » لا يستطيع ان يستهلك غير مليارين اثنين · ومعنى هذا انه لا يزال ثمة ملياران آخران ينبغي ان ننظر في أمرهما ، ملياران لا يستطيع العمل ان يشتريهما او يستهلكهما » ·

وهنا قال مستر كووالت :

ـ « بل ان « العمل » لا يستهلك ملياريه نفسيهما · أما اذا فعل فعندئذ لا يكون له ايما ودائع في مصارف الادخار » ·

ـ « ان ودائع « العمل » في مصارف الادخار ليست غير ضرب من الاموال الاحتياطية تستهلك بمثل السرعة التي تتراكم بها · وهذه الاموال انما تدخر للشيخوخة ، للمرض ، لحوادث العمل ، ولنفقات الجنازة · ان الوديعة التي يضعها العامل في مصرف الادخار ليست غير كسرة من خبز ترد الى الرف لكي تؤكل في اليوم التالي · لا ، ان « العمل » يستهلك كامل الانتاج الاجمالي الذي تستطيع الاجور ان تشتريه له ·

« ان مليارين اثنين ليتركان لرأس المال · وبعد ان يدفع رأس المال نفقاته هل يستهلك ما يتبقى لديه ؟ هل يستهلك رأس المال ملياريه الاثنين بكاملهما ؟ »

وصمت ارنست لحظة ، وطرح علامة الاستفهام صارخة واضحة على عدد من الرجال · لقد هزوا رؤوسهم ·

فقال واحد منهم في صراحة :

ـ « لست أدري » ·

فتابع ارنست قائلا :

ـ « بل انك تدري من غير ريب · قف وفكر لحظة · لو استهلك رأس

المال حصته اذن لما كان في امكان مجموع الرساميل الاجمالي ان يزيد ، واذن لظل ثابتا لا يتغير · ألق نظرة على تاريخ الولايات المتحدة الاقتصادي تجد ان مجموع الرساميل الاجمالي قد ازداد ، وما زال ، على نحو موصول · واذن فرأس المال لا يستهلك حصته · هل تذكرون ذلك العهد الذي كانت انكلترة تملك فيه مقدارا ضخما من سندات سككنا الحديدية ؟ ولكن الايام كرت واستطعنا ان نشتري هذه السندات منها · ما الذي يعنيه هذا ؟ هذا يعني ان حصة رأس المال غير المستهلكة هي التي اشترت تلك السندات واستردتها · وما الذي تعنيه الحقيقة القائلة بأن رأسماليي الولايات المتحدة يملكون اليوم ما يساوي مئات ملايين الدولارات من السندات المكسيكية ، والسندات الروسية ، والسندات الايطالية ، والسندات اليونانية ؟ معنى ذلك ان مئات الملايين هذه كانت جزءا من حصة رأس المال التي لم يستهلكها الرأسماليون · وفوق هذا ، فمنذ فجر النظام الرأسمالي لم يستهلك رأس المال في ايما يوم من الايام حصته كلها ·

« والان نصل الى بيت القصيد · اربعة مليارات دولار من الثروة تنتج خلال عام واحد في الولايات المتحدة · ويشتري « العمل » ويستهلك مليارين اثنين · على حين لا يستهلك رأس المال المليارين الباقيين · وهكذا يظل رصيد ضخم غير مستهلك · ما الذي يفعل بهذا الرصيد ؟ ما الذي يمكن ان يفعل به ؟ ان « العمل » لا يستطيع ان يستهلك شيئا منه ، لان « العمل » يكون الان قد انفق اجوره كلها · ورأس المال لن يستهلك هذا الرصيد ، لانه استهلك قبل ذلك ، وفقا لطبيعته ، كل ما يقدر على استهلاكه · وهكذا يظل الرصيد قائما · أي شيء يمكن ان يفعل به ؟ أي شيء يفعل به ؟ »

فتطوع مستر كووالت للاجابة :

ـ « انه يباع خارج الولايات المتحدة » ·

فأقره ارنست على هذا :

ـ « تماما · فبسبب من هذا الرصيد تنشأ حاجتنا الى سوق أجنبية · انه ليباع في الخارج ، اننا مضطرون الى بيعه في الخارج · فليس ثمة ايما طريقة اخرى للتخلص منه · وذلك الفائض غير المستهلك ، ذلك الفائض المبيع في الخارج ، يصبح ما ندعوه ميزاننا التجاري الايجابي · هل نحن جميعا متفقون على ان ما قلته ، حتى الان ، صحيح ؟ »

فقال مستر كالفين في فظاظة :

ـ « لا ريب في ان من العبث المضيع للوقت ان تفصل الكلام هذا التفصيل

كله على ألفباء التجارة · نحن كلنا نعرف هذه الالفباء ونفهمها » ·
فرد عليه ارنست :
ـ « وبهذه الالفباء التي عنيت أنا بتفصيل الكلام عليها الى هذا الحد سوف أخزيك · ذلك هو سر جمالها · ولسوف أخزيك بها في هذه اللحظة · اسمع :
« ان الولايات المتحدة بلد رأسمالي طور موارده ونماها · وهي تملك ، بحكم نظامها الصناعي الرأسمالي ، فائضا غير مستهلك يتعين عليها ان تتخلص منه ، ويتعين عليها ان تتخلص منه خارج الحدود ٦٠ · وما يصح على الولايات المتحدة يصح على كل بلد رأسمالي آخر ذي موارد مطورة · ان لدى كل من هذه البلدان فائضا غير مستهلك · ولا تنسوا انه قد نشأت في ما بينها، منذ فترة ، تجارة متبادلة ، وان هذه الفوائض ما تزال ، برغم ذلك ، غير مستهلكة · ذلك ان « العمل » في جميع هذه البلدان قد أنفق أجوره كلها ، فليس في امكانه ان يشتري أي فائض · وكذلك استهلك رأس المال في جميع هذه البلدان كل ما يقدر على استهلاكه وفقا لطبيعته · ومع ذلك فالفوائض لا تزال متراكمة · ان كلا من هذه البلدان لا يستطيع ان يتخلص من فائضه بتصديره الى الاخر · فبأي طريقة تعتزم التخلص من هذه الفوائض جميعا ؟ »
فاقترح مستر كووالت :
ـ « ببيعها لبلدان غير متطورة الموارد » ·
ـ « تماما · وهكذا ترون ان حجتي هي من الوضوح والبساطة بحيث تكلمونها بأذهانكم بالنيابة عني · والان الى الخطوة التالية : لنفرض ان الولايات المتحدة تخلصت من فائضها بتصديره الى بلد غير مطور الموارد ، كالبرازيل مثلا ، حيث بيع واستهلك · فما الذي تناله الولايات المتحدة لقاء ذلك من البرازيل ؟ »

---

٦٠ أدلى ثيودور روزفلت ، الذي كان رئيسا للولايات المتحدة قبل زمان هذه القصة بسنوات معدودات ، بهذا التصريح : « اننا في حاجة الى تبادل في شراء السلع وبيعها يكون أكثر حرية وأوسع نطاقا لكي يكون في الامكان التخلص على نحو ملائم من فائض انتاج الولايات المتحدة بتصديره الى البلدان الاجنبية · ولا ريب في ان هذا الفائض الذي يشير اليه كان هو أرباح النظام الرأسمالي التي عجزت طاقة الرأسماليين الاستهلاكية عن استهلاكها · ومما يذكر ان الشيخ (السناتور) مارك حنا Hanna أعلن في تلك الفترة بالذات : « ان انتاج الثروة في الولايات المتحدة يفوق استهلاكها ، سنويا ، بنسبة الثلث · » وصرح شيخ اخر أيضا : « ان الشعب الاميركي ينتج كل عام ملياري دولار من الثروة اكثر مما يستهلك » ·

فقال مستر كووالت :

ـ « الذهب » ٠

فاعترض ارنست :

ـ « ولكن ثمة كمية محدودة من الذهب في العالم » ٠

فعدل مستر كووالت اجابته :

ـ « الذهب في صورة وثائق دين وسندات وما الى ذلك » ٠

فقال ارنست :

ـ « الان أصبت الهدف ٠ ان الولايات المتحدة تنال من البرازيل ، لقاء فائضها ، سندات ووثائق دين ٠ ولكن ما معنى هذا ؟ انه يعني ان الولايات المتحدة سوف تملك في البرازيل سككا حديدية ومصانع ومناجم وأراضي ٠ وأي معنى لهذا بالمقابل ؟ »

فاستغرق مستر كووالت في التفكير وهز رأسه ٠

وتابع ارنست كلامه :

ـ « سوف أقول لك ٠ انه يعني ان موارد البرازيل قد أخذت سبيلها نحو التطور والنمو ٠ والان ، الى النقطة التالية ٠ حين توفق البرازيل ، في ظل النظام الرأسمالي ، الى تطوير مواردها ، فعندئذ يصبح لديها هي نفسها فائض غير مستهلك ٠ ولكن هل تستطيع ان تتخلص من هذا الفائض بتصديره الى الولايات المتحدة ؟ لا ، لان لدى الولايات المتحدة نفسها فائضا ٠ هل تستطيع الولايات المتحدة ان تفعل ما قد فعلته من قبل ـ ان تتخلص من فائضها بتصديره الى البرازيل ؟ لا ، لان البرازيل أمسى لديها ، الان ، فائض ايضا ٠

« ما الذي سوف يحدث ؟ ان على الولايات المتحدة والبرازيل جميعا أن تبحثا عن بلدان أخرى غير مطورة الموارد ، لكي تلقيا على اكتافها احمال فائضيهما ٠ ولكن عملية التخلص من الفائض نفسها ، لا بد ان تؤدي ، اخر الامر ، الى تطوير موارد تلك البلدان ٠ ولن تنقضي فترة حتى يصبح لديها هي الاخرى فوائض ، وحتى تلتمس بلدانا أخرى تلقي على ظهورها أحمالها ٠ والان ، أيها السادة ، انتبهوا جيدا الى ما أقول ٠ ان كوكبنا ليس بالضخم جدا ٠ وهذا العالم الذي نحيا فيه لا ينتظم غير بلدان معدودة ٠ فما الذي سوف يحدث عندما ينهض كل بلد من بلدان العالم ، حتى أصغر تلك البلدان واخرها ، وبين يديه فائض ، ويواجه البلدان الاخرى وقد أثقلت الفوائض أيديها ؟ »

وتمهل قليلا ونظر الى القوم المستمعين اليه ٠ كانت الحيرة التي رانت

على وجوههم توقع السرور في النفس · ليس هذا فحسب ، بل لقد كانت وجوههم تنطق بالذعر ايضا · فمن بعض التجريدات كان ارنست قد صنع ، بمثل سحر الساحر ، رؤيا عجيبة ، وفتح أعينهم عليها · وكانوا يرون اليها آنذاك ، وهم قاعدون هناك ، ولقد كان في ذلك ما ألقى الرعب في قلوبهم ·

فقال ارنست في خبث :

ـ « لقد بدأنا بألف وباء ، يا مستر كالفين · وها انا قد قدمت اليك بقية الابجدية · انها سهلة جدا · وذلك هو سر جمالها · ولسوف تفوز ، عما قريب ، بالجواب من غير ريب · ما الذي سيحدث ، اذن ، عندما يصبح لكل بلد في العالم فائضه ؟ الى أين سينتهي نظامكم الرأسمالي عندئذ ؟ »

ولكن مستر كالفين هز رأسا مضطربا · كان يستحضر في ذهنه حجج ارنست علّه يجد فيها خطأ ما ·

وقال ارنست :

ـ « دعوني أراجع معكم ، في شيء من الايجاز ، الخطوات التي مشيناها حتى الان · لقد بدأنا بعملية صناعية بعينها : مصنع الاحذية · ولقد وجدنا أن قسمة الانتاج المشترك التي تمت هناك كانت شبيهة بالقسمة التي تمت في جميع العمليات الصناعية الاخرى · كذلك وجدنا ان « العمل » لا يستطيع ان يشتري بأجوره الا قدرا بعينه من الانتاج ، وان رأس المال لم يستهلك بقية الانتاج كلها · ووجدنا انه بعد ان استهلك « العمل » كل ما مكنته أجوره من استهلاكه ، وبعد ان استهلك رأس المال كل ما رغب في استهلاكه ، بقي لدينا فائض لما يستهلك بعد · واتفقنا على انه لا سبيل الى التخلص من هذا الفائض الا خارج الحدود · واتفقنا ايضا على ان عاقبة القاء عبء هذا الفائض على عاتق بلد اخر لن تكون غير تطوير موارد ذلك البلد ، وان ذلك البلد خليق به ان يجد نفسه ، خلال فترة قصيرة ، أمام فائض غير مستهلك · ووسعنا نطاق هذه العملية حتى لقد شملت جميع البلدان على ظهر هذا الكوكب ، وحتى لاصبح كل بلد ينتج كل سنة ، بل كل يوم ، فائضا غير مستهلك لا يستطيع ان يتخلص منه بتصديره الى أي بلد اخر · والان أوجه اليكم السؤال من جديد : ما الذي سوف نفعله بهذه الفوائض ؟ »

ولم يجب أحد بكلمة ·

فتساءل ارنست :

ـ « مستر كالفين ؟ »

فاعترف مستر كالفين قائلا :

ـ « ان ذلك ليعجزني » ·

وقال مستر آسمونسين :

ـ « انا لم أحلم قط بشيء مثل هذا · ومع ذلك فانه يبدو في عيني واضحا كالحرف المطبوع » ·

كانت هذه أول مرة أسمع فيها نظرية كارل ماركس ٦١ في « فضل القيمة » تبسط وتشرح ، وكان ارنست قد فعل ذلك في بساطة بالغة جعلتني انا أيضا ذاهلة معقودة اللسان ·

وقال ارنست :

ـ سوف أدلكم على طريقة للتخلص من الفائض · ألقوا به في البحر · ألقوا كل عام في البحر بمقادير من الاحذية والقمح والملابس ومختلف السلع التجارية تساوي قيمتها مئات الملايين من الدولارات · أليس في هذا ما يحـل المشكلـة ؟ »

فأجابه مستر كالفين :

ـ « انه سوف يحلها من غير ريب · ولكن من السخف ان تتحدث على هذا النحو » ·

وهنا انقض عليه ارنست انقضاض الصاعقة :

ـ « هل هو اكثر سخفا مما تدعون اليه ، يا مدمري الآلات ، من العودة الى طرائق اجدادكم التي ترقى الى ما قبل الطوفان ؟ ما الذي تقترحونـــه للتخلص من الفائض ؟ انكم تريدون ان تتلافوا مشكلة الفائض بعدم انتاج أيما فائض · وبأية طريقة تقترحون اجتناب انتاج فائض ما ؟ بالعودة الى اسلوب بدائي في الانتاج ، اسلوب ممعن في الاضطراب والفوضى واللاعقلانية ، اسلوب كثير الهدر بالغ الكلفة ، الى درجة تجعل من المتعذر عليكم انتاج ايما فائض» ·

وبلع مستر كالفين ريقه · كان السهم قد اصاب الهدف وكان القـوم قد استشعروا اثره الموجع في نفوسهم · وبلع مستر كالفين ريقه من جديد ، وتنحنح ، ثم قال :

---

٦١ كان كارل ماركس ، بطل الاشتراكية الفكري الكبير ، يهوديا ألمانيا من أهل القرن التاسع عشر · وكان معاصرا لجون ستيوارت ميل · وانه ليصعب علينا نحـــن اليوم ان نصدق أن اجيالا بكاملها انقضت على اكتشافات ماركس الاقتصاديـــة كان مفكرو العالم وعلماؤه المرموقون يسخرون خلالها منه ويهزأون به · وبسبب من اكتشافاته هذه أبعد عن وطنه فمات منفيا في انكلترة ·

ـ « انك لعلى صواب · اني اقف الان موقف المذنب · فالعودة الـــى طرائق الاباء والاجداد سخف من السخف · ولكن علينا ان نفعل شيئا · انها مسألة حياة او موت بالنسبة الينا نحن ابناء الطبقة الوسطى · اننا نأبى ان نهلك · نحن نؤثر بدلا من ذلك ان نكون سخفاء وان نرجع الى طرائق آبائنــا وأجدادنا الخرقاء حقا والمنطوية على هدر كثير · سوف نعيد الصناعة الى مرحلة « ما قبل التروستات » · سوف ندمر الآلات · فما الذي تعتزمون ان تفعلوه في هذا الصدد ؟ »

ـــ « ولكنكم لا تستطيعون ان تدمروا الآلات · انكم لن تستطيعوا حمل مد التطور على ان يجري القهقرى · فهناك قوتان عظيمتان تقاومانكم ، كـل منهما اقوى منكم ومن طبقتكم الوسطى · فالراسماليون الكبار ـ التروستات، بكلمة موجزة ـ لن يدعوكم ترجعون الى الوراء · انهم لا يحبون ان يروا الى الآلات تدمر · وهناك العمال ، من ناحية ثانية ، وهم اعظم من التروستــات واشد بأسا · انهم لن يدعوكم تدمرون الآلات · ان ملكية العالم ، وملكيــة الآلات معه ، تتأرجح بين التروستات والعمال · ذلك هو تخطيط المعركة · ان أيا من الفريقين لا يريد تدمير الآلات · ولكن كل فريق منهما يريد امتـــلاك الآلات · وفي هذه المعركة ، لا مكان للطبقة الوسطى · ان الطبقــة الوسطـى قزم بين عملاقين · الا ترون ؟ انكم انتم ابناء الطبقة الوسطى المسكينة الآخذة سبيلها الى الموت قد علقتم بين حجري الرحى ، وان عملية الطحن قد بدأت حتى في يوم الناس هذا ·

« لقد بينت لكم ، رياضيا ، حتمية انهيار النظام الراسمالي · فحين يقف كل بلد من البلدان وفي يده فائض لا سبيل الى استهلاكه في الداخل او الـــى بيعه في الخارج فعندئذ ينهار النظام الراسمالي تحت صرح الارباح الرهيــب الذي اقامه النظام نفسه · وفي ذلك اليوم لن يكون ثمة أيما تدمير للآلات · ان الصراع سوف يدور ، آنذاك ، حول ملكية الآلات · فاذا كان النصر حليف العمال فعندئذ تكون سبيلكم هينة سهلة · وعندئذ تدخل الولايات المتحدة ، ويدخل العالم كله من هذه الناحية ، عصرا جديدا وهائلا · وبدلا من ان تسحق الآلات الحياة ستجدون ان الآلات نفسها سوف تجعل الحيـــاة اكثر عدلا ، واعظم سعادة ونبلا · وانتم ، ابناء الطبقة الوسطى المقضي عليها ، سوف تشاركون سائر العمال ـ اذ لن يكون ثمة آنذاك غير عمل وعمال ـ في التوزيع العادل لمنتجات الآلات الرائعة · ولسوف نبدع نحن ، نحن كلنا ، آلات جديدة واكثر روعة · ولن يكون ثمة أيما فائض غير مستهلك لانه لن يكون ثمــة أية أربـــاح » ·

فسأله مستر كووالت :

ـ « ولكن لنفرض ان التروستات انتصرت في هذا الصراع الناشب حول ملكية الآلات والعالم ؟ »

فأجابه ارنست :

ـ « عندئذ تسحقون انتم ويسحق العمال ونسحق كلنا تحت العقب الحديدية لاستبداد لا يقل وحشية وفظاعة عن أيما استبداد سود صفحات تاريخ الانسان · والواقع ان هاتين اللفظتين ، العقب الحديدية ، خليق بهما ان يكونا اسما صالحا لذلك الاستبداد · ٦٢ »

وساد صمت طويل ، واستغرق كل من الجالسين الى المائدة في تفكير استثنائي عميق ·

فقال مستر كالفين :

ـ « ولكن اشتراكيتك هذه هي حلم » ·

ثم كرر :

ـ « حلم » ·

فأجابه ارنست :

ـ « سوف أريك شيئا ليس بالحلم ، اذن · وذلك الشيء سوف أدعوه الاوليغاركية · اما انتم فتدعونه البلوتوقراطية · ونحن جميعا نعني الشيء نفسه : الرأسماليين الكبار او التروستات · فلنحاول ان نرى من الذي يملك القوة اليوم · ولكي نوفق الى ذلك يحسن بنا ان نستعرض اقسام المجتمع الطبقية ·

« ان ثمة ثلاث طبقات كبرى في المجتمع · هناك اولا البلوتوقراطية ، المؤلفة من اصحاب مصارف اثرياء ، واقطاب سكة حديدية ، ومديري شركات واقطاب تروستات · وهناك ثانيا الطبقة الوسطى ، طبقتكم ايها السادة المؤلفة من مزارعين ، وتجار ، وصناعيين صغار ، واصحاب مهن · وهناك ثالثا واخيرا طبقتي انا ، البروليتاريا ، المؤلفة من عمال ذوي أجور ٦٣ ·

---

٦٢ هذا أول اصطناع معروف لهذا الاسم للدلالة على الاوليغاركية ·

٦٣ ان تقسيم ايفرهارد للمجتمع يتفق مع ذلك الذي وضعه لوسيان سانيال ، أحد ثقات علم الاحصاء في ذلك العصر · وقد كان تقديره لابناء كل من هذه الطبقات ، على أساس من احصاء سكان الولايات المتحدة عام ١٩٠٠ ، يجري كما يلي : الطبقة البلوتوقراطية : ـ ٢٥١و٢٥٠ ، الطبقة الوسطى ٨٤٥و٤٢٩و٨ ، وطبقة البروليتاريا ١٣٧و٣٩٣و٢٠ ·

« انكم لا تستطيعون الا ان تسلموا بأن ملكية الثروة تشكل قوة اساسية في الولايات المتحدة اليوم · فما نصيب كل من هذه الطبقات الثلاث من ملكية هذه الثروة ؟ هي ذي الارقام · ان البلوتوقراطية تملك سبعة وستين مليار دولار · ومن المجموع الاجمالي للاشخاص المشتغلين في حقل الاعمال والمهن في الولايات المتحدة لا تنتظم البلوتوقراطية غير تسعة أجزاء من عشرة من واحد في المئة ، ومع ذلك فالبلوتوقراطية تملك سبعين في المئة من كامل الثروة الوطنية · وتملك الطبقة الوسطى اربعة وعشرين مليار دولار · ان تسعة وعشرين بالمئة من المشتغلين في حقل الاعمال والمهن هم من ابناء الطبقة الوسطى ، وهم يملكون خمسة وعشرين في المئة من مجموع الثروة العام · بقيت البروليتاريا · انها تملك اربعة مليارات · ومن بين جميع الاشخاص المشتغلين في حقل الاعمال والمهن ينتسب سعون في المئة الى البروليتاريا لا تملك غير اربعة في المئة من مجموع الثروة العام · في يد اي من هذه الطبقات تتركز القوة ، أيها السادة ؟ »

فلاحظ مستر اسمونسين قائلا :

ـ « من ارقامك نفسها نتبين اننا نحن ابناء الطبقة الوسطى أقوى من العمال » ·

فرد عليه ارنست :

ـ « ان اعتباركم ايانا ضعفاء لا يجعلكم اشد بأسا في وجه قوة البلوتوقراطية · وفوق هذا ، فانا لم انته منكم بعد · ان ثمة قوة اعظم من الثروة ، وهي اعظم لانها لا يمكن ان تنتزع · ان قوتنا نحن، قوة البروليتاريا، تتمثل في عضلاتنا ، في قدرة ايدينا على القاء الاصوات في صناديق الاقتراع وفي قدرة اصابعنا على الضغط على زناد الاسلحة النارية · وهذه القوة لا سبيل الى انتزاعها منا بأية حال · انها القوة البدائية ، انها القوة ذات الصلة الوثيقة بالحياة ، انها القوة التي هي أقوى من الثروة ، والتي تعجز الثروة عن انتزاعها من اصحابها ·

« ولكن قوتكم يمكن ان تنتزع · ان سلبها منكم أمر ممكن · وحتى في هذه الايام شرعت البلوتوقراطية في سلبكم اياها · ولسوف ننتزعها كلها منكم ، اخر الامر · وعندئذ لن تعودوا ما ندعوه الطبقة الوسطى · انكم سوف تنحدرون الينا · سوف تصبحون بروليتاريين · واجمل ما في الامر انكم ستضاعفون ، عندئذ ، قوتنا · ولسوف ننادي بكم اخوة لنا ، ولسوف نقاتل واياكم كتفا الى كتف من اجل قضية الانسانية ·

ان العمال ليس لديهم شيء مادي يجردون منه • فحصتهم من ثروة البلاد تتألف من ملابس واثاث ، وفي بعض الاحيان النادرة جدا من بيت فارغ • اما انتم فلديكم الثروة المادية ، لديكم اربعة وعشرون مليارا من الدولارات ، ولسوف تنتزعها البلوتوقراطية منكم • طبعا ، هناك احتمال ضخم ان توفق البروليتاريا الى انتزاعها منكم اولا • الا ترون وضعكم ، أيها السادة ؟ ان الطبقة الوسطى ليست غير حمل صغير مترنح بين أسد ونمر • فأن لم يفترسكم الاول افترسكم الثاني• واذا ما افترستكم البلوتوقراطية أولا فلن ينقضي طويل وقت حتى توفق البروليتاريا ، بدورها ، الى افتراس البلوتوقراطية •

« وحتى ثروتكم الحالية ليست مقياسا صحيحا لقوتكم : ان قوة ثروتكم في هذه اللحظة لا تعدو ان تكون صدفة فارغة • وهذا هو السبب الذي من اجله تطلقون صيحة حربكم الصغيرة الواهنة : « العودة الى طرائق الآباء والاجداد » • انتم تعون عجزكم • وانتم تعلمون ان قوتكم هي صدفة فارغة • ولسوف أظهر لكم فراغها •

« أية قوة يملكها المزارعون ؟ ان اكثر من خمسين بالمئة منهم عبيد أرقاء بسبب من هذه الحقيقة ، وهي انهم مجرد مكترين او مرتهنين بالتزام بعينه • بل انهم كلهم عبيد ارقاء بسبب من هذه الحقيقة • وهي ان التروستات أمست تمتلك اليوم او تسيطر على ، لا فرق ، جميع وسائل تسويق المحاصيل، من مثل الخزن في الثلاجات ، والسكك الحديدية ، ورافعات الحنطة الى اهرائها ، وخطوط المواصلات البحرية • وفوق هذا ، فان التروستات تسيطر على الاسواق • وليس للمزارعين ، في هذا كله ، حول او قوة • أما سلطانهم في الحقلين السياسي والحكومي فسأتحدث عنه في ما بعد ، عند الكلام على سلطان الطبقة الوسطى كلها سياسيا وحكوميا •

«ان التروستات لتعتصر المزارعين وتبتز منهم ارباحهم ، يوما بعد يوم ، كما قد اعتصرت وابتزت ارباح مستر كالفين وسائر المشتغلين في صناعة الالبان • ويوما بعد يوم تبتز ارباح اتجار بالطريقة نفسها • هل تذكرون كيف استطاعت « تروست التبغ » ان تقضي على ما يزيد على اربعمئة من مخازن بيع السيجار في مدينة نيويورك وحدها • أين هم مالكو مناجم الفحم الحجري القدماء ؟ انتم تعلمون اليوم ان تروست السكة الحديدية ـ فلست في حاجة الى انبائكم بذلك ـ تملك او تسير على جميع مناجم فحم الانثراسايت والفحم

القيري • وتروست ستاندرد أويل ٦٤ ، الا تملك عشرين من خطوط النقل البحري عبر المحيط ؟ الا تسيطر ايضا على النحاس ، هذا ان لم نقل شيئا عن تنظيمها تروستا لصهر المعادن كمشروع جانبي جديد ؟ ان ثمة في الولايات المتحدة عشرة الاف مدينة تنورها الليلة شركات تملكها ستاندرد اويل او تسيطر عليها ، وفي عدد مماثل من المدن تهيمن ستاندرد اويل على جميع وسائل النقل الكهربائي — ما عمل منها داخل المدن ، او في الضواحي ، او بين مدينة واخرى • لقد اقصي عن المسرح جميع الرأسماليين الصغار الذين كانوا يعملون في هذا الحقل والذين كانوا يملكون آلافا وآلافا من الشركات • لقد أقصوا عن المسرح كما أقصيتم انتم سواء بسواء •

« وحال الصناعي الصغير أشبه بحال المزارع • فالصناعيون الصغار والمزارعون الصغار قد حولوا اليوم ، عمليا ، الى ارقاء واقنان • ومن هذه الناحية نستطيع ان نقول أن أرباب المهن وأهل الفن هم في اللحظة الحاضرة عبيد مسترقون في كل شيء الا في الاسم ، على حين ان رجال السياسة خدم وأذناب • لماذا تعمل أنت ، يا مستر كالفين ، طوال لياليك ونهاراتك ، لجمع شمل المزارعين ، مع سائر الطبقة الوسطى ، في حزب سياسي جديد ؟ لان سياسيي الاحزاب العتيقة لن يقروك على فكراتك الارتدادية لانهم ما قلت أنا انهم : اعني خدما وأذنابا للبلوتوقراطية •

« لقد ذهبت الى القول ان ارباب الحرف واهل الفن عبيد مسترقون • حسنا ، اي شيء هم ان لم يكونوا كذلك ؟ فالاساتذة ، والمبشرون ، ورؤساء تحرير الصحف كلهم انما يتولون مناصبهم من طريق الخدمة التي يسدونها الى البلوتوقراطية ، وخدمتهم هذه قوامها الترويج للآراء التي لا تسيء الى البلوتوقراطية او التي تدعو الى احترامها ليس غير• حتى اذا ما سولت لاحد منهم نفسه ان يروج لآراء تعرض البلوتوقراطية للخطر فصلوا من وظائفهم ، وفي هذه الحال ينحدرون ان لم يكونوا قد ادخروا قرشهم الابيض ليومهم الاسود — الى البروليتاريا فيهلكون او يصبحون مهيجين عماليين • ولا تنسوا ان الصحافة ، ومنبر الوعظ ، والجامعة ، هي التي تقولب الرأي العام وتحدد اتجاه الامة الفكري • أما أهل الفن فليس لهم من عمل غير تسهيل سبل اللذة والرذيلة امام البلوتوقراطية وأمام أذواقها الخسيسة •

« ولكن الثروة ، على أية حال ، ليست في ذات نفسها السلطان الحقيقي، انها الوسيلة الى السلطان ، والسلطان حكومي • من الذي يهيمن على

---

٦٤ ستاندرد اويل وروكفلر — راجع الهامش رقم ٥٦ •

الحكومة اليوم ؟ البروليتاريا بملايينها العشرين الناهضين بمختلف ضـروب الحرف ؟ حتى انتم تسخرون من هذه الفكرة · اهي الطبقة الوسطى بملايينها الثمانية المنصرفين الى أعمالهم ؟ انها لا تهيمن على الحكومة أكثر مما تهيمن البروليتاريا · واذن فمن الذي يهيمن على الحكومة ؟ البلوتوقراطية باعضائها القلائل البالغ عددهم ربع مليون ليس غير · ولكن ربع المليون هـؤلاء لا يهيمنون على الحكومة ، برغم انهم يسدون اليها خدمة جليلة · ان دمـاغ البلوتوقراطية هو الذي يهيمن على الحكومة ، وهذا الدماغ يتألف من سبع ٦٥ مجموعات صغيرة وقوية من الرجال · ولا تنسوا ان هذه المجموعات انمـا تعمل اليوم ، عمليا ، في تعاون وائتلاف ·

«دعوني احدثكم عن قوة واحدة من هذه المجموعات ليس غير : مجموعة السكك الحديدية · انها تستخدم اربعين الف محام لتهزم الشعب في المحاكم · انها تصدر آلافا لا تحصى من الجوازات المجانية لقضاة ، ورجـال المصارف ، ورؤساء تحرير الصحف ، والقسس ، واساتذة الجامعات ، واعضـاء مجاس الولايات التشريعية ، وأعضاء الكونغرس · وهي تنشىء ردهـات الاستقبال ٦٦ المترفة في عواصم الولايات كلها ، وفي العاصمة الاتحادية ·

---

٦٥ حتى في عام ١٩٠٧ كان الناس يعتبرون ان احدى عشرة مجموعة كانت تسيطـر على البلاد ، ولكن هذا الرقم خفض باتحاد مجموعات السكة الحديدية الخمس في تجمع تضامني ضخم ينتظم جميع السكك الحديدية · وهذه المجموعات الخمس المتحدة على هذا النحو ، مضافا اليها حلفاؤها الماليون والسياسيون ، كانـت التالية : (١) مجموعة جايمس جي هيل المسيطرة على السكك الحديدية في الشمال الغربي · (٢) مجموعة سكة حديد بنسلفانيا ، ومديرها المالي « شيف » ، ومعها مؤسسات مصرفية ضخمة عاملة في فيلادلفيا ونيويورك · (٣) مجموعة هاريمان، ومحاميها « فريك » ، وموجهها السياسي « أوديل » ، وهـي تسيطر علـى خطوط المواصلات في شواطىء المحيط الهادىء الجنوبية الغربية · (٤) اسرة غولـد وسكك حديدها الضخمة · (٥) مجموعة « مور » و « رايد » و « ليدز » المعروفة بـ « زمرة جزيرة روك » · وهذه الاوليغاركيات الخمس القوية نشأت نتيجـة للمنافسة وما يتبعها من تصادم المصالح ، واجتازت الطريق المحتومة نحو التجمع·

٦٦ كانت ردهات الاستقبال في محطات السكة الحديدية مؤسسة غريبة لرشوة أعضاء المجالس التشريعية وارهابهم وافسادهم ، اولئك الاعضاء الذين كان مفروضـا فيهم ان يمثلوا مصالح الشعب ويدافعوا عنها ·

وتستخدم في جميع حواضر البلاد ومدنها جيشا هائلا من المحامين المشاغبين ومن صغار السياسيين الذين كانت مهمتهم حضور اجتماعات الناخبيـــن لاختيار المرشحين للانتخابات القادمة ، وانتخاب المندوبين والممثلين ، والاتصال بالمحلفين القضائيين ، ورشوة القضاة ، والعمل بكل طريقة لخدمة مصالـح هذه المجموعة · ٦٧

« ايها السادة ، لقد اجتزأت بمجرد رسم الخطوط الكبرى لقوة واحدة من المجموعات السبع التي تؤلف دماغ البلوتوقراطية ٦٨ · ان ثروتكم البالغة

---

٦٧ قبل خطاب ايفرهارد هـذا بعشـر سنين أصدر « مجلس تجـارة نيويورك » تقريرا نقتطف منه الفقرة التالية : « ان السكك الحديدية تسيطر كلية على المجالس التشريعية في معظم ولايات الاتحاد · انهم ينصبون ويعزلون شيوخ الولايـــات المتحدة ونوابها وحكام ولاياتها ، وفي الامكان اعتبارهم دكتاتوريي السياســـة الحكومية في الولايات المتحدة · »

٦٨ لقد استهل روكفلر حياته عضوا في البروليتاريا ، ومـن طريق المكـر والاقتصاد في النفقـة وفق الى انشاء أول تروست كاملـة ، أعني تلك المعروفـة بستاندرد أويل · ولست أجد معدى ، ههنا ، عن تقديم هذه الصفحة العجيبة من تاريـخ ذلك العصر لاظهـر كيف استطاعت الحاجـة الى اعادة توظيـف فائـض اموال ستاندرد أويل ان تسحق جمهرة مـن الرأسماليين الصغار ، وكيف عجلت في انهيار النظام الرأسمالي · فقد كان دايفيد غراهام فيليبس كاتبا راديكاليا من كتـاب ذلك العصر ، وكان قد نشر في صحيفة « ساتارداي ايفننغ بوست » ، بعـــددها الصادر في ٤ تشرين الاول (أوكتوبر) عام ١٩٠٢ للميلاد مقالا نقتطف منه المقاطع التالية · والواقع انه لم تصلنا غير هذه النسخة الفريدة من تلك الصحيفة ومـع ذلك فليس في ميسورنا الا ان نستنتج ، من مظهرها ومحتواها ، انها كانـــت احدى الدوريات الشعبية ذات الانتشار الواسع · واليك المقاطع المختارة من المقال:

« منذ عشر سنوات تقريبا قدر أحد الثقات المرموقين دخل روكفلر بثلاثيـــن مليون دولار · كان قد بلغ أقصى حد من حدود التوظيف الرابح للاربـاح فـــي صناعة النفط وكانت مبالغ ضخمة من المال تتدفق على جون دايفيسون روكفلر وحده : ــ أكثر من مليوني دولار كل شهر · وهكذا ازدادت معضلة اعادة توظيف الاموال حدة · لقد أصبحت كابوسا · كان دخل النفط يتضخم ، ويتضخـــم ، وكان عدد المشروعات التي لا يخشى توظيف الاموال فيها محدودا ، بل لقد كـان محدودا أكثر منه اليوم · ومن ثم شرع آل روكفلر يثبون من صناعة النفط الى

اربعـــة وعشرين مليـــار دولار لا تمنحكم مـــا يساوي خمسة وعشريـــن سنتا من السلطـــان الحكومـــي · انهـــا صدفـــة جوفاء سوف تنتـــزع منكم وشيكا · ان البلوتوقراطية لتنعم اليوم بالسلطة كلها · انها اليوم تسن القوانين ، لانها تملك مجلس الشيوخ ، والكونغرس ، والمحاكم ، ومجـالس

صناعات أخرى من غير ان تحفزهم الى ذلك شهوة خاصة الى أرباح اضافية · لقد أكرهوا على ذلك تجرفهم موجة الثروة العارمة التي جذبها اليهم مغناطيس احتكارهم جذبا لا يقاوم · فانشأوا هيأة خاصة لاستطلاع أفضل السبل لتوظيف أموالهم الفائضة ، ويقال ان الراتب الذي يتقاضاه رئيس هذه الهيأة يبلـغ مئـة وخمسة وعشرين الف دولار في العام ·

« وشن آل روكفلر أول غارة واضحة من غاراتهم على حقل السكة الحديدية ، فلم تطل سنة ١٨٩٥ حتى كانوا قد سيطروا على خمس أطوال السكة الحديدية كلها في الولايات المتحدة · فما الذي يملكونه أو يسيطرون عليه اليوم ؟ انهم ذوو سلطان عظيم في جميع السكك الحديدية الكبرى في نيويورك ، الشمالية والشرقية والغربية، ما عدا واحدة حيث تبلغ حصتهم بضعة ملايين ليس غير · وهم يملكون أسهما كثيرة في معظم السكك المتشعبة من تشيكاغـو · ليس هـذا فحسب ، بل انهـم يسيطرون على عدد من الخطوط الممتدة الى المحيط الهادي · ان اصواتهم هـي التي تجعل مستر مورغان على مثل هذه القوة والسلطان في الوقت الحاضر على الرغم من ان في امكاننا ان نضيف انهم أحوج الى دماغه منه الى أصواتهم ، وتضامن الاثنين يؤلف « وحدة المصالح » على نطاق واسع ·

« ولكن السكك الحديدية لم تكن بقادرة وحدها على ان تمتص سيول ذهبهم العارمة · وسرعان ما تصاعد دخل جون د· روكفلر من مليوني دولار ونصـف مليون في الشهر الى أربعة ملايين ثم الى خمسة ملايين ثم الى ستة ملايين فـي الشهر ، ثم الى خمسة وسبعين مليونا في العام · كان نفط الاضاءة قد أصبـح كله ربحا · وكانت اعادة توظيف الدخل تضيف الى ثروة روكفلر ثمراتهـا المتواضعة المؤلفة من عدة ملايين دولار سنويا ·

« وانتقل آل روكفلـر الى غـاز الاستصباح والكهربـاء عندمـا نمـت هاتين الصناعتان فبلغتا مرحلة التوظيف الآمن · واليوم يحتـم على جزء كبير مـن الشعب الاميركي ان يشرع في مضاعفة ثروة آل روكفلـر كلما جنحـت الشمس للغروب ، مهما كانت وسيلة الاضاءة التي يصطنعونها · كذلك انطلقوا الـى ميدان رهن المزارع · ويقال انه حين أدى الازدهار الذي عرفته البلاد منذ بضع

الولايات التشريعية · ليس هذا فحسب · اذ يجب ان تكون وزارة القانــون قوة يلجأ اليها في تنفيذ القانون · واليوم تسن البلوتوقراطية القانون وهــي تعتمد في انفاذه على الشرطة ، والجيش ، والاسطول ، وأخيرا على المليشيا التي هي انتم ، وأنا ، وكل واحد منا : »

ولم يثر بعد ذلك غير جدل قليل ، وسرعان ما انفرط عقد المدعوين الى المائدة · كانوا كلهم هادئين مغلوبا على أمرهم ، ولقد ودع القوم بعضهــم بعضا في اصوات خفيضة · لقد بدا وكأنهم كانوا مروعين ، او يكادون ، برؤيا

سنوات الى تمكين المزارعين من تحرير مزارعهم المرهونة طفرت الدمعة من عين جون · د· روكفلر · ذلك بأن الثمانية ملايين دولار التي اعتقد انه عني بهـــا طوال سنوات لكي تعود عليه بمقدار من الربا ضخم ما لبثت ان طرحت فجـأة على عتبة بابه ، وهناك انشأت تصيح مطالبة بمثوى جديد · وهذه الزيادة غيــر المتوقعة في همومه ، هموم البحث عن مواطن يؤوي فيها ذرية نفطه وذرية هـــذه الذرية وذرية ذرية الذرية ، كانت أكثر من ان تحتملها رباطة جأش رجل مـــن غير هضــم ···

« ومضى آل روكفلر الى المناجم ـ مناجم الحديد والفحم الحجري والنحاس والرصاص ـ الى شركات صناعية أخرى ، الى خطوط الاوتوبوسات ، الـــى السندات الوطنية وسندات الولايات والبلديات ، الى البواخر والزوارق البخارية وشركات البرق ، الى العقارات وناطحات السحاب والقصور والفنادق وعمارات المنطقة التجارية ، الى شركات التأمين على الحياة ، الى المصارف والبنــوك · وما هي الا فترة قصيرة حتى لم يبق أيما حقل من حقول الصناعة خلوا مـــن ملايينهـــم ···

« وبنك روكفلر ـ ذي ناشيونال سيتي بنك ـ هو في ذات نفسه اكبر المصارف في الولايات المتحدة ، وليس يبزه في العالم كله ايما مصرف آخر غير بنك انكلترة وبنك فرنسا · ان متوسط الودائع فيه يزيد على مئة مليون دولار في اليوم الواحد، وهو يهيمن على سوق القروض في وول ستريت وعلى سوق الاسهم · ولكنه ليس وحيدا · انه رأس سلسلة من بنوك آل روكفلر تنتظم أربعة عشر بنكا وتروستـا في مدينة نيويورك ، ومصارف ذات قوة ونفوذ بالغين في جميع المراكز المالية فــي البـــلاد ·

ان جون د· روكفلر يملك من أسهم ستاندرد أويل ما تتروح قيمته ، حســب أسعار السوق المالية ، بين اربعمئة مليون دولار وخمسمئة مليون دولار · وهــو

العصور التي تجلت لهم ٠

وقال مستر كالفين موجها الخطاب الى ارنست :

ـ « الوضع خطير حقا ٠ وليس لي غير اعتراض طفيف على الطريقة التي اصطنعتها في تصويره ٠ بيد أنني لا اقر رأيك في مصير الطبقة الوسطى ٠ اننا لن نهلك ، ولسوف نقهر التروستات ونقضي عليها » ٠

فأكمل ارنست بلسانه :

ـ « وتعودون الى طرائق آبائكم وأجدادكم ٠ »

فأجابه مستر كالفين في كآبة :

ـ « اجل ، وسنعود الى طرائق آبائنا وأجدادنا ٠ انا ادري ان ذلك ضرب من تدمير الالات ، وانه سخف من السخف ٠ ولكن الحياة تبدو سخيفة اليوم ، بسبب من مكائد البلوتوقراطية ٠ وعلى أية حال فأن صفتنا كمدمري آلات هي على الاقل ممكنة وعملية ، في حين ان حلمك ليس بالممكن ولا بالعملي ان حلمك الاشتراكي هو ٠٠٠ حسننا ٠ انه مجرد حلم ٠ نحن لا نستطيع ان نتبعك ٠ »

وقال ارنست ، في شيء من كآبة ، وهو يصافحه مودعا :

ـ « حبذا لو كنتم تعرفون شيئا عن التطور وعن علم الاجتماع ، اذن لوفرنا على أنفسنا هذا العناء كله ٠ »

يملك ما قيمته مئة مليون دولار في تروست الفولاذ ، ومثل ذلك تقريبا في مصلحة مفردة من مصالح السكة الحديدية الغربية ، ونصف هذا المقدار في مصلحة أخرى مماثلة ، وهكذا وهكذا وهكذا حتى يكل العقل من الاحصاء والتعداد ٠ ولقد كان دخله في العام الماضي نحوا من مئة مليون دولار ٠٠٠ ولعل الدخول التي ينعم بها آل روتشيلد مجتمعين لا تبلغ هذا الرقم وانه لرقم يتصاعد في سرعة خاطفة ٠ »

الفصل العاشر

الدردور *

وبعد مأدبة رجال الاعمال تعاقبت الاحداث ، مثل هزيم الرعد ، اثر الاحداث ، وكلها خطير الى حد مروع · واذا بي أنا ، أجل انا التي عشت طوال ايامي السالفة حياة وادعة جدا ، في المدينة الجامعية الهادئة ، أجد نفسي وشؤوني الشخصية منجذبة نحو دردور الشؤون العالمية الهائل · ولست ادري ما الذي جعلني ثورية : حبي لارنست أم منحه اياي نظرة جلية الى المجتمع الذي كنت احيا فيه ؟ ولكن الذي ادريه هو انني ثورية اصبحت ، وانني قد القي بي في دوامة من الاحداث كان خليقا بها ان تكون مستعصية على التصور قبل ثلاثة اشهر ليس غير ·

وتواقتت الازمة التي ألمت بمصائري مع أزمات ضخام المت بالمجتمع · لقد طرد ابي ، قبل كل شيء ، من الجامعة · اوه ، انه لم يطرد بمعنى تقني technically لقد طلب اليه ان يستقيل ، ذلك كان كل شيء · وهذا في ذات نفسه ، لم يكن أمرا ذا بال · والواقع ان ابي تلقاه في ابتهاج · وكان الذي ابهجه ، اكثر من أي شيء اخر ، ان نشر كتابه « علم الاقتصاد والتربية » قد عجل في طرده من الجامعة · لقد ذهب الى القول ان ذلك يثبت وجهة نظره · وهل في ميسور المرء ان يقدم بينة خيرا من هذه البينة على ان الطبقة الرأسمالية تسيطر على التربية ومعاهدها ؟

ولكن هذا البرهان لم يقدر له قط ان يؤدي ثمرة ما · ان احدا لم يعرف

* الدردور موضع في البحر يجيش ماؤه فيخشى فيه الغرق ·

ان ابي قد حمل على الاستقالة من الجامعة حملا · فقد كان عالما بارزا الى درجة جعلت اعلان نبأ كهذا ـ مردفا بالسبب الذي من اجله اكره علـــى الاستقالة ـ شيئا خطيرا خليقا به ان يحدث هياجا في ارجاء العالم كلـــه · وامطرته الصحف بوابل من الاطراء والتمجيد ، واثنت عليه لاطراحه عناء حجرة المحاضرات وبلاءها لكي يقف وقته كله على البحث العلمي ·

لقد ضحك ابي باديء الامر · ثم استبد به الغضب ـ الغضب المقوي · وبعد ذلك كانت عملية « اخماد » كتابه وخنقه في المهد · وانما تمت هـــذه العملية في الخفاء ، في الخفاء الى درجة عجزنا معها ، في أول الامر ، عن الفهم · كان نشر الكتاب قد احدث ، مباشرة ، بعض الضجة في البـــلاد · فحملت الصحافة الرأسمالية على ابي حملة مهذبة ، مفادها ان مما يدعــو الى الرثاء ان يعمد عالم يتمتع بمثل هذه العظمة الى هجرة حقل اختصاصه ليغزو دنيا علم الاجتماع التي لا يعرف عنها شيئا ، والتي لم يلبث ان تاه في مجاهلها · واستمرت هذه الحملة اسبوعا كان ابي خلالـــه يضحك فـــي فتور ويقول ان الكتاب قد مس في جسم الرأسمالية قرحا موجعـــا · وفجأة كفت الصحف اليومية والمجلات النقدية عن الاشارة الى الكتاب مجرد اشارة· وفي فجائية مماثلة ، اختفى الكتاب ـ ايضا ـ من الاسواق · لقد اصبح من المتعذر على المرء ان يقع في المكتبات على نسخة واحدة · فكتب ابي الـــى الناشر في ذلك ، فأجيب بأن صفائح الكتاب المعدنية قد تلفت على غير قصد · وتبعت ذلك مراسلة غير مرضية ولا مقنعة : حتى اذا حمـــل الناشر ، اخر الامر ، على اتخاذ موقف صريح اعلن أنه لا يجد سبيلا الى اعادة تنضيـــد احرف الكتاب ، وانه على اتم استعداد للتخلي عن حقوقه فيه ·

فقال ارنست :

ـ « ولن تجد أي دار نشر اخرى في البلاد كلها تجرؤ على مسه · ولو قد كنت مكانك اذن للجأت منذ الان الى البحث عن وفاء · ان ما ذقتـــه حتـــى هذه اللحظة لا يعدو ان يكون طعم العقب الحديدية الاول · »

ولكن ابي لم يكن شيئا ان لم يكن عالما · انه لم يؤمن قط بسرعـــــة الوثوب الى الاستنتاجات · والتجربة المخبرية لم تكن عنده تجربة مخبرية ان لم تجر بكامل تفاصيلها · وهكذا طرق ، في كثير من الاصطبار ، ابواب دور النشر كلها ، فقدمت جمهرة من المعاذير ، ولكن أيا منها لم يبد رغبة في نشر الكتـــــاب ·

وحين اقتنع والدي بأن الكتاب قد « خنق » عمليا حاول ان ينشر هذه

الواقعة على صفحات الجرائد · ولكن رسائله القيت في سلة المهملات · وفي أجتماع سياسي عقده الاشتراكيون وشهده عدد كثير من المراسلين وجد ابي الفرصة التي كان ينتظرها · لقد وقف في القوم وروى حكاية خنق الكتاب · ولقد ضحك في اليوم التالي عندما طالع الصحف ، ثم استبد به الغضب الى درجة قضت على جميع الخصائص القوية · ان الصحف لم تشر الى الكتاب قط ، ولكنها روت ما قاله أمس على نحو مشوه · لقد حرفت كلماته وعباراته عن مواضعها وقرائنها وأحالت ملاحظاته المكبوتة الموزونة الى خطاب فوضوي نابح · ولقد فعلت ذلك في براعة وفن · وانا لا أزال أذكر مثلا بعينه على نحو مخصوص · فقد اصطنع ابي عبارة « الثورة الاجتماعية » فما كان من المراسل الا ان اكتفى باسقاط لفظة « الاجتماعية » ليس غير ، وطير ذلك الى كل بقعة من بقاع البلاد في برقية من برقيات « الاسوسييتد بريس » · ومن جميع اطراف البلاد انبعثت صيحة ذعر · لقد وسم ابي بميسم الفوضوية والنهلستية (العدمية) وفي احدى الصور الكاريكاتورية التي تناقلتها الصحف على نطاق واسع اظهر ابي حاملا راية حمراء على رأس جمهرة من الرعاع ذات شعور طويلة وأعين تتميز بالغيظ الضاري ، جمهرة من الرعاع تحمل في ايديها مشاعل ، وسكاكين ، وقنابل ديناميتية ·

لقد هاجمته الصحف ، لفوضويته ، هجوما رهيبا في مقالات رئيسية طويلة محشوة بالقدح والذم ، واخذت تلمع الى انه اصيب بانهيار عقلي · وقال لنا ارنست ان سلوك الصحافة الرأسمالية هذا لم يكن شيئا جديدا البتة · فقد كانت العادة تقضي ، كما قال ، بتوجيه المراسلين الى الاجتماعات الاشتراكية كلها لمجرد تحريف ما يقال فيها وروايته رواية مشوهة ، ابتغاء ترويع الطبقة الوسطى وللقضاء على كل امكانية من امكانيات اندماجها في البروليتاريا · وحذر ارنست والدي تحذيرا موصولا ، سائلا اياه ان يكف عن القتال ويتوارى عن الانظار ·

وعلى أية حال فقد واصلت الصحافة الاشتراكية القتال ، فأصبح معروفا في القطاع العمالي القارىء أن الكتاب قد « خنق » · ولكن هذه المعرفة وقفت عند تخوم الطبقة العاملة · ثم ان دار « الاحتكام الى العقل » ، وهي دار نشر اشتراكية كبيرة ، اتفقت مع أبي على اصدار الكتاب · وابتهج ابي ابتهاجا غامرا ، أما ارنست فقد عصف به ذعر شديد ، وأصر على القول :

ــ « أقول لك اننا نقف على شفا المجهول · ان اشياء ضخمة لتقع في السر حولنا وحوالينا · في استطاعتنا ان نشعر بها · نحن لا نعرف ما هي ،

ولكنها هناك على أية حال · وان كيان المجتمع كله ليرتعد بسبب منها · لا تسألني · انا نفسي لا ادري · ولكن لا بد ان يتبلور ، من هذا التطــور الاجتماعي الموصول ، شيء ما · انه ليتبلور الان · و « خنق » كتابك ليس الا عاملا معجلا في هذا التبلور · ما عدد الكتب التي « خنقت » حتى الان ؟ ليس لدينا أقل فكرة عن ذلك · نحن نحيا في الظلام · ولا سبيل امامنا الــى المعرفة · ترقب الخطوة التالية : « خنق » الصحف الاشتراكية ودور النشر الاشتراكية ، ويؤسفني ان تكون عملية « الخنق » هذه على وشك الحدوث · اننا سوف نخنق · »

كان ارنست قد جس نبض الاحداث على نحو اكثر احكاما حتى مــن سائر الاشتراكيين ، فما هما غير يومين اثنين حتى سددت الضربة الاولى : كانت مجلة « الاحتكام الى العقل » دورية اسبوعية ، وكان متوسط تداولها فيأوساط البروليتاريا سبعمئة وخمسين الف نسخة · ليس هذا فحسب ، بل كانت كثيرا ما تصدر طبعات خاصة تتراوح نسخ العدد الواحد منها ما بين مليوني نسخة وخمسة ملايين نسخة · وهذه الطبعات الضخمة انمــا كــان ينهض بنفقاتها ويقوم بتوزيعها جيش العمال المتطوعين الصغير الذي كان قد انضوى تحت لواء « الاحتكام » · فاذا بالضربة الاولى تسدد الــى هــذه الطبعات الخاصة ، ولقد كانت ضربة ماحقة حقا · ولكن كيف ؟ لقد أصدرت ادارة البريد قرارا تعسفيا انكرت فيه ان تكون هذه الطبعات جزءا لا يتجزأ من سيرورة « الاحتكام » النظامية ، ومن اجل ذلك امتنعت عن توزيعها ·

وبعد اسبوع اصدرت ادارة البريد قرارا اعتبرت فيه هذه المجلــة مشاغبة مثيرة للفتنة ، ورفضت قبولها بالكلية · وكانت هذه ضربة رهيبــة للدعاية الاشتراكية · واستماتت مجلة « الاحتكام » ، ووضعت خطة للوصول الى مشتركيها من طريق شركات الاكسبريس » ، ولكن هذه الشركات أبــت ان تنقلها · وكان في ذلك نهاية « الاحتكام » · ولكن ليس نهايتها الاخيرة · فقد اعدت العدة لمواصلة نشر الكتب · كانت عشرون الف نسخة من كتــاب أبي رهن التجليد ، وكانت دواليب الالة الطابعة تطلع مقادير اضافيــة · وفجأة ، ومن غير ما انذار ، اندفعت جماعة من الغوغاء ، ذات ليلة ، حاملة راية أميركية مصففة ، ومنشدة بعض الاناشيد الوطنية ، واضرمت النار في مؤسسة « الاحتكام » الكبيرة ، فالتهمتها التهاما ·

وكانت جيرارد ، من اعمال ولاية كانساس ، مدينة هادئة آمنة · ان ايما اضطرابات عمالية لم تنشب هنا · فقد كانت « الاحتكام » تدفع الــى

مستخدميها اجورهم وفقا للقواعد التي أقرها اتحاد العمال · وكانت في الواقع عمود المدينة الفقري ، متيحة فرص العمل لمئات من الرجال والنساء · ولم يكن ابناء جيرارد هم الذين شكلوا الجماعة الغوغائية التي اضرمت النار في المؤسسة · لا ، لقد نبعت هذه الجماعة ، في ما يبدو ، من باطن الارض ، حتى اذا انجزت مهمتها ارتدت الى باطن الارض من جديد · ولقد وجد ارنست في هذه المسألة معنى ليس أكلح منه ولا أشأم ·

قال :

« ان المئات السود ٦٩ لتنظم اليوم في الولايات المتحدة · وليست هذه الا بداية · ولسوف نشهد من مثلها شيئا كثيرا · ان العقب الحديدية قد بدأت تشرب حليب السباع · »

وهكذا هلك كتاب ابي · ولقد قدر لنا ان نرى كثيرا من جماعة « المئات السود » في الايام التي تلت · واسبوعا بعد اسبوع كانت ادارة البريد تمنع توزيع مزيد من الصحف الاشتراكية ، وفي مناسبات عدة حطمت جماعة « المئات السود » المطابع الاشتراكية · ولا حاجة الى القول ان صحف المنطقة التزمت السياسة الرجعية التي انتهجتها الطبقة الحاكمة ، فاذا بها تشهر بالصحف الاشتراكية المعتدى عليها وتصور قضيتها تصويرا مشوها ، على حين جعلت من « المئات السود » وطنيين حقيقيين ومنقذين للمجتمع · وكان هذا التصوير المشوه كله مقنعا الى درجة حدت حتى ببعض القسس المخلصين الى امتداح « المئات السود » من على منابر الكنائس معلنين أسفهم في الوقت نفسه ، لهذا الظرف القاهر الذي جعل اللجوء الى العنف ضرورة من الضرورات ·

وكان التاريخ يسرع الخطى ، وكانت انتخابات الخريف على الابواب · ورشح الحزب الاشتراكي ارنست لعضوية الكونغرس · وكان الظرف مؤاتيا اكثر ما تكون المواتاة لنجاحه · ذلك بأن اضراب الاوتوبوسات في سان فرانسيسكو كان قد سحق · وبعد هذا بقليل سحق اضراب سائقي العربات أيضا · وكانت هاتان الهزيمتان قاصمتين لظهور الحركة العمالية المنظمة · فقد أيد اتحاد عمال المرافىء ، مع جميع حلفائه في صناعات البناء ،

---

٦٩ كانت المئات السود Black Hundreds جماعات غوغائية رجعية نظمتها الاوتوقراطية المحتضرة خلال الثورة الروسية · وكانت هذه الجماعات الرجعية تهاجم جماعات الثوار وتفسد في الارض عند الحاجة ، وتتلف ممتلكات المواطنين لكي تزود الاوتوقراطية بذريعة تتوسل بها للاستنجاد بالقوزاق ·

اضراب سائقي العربات ، فسحق على نحو منكر . كان اضرابا داميا . وكان رجال الشرطة قد كسروا ، بهراواتهم الخاصة لمنع الاضطرابات ، رؤوسا لا تعد ولا تحصى ، وكانت لائحة القتلى قد تضخمت بفتح نيران احد الرشاشات على المضربين من أهراء شركة « مارسدين سبيشال دليفيري » .

وران على وجوه الرجال تجهم ، ونطقت بالشهوة الى الانتقام . لقد التمسوا الدم ، والثأر . انهم وقد قهروا في ميدانهم المختار كانوا على أتم الاستعداد لطلب الثأر عن طريق العمل السياسي . كانوا لا يزالون محتفظين بتنظيمهم العمالي ، وهذا ما منحهم قوة في الصراع السياسي الدائر .وتعاظم حظ ارنست في النجاح اكثر فأكثر . ويوما بعد يوم راحت الاتحادات تعلن تأييدها للاشتراكيين حتى لقد ضحك ارنست نفسه عندما انحاز مساعدو متعهدي الجنائز وملتقطو الدجاج الى صفهم . لقد اصبح العمال شرسين شكسين . كانوا يتوافدون على الاجتماعات الاشتراكية في حماسة مسعورة ، وكانوا يصمون آذانهم دون خدع سياسيي الاحزاب العتيقة . وكان خطباء هذه الاحزاب العتيقة يستقبلون عادة بقاعات فارغة ، ولكنهم كانوا في احيان نادرة يجدون في انتظارهم حشودا تملأ هذه القاعات ، حشودا كان من دأبها ان تفسد عليهم جو الاجتماع فيضطرون الى الاستنجاد برجال الشرطة .

كان التاريخ يسرع الخطى . كان الجو يتذبذب بأشياء بعضها حدث وبعضها على وشك ان يحدث . وكانت البلاد على شفا فترة عصيبة ٧٠ ناشئة عن سلسلة من سنوات الازدهار التي ازداد فيها التخلص من الفائض غير المستهلك ، عن طريق تصديره الى خارج الحدود ، عسرا في عسر . كانت الصناعات قد اختصرت ساعات العمل . وكان عدد كبير من المصانع يتوقف عن العمل ريثما يصرف الفائض . وخفضت الاجور ذات اليمين وذات الشمال .

ليس هذا فحسب ، بل لقد سحق اضراب الميكانيكيين العظيم ايضا . وهكذا هام مئتا الف ميكانيكي ، مع نصف مليون من حلفائهم عمال صناعات الاشغال المعدنية، في اضراب دموي لم تمن الولايات المتحدة بأقسى منه ولا أمعن في التخريب . كانت معارك مستميتة تخاض ضد جيوش صغيرة من مفسدي

---

٧٠ في ظل النظام الراسمالي كانت فترات الازمة هذه محترمة بقدر ما كانت سخيفة . كان الازدهار يعود على البلاد ، دائما ، بالنكبات والارزاء . وكان مرد ذلك ، طبعا ، الى وفرة الارباح غير المستهلكة التي كانت تكدس تكديسا .

الاضرابات ٧١ انزلتها منظمات اصحاب المصانع الى الميدان • وكانت جماعات « المئات السود » ، وقد ظهرت في عشرات من المواطن المتناشرة ، قد أغارت على الممتلكات الخاصة فكان من نتيجة ذلك ان دعيت قوة مؤلفة من مئة الف جندي نظامي أميركي لوضع حد رهيب للمسألة كلها • وكان عدد من الزعماء العمال قد اعدم ، وصدرت احكام بالسجن على عدد كبير اخر من اولئك الزعماء ، على حين حشر الاف من العمال المضربين في زرائب الثيران ٧٢ حيث اساء الجنود معاملتهم على نحو مقيت •

كان لا بد ، الان ، من دفع ثمن سنوات الازدهار • كانت الاسواق كلها متخمة ، وكانت الاسواق كلها تعاني هبوطا في الاسعار • وفي زحمة انهيار الاسعار العام كان انهيار سعر العمل اسرعها جميعا • وكانت البلاد تتشنج بنزاعات صناعية • كان العمال يضربون هنا ، وهناك ، وفي كل مكان • وحيث احجم العمال عن الاضراب عمد الرأسماليون الى طردهم • وغصت الصحف بقصص العنف والدم • ولعبت جماعات « المئات السود » دورها في تلك الاحداث كلها • كان الشغب والاحراق المتعمد ، واتلاف الممتلكات على

---

٧١ مفسدو الاضرابات Strike-breakers : كان هؤلاء ، اذا اعتبرنا الهدف والممارسة وكل شيء ما خلا الاسم ، هم جند الرأسماليين الخاص • كانوا منظمين تنظيما دقيقا ومسلحين تسليحا حسنا ، وكانوا أبدا على أتم الاهبة للانتقال بقطر حديدية خاصة الى أيما جزء من أجزاء البلاد أضرب فيه العمال أو أغلق الرأسماليون أبواب مصانعهم في وجوههم • وتلك العهود الغريبة كان في امكانها ، وحدها ، ان تساعد على خلق هذا المشهد المذهل الذي نرى فيه « فار لي » Farley وهو ذائع الصيت من قادة مفسدي الاضرابات ، يطوف في الولايات المتحدة ، عام ١٩٠٦ ، على متن قطر حديدية خاصة ، من نيويورك في الشرق الى سان فرانسسكو في الغرب على رأس جيش مؤلف من الفين وخمسمئة رجل كاملي العدة والسلاح لقمع اضراب سائقي السيارات في سان فرانسسكو • ومثل هذا العمل كان خرقا فاضحا لقوانين البلاد • ولكن حدوث هذا الفعل وآلاف من الافعال المشابهة ، من غير ان يلقى المسؤولون عنها عقابا ما ، يظهر للقارىء الى أي حد كان القضاء في تلك الايام صنيعة من صنائع البلوتوقراطية •

٧٢ يوم أضرب عمال المناجم في ايداهو ، في الجزء الاخير من القرن التاسع عشر ، شاءت المصادفة ان يحبس الجنود عددا كبيرا من المضربين في زريبة ثيران • ثم ان ذلك الصنيع ظل ، هو واسمه ، مألوفا خلال القرن العشرين •

نحو لا يرحم ، هي المهمة التي انيطت بها ، ولقد ادت مهمتها هذه فأحسنت اداءها • وكان الجيش النظامي كله في الساحة ، بعد ان قضت اعمال « المئات السود » ٧٣ بنزوله اليها • وكانت جميع المدن اشبه شيء بالمعسكرات الحربية وكان الرصاص يطلق على العمال فيصرعون كالكلاب • ومن جيوش العاطلين عن العمل عزز مفسدو الاضرابات بعناصر جديدة • حتى اذا هزت اتحادات العمال منفذي الاضرابات تحركت القوات النظامية فسحقت تلك الاتحادات • وكانت ثمة ، الى ذلك ، قوات الميليشيا • وحتى تلك اللحظة كانت الحاجة لما تنشأ بعد الى الافادة من قانون الميليشيا السري • ومن هنا انزلت الميليشيا النظامية ليس غير ، الى الساحة ، ولقد نزلت الى الساحة في كل مكان ، وفي فترة الارهاب هذه عززت الحكومة جيشها النظامي فأضافت اليه مئة الــف مجند جديد •

والواقع ان العمال لم يمنوا قط من قبل بمثل هذه الهزيمة الكاملة • كان اقطاب الصناعة الكبار ، الاوليغاركيون ، قد القوا للمرة الاولى بثقلهم كله في الثغرة التي كانت جمعيات الصناعيين المكافحين قد احدثتها • وكانت هذه الجمعيات شأنا من شؤون الطبقة الوسطى ، عمليا • ولكنها انزلت الان بالحركة العمالية النظامية هزيمة رهيبة حاسمة بعد ان اكرهتها على ذلــك فترة الازمة العصيبة وجمود الاسواق وكسادها ، وبعد ان ايدها اقطــــاب

---

٧٣ ان الاسم فقط ، لا الفكرة ، هو الذي اقتبس من روسيا • فقد كانــت جماعــات « المئات السود » امتدادا متطورا للعملاء السريين العاملين في خدمة الرأسماليين ، ولقد اصطنعت أول ما اصطنعت في نضالات القرن التاسع عشر العمالية • هذه حقيقة لا تحتمل الجدل والمناقشة • ونحن انما نستند في ذلك الى مصدر موثوق الى أبعد الحدود هو كارول د• دوايت مفوض العمل في الولايات المتحدة ، فقد أعلن في كتابه الموسوم بــ « معارك العمل » The Battles of Labour « انــــه في بعض الاضرابات التاريخية الكبرى عمد اصحاب المصانع انفسهم الى التحريض على اعمال العنف » ، وان الصناعيين كثيرا ما كانوا يغرون العمال بالاضراب ابتغاء التخلص من فائض السلع المتراكمة لديهم ، وان عملاء الصناعيين لــــم يتورعوا عن احراق الشاحنات خلال اضرابات عمال السكك الحديدية اذكاء لنار الاضراب والفوضى • ومن العملاء السريين العاملين في خدمة الرأسماليين نشأت جماعات « المئات السود » فاذا بهذه الجماعات تصبــح ، بدورهــا ، في ما بعد ، سلاح الاوليغاركية الرهيب اعني « العملاء ــ المحرضين » •

الصناعة الكبار · لقد كان ذلك تحالفا بالغ القوة ، ولكنه كان تحالف الاسد والحمل ، كما ادركت الطبقة الوسطى بعد ذلك بقليل ·

وكانت الحركة العمالية متجهمة الوجه مضرجة بالدماء ، ولكنها مسحوقة · ومع ذلك فان هزيمتها لم تضع حدا لعهد الازمة العصيب · فقد واصلت المصارف ، وهي تشكل في ذات نفسها قوة هامة من قوى الاوليغاركية، مطالبة عملائها بتغطية حساباتهم المدينة · وحولت عصبة وول ستريت ٧٤ سوق الاسهم الى دوامة تتفتت فيها قيم البلاد كلها حتى لتكاد تصبح لا شيء· ومن خلال الدمار والخراب نشأت الاوليغاركية الجديدة رابطة الجأش ، لا مبالية ، واثقة من نفسها · كانت رصانتها وثقتها بنفسها مروعتين · وهي لم تكتف باصطناع قوتها الهائلة فحسب ، ابتغاء تحقيق خططها ، بل اصطنعت الى ذلك قوة خزانة الولايات المتحدة بكاملها ·

وكان اقطاب الصناعة قد ارتدوا الآن على الطبقة الوسطى · فاذا بجمعيات الصناعيين التي ساعدت اقطاب الصناعة على تمزيق الحركة العمالية تجد نفسها الان وقد مزقها حلفاؤها السابقون · وخلال سحق رجال الطبقة الوسطى ورجال الاعمال والصناعة الصغار صمدت التروستات · لا ، لقد فعلت التروستات شيئا اكثر من الصمود · لقد زرعت الريح اثر الريح اثر الريح ··· ذلك بأنها كانت هي وحدها تعرف كيف تحصد العاصفة وتجني الارباح منها · وأي ارباح ! ارباح عملاقة ! واذ كانت هي من القوة بحيث تستطيع ان تقاوم العاصفة التي كانت الى حد بعيد من صنع أيديهم ، فقد انطلقوا في اثر الحطام الطافي من حولهم ونهبوه · وانكمشت القيم على نحو فاجع لا يكاد العقل يتصوره ، وضاعفت التروستات ثرواتها ووسعت رقعة مشاريعها لتشمل حقولا جديدة كثيرة · كل ذلك على حساب الطبقة الوسطى دائما ·

وهكذا شهد صيف عام ١٩١٢ حملة الافناء الحقيقية ضد الطبقة الوسطى · وحتى ارنست اصابه الذهول للسرعة التي شنت بها تلك الحملة · لقد هز برأسه على نحو منذر بالسوء ، وتطلع في غير ما امل الى انتخابات الخريف ·

---

٧٤ **Wall Street** وقد دعي بذلك على اسم شارع في مدينة نيويورك القديمة ، حيث كانت سوق الاوراق المالية ، وحيث كان تنظيم المجتمع غير العقلاني يجيز التلاعب باسعار اسهم الصناعات كلها ورفعها وخفضها على نحو كله خديعة واحتيال ·

٩

وقـــال :

ــ « لا فائدة ترجى · لقد هزمنا · ان العقب الحديدية هناك · ولقد كنت رجوت أن نحرز انتصارا سلميا امام صناديق الاقتراع · ولكني كنت مخطئا · على حين كان ويكسون مصيبا ، انهم سوف يسلبوننا ما تبقى لنا من حريات قليلة · ولسوف تمشي العقب الحديدية على وجوهنا ، وليس ثمة من سبيل غير ثورة دامية تقوم بها الطبقة العمالية · اننا سوف ننتصر من غير ريب ، ولكني ارتعد لمجرد التفكير في ذلك · »

ومنذ ذلك الحين اتكل ارنست ، في غير ما تحفظ ، على الثورة · وفي هذه النقطة كان سابقا حزبه متقدما عليه · فقد أبى رفاقه الاشتراكيون ان يقروه على ما ذهب اليه · كانوا لا يزالون يصرون على ان النصر يمكن ان ينتزع من طريق الانتخابات · وليس معنى هذا انهم فقدوا صوابهم · لا ، فقد كان لهم من رصانتهم وشجاعتهم ما يعصمهم من ذلك · ولكنهم كانوا غير مستعدين للتصديق ــ ليس اكثر ولا اقل · لقد عجز ارنست عن حملهم على الخوف ، جديا ، من ظهور الاوليغاركية · لقد استثارتهم اقواله ، ولكنهم كانوا واثقين من قوتهم اكثر مما ينبغي ولم يكن في مفهومهم للتطور الاجتماعي متسع لايما اوليغاركية ، واذن فالاوليغاركية لا يمكن ان تكون ·

وقالوا له في احد اجتماعاتنا السرية :

ــ « سوف نحملك الى كرسي الكونغرس ولسوف يكون كل شيء حسنا · »

فأجابهم ارنست في برود :

ــ « وحين يطردونني من الكونغرس ، ويحبطون مشروعاتي ، ويطلقون علي رصاصة تطير دماغي ··· ما الذي سوف يحدث بعد ذلك ؟ »

فأجابته دزينة اصوات في وقت معا :

ــ « عندئذ نفزع الى السلاح · »

فكان جوابــه :

ــ « عندئذ تتمرغون في دمائكم · لقد سمعت تلك النغمة ترددها الطبقة الوسطى ، ولكن الى أين انتهى بها ، الان ، تهديدها باللجوء الى السلاح ؟ »

الفصل الحادي عشر

المغامرة الكبـرى

ان مستر ويكسون لم يطلب الى أبي ان يسعى للقائه · لقد التقيا مصادفة على متن المعبر * القاصد الى سان فرانسيسكو ، مما يؤذن بأن التحذيـــر الذي وجهه الى ابي لم يكن ثمرة تفكير سابق · ولو ان المصادفة لم تجمـع ما بينهما اذن لما كان ثمة اي تحذير · ولكن هذا لا يعني ان النتيجة كـان خليقا بها ان تكون مختلفة · فقد كان ابي من ذرية اولئك الرجال الاشـــداء الذين اقلتهم « زهرة ايار » ٧٥ (ماي فلاور) ، وكان الدم يجري في عروقه عنيدا لا راد لارادته ·

لقد قال لي بعيد عودته مباشرة :

ــ « ان ارنست كان مصيبا · ارنست فتى رائع الى ابعد الحـدود ، واني لأوثر ان اراك زوجة له على ان أراك زوجـــة لروكفلر نفسه او للمـــلك انكلتـــرة » ·

فسألته في ذعــر :

---

* Ferry-boat زورق لقطع النهر من شاطىء الى آخـر ·

٧٥ May Flower احدى السفن الاولى التي حملت المهاجرين الانكليز الى اميركا، بعد اكتشاف العالم الجديد · وكان المتحدرون من هؤلاء المستعمرين الاولين قـد غالوا ، فترة من الزمان ، في الاعتزاز بأنسابهم · ولكن دمهم ما لبث أن انتشـر وتوزع على نحو واسع حتى لنستطيع القول انه أمسى يجري ، في عروق الاميركيين كلهـــم تقريبـــا ·

ـ « ما المسألة ؟ »

ـ « ان الاوليغاركية توشك أن تدوس وجهينا ـ وجهك ووجهي • ذلك محصل ما قاله لي ويكسون • لقد اصطنع في حديثه معي لطفا بالغا ما كنت لانتظره منه بوصفه اوليغاركيا • لقد عرض علي ان يعيدني الى الجامعة • ما رأيك في ذلك ؟ هو ، ويكسون ، مغتصب المال الخسيس ، يملك القوة على تقرير ما اذا كنت سأرجع الى التدريس في جامعة الولاية أم لا أرجع !! بل لقد عرض علي ما هو خير من هذا : عرض أن يسند الي رئاسة كلية ضخمة من كليات العلوم الطبيعية تعد العدة في هذه الايام لانشائها ـ ان الاوليغاركية يجب ان تتخلص من فائضها بطريقة ما ، أترين ؟

« لقد قال لي : « هل تذكر ما قلته لذلك الاشتراكي الذي يتعشق ابنتك ؟ لقد قلت له اننا نطمح الى المشي على وجوه الطبقة العمالية • وهذا ما سوف نفعله عما قريب • أما انت فانني أكن لك احتراما عميقا بوصفك عالما ، أما اذا ربطت مقدراتك بمقدرات العمال فعندئذ يتعين عليك أن تتحسس وجهك ، هذا كل ما هنالك • » قال ذلك ثم استدار وفارقني • »

وحين احطنا ارنست علما بهذا الحديث كان جوابه :

ـ « هذا يعني ان علينا ان نقدم موعد الزواج • »

ولم استطع بادئ الامر ان اكتشف علاقة ذلك كله بموعد الزواج ولكني سرعان ما اكتشفته • ففي ذلك الوقت بالذات دفعت أرباح اسهم مصانع سييرا الفصلية ـ او على الاصح كان ينبغي ان تدفع ، لان ابي لم يتلق أرباحه • وانتظر ابي عدة أيام ، ثم كتب رسالة الى أمين السر • وفي غير ما تأخير جاءه الجواب يقول بأنه ليس في سجلات الشركة ما يدل على ان أبي يملك شيئا من أسهمها ، ويطلب اليه في كياسة ولطف ان يقدم معلومات اكثر وضوحا •

وأعلن أبي :

ـ « سوف اوضح له ذلك ايضاحا كافيا ! عليه اللعنة ! »

ومضى الى البنك لكي يأتي بالاسهم من صندوقه الحديدي الخاص •

وقال حين رجع وفيما كنت اساعده على خلع معطفه :

ـ « ارنست رجل رائع جدا • اكرر ، يا بنيتي ، ان فتاك ذاك شاب رائع جدا • »

وكانت الايام قد علمتني ان اتوقع ، كلما امتدح ارنست على هذا النحو ، كارثة من الكوارث •

وأوضح أبي قائلا :

ـ « لقد مشوا على وجهي وانتهوا · ليس ثمة أسهم · لقد وجـــدت الصندوق فارغا · سوف يتعين عليك وعلى ارنست ان تتزوجا على وجـــه السرعـــة · »

وأصر أبي على الاساليب المختبرة · لقد ساق مصانع سييرا الـــى القضاء ، ولكنه عجز عن أن يسوق دفاتر مصانع سييرا الى القضاء · ذلك بأنه لم تكن له سيطرة على المحاكم ، في حين كان لمصانع سييرا سيطـــرة عليها · لقد فسر هذا كل شيء · وخذله القانون خذلانا مبينا ، ونفذ مفعول السرقة السافرة ·

ان الطريقة التي خذل بها أبي لتثير الان ، حين ارجع اليها بالذاكرة ، ضحكي او تكاد · لقد التقى بويكسون ، مصادفة ، في شارع من شوارع سان فرانسيسكو فقال لويكسون انه وغد لعين · ثم ان أبي اعتقل بتهمة الشروع في الاعتداء ، وغرم في محكمة البوليس ، وأخذ عليه تعهد بأن يلزم الامن والهدوء وكان ذلك كله مضحكا الى حد جعل ابي نفسه ينفجر بالضحك عندما أطلق سراحه وانقلب الى البيت · ولكن أي هياج اثير في الصحف المحلية ! كان ثمة كلام جدي عن جرثوم العنف الذي أصاب جميع من اعتنق الاشتراكية ، واتخذت الصحف من أبي ، بحياته الطويلة الهادئة ، مثلا ساطعا على الطريقة التي يعمل بها ذلك الجرثوم · ليس هذا فحسب ، بل لقد اكدت اكثـــر مـــن صحيفة واحدة ان عقل ابي قد وهى تحت وطأة الدراسة العلمية ، واقترحت ان يحجز في مستشفى من مستشفيات الولاية الخاصة بالامراض العقليـــة · ولم يكن ذلك مجرد كلام · لقد كان خطرا وشيك الوقوع · ولكن ابي كـــان من الحكمة بحيث بصر به · كان له في تجربة الاسقف عبرة · ولقد اعتبر بها حقا · لقد اعتصم بالسكينة ، أيا ما كان الظلم المنزل به ، فأثار بذلك ـ في ما أحسب ـ دهش اعدائه ·

وواجهنا ، الان ، مسألة المنزل ـ منزلنا · لقد نزعت ملكيته منا بدعوى استحقاق الرهن · ولم يكن ثمة أي رهن طبعا ، لا في تلك الفترة ولا في أي فترة سالفة · فالواقع اننا كنا قد اشترينا الارض نقدا ، واننا سددنا ثمن البيت عند بنائه · ولقد كان البيت وقطعة الارض متحررين ، دائما ، لا يثقلهما دين ما · ومع ذلك ، فثمة كان الرهن محررا وموقعا عليه بطريقة صحيحـــة وقانونية ، مع ثبت بمدفوعات الفائدة السنوية خلال عدد من الاعوام · ولم يطلق أبي أية صيحة ذعر · لقد سلب الان بيته كما سلب ماله من قبل · ولم

يكن لديه مفزع يلجأ اليه · فقد كانت آلية المجتمع في ايدي اولئك الذين كانوا نزاعين الى تحطيمه · كان في أعمق اعماقه فيلسوفا ، ولقد اصبح الان في نجوة حتى من الغضب ·

وقال لي :

– « لقد كتب علي ان اسحق · ولكن هذا ليس سببا كافيا يدعوني الى ان لا احاول جعل عملية السحق تلك خفيفة جهد الطاقة · ان عظامي الهرمة هذه هشة ، ولقد اخذت درسا قاسيا · والله يعلم اني لا أريد ان أقضي ايامي الاخيرة في مستشفى من مستشفيات المجاذيب · »

وهذا ما يذكرني بالاسقف مورهاوس ، الذي اهملته في الصفحات الاخيرة – ولكن دعني أتحدث اولا ، عن زواجي · ففي زحمة الاحداث يبدو زواجي حدثا تافها ، انا ادري هذا ، وهذا هو السبب الذي من اجله سوف أجتزىء بالاشارة اليه ليس غير ·

وقال أبي حين طردنا من منزلنا :

– « الان سنصبح بروليتاريين حقيقيين · لقد طالما حسدت فتاك ذاك على معرفته الفعلية للبروليتاريا · اما الان فسوف ارى بعيني راسي وأتعلم الحقيقة بنفسي · »

لقد كان دم المغامرة يجري قويا حارا في عروق أبي من غير ريب · لقد نظر الى نكبتنا وكأنها مغامرة من المغامرات · فلم يستبد به لا غضب ولا مرارة · لقد كان من الحكمة والبساطة بحيث يسمو على الحقد والانتقام ، وكان قد عاش في عالم العقل فترة طويلة جعلته لا يفتقد المتارف التي كنا قد تخلينا عنها · وهكذا رأيته ، حين انتقلنا الى سان فرانسيسكو لننزل بيتا حقيرا من أربع غرف في حي العمال القذر ، يباشر المغامرة في مثل ابتهاج طفل وحماسته ، مردفين برجاحة عقل العالم العبقري وبعد نظره · انه لم يتحجر عقليا البتة · ولم يكن لديه فهم زائف للقيم · فالقيم التقليدية او المعتادة كانت لا تعني عنده شيئا · ان القيم الوحيدة التي اعترف بها كانت هي الحقائق الرياضية والعلمية · لقد كان أبي رجلا عظيما · كان له عقل وروح لا يتمتع بمثلهما غير العظام من الناس · وكان من بعض الوجوه اعظم من ارنست نفسه ، ارنست الذي لم اعرف قط امرءا اعظم منه ·

وحتى أنا وجدت شيئا من الارتياح في التغير الذي طرأ على حياتنا حسبي أنني كنت في سبيلي الى النجاة من النبذ المنظم الذي كان نصيبنا المتعاظم في المدينة الجامعية منذ ان تعرضنا لسخط الاوليغاركية الناشئة

وعداوتها · وكان التغير بالنسبة الي مغامرة أيضا ، بل أعظم المغامـــرات على الاطلاق ، اذ كانت هي مغامرة الحب · لقد عجل تغير مصائرنا فـــي زواجي ، ولقد استهللت حياتي في الحجرات الاربع في بيل ستريت ، بحـــي العمال القذر في سان فرانسيسكو ، بوصفي زوجة ذات بعل ·

ومن كل ذلك يبقى اليوم هذه الحقيقة : اني اوقعت السعادة في قلـــب أرنست · لقد دخلت حياته العاصفة لا كقوة مهيجة جديدة بل كقوة تسعـى بسبيل الامن والطمانينة · لقد منحته الراحة · كانت هي هدية حبي اليه · وكانت هي الامارة الوحيدة ، التي لا تخطىء ، على أني لم أخفق في مهمتي ، اذ أي بهجة يمكن أن تسعد فؤادي اكثر من حملي السلوان وضياء البشر الى عينيه المرهقتين البائستين ؟

يا لتينك العينين المرهقتين الحبيبتين ! لقد كدح كما لم يكدح من قبله غير قلة قليلة من أولي العزم ، وطوال عمره كله كان كدحه هذا مـــن أجل الاخرين · ذلك كان هو مقياس رجولته · لقد كان انسانيا ومحبا · وكان ــ بروح القتال المتجسدة فيه ، وجسده المكافح ، وروحه النسرية ــ يعاملني بمثل لطف الشاعر ورقته · لقد كان شاعرا · كان منشد أفعال لا أقوال · ولقـــد غنى طوال حياته اغنية الانسان · وانما أخذ نفسه بذلك مسوقا بحـــب الانسان ليس غير ، وفي سبيل الانسان وهب حياته ومات على الصليب ·

فعل ذلك كله من غير ان يرجو في المستقبل ثوابا او مكافأة · لم يكن ثمة ، في مفهومه للاشياء ، أيما حياة اخرى بعد الموت · لقد انكر على نفسه الخلود ، وهو الذي اتقدت نفسه بالخلود اتقادا كاملا ــ وذلك هو التناقض الظاهري في شخصيته · انه وهو الملتهب الروح كان خاضعا لسلطان تلـــك الفلسفة الباردة : الوحدانية المادية · وكان من دأبي ان أفند آراءه بـــأن أقول له اني اقيس خلوده بمقياس واحد هو أجنحة روحه ، وانه يتعين علي ان أعيش دهورا لا نهاية لها لكي أنجز عملية القياس تلك على نحو كامل · وعندئذ كان من دأبه ان يضحك ، وتنبسط ذراعاه نحوي ، ويناديني : يـــا فيلسوفتي الميتافيزيقية الحلوة ! ويفارق الارهاق عينيه ، ويتدفق نحوهمـــا ضياء الحب السعيد الذي كان في ذات نفسه افصاحا جديدا وكافيـــا عن خلـــوده ·

وكان من دأبه أيضا ان يدعوني « يا ثنائيتي ! » ويشرح كيـــف كـــان الفيلسوف « كانت » ، بواسطة العقل المحض ، قد ألغى العقل لكي يعبد الله · وراح يبين وجوه الشبه ، واتهمني بفعل مماثل · وحين اقررت بالتهمـــة

الموجهة الي ، ولكني دافعت عن ذلك الفعل بوصفه عقلانيا الى حد بعيـد ، أحكم ضمي اليه وضحك على نحو لا يحسنه غير واحد من محبـــي اللـه أنفسهم · وكنت نزاعة الى انكار قدرة الوراثة والبيئة على تفسير أصالتـه وعبقريته ، ذاهبة الى أنها لا تقوى على ذلك بأكثر مما تقوى اصبع العلـــم الباردة المتلمسة على التقاط ذلك الجوهر الزئبقي الكامـن في بنيـة الحيـــاة نفسها وعلى تحليله وتصنيفه ·

لقد ذهبت الى القول بأن المكان مظهر من مظاهر الله ، وان الـــروح امتداد لشخصية الله ، وحين دعاني « يا فيلسوفتي الميتافيزيقية الحلـوة ! » دعوته « يا فيلسوفي المادي الخالد ! » وهكذا تبادلنا الحب ، ونعمنا بالسعادة وغفرت له ماديته بسبب من عمله الهائل في العالم ، ذلك العمل الذي كـــان يقوم به من غير ما تفكير بأن يكسب من وراء ذلك أي ربح لروحه ، وبسبب من تواضع نفسه المغرق الذي كان يقيه غائلة الغرور والاعتداد الملوكي بذاته وروحـــه ·

ولكنه كان ذا كبرياء · وأنى يكون نسرا ولا تعمر صدره الكبرياء ؟ كانت حجته تقول بأن شعور ذرة الحياة الفانية وكأنها اله أروع من شعور الاله بالالوهية ، ومن هنا مجد ما اعتبره فنائيته وعدم خلوده · وكان مولعا بالاستشهاد بمقاطع من احدى القصائد · والواقع انه لم يطلع قـــط على القصيدة كاملة ، ولقد حاول على غير طائل أن يكتشف ناظمها وأنا اثبـت ههنا هذه المقاطع ، لا لانه احبها فحسب ، بل لانها تلخص التناقض الظاهري الذي كان يلف روحه وتصوره لروحه · اذ كيف يستطيع رجل ذو حماسة واتقاد وشعور بالعظمة شديد أن ينشد الابيات التالية ويظل مجرد تراب فان ، كسرة من قوة عابرة ، شكلا زائلا ؟ واليك الابيات :

« بهجة على بهجة وكسب على كسب
تلك هي الحقوق التي قدرت لي بالولادة
واني لارفع صوتي بتمجيد ايامي اللانهائية
الى حافة الارض المرددة للصدى ·
وعلى الرغم من اني أعاني جميع الميتات التي يستطيع الانسان ان يموتها
الى نهاية الزمان القصوى
فقد شربت كأس الغبطة حتى الثمالة
في كل عصر وبقعـــة ـ
زبد الغرور ، نكهـة القوة ،

حلاوة الانوثـــة !
انا اشرب الحثالة نفسها
فالشراب لذيذ حقا ·
اذ اشرب حتى الحياة واشرب حتى الموت
واتمطق بالاغانـــي
وعندما اموت تلثم تلك الكاس « انا » جديدة !

●●●

« ان الانسان الذي اخرجته من جنة عدن
كان انا ، يا الهي ، كان انا ،
ولسوف اكون هناك عندما تنفجر الارض والهواء
من البحر الى السماء ،
لانها عالمي ، عالمي البهي الزاهي
عالم همومي الاثيرة علي
من اول صيحة خافتة تطلقها الـ « انا » التي ولدت حديثا
الى آلة التعذيب المتمثلة في مخاض المرأة ·

●●●

« ان طوفان دمائي الفتية الضارية المصطخب
لخليق به ، وقد غص بنبضات عرق لم يولد بعد
ومزقته الرغبة في الحياة ،
ان يطفىء نار الدينونـة ·
انا انسان ، انسان ، انسان ، من اللحم الخدر
الى غبار الهدف الارضي
من ظلمة الرحم الحامل الغضة
الى بهاء روحي العارية ·

●●●

« ان الانسان الذي اخرجته من جنة عدن
كان انا ، يا الهي ، كان انا ،
ولسوف اكون هناك عندما تنفجر الارض والهواء
من البحر الى السماء

لانها عالمي ، عالمي البهي الزاهي
عالم بهجتي الاثيرة لدي ،
من اسطع ومضة من ومضات تيار المنطقة القطبية الشمالية
الى غسق ليلة حبي انا . » ٧٦

كان ارنست يرهق نفسه ، دائما ، بالعمل . واذا كان قد احتفظ ، رغم ذلك ، بعافية موفورة فالفضل في هذا لبنيته القوية الرائعة . ولكن حتى تلك البنية لم تستطع ان تذود النظرة المتعبة عن عينيه ، ــ عينيه المتعبتين العزيزتين ! انه لم ينم في أي يوم من الايام أكثر من أربع ساعات ونصف في الليلة الواحدة ، ومع ذلك فما كان ليجد متسعا من الوقت كافيا لاداء كل ما كان يرغب في أدائه من عمل . ولم يكن ليكف قط عن النهوض بعبء نشاطاته كداعية ، وكانت منظمات العمال المتهافتة على دعوته الى القاء المحاضرات في نواديها مضطرة الى انتظار دورها فترة غير يسيرة من الزمان . ثم كانت الحملة الانتخابية . وفي هذا الميدان وحده بذل ارنست من الجهد ما لو وقف رجل كامل وقته لبذل مثله لاعجزه الامر . وبعد « خنق » دور النشر الاشتراكية حرم عائداته الهزيلة . فاذا به في وضع حرج يقتضيه بذل جهد عنيف لكسب رزقه ، ذلك بأنه كان عليه ان يكسب هذا الرزق بالاضافة الى قيامه بأعماله الاخرى كلها . لقد ترجم للمجلات عددا ضخما من المقالات ذات الموضوعات العلمية والفلسفية . فكان اذا ما انقلب الى البيت في موهن متأخر من الليل ، وقد انهكت الحملة الانتخابية قواه ، اكب على الترجمة مواصلا الكدح حتى ساعات الصباح . وفوق هذا كله ، كانت ثمة نزعته النهمة الى الدرس . فقد واصل دراسته حتى يوم وفاته ، وكانت دراساته هذه واسعة الى حد مذهل .

ومع ذلك فقد وجد متسعا من الوقت لكي يمحضني حبه ويجعلني سعيدة . ولكن هذا لم يتم الا من خلال ادماجي حياتي ادماجا كاملا في حياته . لقد تعلمت الاختزال والطبع على الالة الكاتبة ، وامسيت سكرتيرته. وكان يصر على القول اني وفرت عليه بذلك نصف الجهد المطلوب ، وعلى هذا النحو دربت نفسي على فهم عمله . لقد أصبحت اشواقنا interests متبادلة ، ولقد عملنا معا ولعبنا معا .

٧٦ ان ناظم هذه القصيدة سوف يظل مجهولا أبد الدهر . وهذه المقاطع هي الجزء الوحيد الذي وصل الينا منها .

ثم كانت ثمة لحظاتنا العذبة المختلسة في غمرة من عملنا ـ مجرد كلمة ، او لمسة حنان ، او ومضة من ضياء الحب · وكانت لحظاتنا أشد عذوبة بسبب من انها مختلسة · ذلك بأننا عشنا في الاعالي ، حيث كان الهواء مشرقا شديد المضاء ، وحيث كان الكدح من اجل الانسانية ، وحيث كانت الابواب موصدة ابدا في وجه الخسة والانانية · لقد أحببنا الحب ، ولم يشب حبنا قط بأيما شيء أقل من الاسمى والافضل · وانما يبقى من هذا كله حقيقة واحدة : هي أنني لم أخفق · لقد منحته الراحة ـ وما كان أحوجه اليها ، هو الذي عمل بمثل هذا الكدح كله من اجل الاخرين···فتاي الفاني العزيز ذا العينين المتعبتين !

الفصل الثاني عشر

الاسقف

وانما التقيت ، مصادفة ، بالاسقف مورهاوس ، بعد زواجي من أرنست · وعلى أية حال يتعين علي ان اروي الاحداث بتسلسلها الصحيح · وتفصيل ذلك ان الاسقف ، بعد ثورته في مؤتمر الـ I.P.H. ، نزل عند ضغط الاصدقاء ، وهو ذو النفس الرضية الوادعة ، وغادر البلد في اجازة ولكنه رجع أشد عزما من ايما وقت مضى على التبشير برسالة الكنيسة ، وكم كان ذعر رعيته بالغا حين وجدوا أن عظته الاولى كانت شبيهة كل الشبه بالخطبة التي ألقاها في المؤتمر · لقد كرر القول ، في اسهاب كثير وتفصيل مورث للاسى ، ان الكنيسة قد ضلت عن سبيل « السيد » وتعاليمه ، وان شيطان الجشع قد أقيم مقام المسيح ·

وكانت النتيجة أنهم اقتادوه ، طوعا أو كرها ، الى مصح غير حكومي للامراض العقلية ، بينا ظهرت في الصحف أحاديث مشجية عن انهياره العقلي وعن قدسية شخصيته · لقد حبس في المصح وكأنه سجين · ولقد قصدت الى المصح مرات عديدة ، ولكن القيمين على ادارته لم يجيزوا لي الاجتماع به · وهزتني على نحو مروع هذه المأساة المثيرة : رجل عاقل ، سوي ، أشبه بالقديسين يسحق سحقا بأرادة المجتمع الوحشية · ذلك بأن الاسقف كان عاقلا ، طاهر القلب ، نبيل النفس · ولم يكن فيه من عيب ، كما قال أرنست ، غير ان فكرته عن علمي الاحياء والاجتماع كانت خاطئة · وبسبب من هذه الفكرة الخاطئة لم يوفق الى سلوك الطريق الصحيح لتقويم الاوضاع واصلاحها ·

وكان الذي روعني هو عجز الاسقف · كان مقدرا عليه ، اذا ما أصر على اعلان الحقيقة ، كما تجلت له ، أن يقذف به في جناح المجاذيب · وعندئذ لن يكون في ميسوره ان يفعل شيئا · ان ماله ، ومركزه الاجتماعي ، وثقافته لن تقدر كلها على انقاذه · كانت آراؤه تشكل خطرا على المجتمع ، ولم يكن في وسع المجتمع ان يتصور صدور مثل هذه الافكار الخطرة عن عقل سليم · ذلك في ما يبدو لي ، على الاقل ، كان موقف المجتمع من قضية الاسقف مورهاوس ·

ولكن الاسقف ، برغم كياسته وطهارة روحه ، كان ذا مكر عظيم · لقد أدرك الخطر المحدق به ادراكا واضحا · ولقد رأى نفسه عالقا في الشرك ، فحاول ان ينجو منه · وكان في حرمانه المساعدة التي كان في ميسور اصدقائه ، من مثل أبي وارنست ومثلي أنا ، ان يسدوها اليه ما تركه وحيدا في ميدان المعركة · وفي عزلة المصح الاجبارية أبل من دائه · لقد أمسى عاقلا كرة اخرى · ان عينيه ما عادتا تريان رؤى ، وان عقله قد طهر من الوهم القائل بأن الواجب يقتضي المجتمع ان يرعى خراف « السيد » ويغذيها ·

لقد أبل ، كما قلت ، من دائه ، أبل ابلالا كاملا ، ورحبت الصحف ورحبت الكنيسة بعودته في ابتهاج · وذات يوم ، مضيت الى كنيسته ، فاذا بي اجد ان العظة التي القاها من ذلك الضرب نفسه الذي كان يلقيه قبل ان شرعت عيناه تريان رؤى بفترة طويلة · وأصبت بخيبة ، بل أصبت بصدمة نفسية · هل وفق المجتمع ، اذن ، الى اكراهه على الاستسلام ؟ هل كان مورهاوس جبانا ؟ هل أجبر على انكار آرائه السالفة ؟ أو هل كانت المحنة أقسى من ان يقوى على احتمالها فاستسلم في جزع لقوة النظام القائم التي تكتسح كل من يعترض سبيلها ؟

وزرته في بيته الجميل · كان قد تغير الى حد محزن · كان أشد هزالا من ذي قبل ، وكانت تعلو وجهه تجاعيد لم ألمحها فيه قط من قبل · والواقع ان زيارتي قد أحرجته احراجا واضحا · كان يجذب ردنه أثناء الحديث على نحو عصبي · وكانت عيناه قلقتين ، تضطربان ههنا وههناك وفي كل اتجاه رافضتين أن تلتقيا عيني · وبدا وكأن شيئا يشغل باله ، فاذا بحديثه ينقطع بين الفينة والفينة ، واذا به ينتقل من موضوع الى اخر انتقالا فجائيا مذهلا · هل يمكن ان يكون هذا الشخص هو الرجل الرابط الجاش ، الشبيه بالمسيح ، الذي سبق لي ان عرفته بعينين صافيتين شفافتين ونظرة ثابتة غير مضطربة كروحه نفسها ؟ لقد عومل في قسوة ، وحمل على الخضوع

عنوة وترهيبا · كانت روحه بالغة اللطف · وهي لم تكن جبارة الى درجة تمكنها من الصمود في وجه حملات المجتمع المنظمة الخاتلة ·

واستشعرت الاسى يعتصر فؤادي ، يعتصره اعتصارا يمتنع على الوصف · لقد تحدث على نحو غامض ، وكان شديد التوقع لما قد اقوله ، عظيم الخوف منه الى حد جعلني لا املك الجرأة على استجوابه · لقد تكلم عن مرضه بطريقة غير مباشرة ، وتحدثنا في غير اتساق عن الكنيسة ، وعن التعديلات التي أدخلت على الارغن ، وعن الصدقات الصغيرة · وحين فارقته غلب عليه الارتياح الى درجة أغرتني بالضحك لولا ان قلبي كان مفعما بالدموع ·

يا للبطل المسكين ! لو اني عرفت ليس غير ! كان يناضل مثل عملاق ، ولكني لم احزر ذلك · كان يخوض معركته وحيدا ، وحيدا وسط ملايين من اخوانه في الانسانية · لقد مزقه الصراع بين خوفه من مستشفى المجاذيب وبين اخلاصه للحقيقة والخير ، فتشبث في حزم بالحقيقة والخير ، ولكنه كان من التوحد بحيث لم يجرؤ على الثقة حتى بي انا · كان قد تعلم الدرس القاسي الذي القاه المجتمع عليه ، تعلمه على نحو حسن أكثر مما ينبغي ·

ولكني ما لبثت ان عرفت · لقد اختفى الاسقف ذات يوم · ولم يكن قد ابلغ أحدا انه ذاهب الى مكان ما · واذ كرت الايام من غير ان يظهر من جديد لغط الناس بأنه انتحر خلال جنون موقت اصيب به · ولكن هذه الفكرة ما لبثت ان تبددت عندما علم انه كان قد باع ممتلكاته كلها ـ قصره المديني ، وبيته الريفي في مينلو بارك ، ولوحاته ومجموعاته الفنية ، وحتى مكتبته الاثيرة عليه · كان واضحا انه قد تخلص تخلصا كاملا ، وسريا ، من كل شيء قبل تواريه عن الانظار ·

وانما حدث هذا خلال الفترة التي فاجأتنا النكبة فيها فشغلتنا بشؤوننا الخاصة عن كل شيء · ولم نوفق الى التفكير الحق في الاسقف والتساؤل عما كان يفعله الا عندما استقر بنا المقام في بيتنا الجديد · وعندئذ أمسى كل شيء واضحا ، على نحو مفاجيء · كنت قد انطلقت عبر الشارع ، في ساعة مبكرة من احدى الامسيات ، والغسق لما ينقض بعد ، واندفعت الى حانوت جزار لاشتري شيئا من لحم لعشاء ارنست · لقد دعونا وجبة الطعام اليومية الثالثة « عشاء » supper في بيتنا الجديد ·

ولم أكد اغادر حانوت الجزار حتى انبثق من بقالة الزاوية المنتصبة الى جانب ذلك الحانوت رجل ما · واغراني حس بالالفة غريب بأن ارجع

البصر من جديد · ولكن الرجل كان قد استدار وانشأ يمشي مبتعدا عني في سرعة · كان في انحدار كتفيه وفي حاشية الشعر الفضية بين سترته وياقتـه وقبعته الناعمة ما أثار في نفسي ذكريات غامضة · وبدلا من ان اعبر الشارع رحت اعدو خلف الرجل · وأسرعت خطاي ، محاولة ان اطرد الفكرات التي تشكلت في ذهني تشكلا تلقائيا · لا ، ذلك مستحيل · انه لا يمكن ان يكون ·· ليس في هذه الوزرة * الطويلة الساقين الى حد بعيد ، المتهرئة عند الكفل ·

وتمهلت ، وسخرت من نفسي ، وكدت اقلع عن المطاردة · ولكن الشعور بأن هاتين الكتفين وذلك الشعر الفضي ليست غريبة عني ما لبث ان استحوذ علي · فمضيت مسرعة ، كرة اخرى ، في أثر الرجل ، حتى اذا اجتزته القيت نظرة حادة على وجهه ، ثم استدرت على نحو مفاجيء فواجهت ·· واجهت الاسقـــف !

ووقف هو بدوره على نحو مفاجيء ايضا ، وانشأ يلهث · وسقط من يده اليمنى ، على الرصيف ، كيس ورقي ضخم · وتمزق الكيس ، وتواثبت عند قدمي الاسقف وقدمي جمهرة من حبات البطاطا وتدحرجت · ونظر هو الي في دهش وذعر ، ثم بدأ وكأنه قد ذبل · لقد انحدرت كتفاه كآبة وانكسارا ، واطلق زفرة عميقـــة ·

وبسطت نحوه يدي · فصافحني ، ولكن يده كانت دبقة · وتنحنح في ارتباك : وكان في امكاني ان ارى العرق يتفصد من جبينه · كان واضحا ان لقائي به قد روعه ترويعا ·

وغمغم في خفوت :

ـ « حبات البطاطا · انها نفيسة · »

وتعاونا على لم الحبات المتناثرة وأعدناها الى الكيس المتمزق الـــذي حمله الاسقف ، الان ، بعناية بالغة ، تحت ابطه · وحاولت ان اعبر له عن ابتهاجي بلقائه قائلة ان عليه ان يمضي معي الى البيت في الحال ، وأضفت :

ـ « ان ابي سوف يسعد برؤيتك · نحن نسكن على مرمى حجر مـــن هنا ليس غيــر · »

فقـــال :

ـ « لا أستطيع · لقد آن لي ان انصرف · وداعا · »

وأجال الطرف في ما حوله بخوف ، وكأنه كان يخشى ان يكتشف احد وجوده ، وقام بمحاولة للانطلاق ·

---

* Overalls ثوب يلبسه العامل صيانة لثيابه من الاتساخ ·

وقال عندما رآني أسير الى جانبه وادرك اني اعتزم الالتصاق به بعد ان اهتديت اليـه :

ـ « اخبريني أين يقع بيتكم ، ولسوف أزوركم في ما بعد · »

فأجبت في حزم :

ـ لا · يجب ان تجيء الان · »

ونظر الى حبات البطاطا تتدحرج ، او تكاد ، على ذراعه ، والى الرزم الصغيرة الاخرى التي كانت فوق ذراعه الاخرى ·

وقـال :

ـ « ذلك متعذر علي ، حقا · اغفري لي جلافتي · لو عرفت الحقيقة لعذرتنـي · »

وبدا كأنه على وشك ان ينهار ، ولكنه ما لبث ان عاود السيطرة على نفسـه ·

وتابع كلامه قائلا :

ـ « والى ذلك ، فهناك هذا الطعام · انها حالة تثير الاسى ، حالة رهيبه · انها امرأة عجوز · يجب ان امضي اليها في الحال · انها فقيرة الى الطعام · يجب ان امضي في الحال · انت تفهمين ذلك من غير ريب · وبعد اداء هذه المهمة سوف ارجع · اني أعدك بهذا · »

فتطوعت قائلة :

ـ « دعني اذهب معك · هل المكان بعيد ؟؟ »

فقـال :

ـ « على مبعدة مجموعتي ابنية ليس غير · »

وبارشاد من الاسقف عرفت شيئا عن الحياة في جوارنا · انا لـم احسب ، حتى في الحلم ، ان في ذلك الجوار مثل هذه التعاسة وهذا البؤس · وكان مرد ذلك طبعا الى اني لم أعن بمسألة البر والاحسان · ذلك بأني كنت قد اقتنعت بأن أرنست كان على صواب عندما سخر من الاحسان وشبهه بالكمادة توضع على قرحة ··· ازيلوا القرحة واستأصلوها ، ـ ذلك كـان هو العلاج الذي وصفه · اعطوا العامل نتاج يديه · قدموا راتبا تقاعديـا ، كالذي يأخذه الجنود ، الى اولئك الذين يشيخون في كدحهم شيخوخة شريفة وعندئذ لن تبقى ثمة حاجة الى الصدقات والى البر والاحسان · واذ كنـت مقتنعة بهذا فقد كدحت معه في سبيل الثورة ، ولم استنفد طاقتي في العمل على تسكين العلل الاجتماعية التي كانت تنشأ في غير انقطاع عن جور النظـام الاجتماعـي ·

وتبعت الاسقف الى حجرة صغيرة ، لا يزيد طولها على اثني عشر قدما ولا يزيد عرضها على عشرة اقدام ، في احد المنازل الخلفية · وهناك وجدنا امرأة المانية عجوزا ضئيلة الجسم قال الاسقف انها في الرابعة والستين · واخذها الدهش عندما وقع بصرها علي ، ولكنها حيتني بانحناءة تحية عذبة وتابعت خياطتها بنطالا رجاليا كان في حجرها · والى جانبها ، على أرض الحجرة ، كان ركام من البناطيل · واكتشف الاسقف انه لم يكن ثمة لا فحم ولا وقود · فمضى ليشتري شيئا من هذين ·

ورفعت بنطالا وانعمت النظر في عمل المرأة · فقالت هازة رأسها في رفق من غير ان تكف عن درزها القماش :

ـ « ستة سنتات ، يا سيدتي · »

لقد درزت في اناة ، ولكنها لم تنقطع عن الدرز قط · لقد بدا وكأنها مستعبدة لفعل « درز » ·

فسألتها :

ـ « لقاء هذا العمل كله ، أهذا ما يدفعونه ؟ كم يستغرق انجاز البنطال الواحد ؟ »

فأجابت :

ـ « أجل ، هذا ما يدفعونه · ستة بنسات لقاء كل بنطال · والبنطال الواحد تستغرق خياطته ساعتين · »

ثم أضافت في سرعة ، وقد نم وجهها عن انها كانت تخشى ان تورث رب العمل ، بكلامها هذا ، بلاء ما :

ـ « ولكن رب العمل لا يعرف ذلك · انا بطيئة في العمل · فيداي مصابتان بالروماتيزم · الفتيات يعملن بسرعة اعظم بكثير · وهن ينجزن البنطال في نصف المدة التي احتاج انا اليها لانجازه · ان رب العمل رجل شفوق · انه يدعني آخذ الاشغال الى بيتي ، بعد ان امسيت الان طاعنة في السن وبعد ان أمسى ضجيج الماكينة يصدع رأسي · ولولا كرمه هذا اذن لعرفت طعم الجوع ·

« اجل ، ان اللواتي يعملن في الدكان يحصلن على ثمانية بنسات · ولكن ما الذي تستطيع ان تفعله ؟ ليس ثمة اعمال تكفي الفتيات الصغيرات وحدهن· فلا عجب اذا كانت فرص العمل غير متاحة للعجائز · انني في كثير من الاحوال لا أفوز بأكثر من بنطال واحد أخيطه · وفي بعض الاحيان ، كما هي الحال الان ، يعطونني ثمانية بناطيل ويطلبون الى أنجازها قبل ان يهبط الليل · »

وسألتها عن الساعات التي تنفقها في العمل فأجابت قائلة ان ذلك رهن بالمواسم والفصول ·

١٠ ـ « في الصيف حين يكون ضغط الطلبات شديدا أعمل من الخامسة صباحا حتى التاسعة مساء · اما في الشتاء فيكون البرد قارسا جدا ، وتظل اليدان شبه متصلبتين فترة غير يسيرة من ساعات الصباح · ثم يتعين عليك ان تعملي في ساعة متأخرة ـ ان تعملي الى ما بعد منتصف الليل أحيانا ·

« أجل ، لقد كان هذا الصيف صيفا رديئا · انها الازمة · لا ريب في ان الله غاضب · هذا هو اول شغل يعهد الي رب العمل في أدائه منذ اسبوع · صحيح ان المرء لا يستطيع ان يسرف في الاكل عندما لا يكون ثمة عمل · لقد تعودت ذلك · فقد سلخت عمري كله في الخياطة ـ في موطني القديم · وهنا في سان فرانسسكو ··· اجل لقد سلخت في هذا العمل ثلاثا وثلاثين سنة ·

ان الواحدة منا لتعتبر الوضع حسنا اذا استطاعت ان تفوز بما يمكنها من دفع اجرة الغرفة · ان مؤجري رجل شفوق جدا ، ولكنه مضطر الى اخذ الاجرة · هذا عدل · انه لا يطالبني بأكثر من ثلاثة دولارات عن هذه الحجرة · هذا رخيص · ولكن ليس من العسير عليك ان تجدي بين يديك ثلاثة دولارات كاملة كل شهر · »

وكفت عن الكلام ، وهزت برأسها ومضت في درزها ·

واقترحت :

ـ « يتعين عليك ان تصطنعي اشد الحرص في ما يتصل بطريقة انفاق ما تكسبينه · »

فهزت برأسها في توكيد :

ـ « ولكن ما ان تدفع اجرة الغرفة حتى يتحسن الوضع بعض الشيء · صحيح انه ليس لدي حليب امزجه بالقهوة · ولكن في استطاعتي ان أنعم بوجبة طعام في اليوم ، وفي احيان كثيرة بوجبتين · »

قالت قولها هذا الاخير في اعتزاز · كان في كلماتها مسحة من نصر · ولكني لاحظت ، فيما كانت تواصل درزها ، أن الحزن غالب على عينيها العذبتين ، وان الالم باد على ثغرها · وغابت نظراتها ، فسارعت الى جلاء الغشاوة عن ناظريها · لقد اعترضت تلك الغشاوة درزها ·

وأوضحت العجوز :

ـ « لا ، ليس الجوع هو الذي يورث المرء ألما في القلب · ذلك بأن في استطاعة الواحدة منا ان تألف الجوع وتتعوده · واذا كنت أبكي فانما أبكي

من أجل طفلتي · كانت الماكينة هي التي قتلتها : صحيح انها أرهقت نفسها بالعمل ولكنني لا استطيع أن أفهم · لقد كانت ذات بنية قوية ، وكانت غضة الاهاب ، ـ في الاربعين ليس غير · ولقد عملت ثلاثين سنة فحسب · لقد استهلت حياة العمل وهي صبية صغيرة ، هذا صحيح ، ولكن زوجي قضى نحبه · لقد انفجر المرجل في وجهه وهو يعمل في المصنع · وما الذي كان علينا ان نفعله ؟ كانت هي في العاشرة ، ولكنها كانت قوية · بيد أن الماكينة قتلتها · اجل ، قتلتها · قتلتها وكانت ارشق عاملة في الدكان · لقد طالما فكرت في ذلك ، واني لادري · ذلك هو السبب الذي من أجله لا أقوى على العمل في الدكان · ان الماكينة تصدع راسي · فأنا أسمعها تقول على نحو موصول : « لقد قتلتها ! لقد قتلتها ! » وهي تقول ذلك طوال ساعات الليل والنهار · وعندئذ افكر في ابنتي · واصبح عاجزة عن العمل · »

وغامت عيناها من جديد ، فكان عليها ان تمسح هذه الغشاوة قبل ان توفق الى استئناف درزها ·

وسمعت الاسقف يتعثر على السلم ، ففتحت الباب · أي مشهد كان ذلك المشهد ! كان يحمل على ظهره نصف كيس فحم ، وفوقه شيء من نقود · كان بعض غبار الفحم يكسو وجهه ، وكان عرق الاجهاد يتفصد من جسده سيولا · والقى بحمله في زاوية قريبة من المستوقد ، ومسح وجهه بمنديل خشن ضخم مزين بالرسوم · ولم اصدق حواسي الا بشق النفس : الاسقف ، أسود مثل حمال فحم ، وقد ارتدى قميصا قطنيا من قمصان العمال (يعوزه زر عند الحنجرة) ، ووزرة عادية ! لقد كان ذلك هو اغرب الاشياء على الاطلاق : الوزرة ، الوزرة المتهرئة عند الكفل ، المجررة عند العقبين ، المرفوعة بحزام جلدي ضيق حول الخصر كأحزمة العمال ·

وعلى الرغم من ان الاسقف كان ينعم بالدفء فان يدي المرأة العجوز البائستين المتورمتين كانتا قد تشنجتا بالبرد القارس · وقبل ان نفارقها ، كان الاسقف قد اضرم النار ، على حين كنت انا قد قشرت حبات البطاطا ووضعتها على النار ابتغاء سلقها · وقدر لي ان اعلم ، مع الايام ، انه كانت ثمة حالات كثيرة مشابهة لحالتها ، وحالات كثيرة أسوأ ، محجوبة في أعماق البيوت الرهيبة في جوارنا ·

ورجعنا لنجد أرنست وقد ألم به الجزع لتأخري · وبعد ان انحسرت فجاءة اللقاء انحنى الاسقف الى الوراء مستريحا في كرسيه ، ومد رجليه المكسوتين بالوزرة ، وتنفس الصعداء · كنا نحن اول من التقاهم من

أصدقائه القدماء منذ اختفائه ، ـ كذلك قال لنا · ولا ريب في انه عانى ، خلال الاسابيع التي تصرمت منذ ذلك الاختفاء قسوة الوحدة الى حد بعيد · لقد حدثنا بأشياء كثيرة ، ولكن أكثر ما حدثنا به كان الابتهاج الذي غمر قلبه وهو ينفذ وصايا المسيح ·

قال :

ـ « ذلك بأني أقوم الان ، حقا ، باطعام خرافه · ولقد تلقيت درسا عظيما · اننا لا نستطيع ان نسدي الى الروح عونا ما ، الا اذا بدأنا بأشباع المعدة · وخراف المسيح يجب ان تغذى بالخبز ، والزبدة ، والبطاطا ، واللحم، وبعد ذلك ـ وبعد ذلك فقط ـ تصبح الارواح مستعدة لضرب من التغذية أسمى وأرفع · »

وأكل في شهية بالغة من العشاء الذي طهوته · واحسب انه لم يأكل على مائدتنا بمثل هذه الشهية قط من قبل ، في الايام الخالية · وتحدثنا في ذلك ، فقال انه لم يكن في ايما يوم مضى على مثل العافية التي يتمتع بها الان ·

ـ « انا امشي الان على قدمي دائما ·· » قال ذلك وشاع الدم في وجنتيه اذ فكر في الايام التي الف فيها امتطاء متن عربته ، وكأن ذلك كان خطيئة خطيرة لا سبيل الى محوها ·

ثم اضاف في سرعة :

ـ « ان صحتي هي الان خير مما كانت · واني لسعيد جدا ـ سعيد ، في الواقع ، اقصى ما تكون السعادة · لقد امسيت ، اخر الامر ، روحا مكرسة لخدمة خراف « السيد » · »

ومع ذلك فقد كان يغلب على وجهه الم سرمدي ، الم العالم الذي كان قد جعله الان عالمه · كانت عيناه قد انفتحتا على الحياة في حالتها الطبيعية غير المصنوعة ، ولقد كانت حياة تختلف عن تلك التي عرفها في الكتب المطبوعة المرصوفة على رفوف مكتبته ·

وقال مخاطبا ارنست مباشرة :

ـ « وانك انت المسؤول عن هذا كله · ايها الفتى · »

واضطرب ارنست وارتبك ·

وتلجلج قائلا :

ـ « لـ ··· لـ ··· لقد حذرتك · »

فاجابه الاسقف :

ـ « لا ، لقد اسأت فهمي · انا لم اقصد بذلك الى التوبيخ بل الى

الاقرار بالفضل • لقد أردت ان اشكرك لانك دللتني على الطريق • فقد خرجت بي من النظريات حول الحياة الى الحياة نفسها • ونزعت الاقنعة عن ضروب الزيف الاجتماعي • لقد كنت انت ضياء في ظلمتي ، ولكني انـــا الان ، أرى الضياء • وأنا سعيد جدا • ولكن ••• »

وتردد والالم يعتصر فؤاده ، والجزع يعصف بعينيه • ثم أضــاف :

ـ « ولكن هذا الاضطهاد ؟ •• أنا لا أؤذي أحدا • لماذا لا يدعونني وشأني ؟ اني لا ابالي بالاضطهاد نفسه ، لا ، ولكني اشكو طبيعة هـــذا الاضطهاد • كان جديرا بي ان لا ابالي لو أنهم قطعوا لحمي بالضرب المبرح ، او احرقوني على الخازوق ، او صلبوني ناكس الرأس • ولكن مستشفى الامراض العقلية هو الذي يروعني • حسبك ان تتصور ذلك ! تصورني أنا ـ في مستشفى من مستشفيات المجاذيب • انه شيء تتقزز النفس منه • وان يفرض علي ان امضي بقية عمري وسط مشاهد الجنون الصارخ ! لا ! هـذا كثير ! هذا كثير ! »

شيء يدعو الى الرثاء حقا • لقد ارتعشت يداه ، وارتعد جسده كلــه وأجفل من الصورة التي كان قد تمثلها في خياله • ولكنه ما لبث ان فزع الى الهدوء ، واجتزأ بالقول :

ـ « اغفري لي ما بدر مني • تلك هي أعصابي المرهقة • واذا كـان العمل في خدمة السيد المسيح يقود الى هناك فلا بأس • من انا حتى اشكـو وأتظلــم ؟ »

وشعرت فيما كنت أنظر اليه وكأني أصيح بصوت جهير :

ـ « أيها الاسقف العظيم ! أيها البطل ! يا بطل الله ! »

ومرت ساعات الليل في تثاقل ، وبمرورها عرفنا طرفا اخر من قصـة الاسقـف •

قـــال :

ـ « لقد بعت منزلي ـ أو على الاصح منازلي ـ وسائر ممتلكاتـــي الاخرى • وكنت أعلم اني مضطر الى القيام بذلك في السر ، والا سلبوني كل شيء • ولو قد فعلوا اذن لكان ذلك فظيعا • اني كثيرا ما لا أقضي العجب في هذه الايام كلما فكرت في مقدار البطاطا الهائل ـ أو في مقدار الخبز ، أو اللحم ، او الفحم ، او الوقود ـ الذي تستطيع مئتان او ثلاثمئة من الدولارات ان تشتريـــه • »

والتفت نحو ارنست وقال :

ـ « انت على صواب ، أيها الفتى ۰ ان العمال لينالون اجورا منخفضة الى حد رهيب ۰ أنا ، مثلا ، لم أقم في حياتي بأيما عمل غير السعي الى انتزاع اعجاب الفريسيين ببلاغتي ـ وكنت أحسب ، يومذاك ، اني أبشر برسالة المسيح ـ ومع ذلك فقد كانت ثروتي تقدر بنصف ميلون دولار ۰ أنا لم أعرف قط ما الذي تعنيه ثروة مقدارها نصف مليون دولار الا بعد ان ادركت مقدار ما استطيع ان تشتريه من بطاطا وخبز وزبدة ولحم ۰ وعندئذ ادركت شيئا اخر ۰ أدركت ان كل هاتيك المقادير من البطاطا والخبز والزبدة واللحم كانت ملكي وانني لم أبذل ايما جهد في صنعها ۰ ثم اتضح لي ان شخصا اخر اشتغل وصنعها ولكنها سلبت منه ۰ وحين هبطت الى دنيا الفقراء وجدت اولئك الذين سلبوا ثمرات عملهم ، والذين كانوا جائعين بائسين لانهم سلبوا هذه الثمرات ۰ »

ورددناه الى قصته ، فقال :

« ـ المال ؟ لقد أودعته مصارف مختلفة باسماء مختلفة ۰ انهم لا يستطيعون ان ينتزعوه مني ابد الدهر ، لانهم لن يعثروا عليه ابد الدهر ۰ ويا ما اطيب ذلك المال ! انه قادر على شراء مقادير هائلة من الطعام ۰ أنا لم اعرف قط من قبل لاي شيء يصلح المال ۰ »

فقال ارنست في شيء من كآبة :

ـ « ليتنا نفوز بشيء منه للنهوض بأعباء الدعاية ۰ ان في ميسوره ان يؤدي الينا خدمة جليلة ۰ »

فقال الاسقف :

ـ « هل تظن ذلك ؟ أنا لا أؤمن بالسياسة ايمانا كبيرا ۰ بل اني ليخيل الي أني لا أفهم السياسة ۰ »

وكان ارنست دقيقا في أمثال هذه الامور ۰ فلم يكرر اقتراحه ، برغم انه كان يعلم أحسن العلم في أي مأزق حرج وجد الحزب الاشتراكي نفسه بسبب من حاجته الى المال ۰

وتابع الاسقف كلامه :

ـ « انا أبيت في بعض الفنادق الرخيصة ۰ ولكني خائف ، وهذا ما يجعلني لا اطيل المكث في مكان واحد ۰ والى هذا ، فقد استأجرت غرفتين في بيوت العمال في حيين مختلفين من احياء المدينة ۰ وهذا اسراف عظيم من غير ريب ، ولكنه ضروري ۰ وانا اعوض عن هذا الاسراف على نحو جزئي ، بأن أتولى طهو طعامي بنفسي ، وان كنت في بعض الاحيان اشتري من بعض

المقاهي شيئا اتبلغ به · ولقد اهتديت الى اكتشاف · ان أطباق التايمايل ٧٧ صالحة جدا حين يغدو الهواء باردا في ساعات الليل المتأخرة · ولا عيب فيها غير أنها غالية الثمن · ولكني اكتشفت مكانا استطيع ان احصل فيه على ثلاثة اطباق منه لقاء عشرة سنتات ليس غير · انها لا تضاهي اطباق المطاعم الاخرى جودة وحسن اعداد ولكنها توقع في الجسد دفئا عظيما ·

« وهكذا وجدت اخر الامر عملي في هذا العالم ، بفضلك انت ، أيها الفتى · انه عمل السيد المسيح · »

ونظر الي ، وبرقت عيناه ، ثم أردف :

ـ « لقد أمسكت بي وانا اطعم خرافه · ولا ريب في انكم كلكم سوف تصونون سري · »

لقد تحدث في قدر غير يسير من اللامبالاة ، ولكن خوفا حقيقيا كان يكمن وراء كلامه · ولقد وعد بأن يعود لزيارتنا كرة اخرى · ولكننا قرأنا في الصحف ، بعد اسبوع واحد ، أنباء محزنة عن الاسقف مورهاوس الذي سيق الى مستشفى المجاذيب في « نابا » والذي لما ينقطع الرجاء من شفائه بعد · وعبثا حاولنا ان نجتمع اليه ، وأن نطلب الى السلطات اعادة النظر في قضيته أو دراستها من جديد · ليس هذا فحسب ، بل اننا لم نوفق الى معرفة أيما شيء عنه ، ما خلا ما كررته بعض البيانات من أنه لا يزال ثمة أمل في شفائه ·

وقال ارنست بمرارة :

ـ « لقد طلب المسيح الى الشاب الثري ان يبيع كل ما يملك · ولقد صدع الاسقف بما أمر به المسيح فانتهى به ذلك الى مستشفى المجاذيب · لقد تغيرت الدنيا كثيرا منذ عهد المسيح · ان الثري الذي يهب الاخرين ، في هذه الايام ، كل ما يملك امسى يعتبر اليوم رجلا مخبولا · لا مجال للجدل او المناقشة · لقد أصدر المجتمع حكمه · »

---

٧٧ التايمايل Tamale أكلة مكسيكية كثيرا ما يشار اليها في آداب ذلك العصر · من المفروض ان مقادير وافرة من التوابل كانت تصطنع في اعدادها · ولم تصلنا اي وصفة لطريقة صنع هذا « الطبق » ·

الفصل الثالث عشر

الاضراب العام

وانتخب ارنست ، طبعا ، عضوا في الكونغرس خلال التطور المفاجيء الذي طرأ على الرأي العام ، لمصلحة الاشتراكية ، في خريف عام ١٩١٢ · ومن اقوى العوامل ، التي ساعدت على تضخيم مجموع الاصوات الاشتراكية ، القضاء على هيرست (٧٨) · ولم يكن ذلك أمرا عسيرا على البلوتوقراطية · كان هيرست ينفق ثمانية عشر مليون دولار ، كل عام ، في سبيل اصدار صحفه المختلفة ، وكان يسترد هذا المبلغ وزيادة من ابناء الطبقة الوسطى لقاء الاعلانات المنشورة في تلك الصحف · كانت الطبقة الوسطى هي مصدر

---

٧٨ وليام راندولف هيرست Hearst ، مليونير كاليفورني شاب وفق الى ان يصبح اقوى مالك للصحف في الولايات المتحدة · كانت صحفه تصدر في جميع المدن الكبرى ، وكانت تفوز برضا الطبقة الوسطى السائرة نحو الانحلال ورضا البروليتاريا ايضا · وكان أنصاره من الكثرة بحيث استطاع الاستيلاء على صدفة الحزب الديموقراطي القديم الفارغة · لقد احتل مركزا شاذا ، فكان يدعو الى اشتراكية مخصية مردفة بضرب غريب من الرأسمالية البورجوازية الصغيرة· كان ذلك أشبه بمحاولة مزج الماء بالزيت ، ولم يكن ثمة ايما أمل له في النجاح ، على الرغم من انه كان خلال مدة قصيرة ، مصدر خوف جدي بالنسبة الى البلوترقراطيين ·

قوته كلها · اما التروستات فلم تكن لتعلن · (٧٩) وللقضاء على هيرست لم يكن القوم في حاجة الى اكثر من حبس الاعلانات عنه ·

ولم تكن الطبقة الوسطى قد ابيدت كلها بعد · لقد بقي هيكلها العظمي المكين · ولكنها كانت مجردة من القوة والسلطان · كان الذين عمروا من الصناعيين الصغار وأرباب الاعمال الصغار خاضعين خضوعا كاملا للبلوتوقراطية فهم يحيون تحت رحمتها · لم تكن لهم شخصية اقتصادية او سياسية مستقلة · فما ان اصدرت البلوتوقراطية امرها حتى حبسوا اعلاناتهم عن صحف هيرست ·

وخاض هيرست معركة مجيدة · لقد واصل اصدار صحفه متحملا خسارة شهرية مقدارها مليون دولار ونصف · وواصل نشر الاعلانات من غير ان يطالب اصحابها بأي تعويض · وكرة اخرى اصدرت البلوتوقراطية أمرها ، فلم يكن من الصناعيين الا ان أمطروه بالمذكرات يطلبون اليه فيها ان يكف عن نشر اعلاناتهم القديمة · وأصر هيرست على انتهاج الخطة التي رسمها لنفسه · ووجه اليه الانذار اثر الانذار · ومع ذلك واصل هيرست نشر الاعلانات · وحكم عليه بالسجن ستة اشهر لاستخفافه بالسلطة القضائية وتمرده على انذاراتها ، في حين دفع الى هاوية الافلاس من طريق دعاوى العطل والضرر العديدة التي اقيمت عليه · ولم يبق ثمة امل له في الحياة · فقد لفظت البلوتوقراطية حكمها عليه · وكانت المحاكم العوبة في يدي البلوتوقراطية · فهي مستعدة لتنفيذ ذلك الحكم · ومع انهيار هيرست ، انهار ايضا الحزب الديموقراطي الذي كان ذلك الصحفي قد سيطر عليه منذ فترة قصيرة ·

وبتهشيم هيرست والحزب الديموقراطي لم يبق أمام أنصاره غير سبيلين اثنين : أن ينضموا الى الحزب الاشتراكي او ان ينضموا الى الحزب الجمهوري · وهكذا جنينا نحن الاشتراكيين ثمرات اشتراكية هيرست الزائفة · ذلك بأن الكثرة الكاثرة من اتباعه انضمت الينا :

وكان خليقا بنزع الملكية عن الفلاحين ، ذلك النزع الذي تم في تلك الفترة ، ان يعمل هو الاخر على تضخيم الاصوات التي احرزناها في

---

٧٩ كانت نفقات الاعلان هائلة في تلك الايام التي اختلط فيها الحابل بالنابل · وكان الرأسماليون الصغار هم وحدهم الآخذين بأسباب التنافس ، ومن اجل ذلك كانوا يعلنون في الصحف وغيرها · واذ لم يكن ثمة ، حيث توجد التروست ، ايما منافسة فلا عجب اذا ما وجدت التروستات نفسها غير محتاجة الى الاعلان ·

الانتخابات لولا ظهور حزب غرانيج ظهورا قصيرا عابثا ٠ وناضل ارنست والزعماء الاشتراكيون نضالا ضاريا من اجل اكتساب المزارعين الى صفهم ، ولكن القضاء على الصحف الاشتراكية وعلى دور النشر الاشتراكية كان عقبة ضخمة حالت دون تحقيق ذلك ، على حين لم تكن الدعاية الشفهية قد رفعت الى مستوى الكمال بعد ٠ وهذا ما مكن سياسيين مثل مستر كالفين ــ سياسيين كانوا هم انفسهم مزارعين نزعت منهم ملكية الارض منذ عهد بعيد ــ من اكتساب المزارعين الى صفهم ، ومن القاء قوتهم السياسية في حملة لا طائل تحتها ٠

لقد قال ارنست ذات يوم وهو يضحك في ضراوة :

ــ « يا للمزارعين المساكين ! ان التروستات لتستبد بهم طالعا ونازلا ٠ »

ولقد كان ذلك هو الوضع حقا ٠ ذلك ان التروستات السبع الكبرى ، المتعاونة في حقل العمل ، كانت قد انشأت من فوائضها الهائلة صندوقا موحدا وكونت تروستا زراعية ٠ فمنذ عهد بعيد واصحاب السكك الحديدية ، المسيطرون على اسعار النقل ، واصحاب المصارف ومقامرو البورصة المسيطرون على اسعار الاسهم يطعنون المزارعين ويهبطون بهم الى درك المدين المرهق ٠ وكان اصحاب المصارف والمهيمنون على جميع التروستات قد سلفوا المزارعين ايضا مقادير هائلة من المال ٠ وهكذا وقع المزارعون في الشرك ، ولم يبق للقضاء عليهم غير جذب خيوط الشبكة واحكام شدها ٠ وهذا ما بدأت التروست الزراعية تفعله ٠

كانت ازمة عام ١٩١٢ قد ادت الى تدهور اسعار المنتجات الزراعية تدهورا رهيبا ٠ فقد ضغطت الاسعار الان ، على نحو متعمد ، حتى الافلاس ، في حين قصمت السكك الحديدية ، بأسعارها الاغتصابية ، ظهر المزارع ٠ وهكذا اضطر المزارعون الى ان يستدينوا اكثر فأكثر ، بينا حيل بينهم وبين تسديد قروضهم القديمة ٠ ثم تلا ذلك نزع ملكية الرهون على نطاق واسع واكراه المدينين على دفع الكمبيالات المستحقة ، عنوة ٠ عندئذ تخلى المزارعون عن الارض للتروست الزراعية ٠ وهل كان لديهم ما يفعلونه غير ذلك ؟ حتى اذا تخلوا عن الارض التحقوا في خدمة التروست ، فاذا بهم يصبحون مدراء ، ونظارا ، وملاحظي عمال ، وعمالا عاديين ٠ لقد عملوا لقاء رواتب ، لقد اصبحوا عبيدا أقنانا موثقين الى الارض بأجر يقيمون به اودهم ٠ لم يكن في ميسورهم ان يفارقوا سادتهم ، لان سادتهم كانوا يؤلفون البلوتوقراطية ٠ ولم يكن في ميسورهم ان يقصدوا الى المدن ، لان البلوتوقراطية

كانت هي صاحبة الكلمة العليا هناك ، ايضا · كان امامهم سبيل واحدة ليس غير : ــ ان يرحلوا عن الارض ويصبحوا متشردين · وبكلمة ، لم يكن أمامهم غير ان يجوعوا · وههنا ايضا منوا بخيبة ، ذلك بأن السلطات سنت قوانين صارمة ضد التشرد ووضعتها موضع التنفيذ في قسوة بالغة ·

ولسنا في حاجة الى القول ان بعض المزارعين ، بل ان جماعات كاملة من المزارعين ، وفقوا ههنا وههناك الى الابقاء على اراضيهم وصيانتها من شرور نزع الملكية بفضل احوال استثنائية خاصة · ولكنهم كانوا قلة متناثرة ، فلم يقدموا ولم يؤخروا · وعلى اية حال فان البلوتوقراطية ما لبثت ان جمعت شتاتهم ، في السنة التالية ، وقضت عليهم ٨٠ ·

وهكذا ذهب الزعماء الاشتراكيون ما عدا ارنست ، خريف عام ١٩١٢ ، الى الجزم بأن نهاية الرأسمالية قد دنت · والحق ان الازمة الاقتصادية الحادة وما نشأ عنها من بطالة رهيبة ، والضربة القاضية التي انزلت بالمزارعين وبالطبقة الوسطى ، والهزيمة الحاسمة التي منيت بها اتحادات العمال في كل ميدان ··· كل اولئك يبرر اعتقاد الاشتراكيين بأن نجم الرأسمالية قد آذن بالافول ، وطرحهم القفاز في وجهها تحديا واستخفافا ·

---

٨٠ ان القضاء على طبقة مالكي الارض الصغار في العهد الروماني لم يتم بمثل السرعة التي تم بها القضاء على المزارعين وصغار الرأسماليين الاميركيين · لقد كان في القرن العشرين زخم momentum ، على حين لم يكن في رومة القديمة شيء من ذلك تقريبا ·

والواقع ان عددا من المزارعين ، الذين غلبت عليهم شهوة الى التربة مسعورة والذين ارادوا ان يظهروا ان بامكانهم ان ينقلبوا عند الحاجة الى بهائم ضارية ، حاولوا ان يتخلصوا من نزع الملكية بالامتناع عن كل تعامل سوقي · لقد استنكفوا عن بيع ايما شيء ، وعن شراء ايما شيء · وانشأوا في ما بينهم نظاما بدائيا من نظم المقايضة · لقد تحملوا في ذلك حرمانا رهيبا ومشاق مخيفة ، ولكنهم واصلوا نهجهم هذا في عناد ، وامسى صنيعهم حركة ذات قوة وبأس · والحق ان الطريقة التي حطموا بها كانت فريدة ومنطقية وبسيطة · ذلك بأن البلوتوقراطية عمدت ، بفضل سيطرتها على الحكومة ، الى زيادة الضرائب · فكان ذلك نقطة الضعف في درعهم · لقد أعوزهم المال ، بعد ان امتنعوا عن البيع والشراء ، ومن هنا اضطروا آخر الامر الى بيع اراضيهم لكي يدفعوا الضرائب الى الحكومة ·

وأسفا ! لشد ما استهان الاشتراكيون بقوة العدو ! لقد اعلنوا ، في كل مكان انهم لا بد فائزون في الانتخابات ، وراحوا يشرحون الوضع في عبارات لا لبس فيها · وقبلت البلوتوقراطيــة التحــدي · فالبلوتوقراطيــة ، بحسن تقديرها الاشياء ووزنهـــا لها ، هــي التــي هزمتنا من طريق تشتيت قوتنا وتفتيتها · والبلوتوقراطية هي التي اطلقت ، بواسطة عملائهـا السريين ، الصيحة القائلة بأن الاشتراكية ملحدة مدنسة للمقدسات · والبلوتوقراطيــة هي التي دفعت بالكنائس ، والكنيسة الكاثوليكية خاصة ، الى الميدان ، وسلبتنا جزءا من اصوات العمال الانتخابية · والبلوتوقراطية هي التي شجعت بواسطة عملائها السريين طبعا ، حزب غراينج ومدت خيوطه حتى الى المدن والــى اوساط الطبقة الوسطى المحتضرة ·

وايا ما كان فقد تحول الرأي العام في اتجاه الاشتراكية فعــلا · ولكن بدلا من ان ننعم بنصر كاسح يعطينا أغلبية كبيرة في جميع المجالس التشريعية، وجدنا انفسنا اقلية في تلك المجالس · صحيــح اننا رفعنا الــى الكونغرس خمسين نائبا ، ولكن ما ان استوى هؤلاء على مقاعد الكونغرس ، ربيـــع عام ١٩١٣ ، حتى وجدوا انفسهم مجردين من كل قوة مهما تكن · ومع ذلك فقد كانوا احسن حظا من نواب حزب غراينج ، الذين سيطروا على دزينـــة من حكومات الولايات ، والذين لم يجز لهم ــ في الربيع ــ ان يتولوا مقاليـد المناصب التي انتزعوها · لقد ابى محتلــو تلــك المناصب ان يتخلوا عنها ، وكانت المحاكم في ايدي الاوليغاركية · ولكني تخطيت الاحداث الان ، اكثـر مما ينبغي · وان علي ان اتحدث قبل ذلك عن الايام المثيرة التي شهدناهـــا في شتاء عام ١٩١٢ ·

كانت الازمة التي عرفتها البلاد قد سببت نقصا هائلا في الاستهلاك · ذلك بأن العمال ، وقد طردوا من المصانع ، لم يكن لديهم اجور يشترون بهـــا سلعا ما · فكان من نتيجة هذا ان وجدت البلوتوقراطية بين يديها فائضـــا اعظم · وهذا الفائض تعين على البلوتوقراطية ان تتخلص منه بتصديره الى خارج الحدود · وبسبب من خططها الهائلة ، احتاجت البلوتوقراطية الــى مال · وبسبب من الجهود الجبارة التي بذلتها للتخلص من ذلك الفائض في السوق العالمية ارتطمت بألمانيا · وكانت الارتطامات الاقتصادية تتبع عــادة بالحروب ، ولم يكن ارتطام البلوتوقراطية هذا بألمانيا شذوذا عن القاعـــدة · فقد اخذ اله الحرب الالمانــي الكبير اهبته للقتال ، وشرعت الولايات المتحــدة تستعد هي الاخرى للمعركـــة ·

وخيمت سحابة الحرب داكنة مشؤومة · واعد المسرح لكارثة عالميـة ، فقد كان في كل صقع من اصقاع العالـم ازمات اقتصاديـة ، واضطرابات عمالية ، وطبقات وسطى محتضرة ، وجيوش من العاطلين عن العمل ، وتضارب بين المصالح الاقتصادية في السوق العالمية ، وغمغمات ودمدمات عن الثورة الاشتراكيـــة (٨١) ·

لقد ارادت الاوليغاركية الحرب ضد المانيا · وارادت الحرب لدزينة من الاسباب · ففي خداع الاحداث التي يجدر بمثل هذه الحرب ان تسببه ، وفي اعادة توزيع أوراق اللعب الدولية وعقد مجموعة من المعاهدات والمحالفـات الجديدة كانت الاوليغاركية تجد مجال الربح واسعا امامها · والى هـذا ، فخليق بالحرب ان تستهلك كثيرا من الفوائض الوطنية ، وتخفض جيوش العاطلين عن العمل التي كانت تهدد بلدان العالم كافة ، وتعطي الاوليغاركية

---

٨١ ظلت هذه الغمغمات والدمدمات تسمع فترة طويلة من الزمن · ومنذ عام ١٩٠٦ للميلاد نطـق اللورد آيفبـوري ، وهو انكليـزي ، بالكلمـات التاليـة في مجلس اللوردات : « ان الاضرابات التي تسود اوروبة ، وانتشار الاشتراكيـة ، وظهور الفوضوية المشؤوم هي انذارات الى الحكومات والى الطبقات الحاكمة بأن حالـة الطبقة العمالية في اوروبة أمست لا تطاق ، وانه اذا كان لنا ان نجتنب الثـــورة فيتعين علينا ان نتخذ بعض الخطوات من اجل زيادة الاجور ، وخفض ساعات العمل ، وتنزيل أسعار مواد المعيشة الضرورية · » وتعليقا على خطاب اللورد آيفبوري قالت صحيفة « وول ستريت جورنال » ـ وهي صحيفة كان ينشرهــا فريق من المقامرين بالاسهم المالية ـ ما نصه : « هذه الكلمات انما نطق بهــا لسان رجل ارستوقراطي وعضو في اكثر المجالس التشريعية محافظة في أوروبـة كلها · وهذا ما يزيدها قيمة وخطرا · انها تنطوي على اقتصاد سياسي اكثـــر نفاسة من ذلك الذي ينتظر المرء ان يقع عليه في معظم الكتب · انها تبدو وكأنها انذار · فحذار ، يا رجال وزارتي الحرب والبحرية ، حذار ! » ·

وفي الوقت نفسهكتب سيدني بروكـز ، في اميركـة ، مقالا في مجلـة « هاربرز ويكلي » قال فيه : « انكم لن تسمعوا في واشنطون ، أيما ذكر للاشتراكيين ، و أنى لكم ان تسمعوا ؟ ان رجال السياسة هم دائما ، في هذه البلاد ، اخر منيرى مايجري تحت انوفهم · انهم سوف يهزأون بي عندما اتكهن ، وأتكهن بأعظم قدر مـــن الثقة ، ان الاشتراكيين سوف يفوزون ، في الانتخابات الرئاسية القادمة ، بأكثر من مليون صـوت · »

فرصة تتنفس خلالها وتكمل خططها وتضعها موضع التنفيذ · ان حربا كهذه لقادرة على ان تمكن الاوليغاركية من بسط سيطرتها التامة على الســـوق العالمية · ليس هذا فحسب ، بل ان حربا كهذه لتخلق جيشا نظاميا ضخما لا حاجة الى تسريحه ، في حين انها تحل في اذهان الناس شعار « اميركة ضـد المانية » محل شعار « الاشتراكية ضد الاوليغاركية · »

والحق ان الحرب كان خليقا بها ان تفعـل هـذه الاشياء كلها لـولا الاشتراكيون · فقد عقد اجتماع سري للزعماء الغربيين في بيتنا الصغيـــر المؤلف من اربع غرف في شارع بيل · وهناك درس الزعماء الموقف الـــذي يتعين على الاشتراكيين ان يتخذوه · ولم تكن هذه هي اول مرة دسنا فيهـا الحرب بقدمنا (٨٢) ، ولكنها كانت اول مرة فعلنا فيها ذلك في الولايات المتحدة· وبعد اجتماعنا السري اتصلنا بالمنظمة الوطنية ، وسرعان ما كانت برقياتنا المرسلة بالشيفرة تتبادل ، عبر الاطلسي ، بيننا وبين المكتب الدولي ·

كان الاشتراكيون الالمان مستعدين للتعاون معنا · وكان عددهم يزيـد على خمسة ملايين يحتل كثير منهم مناصب في الجيش النظامي · وكانوا ، الى ذلك ، على صــلات ودية مـــع اتحادات العمـــال · وفي كـــلا البلديـــن اطلق الاشتراكيون تصريحــــات جريئــة ضد الحــرب وهددوا باعــلان الاضراب العام · وفي غضون ذلك اعدوا العدة للاضراب العام · ليس هذا فحسب ، بل ان الاحزاب الثورية في جميع البلاد اعلنت تعلقها بالمبدأ الاشتراكي ، القائــل بالسلام العالمي ، الذي يتعين على الثوريين صيانته والذود عنه ، ولو اضطرهم ذلك الى التمرد والثورة في الوطن ·

وكان الاضراب العام هو النصر الكبير الاوحد الذي احرزناه نحـن الاشتراكيين الاميركيين · ففي اليوم الرابع من كانـــون الاول (ديسمبـــر)

---

٨٢ في مطلع القرن العشرين صاغت منظمة الاشتراكيين الدولية ، آخر الامر ، وبعـد اختمار طويل ، موقفها من الحرب · وهذا الموقف يمكن تلخيصه بالكلمات التالية : « لماذا يقاتل عمال بلد ما عمال بلد اخر لمنفعة سادتهم الرأسماليين ؟ »

وفي ٢١ نوار (مايو) من عام ١٩٠٥ عندما كادت الحرب ان تنشب بين النمسا وايطاليا ، عقد اشتراكيو ايطاليا والنمسا وهنغاريـا مؤتمـرا في تريستا وهددوا بأعلان اضراب عمالي عام في كل من البلدين اذا ما اعلنت الحرب · وقد تكرر ذلك في السنة التالية ، عندما اوشكت « المسألة المراكشية » أن تورط فرنسة والمانية وانكلترة في حرب ضروس ·

سحب السفير الاميركي من العاصمة الالمانية · وتلك الليلة شن اسطول الماني هجوما على هونولولو فأغرق ثلاثة طرادات اميركية وزورقا مسلحا من زوارق خفر السواحل ، وأطلق نيران مدافعه على المدينة · وفي اليوم التالي اعلنت كل من المانية والولايات المتحدة الحرب ، ولم تنقض على ذلك ساعة واحـــدة حتى دعا الاشتراكيون الى الاضراب العام في كلا البلدين ·

وللمرة الاولى واجه الـه الحرب الالماني رجالا من ابناء امبراطوريته كانوا هم روح تلك الامبراطورية المسيرة · انه ما كان قادرا ، بدونهم علــى الاحتفاظ بأمبراطوريته سليمة قوية · وكان وجه الجدة في الموقف كامنـــا في ان ثورتهم هذه كانت سلبية · انهم لم يقاتلوا · انهم لم يفعلــوا شيئا · وباحجامهم عن القيام بأي عمل اوثقوا يدي الـه الحرب الالماني بوثـــاق متين · وهنا وجد هذا الالـه فرصته الذهبية التي طالما تمناها لاطلاق « كلاب حربه » على جماهير شعبه الثائر · ولكنه حرم هذه المتعة · لقد عجز عــن اطلاق « كلاب حربه » ، وعجز عن تعبئة جيشه لخوض غمار الحرب · ليس هذا فحسب ، بل لقد عجز ايضا عن معاقبة رعاياه المتمردين · ان قطـــارا حديديا واحدا لم يجر ، وان رسالة برقية واحدة لم تطير ، ذلك بأن عمـــال التلغراف والسكة الحديدية كفوا عن العمل ، متضامنين مــع سائــر ابنــاء الشعب ·

وما حدث في المانية حدث في الولايات المتحدة ايضا · كانــت حركـــة العمال المنظمة قد اعتبــرت اخر الامر ، بتجاربهــا القاسيـــة · فبعـــد ان هزمـــت هزيمـــة حاسمـــة في ميدانها المختـــار هجرت ذلــك الميدان ، ووجهت وجههــا شطــر ميدان الاشتراكيين السياسي ، ذلــك بــأن الاضــراب العام كان اضرابــا سياسيا · والــى هذا فقد كانت الضربــة التــي وجهت الـــى حركة العمال المنظمة قاسية الى درجة جعلتها تتخلى عــن كل حذر واحتياط · لقد شاركت في الاضراب العــام بسائق من القنوط ليس غير · وهكــذا راح العمال يطرحون ادواتهم ويغادرون اعمالهم بالملايين · وكان موقف الميكانيكيين موضع الاعجاب والتقدير بخاصة · كان رؤساؤهم قساة متعطشين الى الدم ، وكـــانت منظمتهم قد سحقت على نحو ظاهري ، ومع ذلك فقد توافدوا علينا هم وحلفاؤهم في الصناعات المعدنية ·

وحتى العمال العاديون وسائر العمال غير المنضوين تحت لواء منظمات بعينها اعلنوا الاضراب · كان الاضراب قد كبل كل شيء بحيث عجز كـــل امرىء عن العمل · والى هــذا ، فقد اثبتت النساء ، انهــن اقــوى انصار

الاضراب والمروجين له · لقد قاومن الحرب في ضراوة ، انهن لم يـــردن ان يندفع أزواجهــن الى ساحــة المــوت · ثم ان فكرة الاضراب العام استبدت بعواطف الناس · لقد لمست حسن الدعاية عندهم · كانت الفكرة معديــة · فاذا بالاطفال يضربون في المدارس كافة ، واذا بذلك الفريق من المعلمين الذين آثروا مواصلة العمل يرجعون من حيث أتوا بعد ان وجدوا أنفسهم يدخلــون على حجرات تدريس مهجورة · لقد اتخذ الاضراب العام شكل نزهة وطنيــة كبرى · وراقت فكرة تضامن العمال ، التي اثبتت صحتها على هذا النحــو ، لخيال الناس جميعا · واخيرا لم يكن ثمة خوف من اي خطر ناشىء عن هــذا « المرح » الجماعي الهائل · اذ كيف السبيل الى معاقبــة ايما امــرىء حين يكون كل امرىء مذنبــــا ؟

واصيبت الولايات المتحدة بالشلل · ولم يعرف احد ما الذي كـــان يحدث · لــم يكــن ثمة صحف ، ولا رسائـــل ، ولا برقيــات · وكانت كــل جماعــــة من الناس ، في كــل بلــد او منطقــة ، تحيــا في عزلــة كلية وكأن عشرة آلاف ميل من المجاهل البدائية تفصل مــا بينهــا وبين سائـر العالم · لم يكــن للعالــم ـ من هــذه الناحيــة ـ وجود البتــة · واستمرت هذه الحال اسبوعــــا ·

اننا لم نــدر ، في ســان فرانسسكو ، مــا الذي كان يجري حتى عبر الخليج في اوكلانــد او بيركلـــي · وكان اثــر ذلــك كلــه في نفوس الناس قدريا قابضا للصدر · لقد بدأ وكأن شيئـــا كونيـا cosmic ضخما قد مات · كان نبض البــلاد قد توقف · والحــق ان البــلاد كلهــا كانت قــد ماتــت · لــم يكن ثمة لا عربــات تقرقــر في الطــرق ، ولا صفارات مصانع ، ولا ازيــز كهربــاء في الهــواء ، ولا انطـــلاق سيارات في الشــوارع ، ولا صيحات باعــة الصحــف ـ لــم يكــن ثمة غير اشخاص كانــوا يجتــازون الشارع ، في فترات متباعدة ، وكأنهم أشباح مريبة ، ضاقت صدورهم هــم ايضا ، واحالهم الصمت الى كائنات شبه وهمية ·

وخلال اسبوع الصمت ذاك تلقت الاوليغاركية درسا قاسيا · ولقــــد حفظــت درسها هــذا جيدا · كــان الاضراب العــام انذارا · وكان ينبغي أن لا يحــدث كرة اخرى · ذلك ما ستحرص عليــه الاوليغاركيــة وتسعــى بسبيلـــه ·

وفي ختام الاسبوع عاد عمال التلغراف ، في المانية والولايات المتحدة ، وفقــا لترتيب سابق ، الى اعمالهــم · وبواسطتهم قدم الزعمــاء الاشتراكيون

في كلا البلدين انذارهم الى الحكام · ان على الحكام ان يصدروا امرهم بوقف الحرب · والا فان الاضراب العام سوف يستمر · وسرعان ما توصل الفريقان الى اتفاق · واعلنت الحكومتان وقف الحرب ، واستأنف شعبا البلدين اعمالهما ·

وكان احياء السلم هذا هو الذي ادى الى تحالف المانية والولايات المتحدة · والواقع ان هذه المحالفة بين الامبراطور والاوليغاركية انما عقدت ابتغاء مواجهة عدوهما المشترك : البروليتاريا الثورية في كل من البلدين · وهذه المحالفة بالذات هي التي نقضتها الاوليغاركية في ما بعد ، بكثير من الغدر ، عندما ثار الاشتراكيون الالمان وخلعوا الامبراطور عن عرشه · لقد كان ذلك هو الشيء نفسه الذي سعت الاوليغاركية بسبيله : تحطيم منافسها العظيم في الاسواق العالمية · فبازاحة الامبراطور الالماني من الطريق لن يبقى لدى المانية فائض تبيعه خارج الحدود · ذلك بأن الشعب الالماني سوف يستهلك عندئذ ، بحكم طبيعة الدولة الاشتراكية نفسها ، كل ما ينتجه · صحيح ان المانية ستعمد منذ اليوم الى تصدير بعض الاشياء التي تنتجها مقابل اشياء لا تنتجها ، ولكن هذا شيء ، والفائض غير المستهلك شيء مختلف بالكلية ·

وقال ارنست حين عرف الناس بخيانة الاوليغاركية للامبراطور الالماني :

ـ « انا اراهنكم ان الاوليغاركية لن تعدم مبررا · ولسوف تعتقد ، جريا على مألوف عادتها ، انها قد سلكت السبيل الصحيح · »

وصح ما توقعه ارنست · فقد دافعت الاوليغاركية عن نفسها ، امام الرأي العام ، زاعمة انها اتخذت ذلك الموقف من اجل الشعب الاميركي الذي تحرص هي على مصالحه · لقد اخرجت منافسها البغيض من الاسواق العالمية ومكنتنا من التخلص من فائض انتاجنا في تلك الاسواق ·

وكان تعليق ارنست على ذلك قوله :

ـ « ووجه الحماقة العاوية في هذا كله هو اننا من العجز وقلة الحيلة بحيث نجيز لمثل هؤلاء البلهاء ان يتولوا مقدراتنا ومصالحنا · لقد مكنونا من ان نبيع ، في ما وراء البحار ، مقدارا من انتاجنا اعظم ، وهذا يعني اننا سوف نضطر الى ان نستهلك ، في الوطن ، مقدارا منه اقل · »





الفصل الرابع عشر

بدايـــة النهاية

لقد رأى ارنست ، منذ كانون الثاني (يناير) ١٩١٣ ، اتجاه الاشياء الصحيح ، ولكنـه لـم يستطـع ان يحمـل اخوانـه الزعمـاء الاشتراكيين على رؤية الصورة التي ارتسمت للعقب الحديدية في ذهنه · كانـوا واثقين من انفسهم أكثر مما ينبغي · وكانت الاحداث تتعاقب في اندفاع متسارع نحو التكبد * · وتفصيل ذلك ان العالم واجه ازمة خطيرة · فقد هيمنت الاوليغاركية الاميركيـة ، عمليا ، على الاسواق العالميـة ، وكانت عشرات من البلـدان قد اخرجت من تلك الاسواق مثقلة بفوائض غير مستهلكة وغير مبيعة · ولم يبق امام تلك البلدان غير سبيل واحدة : ان تعيد تنظيم حياتها الاقتصادية · ذلك بأنه لم يعد في امكانها ان تواصل طريقتها القديمة على انتاج الفوائض غير المستهلكة · كان النظام الرأسمالي ، بقدر ما يتعلق الامر بهم ، قد انهار انهيارا يائسا ·

واتخـذت اعادة تنظيم هذه البلدان شكل ثورة : كان عهد اضطراب وعنف · ففـي كـل مكان كانـت المؤسسات والحكومـات تتهاوى · وفـي كـل مكـان ، مـا خـلا بلديـن او ثلاثـة ، قاتـل الاقطـاب الرأسماليـون السابقون ، قتـالا مريـرا ، في سبيل الاحتفاظ بممتلكاتهم · ولكن البروليتاريا المناضلـة انتزعت مقاليـد الحكومات من ايديهم · واخيرا تحقق قول كارل ماركس المأثور : « ان جرس المـوت ليقرع معلنـا موت الملكية الرأسماليـة

---

* التكبد : بلوغ قمة الشيء ·

الخاصة . وان نازعي الملكية لتنتزع ملكيتهم . » وكلما انهارت حكومة رأسمالية نشأت محلها حكومة اشتراكية تعاونية .

« لماذا تتخلف الولايات المتحدة عن غيرها ؟ » ، « انشطوا ، ايها الثوريون الاميركيون ! » ، « ماذا دهى اميركة ؟ » ـ تلك كانت الرسائل التي بعث بها الينا رفاقنا الظافرون في بلدان اخرى . ولكنا لم نستطع ان ندركهم ونلحق بهم . لقد اعترضت الاوليغاركية سبيلنا . ولقد سدت بجرمها الضخم طريقنا وكأنها غول جبار .

وأجبنا :

ـ « انتظروا حتى نتولى مهام الحكم في الربيع . وبعد ذلك ترون . »

وانما كان سرنا كامنا خلف هذا . كنا قد استملنا حزب غرايننج الينا ، وكان من المنتظر أن تنتقل الى ايديهم ، في الربيع ، مقاليد الحكم في اثنتي عشرة ولاية بفضل الانتخابات التي جرت في الخريف السالف . وبعد ذلك في الحال سوف تؤسس اثنتا عشرة ولاية اشتراكية تعاونية . ومن ثم يصبح كل شيء هينا يسيرا .

وتساءل ارنست :

ـ « واذا أخفق الغراينجيون في تولي مقاليد الحكم ؟ »

وسخر رفاقه من تشاؤمه ودعوه « غراب البين » .

ولكن هذا الاخفاق في تولي مقاليد الحكم لم يكن الخطر الرئيسي الذي تبدى لارنست . كان الذي تكهن به هو ارتداد اتحادات العمال الكبرى ونشوء نظام الطوائف ضمن الحركة العمالية .

وقال ارنست :

ـ « ان غانت Ghent قد علم الاوليغاركيين كيف يفعلون ذلك وأنا اراهن انهم جعلوا من كتابه « الاقطاعية الخيرة » [83] كتاب تدريس .

---

83 « اقطاعيتنا الخيرة » Our Benevolent Feudalism كتاب نشر عام ١٩٠٢ لمؤلفه و.ج. غانت W. J. Ghant . ولقد طالما أكد الباحثون ان « غانت » هو الذي ادخل فكرة الاوليغاركية الى عقول الرأسماليين الكبار . وهذا الاعتقاد استمر راسخا في جميع المصادر التي ورثناها عن القرون الثلاثة التي تعتبر عهد العقب الحديدية ، بل استمر حتى في القرن الاول من عهد « الاخاء الانساني » . واليوم اصبحت معرفتنا أوسع وادق ، ولكن هذه المعرفة لا تزال عاجزة عن طمس الحقيقة التالية ، وهي ان « غانت » يظل الرجل البريء المفترى عليه بأكثر مما افتري عن اي رجل في التاريخ كله . »

ولن أنسى أبد الدهر تلك الليلة التي التفت ارنست فيها الي ، بعد مناقشة حامية مع نصف دزينة من زعماء العمال في هدوء :

ـ « هذا يحسم المسألة · لقد ربحت العقب الحديدية الجولة · ان في استطاعة المرء ان يرى النهاية القريبة · »

وكان هذا المؤتمر الصغير الذي عقد في بيتنا مؤتمرا غير رسمي · ولكن ارنست ، مثل سائر رفاقه ، كان يسعى لانتزاع توكيدات من الزعماء العماليين بأنهم سوف يعمدون الى دعوة رجالهم الى اطراح العمل في الاضراب العام التالي · وكان اوكونور O'Conor ، رئيس نقابة الميكانيكيين ، اشد الزعماء الستة الحاضرين اصرارا على رفض اعطاء التوكيد المطلوب ··

فقال ارنست في الحاح :

ـ « لقد رأيتم انكم هزمتم هزيمة قاسية بسبب من طرائقكم القديمة في الاضراب والمقاطعة · »

فهز اوكونور وزملاؤه برؤوسهم ·

وتابع ارنست مناقشته :

ـ « ورأيتم ما الذي يستطيع اضراب عام ان يفعله · لقد اوقفنا الحرب مع المانيا · ولم يعرف التاريخ قط من قبل مثلا على تضامن العمال وقوتهم أروع من ذلك المثل · ان في استطاعة العمال ان يحكموا العالم ، ولسوف يفعلون · واذا ما صمدتم الى جانبنا فلا بد ان نضع حدا لحكم الرأسمالية · ذلك هو أملكم الوحيد · واكثر من ذلك ، انتم تعرفون هذا ، ليس ثمة سبيل اخرى تسلكونها · ومهما ناضلتم ضمن نطاق اساليبكم العتيقة فهزيمتكم محتمة ، لسبب واحد على الاقل هو سيطرة السادة الرأسماليين على المحاكم ودور القضاء · ٨٤

٨٤ في ما يلي نقدم نموذجا لقرارات المحاكم المنافية لمصالح العمال · فقد كان تشغيل الاطفال في مناطق مناجم الفحم أمرا بغيضا كثير الشيوع · وفي عام ١٩٠٥ نجح العمال في حمل سلطات بنسلفانيا على اصدار قانون يقضي بأن لا يستخدم ايما طفل ، منذ اليوم الا اذا بلغ سنا معينة وأنجز مرحلة ثقافية معينة · ولكن محكمة مقاطعة لوزيرن ما لبثت ان أعلنت عدم دستورية هذا القانون ، بحجة انطوائه على خرق للمادة الرابعة عشرة المعدلة من حيث تمييزه بين الافراد المنتسبين الى طبقة واحدة ـ وبكلمة اخرى ، بين الاطفال الذين تجاوزوا الرابعة عشرة

فأجاب أوكونور :

ـ « انت تسبق الاحداث اكثر مما ينبغي · ولكنك لا تعرف جميع السبل التي نستطيع سلوكها · ان ثمة سبيلا اخرى للخلاص · واننا نعلم ما نحن بسبيله · لقد سئمنا الاضرابات ، بعد ان هزمونا فيها هزيمة منكرة · ولكني لا احسب اننا سوف نحتاج الى دعوة رجالنا الى اطراح العمل كرة اخرى · »

فسأله ارنست في فظاظة :

ـ « وما هي سبيلكم للخلاص ؟ »

وهنا ضحك اوكونور وهز رأسه قائلا :

ـ « في استطاعتي ان اصرح لك بهذا القدر : اننا لم نكن مستسلمين للرقاد · ولسنا الان بحالمين · »

فتحداه ارنست :

ـ « ليس ثمة ما يخشى منه او يستحيا منه ، في ما أرجو · »

فكان الرد :

ـ « اعتقد اننا نعرف مهمتنا احسن ما تكون المعرفة · »

فقال ارنست في غضب متعاظم :

ـ « وانها لمهمة مظلمة ، وهو ما يستطيع المرء ان يستنتجه من الاسلوب الذي تصطنعونه لاخفائها · »

فجاءه الجواب :

ـ « لقد دفعنا ثمن خبرتنا عرقا ودما · ولقد استحققنا كل ما

والاطفال الذين لم يبلغوا هذا السن · ودعمت محكمة الولاية هذا القرار · وفي سنة ١٩٠٥ للميلاد اعلنت محكمة نيويورك عدم دستورية القانون الذي يحظر على القاصرين والنساء العمل في المصانع بعد الساعة التاسعة ليلا ، بدعوى ان مثل هذا القانون ينطوي على تمييز طبقي · ليس هذا فحسب ، بل ان عمال المخابز كانوا يشغلون ، في تلك الايام ، حتى الارهاق · فأصدر مجلس ولاية نيويورك التشريعي قانونا يقضي بأن لا تزيد ساعات العمل في المخابز على عشر ساعات في اليوم · ولكن المحكمة الاتحادية العليا أصدرت حكمها ، عام ١٩٠٦ ، بأن هذا القانون غير دستوري · وقد جاء في ذلك الحكم قول القضاة : « ليس ثمة اساس منطقي يدعو الى تقييد حرية الاشخاص او حق التعاقد الحر من طريق تحديد ساعات العمل في المخابز · »

لـم بنا · الاقربون أولى بالمعروف · »

فغلى الدم في عروق ارنست وقال :

ـ « اذا كنت تخشى انبائي بالسبيل التي تعتزمون سلوكها ، تطوعت انا لانبائك بها · انكم تعتزمون الاسهام في السلب · لقد توصلتم الى اتفاق مع العدو ، ذلك ما اقدمتم عليه · لقد بعتم قضية العمال ، قضية العمال جميعا ، بثمن بخس دراهم معدودات · أنتم تفرون من ميدان القتال كالجبناء · »

فأجابه اوكونور في نكد :

ـ « انا لا اقول ايما شيء · بيد أني أحسب اننا نعرف ما هو خير لنا على نحو احسن بعض الشيء مما تعرفه انت · »

ـ « وانت لا تبالي مثقال ذرة بما هو خير لسائر العمال · انت ترفسهم الى الهاوية · »

فأجابه اوكونور :

ـ « انا لا أقول ايما شيء ، ما خلا اني رئيس نقابة الميكانيكيين ، وان من واجبي ان اراعي مصالح الرجال الذين امثلهم · هذا كل ما هنالك · »

حتى اذا انصرف الزعماء العماليون رسم لي ارنست ، بمثل هدوء الهزيمة ، الخطوط الكبرى لسياق الاحداث المقبلة · قال :

ـ « كان من دأب الاشتراكيين ان يتكهنوا ، في ابتهاج ، بذلك اليوم الذي سيشهد انتقال الحركة العمالية ، بعد هزيمتها في الميدان الصناعي ، الى الميدان السياسي · حسنا ، لقد هزمت العقب الحديدية اتحادات العمال في الميدان الصناعي ودفعت بها الى الميدان السياسي · وسيكون ذلك مصدر حزن لنا بدلا من ان يكون داعية ابهاج · لقد اخذت العقب الحديدية من احداث الماضي عبرة بالغة · فنحن قد اريناها خلال الاضراب العام ، مدى قوتنا · ولقد اتخذت الخطوات الضرورية للحؤول دون حدوث اضراب عام جديد · »

فسألته :

ـ « ولكن كيف ؟ »

ـ « بمجرد تقديم المساعدات المالية الى الاتحادات الكبرى · ان هذه الاتحادات لن تشارك في الاضراب العام التالي · واذن فلن يكون ثمة اضراب عام · »

فاعترضت قائلـة :

ـ « ولكن العقب الحديدية لن تقوى على الاستمرار في النهوض بمشروع كهذا ، باهظ النفقات ، الى الابد · »

ـ « اوه انها لم تشتر بأموالها جميع الاتحادات · فذلك غير ضروري · واليـك ما سوف يحدث · ان اجور العمــال ستزداد وساعات العمل ستخفض في اتحادات السكة الحديدية ، واتحادات عمال الحديد والفولاذ ، واتحادات المهندسين والميكانيكيين · ان احوالا اكثر ملاءمة ستظل سائدة هذه الاتحادات ولسوف تصبح العضوية في هذه الاتحادات اشبه شيء بمقعد في الجنة · »

فاعترضت من جديد :

ـ « انا لا ازال غير قادرة على الفهم · ما الذي سيحـل بالاتحادات الاخرى ؟ ان الاتحادات غير الداخلة في هذه المجموعة اكثر بكثير من الاتحادات الداخلـــة فيها ·

ـ « ان الاتحادات الاخرى سوف تسحق وتزال من الوجود ـ كلهـــا من غير استثناء · ذلك بأن عمال السكة الحديدية والمهندسين والميكانيكيين وعمال الحديد والفولاذ ينهضون ، كمــا ترين ، بكامــل العمــل الاساســي الحيوي في حضارتنا الالية · حتى اذا أمست العقب الحديدية على مثــــل اليقين من اخلاص هذه الاتحادات استطاعت ان تسخر من سائر الجماعــات العمالية · ان الحديد والفولاذ والفحم الحجري والالات والمواصلات لتكون العمود الفقري للبنية الصناعية كلها · »

فسألته :

ـ « ولكن الفحم الحجري ؟ ان ثمة نحوا من مليون عامــل يشتغلون في مناجــم الفحــم الحجــري · »

ـ « انهم عمال لا تتطلب اعمالهم براعة خاصة · ومن اجــل ذلـــك فانهم لن يقدموا أو يؤخروا · ان اجورهم سوف تتدنى ، وان ساعــات عملهم سوف تزداد · انهم سوف يكونون عبيدا ارقاء مثلنا جميعا ، ولســوف يكون وضعهم من اكثر اوضاعنا « بهيمية » · سوف يكرهون على العمل ، كما يكره المزارعون على العمل ، اليوم ، في خدمة السادة الذين سلبوهم ارضهم ، سواء بسواء · والشيء نفسه سوف يصيب الاتحادات الاخرى التي لا تنتظمها هذه المجموعة · راقبيها تجدي انها تتمايل وتوشك ان تنهار ، وتجدي ان اعضاءها يكادون يصبحون عبيدا تجبرهم على الكدح معدهم الفارغة وقوانين البلاد ·

« هل تعرفين ما الذي سيحل بفارلي وعصبته من مفسدي الاضرابات ؟

(٨٥) سوف أقول لك · ان « افساد الاضرابات » ، بوصفه مهنة ، سيزول من الوجود · اذ لن يبقى ثمة اضرابات البتة · ان ثورات العبيد سوف تحل محل الاضرابات · ولسوف يرقى فارلي وزبانيته فيعهد اليهم بمهمة سوق العبيد · اوه ، انهم لن يدعوها بهذا الاسم طبعا ، سوف يدعونها مهمة تنفيذ قانون البلاد الذي يكره العمال على الشغل · ان خيانة الاتحادات الكبرى هذه لن تؤدي الا الى اطالة امد الصراع · والله وحده يعرف اين ومتى ستنتصر الثورة · »

ـ « ولكن اي حظ في النجاح يبقى للثورة اذا ما تعاونت الاوليغاركية مع الاتحادات الكبرى وازدادت بذلك قوة على قوة ؟ اليس من الجائز ان يستمر هذا التعاون الى الابد ؟ »

فهز رأسه وقال :

ـ « ان أحد احكامنا التعميمية ليقول بأن كل نظام مبني على أساس الطبقات الاجتماعية وعلى أساس من الطوائف المتحجرة المعزول بعضها عن بعض Castes يحمل في ذات نفسه بذور انحلاله · وحين يبنى نظام ما على الطبقات كيف يمكن اجتناب نشوء الطوائف المتحجرة ؟ ان « العقب الحديدية » لن تستطيع الحؤول دون هذا النشوء ، وان نظام الطوائف المتحجرة سوف يقضي ، آخر الامر ، على « العقب الحديدية » · ان الاوليغاركيين قد خلقوا بينهم طوائف مختلفات ، ولكن انتظري حتى تنشىء الاتحادات التي تحابيها الاوليغاركية طوائف ضمن نطاقها هي · ان « العقب الحديدية » سوف تصطنع كل ما تملك من قوة وحول للحيلولة دون ذلك ، ولكنها مخفقة لا محالة·

« ان الاتحادات التي تحابيها الاوليغاركية تنتظم زهرة العمال الاميركيين · انهم رجال اشداء أولو فعالية · وهم لم يصبحوا اعضاء في تلك الاتحادات الا من طريق التنافس الشديد على تلك المقاعد · وكل عامل كفء في الولايات المتحدة سوف يستبد به الطموح الى الفوز بعضوية الاتحادات المتمتعة بعطف الاوليغاركية · والاوليغاركية سوف تشجع مثل هذا الطموح

٨٥ جايمس فارلي Farley مفسد اضرابات شهير في ذلك العصر · كان رجل شجاعة اكثر منه رجل اخلاق · وكان رجلا ذا مقدرة لا سبيل الى انكارها · لقد لمع نجمه في ظل سلطان « العقب الحديدية » ، وأخيرا أمسى واحدا من ابناء الطبقة الاوليغاركية · ولقد اغتالته ، عام ١٩٣٢ ، سارة جينكينز التي كان زوجها قد قتل قبل ذلك بثلاثين سنة بأيدي مفسدي الاضرابات العاملين تحت امرة فارلي ·

وما ينشأ عنه من منافسة · وهكذا يصبح هؤلاء الرجال الاشداء ، الذين كان خليقا بهم لولا هذا ان يعملوا في خدمة الثورة ، صنائع للرأسماليين ، وتسخر قوتهم لتدعيم الاوليغاركية ·

« ومن ناحية ثانية فان اعضاء الاتحادات المتمتعة بعطف الرأسماليين سوف يناضلون لتحويل منظماتهم الى جماعات مقفلة · ولسوف ينجحون في ذلك · ان عضوية هذا الاتحادات ستصبح وراثية ، يخلف الابناء فيها الآباء ، ولن تتدفق بعد قوة جديدة من معين القوة السرمدي : عامة الشعب · ولسوف يعني هذا انحلال الطوائف العمالية المقفلة ، وذلك ما ينتهي بها اخر الامر الى الضعف فالضعف المتزايد · ولكنها سوف تصبح في الوقت نفسه ــ بوصفها مؤسسة من المؤسسات ــ ذات سلطان كلي ، ولكنه سلطان مؤقت على كل حال · انها سوف تصبح اشبه شيء بحرس القصر في رومة القديمة ، ولسوف تحدث ثورات في القصر تستولي الطوائف العمالية المقفلة ، بواسطتها ، على مقاليد السلطة · ولسوف يقوم الاوليغاركيون بثورات قصر مماثلة ، فتكون الغلبة سجالا بين الفريقين ، تكتب لهذا الفريق حينا وتكتب لذلك الفريق حينا · وخلال ذلك تستمر ضروب الضعف المحتومة في اصابة الطوائف العمالية المقفلة ، وهكذا تفوز عامة الشعب اخر الامر بما هو حق من حقوقها · »

هذا التكهن بحدوث تطور اجتماعي بطيء انما اطلقه ارنست عندما حز في نفسه الالم ، اول ما حز ، بسبب من ارتداد الاتحادات الكبرى · ولم اقره انا على ذلك قط ، واني لاخالفه فيه الان ــ اذ اكتب هذه السطور ــ أقوى مما خالفته في أيما وقت مضى · ذلك بأننا حتى في يوم الناس هذا ، وعلى الرغم من ان الموت قد اختطف ارنست ، نقف على شفا الثورة التي ستذهب بالاوليغاركيات كلها · ومع هذا فقد نصصت ههنا على نبوءة ارنست لانها كانت نبوءته · وأيا ما كان فأن ارنست ، برغم ايمانه بتلك النبوءة ، قاومها مقاومة مارد جبار وبذلك ساعد ، اكثر من ايما رجل اخر ، على جعل الثورة التي تنتظر حتى في هذه اللحظة اشارة الانفجار أمرا ممكنا · ٨٦

---

٨٦ كانت بصيرة ايفرهارد الاجتماعية رائعة · لقد رأى ، بمثل الوضوح الذي يتيحه ضوء الاحداث الخالية ، ارتداد الاتحادات المتمتعة بعطف الرأسماليين ، ونشوء الطوائف العمالية المقفلة وانحلالها البطيء ، والصراع بين الاوليغاركية المتفسخة والطوائف العمالية المقفلة من اجل السيطرة على الآلة الحكومية الكبرى ·

وسألته تلك الليلة :

ـ « ولكن اذا عمرت الاوليغاركية فما الذي سوف يحل بالفوائض الهائلة التي ستكون من نصيبها كل عام ؟ »

فأجابني :

ـ « سوف يتعين على الاوليغاركية ان تنفق تلك الفوائض بطريقة ما · وثقي ان الاوليغاركيين لن يعدموا هذه الطريقة · انهم سوف يشقون طرقا عريضة فخمة ، ولسوف تحقق انتصارات ضخمة في حقل العلم ، وتنجز ـ في حقل الفن بخاصة ـ منجزات ذات شأن · ان الاوليغاركيين سوف يجدون ، بعد اخضاعهم الشعب اخضاعا كاملا ، متسعا من الوقت ينفقونه على الاشياء الاخرى · انهم سوف يصبحون من زمرة عابدي الجمال · سوف يصبحون من زمرة محبي الفن · وتحت ادارتهم ، وباغراء من مكافآتهم السخية ، سوف يكدح الفنانون · ولسوف تكون ثمرة هذا كله فنا عظيما · ذلك ان الفنانين لن يعمدوا بعد ، كشأنهم حتى أمس القريب ، الى دغدغة ذوق الطبقة الوسطى البورجوازي والتدبيث لها · انه سوف يكون فنا عظيما ، أقول لك ، ولسوف تنشأ مدن معجزة تتبدى امامها مدن العهود القديمة سمجة رخيصة · وفي هذه المدن سوف يقيم الاوليغاركيون ويتعبدون للجمال [87] ·

« وهكذا سينفق الفائض على نحو موصول ، بينا ينهض العمال بعبء العمل كله · وانشاء هذه المدن والمنجزات الضخمة سوف يمنح ملايين العمال العاديين جرايات لا تكاد تسد الرمق ، لان ضخامة الفائض سوف تقضي بأن يكون الانفاق ضخما هو الاخر ، ولسوف يبني الاوليغاركيون لالف من السنين ـ استغفر الله ، لعشرة آلاف من السنين · انهم سوف يبنون كما لم يحلم المصريون والبابليون ان يبنوا · وما ان يتخطفهم الموت وتدول دولتهم حتى تبقى طرقهم العظيمة ومدنهم المعجزة لاخوية العمال يطأونها ويقيمون فيها · [88]

---

٨٧ ليس في استطاعتنا الا ان نعجب أعظم الاعجاب ببصيرة ايفرهارد · فقبل ان تخطر فكرة انشاء المدن المعجزة ، كمدينة أرديس ومدينة ازغارد ، لعقول الاوليغاركيين رأى ايفرهارد بعين بصيرته هذه المدن وادرك حتمية نشوئها ·

٨٨ لقد انقضت ، منذ اطلاق هذه النبوءة ، قرون « العقب الحديدية » الثلاثة وقرون « الاخاء الانساني » الاربعة ، وها نحن اليوم نطأ الطرق التي شقها الاوليغاركيون

« هذه الاشياء سوف يقوم بها الاوليغاركيون لانهم لن يجدوا معدى عن القيام بها · ان هذه المنجزات العظيمة سوف تكون الشكل الذي سيتخذه انفاقهم لفائضهم ، وبالطريقة نفسها التي انفقت بها الطبقات الحاكمة في مصر القديمة الفائض الذي سلبته من الشعب على بناء الهياكل والاهرام · في ظل الاوليغاركيين سوف تزدهر لا طبقة كهنوت ولكن طبقة فنانين · ومحل طبقة البورجوازيين التجارية سوف تحل طوائف العمال المقفلة · وفي الدرك الاسفل سوف تكون الهاوية * حيث ستتقيح عامة الشعب ، كثرة السكان الكاثرة ، وتجوع وتبلى وتجدد نفسها ابد الدهر · وفي النهاية ، ومن يدري متى ، تنطلق العامة من الهاوية ، وعندئذ تنهار الاوليغاركية وتنهار الطوائف العمالية المقفلة ، وعندئذ يبزغ اخر الامر ، بعد كدح تطاول اجيالا وقرونا ، عصر الناس البسطاء · لقد كنت احسب اني سوف اكحل الطرف برؤية ذلك اليوم العظيم ، وأما الان فقد ثبت عندي انني لن انعم برؤيته · »

وسكت لحظة ثم نظر الي وأضاف :

ـ « التطور الاجتماعي بطيء الى حد يثير الحنق · اليس كذلك يا حبيبتي ؟ »

كانت ذراعاي تطوقانه ، وكان رأسه على صدري ·

وغمغم :

ـ « غني لي اغنية أنام على لحنها · لقد انكشفت لي رؤيا ، واني لاريد ان أنسى · »

ونقيم في المدن التي أنشأوها · صحيح اننا نبني اليوم مدنا اشد روعة من تلك المدن ، ولكن مدن الاوليغاركيين المعجزة لا تزال باقية ، وأنا اكتب هذه السطور في آرديس ، وهي واحدة من ابدعها على الاطلاق ·

* يحسن بالقارىء ان يذكر ان « الهاوية » في الاصل ، من اسماء جهنم ومن اجل ذلك اصطنعناها مقابل لفظة abyss (المعرب) ·

الفصل الخامس عشر

الايام الاخيرة

ولم تعلن الاوليغاركية عن مسلكها الجديد نحو الاتحادات التي آثرتها بالمحاباة الا في أواخر كانون الثاني (يناير) ١٩١٣ ٠ فقد نشرت الصحف أنباء عن زيادة في الاجور وخفض لساعات العمل لم يسبق الى مثلهما من قبل ، زيادة وخفض يصيبان مستخدمي السكة الحديدية ، وعمال الحديد والفولاذ ، والمهندسين والميكانيكيين ٠ ولكن هذه الصحف لم تقل الحقيقة كلها ٠ ذلك بأن الاوليغاركيين لم يجرأوا على اعلان الحقيقة كاملة ٠ فالواقع ان الاجور كانت قد زيدت اكثر من ذلك بكثير ، وان الامتيازات التي منحها اولئك العمال كانت اعظم على نحو متناظر ٠ وكان ذلك كله سرا من الاسرار ، ولكن الاسرار لا بد ان تشيع ٠ فقد أنبأ أعضاء تلك الاتحادات زوجاتهم ، واطلقت الزوجات السنتهن باللغو والثرثرة ، وسرعان ما أمسى العالم العمالي كله على علم بما قد حدث ٠

وكان ذلك مجرد تطور منطقي لما عرف في القرن التاسع عشر بتوزع الاسلاب ٠ ذلك ان الرأسماليين نزعوا ، في غمرة من الحرب الصناعية في ذلك العهد ، الى تجربة جديدة : اعطاء العمال حصة من الارباح ٠ يعني إنهم بذلوا غاية جهدهم لتهدئة العمال باثارة اهتمامهم ماليا بعملهم ٠ ولكن توزع الاسلاب ، كنظام ، كان شيئا مضحكا ومتعذرا ٠ فلم يكن توزع الاسلاب لينجح الا في حالات معزولة وسط نظام قائم على الصراع الصناعي ٠ ذلك بأنه لو ان العمال كلهم والرأسماليين كلهم تقاسموا الارباح اذن لسادت الاحوال نفسها التي كانت سائدة عندما لم يكن ثمة اقتسام ارباح ٠

وهكذا فمن فكرة اقتسام الارباح غير العملية نشأت فكرة توزع الاسلاب العملية · « اعطونا اجورا أعلى وحملوا الجمهور فرق ذلك » ذلك كان شعار الاتحادات القوية · وههنا وههناك اقترنت هذه السياسة الانانية بالنجاح · انها بتحميلها الجمهور فرق الاجور انما أثقلت في الواقع كاهل العمال غير المنظمين ، وهم كثرة الشغيلة الكاثرة ، وكاهل العمال المنظمين تنظيما ضعيفا · ومن هنا كان هؤلاء العمال هم الذين دفعوا ، في الواقع ، الاجور المزيدة التي نالها اخوانهم الاشد منهم بأسا ، اخوانهم الاعضاء في الاتحادات التي كانت احتكارات عمالية · والتضامن بين الاوليغاركيين والاتحادات المدللة كان ، كما قلت ، مجرد دفع لهذه الفكرة الى غايتها المنطقية ، على نطاق واسع [٨٩] ·

وما ان ذاع سر ارتداد الاتحادات التي آثرها الاوليغاركيون بعطفهم حتى عمت العالم العمالي غمغمات وهمهمات ·وبعد ذلك انسحبت هذه الاتحادات من المنظمات الدولية ، وقطعت كل ما بينها وبين الحركة العمالية من صلات · ثم كان الاضطراب والعنف · لقد وصم اعضاء الاتحادات المدللة بالخيانة ، وفي الصالونات والمواخير ، وفي الشوارع والمصانع ، وفي الواقع في كلمكان ، هوجموا في قسوة بالغة من جانب رفاقهم القدماء ، اولئك الرفاق الذين تخلى عنهم المرتدون في كثير من الغدر والخيانة ·

وحطمت رؤوس لا حصر لها ، وصرع كثيرون · ان أحدا من أعضاء الاتحادات المدللة لم يستشعر الامن · كانوا يتجمعون زمرا زمرا لكي يتمكنوامن

---

٨٩ لقد شاركت في هذا التضامن مع الاوليغاركيين اتحادات السكة الحديدية كلها · ومن الطريف ان نلاحظ ان اول تطبيق واضح لسياسة توزع الاسلاب انما قام به اتحاد من اتحادات السكة الحديدية في القرن التاسع عشر ، اعني « أخوية مهندسي القاطرات » · وطوال عشرين سنة كان ب · م · آرثر P. M. Arthur هو الرئيس الاعلى لتلك الاخوية · فبعد الاضراب في سكة حديد بنسيلفانيا عام ١٨٧٧ خطر له ان يقترح على مندوبي الشركة خطة جديدة تقضي بعقد تفاهم بين « مهندسي القاطرات » وبين الشركة يتخلى فيه المهندسون عن رفاقهم في اتحادات العمال الاخرى ويحصرون همهم في تحسين أوضاعهم الخاصة · ونجحت هذه الخطة نجاحا باهرا ، ومنها نحتت لفظة « التؤرثر » arthurisation التي تعني اسهام الاتحادات العمالية في توزيع الاسلاب · لقد طالما حيرت لفظة الـ arthurisation علماء اللغة ، ولكنني ارجو ان يكون اشتقاقها قد أمسى الآن واضحا ·

الذهاب الى العمل او الرجوع من العمل · وكانوا يمشون ابدا في وسط الشارع· ذلك بانهم لو مشوا على الارصفة اذن لكان من الراجح ان تسحق جماجمهم بوابل من الآجر والحصى كان ينصب عليهم من النوافذ والسطوح · واجازت لهم السلطات ان يحملوا السلاح ، وساعدتهم بكل وسيلة · وحكم على المعترضين لهم بالسجن امادا طويلة وعوملوا في السجون في فظاظة وخشونة · على حين لم يجز لاي رجل غير منضم الى الاتحادات المدللة ان يحمل سلاحا ما · ولقداعتبر كل خرق لهذا القانون جنحة عظمى تنزل بمرتكبها عقوبة تتكافأ وخطورة ماجنت يداه ·

ولكن العمال المضطهدين واصلوا الاثثار من الخونة · وعلى نحو آلي تشكلت خطوط الطبقة الاجتماعية المقفلة ، فاذا بأبناء الخونة يقاسون الامرين من ابناء العمال الذين غدر بهم ، حتى لقد اصبح من المتعذر على الاولين ان يلعبوا في الشوارع أو ان يذهبوا الى المدارس العامة · ليس هذا فحسب ، بل لقد نبذت زوجات الخونة واسرهم ، في حين قوطع بقال الزاوية الذي باعهم ما كانوا يحتاجون اليه من مؤن ·

وهكذا حمل الخونة هم واسرهم على الانكماش على انفسهم والعيش على نحو عشائري · واذ وجدوا ان من المتعذر عليهم ان يقيموا في أمن وسلام وسط البروليتاريا التي خانوها ، فقد انتقلوا الى احياء جديدة لا يقطن فيها احد غيرهم · وحاباهم الاوليغاركيون في ذلك · لقد شيدت لهم بيوت صالحة ، بيوت عصرية وصحية ، تحيط بها افنية عراض وتفصل ما بينها ههنا وههناك حدائق عامة وملاعب · واخذ اولادهم يتلقون العلم في مدارس انشئت خصيصا من أجلهم ، وكان المنهج التعليمي في هذه المدارس يضع التوكيد على التدريب اليدوي والعلم التطبيقي ·وهكذا على نحو حتمي نشأت عن هذا العزل ، منذ اللحظة الاولى ، طبقة اجتماعية مقفلة · لقد أصبح اعضاء الاتحادات المدللة هم ارستوقراطية العمال · لقد عزلوا عن سائر العمال · كانت بيوتهم خيرا من بيوت سائر العمال ، وكانت ملابسهم احسن ، وتغذيتهم افضل ، والمعاملة التي يعاملون بها اطيب · كانوا يتوزعون الاسلاب مع الاوليغاركيين الى ابعد حد مستطاع ·

وفي غضون ذلك عومل سائر العمال على نحو اقسى وأعنف · لقد انتزع منهم كثير من الامتيازات الصغيرة ، في حين هبطت اجورهم وهبط مستوى معيشتهم هبوطا موصولا · لقد فسدت مدارسهم ، مصادفة ، وشيئا بعد شيء لم يعد التعليم الزاميا · وكان تضخم ابناء الجيل الطالع الجاهلين

القراءة والكتابة شيئا رهيبا ينذر بخطر عظيم ·

وكان استيلاء الولايات المتحدة على الاسواق العالمية قد مزق بقية بلدان العالم تمزيقا · ففي كل مكان كانت المؤسسات والحكومات تنهار أو تخلق خلقا جديدا · كانت المانية وايطالية وفرنسة واوسترالية وزيلندة الجديدة منهمكة في تشكيل جمهوريات تعاونية ، وكانت الامبراطورية البريطانية تتفسخ وتتجزأ · كانت انكلترة في شغل شاغل · ففي الهند كانت الثورة في أوج احتدامها · وكانت الصيحة في اسية كلها : « اسية للاسيويين !» وخلف هذه الصيحة كانت اليابان ما تفتأ تحرض الشعوب الصفراء والسمراء وتساعدهم على البيض · وفيما كانت اليابان تحلم بانشاء امبراطورية قارية وتناضل لتحقيق هذا الحلم عمدت الى قمع ثورتها البروليتارية · كانت مجرد حرب طبقات مقفلة : الكولي * ضد الساموراي ** ولقد اعدم الاشراكيون الكوليون بعشرات الالوف · لقد قتل اربعون الفا في القتال الدائر في شوارع طوكيو وفي الهجوم الفاشل على قصر الميكادو · واستحالت « كوب » *** الى مجزرة · ولقد أصبح تقتيل عمال مصانع القطن بنيران البنادق الاوتوماتيكية حدثا كلاسيكيا يعتبر افظع مجزرة قدر لاسلحة الحرب الحديثة ان تقوم بها · وكانت الاوليغاركية اليابانية التي نشأت آنذاك أكثر وحشية من الجميع · وسيطرت اليابان على الشرق ، واحتكرت كامل الجزء الاسيوي من السوق العالمية ، ما عدا الهند ·

وتمكنت انكلترة من سحق ثورتها البروليتارية والاحتفاظ بالهند ، على الرغم من ان ذلك كان يستنفد قواها كلها · ليس هذا فحسب ، بل لقد اضطرت الى ان تدع مستعمراتها الكبيرة تنفصل عنها واحدة اثر اخرى · وهكذا وفق الاشتراكيون الى تحويل اوسترالية وزيلندة الجديدة الى جمهوريتين تعاونيتين · وانفصلت كندا عن الوطن الام بدافع من السبب نفسه · ولكن كندا سحقت ثورتها البروليتارية ، تؤيدها العقب الحديدية في ذلك · وفي الوقت نفسة ساعدت العقب الحديدية المكسيك وكوبا على قمع الثورة · فكان ثمرة هذا كله ان توطدت قدم العقب الحديدية في العالم الجديد · كانت قد صهرت اميركة

---

* Coolie جماعة العمال في الهند والصين واليابان · (المعرب)

** Samurai في النظام الاقطاعي القديم في اليابان طبقة النبلاء والرجال العسكريين · (المعرب)

*** Kobe ميناء ياباني في خليج أوساكا · (المعرب)

الشمالية برمتها ، من قناة بناما الى المحيط المتجمد الشمالي ، في كتلة سياسية متراصة ٠

ولم توفق انكلترة ، مضحية في ذلك بمستعمراتها الكبيرة ، الى الاحتفاظ بأكثر من الهند ٠ ولكن هذا كان احتفاظا مؤقتا ليس غير ٠ ذلك بأن الصراع مع اليابان وسائر آسية لانتزاع الهند كان قد أرجىء مجرد ارجاء ٠ وكان مقدرا على انكلترة ان تخسر الهند وشيكا ، على حين لاح وراء هذا الحدث صراع جبار بين آسية موحدة وبين العالم ٠

وبينما كانت النزاعات تمزق العالم كله لم نكن نحن في الولايات المتحدة ننعم بالطمأنينة والامن ٠ كان ارتداد الاتحادات الكبرى قد حال دون اندلاع ثورتنا البروليتارية ، ولكن العنف كان مهيمنا في كل مكان ٠ وبالاضافة الى الاضطرابات العمالية والى استياء المزارعين والبقية الباقية من الطبقة الوسطى اندلعت نار احياء ديني ٠ فقد لمع فجأة نجم فرع من فروع «الادفنتستز»* ليعلن نهاية العالم ٠

وصاح أرنست

ـ « اضطراب مثلث اللعنات ! كيف نرجو أن نحقق وحدة الصف العمالي في غمرة من هذه النزاعات والاهداف المتعارضة كلها ؟ »

والحق ان الاحياء الديني ما لبث أن استفحل الى حد رهيب ٠ كان الناس ـ بسبب من بؤسهم وخيبة أملهم في كل الاشياء الارضية ـ تواقين الى جنة سماوية لا يستطيع طغاة الصناعة دخولها الا بقدر ما يستطيع الجمل ان يلج في سم الخياط ، وكانوا مستعدين للسير وراء كل من يدعوهم الى الايمان بتلك الجنة ٠ وهكذا انطلقت جيوش المبشرين تطوف في البلاد بعيون متلهفة ٠ ورغم تحريم السلطات المدنية لمعتقدات هذه الطائفة واضطهادها اتباعها بتهمة التمرد ، فان اجتماعات دينية لا تعد ولا تحصى استطاعت أن تذكي نيران الحبل الديني ٠

لقد زعموا اننا انتهينا الى الايام الاخيرة ، الى بدء نهاية العالم ٠ كانت الرياح الاربع قد اطلقت من عقالها ٠ وكان الله قد حرض الشعوب على النضال ٠ ولقد كان العصر عصر رؤى ومعجزات ، في حين كان المتنبئون والمتنبئات كثرا يتعذر احصاؤهم او يكاد ٠ وكف الناس ، بمئات الالوف ، عن العمل وفروا بأنفسهم الى الجبال لينظروا هناك تجلي الله الوشيك وارتفاع

---

* Adventists طائفة دينية تقول بعودة المسيح الى الارض وتعلن ان نهاية العالم أمست وشيكة ٠ (المعرب)

المئة والاربعة واربعين ألفا الى السماء · ولكن اللـــه لم يتجل لهم ، وألمت المجاعة حتى الموت باعداد منهم كبيرة · حتى اذا استبد بهم اليأس ، اجتاحوا المزارع التماسا للطعام ، فاذا بالشغب والفوضى اللذين سادا المناطق الريفية اثر ذلك لا يزيدان المزارعين البائسين الذين نزعت عنهم ملكية أراضيهم الا شقاء على شقاء ·

والى هذا ، فقد كانت المزارع والمستودعات ملكا للعقب الحديدية أيضا· لقد انزلت قوات من الجيش النظامي الى الميدان ، وأكره المتعصبون ــ برؤوس الحراب ــ على العودة الى اعمالهم في المدن · وهناك تمردوا على نحـــو موصول ولجأوا الى التظاهر والشغب · لقد أعدم زعماؤهم بتهمة العصيان او حبسوا في مستشفيات المجاذيب · والحق ان اولئك الذين اعدموا واجهوا الموت بابتهاج الشهداء كله · لقد كان عصر جنون · عصرا انتشر فيهالقلق · وفي المستنقعات والصحاري والقفار ، من فلوريدا الى الاسكا ، كان جماعات الهنود الحمر الصغيرة ، التي استطاعت ان تبقى على قيد الحياة ، ترقص رقصات شبحية * وتنتظر ظهور مسيح من ابناء جلدتها ·

وخلال ذلك كله ، وفي هدوء وثقة مروعين ، واصلت الاوليغاركيـــة ، هولة العصور كلهـــا ، تقدمها الصاعد · لقد هيمنت بيد حديدية وعقب حديدية على الملايين الهائجة ، واقامت النظام في غمرة من الاضطراب ، ومن العمـــاء Chaos نفسه صنعت اساسها وبنيتها ·

ــ « انتظروا حتى نتولى زمام الامر ! » كذلك قال الغراينجيون ··· كذلك قال لنا كالفين في بيتنا القائم في بيل ستريت · « انظروا الى الولايـــات التي فزنا فيها بكثرة الاصوات · واذا ما ظاهرتمونا ، ايها الاشتراكيـــون ، فسنفرض عليهم ، عندما نتولى الحكم ، ان يتكلموا بلهجة ذليلة » ·

وقال الاشتراكيون :

ــ « ان الملايين من الناقمين والمعوزين هم في جانبنا · فقد انضم الينـــا الغراينجيون ، والمزارعون ، والطبقة الوسطى ، والعمال · والنظام الرأسمالي سوف ينهار · وبعد شهر واحد ليس غير سنبعث الى الكونغرس بخمسيـــن نائبا · وبعد سنتين اثنتين ستكون المناصب كلهـــا في أيدينا ، من رئاســـة

---

* Ghost dance وهو ضرب من الرقص الديني عند هنود اميركة الشمالية الحمر يراد به التضرع لتمكين الراقص من الاتصال بارواح اصدقائه الراحلين · (المعرب)

الجمهورية حتى وظيفة « القابض على الكلاب » المحلية » ٠

وكان ارنست يهز برأسه لدى سماعه هذا كله ، ويقول :

ـ « كم بندقية تملكون ؟ هل تعرفون اين تستطيعون الحصول على مقدار وافر من الرصاص ؟ وحين يبلغ الامر حد استعمال البارود صدقوني اذا قلت لكم ان المزيج الكيميائي خير من المزيج الميكانيكي » ٠

الفصل السادس عشر

النهايـــــة

وحين آن لي ولأرنست ان نشخص الى واشنطون لم يرافقنا ابـي ٠ كان قد أمسى مفتونا بالحياة البروليتارية ٠ لقد نظر الى حينا العمالـــي القذر نظرته الى مختبر ضخم من مختبرات علم الاجتماع ، وكان قد بـــاشر الانهماك في بحوث بدت وكأنها لا نهائية ٠ لقد خادن العمال ، وكان يستقبل استقبال الصديق الحميم في عشرات من البيوت ٠ ليس هذا فحسب ، بل لقد نهض بكثير من الاعمال الغريبة ، وكان العمل عنده لعبا بقدر ما كان استطلاعا علميا ، ذلك بأنه ابتهج به ، وكان يؤوب الى البيت ، دائما ، بملاحظات واسعة حول مغامراته الجديدة ٠ لقد كان مثال العالم الكامل ٠

ولم يكن ثمة ايما حاجة لقيامه بعمل ما ، لان ارنست وفق الى ان يكسب من عمله في حقل الترجمة ما يكفي لاعالتنا ثلاثتنا ٠ ولكن ابي اصر علـــى ملاحقة طيفه الاثير لديه ، وانه لطيف كثير التقلب ، على ما يستدل مـــن الاعمال التي انصرف اليها ٠ ولن أنسى ما حييت ذلك المساء الذي حمل فيه الى البيت عدته الخاصة بالبيع المتطوف في الشوارع ، وهي مؤلفة من شريط حذاء وحمالة بنطلون ، ولا ذلك اليوم الذي قصدت فيه الى البقالة الصغيـرة القائمة عند الزاوية لاشتري بعض الحاجات فاذا بي أجده هناك مستعـدا لخدمتي ٠ وبعد ذلك لم اعجب اذ رأيته يعمل ، طوال اسبوع ، ساقيا في حانة قائمة عبر الشارع ٠ لقداشتغل حارسا ليليا ، وباع البطاطا بالتطواف بهـا في الشارع ، والصق البطاقات في مستودع من مستودعات السردين المعلب ،

وعمل في مصنع للورق المقوى ، وحمل الماء الى جماعة من العمال منهمكين في انشاء خط من خطوط النقل المشترك في أحد الشوارع ، بل لقد انضم الى نقابة غاسلي الصحون قبل انحلالها بفترة يسيرة جدا ٠

وأحسب أن المثل الذي ضربه الاسقف ، بقدر ما يتعلق الامر بارتداء الكساء العمالي ، قد فتن ابي فتونا ، ذلك بأنه ارتدى قميص العمال القطني الرخيص والوزرة ذات الطوق الضيق عند الوركين ٠ ومع ذلك فقد احتفظ بعادة واحدة من عادات حياته القديمة : كان يحرص على ارتداء ملابسه الرسمية كلما تناول طعام العشاء ٠

لقد كان في ميسوري ان انعم بالسعادة ما بقيت مع ارنست ٠ وكانت سعادة ابي في ظروفنا المتغيرة تكمل لنا سعادتنا على خير وجه ٠

وقال ابي :

ـ « كنت في صباي شديد الفضول ٠ لقد اردت أن أعرف لماذا كانت الاشياء وكيف اتفق لها ان تحدث ٠ وهذا هو السبب الذي من اجله تخصصت في الفيزياء ٠ ان الدماء التي تجري في عروقي اليوم لا تقل عما كانت عليه في صباي ، وان كون المرء فضوليا هو الذي يجعل الحياة جديرة بأن تعاش »٠

وفي بعض الاحيان كان يغامر موجها وجهه شمالي « ماركت ستريت » الى منطقة المسارح والمحال التجارية حيث كان من دأبه ان يبيع الصحف ، وان يشتري بعض الحاجات لحساب امرىء ما ، ويفتح ابواب عربات الاجرة٠ وذات يوم ، فيما كان يوصد هناك باب احدى العربات ، التقى بمستر ويكسون٠ وفي طرب بالغ قص ابي ، تلك الليلة ، هذه الحادثة على مسامعنا فقال :

ـ « لقد رمقني ويكسون بنظرة حادة عندما اوصدت باب العربة عليه وغمغم : « حسنا ، سوف تحل علي اللعنة ! » أجل ، هكذا نطق بها « حسنا ، سوف تحل علي اللعنة ! » وشاع الدم في وجهه ، وغلب عليه الاضطراب حتى لقد نسي ان ينقدني اي بقشيش ٠ ولكنه استعاد رباطة جأشه على وجه السرعة ، من غير ريب ، اذ ما كانت العربة تجتاز مسافة خمسين قدما حتى استدارت وانقلبت على عقبيها ٠ وانحنى ويكسون مطلا من وراء الباب وقال: « انظر هنا ، أيها الاستاذ » هذا اكثر مما ينبغي ٠ ما الذي استطيع ان أقدمه اليك من خدمة ؟ »

« فأجبته : لقد اوصدت باب العربة خلفك ٠ وفي امكانك تبعا للعرف الشائع ان تعطيني عشر دولار » ٠

« فقال : دع هذا الهراء ٠ انا اسالك اية خدمة ذات شان استطيع ان

أقدمها اليك ؟ » ٠

« كان جادا من غير ريب ، ولعل مرد ذلك الى وخز ضمير متعظم * أو شيء من هذا القبيل ٠ وهكذا استغرقت لحظة في تفكير رزين ٠

« وكان وجهه طافحا بالتوقع عندما شرعت في الاجابة ، ولكن كان عليكما أن ترياه عندما انتهيت ٠

« لقد قلت : في استطاعتك ان ترد الي بيتي ، وأسهمي في مصانع سيرا »

وصمت أبي لحظة وسألته في لهفة :

ـ « ماذا قال عندئذ ؟ »

ـ « ما الذي كان في استطاعته ان يقول ؟ انه لم يقل شيئا ٠ ولكني قلت له : « أرجو أن تكون سعيدا » ٠ فنظر الي في فضول ٠ فسألته : « قل لي ، هل انت سعيد ؟ »

« فأمر الحوذي بالانطلاق ، وراح يشتم ويسب على نحو رهيب ٠ ولم يعطني عشر الدولار ، بله البيت والاسهم ٠ وهكذا ترين ، يا عزيزتي ، ان مهنة ابيك البوهيمية تكتنفها خيبات أمل كثيرة » ٠

وهكذا آثر أبي أن يلزم بيتنا في بيل ستريت ، على حين مضيت أنا وارنست الى واشنطون ٠ كانت الادارة القديمة قد اقصيت تقريبا ، وكان اقصاؤها النهائي اقرب مما توهمت ٠ وعلى نقيض ما توقعنا فان ايما عقبات لم تقم للحؤول دون احتلال النواب الاشتراكيين مقاعدهم في الكونغرس ٠ كان كل شيء يجري على نحو سلس ، ولقد سخرت من ارنست حين رأى في هذه السلاسة نفسها نذيرا بسوء ٠

لقد ألفينا رفاقنا الاشتراكيين متفائلين واثقين من قوتهم ومن الاشياء التي كانوا قادرين على انجازها ٠ وزادنا قوة الى قوة عدد قليل من الغراينجيين الذين فازوا بعضوية الكونغرس ، فأعددنا بالتعاون معهم برنامجا مفصلا بما يتعين علينا ان نفعله ٠ وشارك ارنست في ذلك كله باخلاص وعزم ، على الرغم من انه لم يتمالك عن القول ، بين الفينة والفينة ، لا بصدد شيء بخاصة : « حين يبلغ الامر حد استعمال البارود صدقوني اذا قلت لكم ان المزيج الكيميائي خير من المزيج الميكانيكي » ٠

وكان الغراينجيون الذين وفقوا في الانتخابات الاخيرة الى انتزاع الاغلبية في بعض الولايات هم أول من تعرض للبلاء ٠ كان عدد هذه الولايات اثنتي عشرة ، ولكن الغراينجيين المنتخبين لم يجز لهم ان يتولوا مناصبهم ٠

* Ossified اي متحول الى عظام ، كناية عن القسوة البالغة ٠

فقد أبى محتلو هذه المناصب ان يتخلوا عنها · وكان ذلك امرا هينا جدا · لقد زعموا ان الانتخابات لم تكن شرعية ليس غير ، وطوقوا الوضع كله بربـاط الروتين الرسمي ، هذا الرباط الطويل الذي ما يكاد ينتهي · وأسقط في أيدي الغراينجيين · فلجأوا الى المحاكم ، بوصفها السهم الاخير · ولكن المحاكم كانت العوبة في يد أعدائهم ·

تلك كانت لحظة الخطر · فلو أن النواب الغراينجيين المخدوعين فزعوا الى العنف اذن لفقدوا كل شيء · ولا تسل كم ناضلنا نحن الاشتراكيين مـن أجل كبح جماحهم ! فقد اتت علينا أيام وليال لم تعرف فيها عينا ارنست طعم الغمض قط · وبصر زعماء حزب غراينج الكبار بالخطر المحدق ، فوقفوا في صفنا وقفة رجل واحد · ولكن ذلك كله لم يجد نفعا · لقد ارادت الاوليغاركية العنف ، واوعزت الى عملائها المحرضين بأن ينشطوا · وليس من ريـب في ان العملاء المحرضين agent-provocateurs هم الذين سببوا ثورة الفلاحين

واندلعت نار الثورة في اثنتي عشرة ولاية · واستولى المزارعون الذين نزعت منهم ملكية أراضيهم على حكومات الولايات عنوة · وكان ذلـك عملا غير دستوري طبعا · وانزلت الحكومة الاتحادية جيوشها الى الميدان طبعا · وفي كل مكان راح العملاء المحرضون يحضون الناس على التمرد والعصيان · ولقد تقنع جواسيس العقب الحديدية هؤلاء باقنعة مختلفة ، فهم حرفيـون حينا ، وعمال زراعيون حينا آخر · وفي ساكرامينتو ، عاصمة كاليفورنيا ، كان الغراينجيون يندفعون الى توطيد النظام والامن · فاذا بالاف من العملاء السريين يندفعون الى المدينة الموالية ، ويؤلفون من انفسهم ليس غير شراذم غوغائية راحت تطلق النار على الابنية والمصانع وتنهبها · ثم ان هـؤلاء العملاء اخذوا يحرضون الناس على الفتنة حتى شاركوهم في اعمال السلـب والنهب · ووزعت الخمر بمقادير وافرة على سكان الاحياء العمالية القـذرة لالهاب عقولهم · وبعد ذلك ، حين امسى كل شيء جاهزا ، ظهر على مسرح الاحداث جنود الولايات المتحدة النظاميون ، الذين كانوا في الواقع جنـود العقب الحديدية · فصرع احد عشر الف رجل وامرأة وطفل بنيران بنادقهـم في شوارع ساكرامينتو او ذبحوا في بيوتهم · لقد وضعت الحكومة الاتحاديـة يدها على حكومة الولاية ، وانتهى كل شيء بالنسبة الى كاليفورنيا ·

والرواية التي مثلت في كاليفورنيا مثلت في مواطن اخرى ايضا · لقـد عصف العنف بكل ولاية من الولايات التي فاز فيها مرشحو حزب غراينـج فغسلها الدم غسلا · وكان العملاء السريون وجماعات « المئات السود » هـم

الذين يفتعلون الاضطراب ، بادىء الامر ، لتدعى القوات النظامية الى اقـرار النظام من بعد ذلك · وساد الشغب وحكم الغوغاء ارجـاء الارياف كلهـا · وليل نهار كان دخان المزارع والمستودعات والقرى والمدن المحروقة يرتفع فيسد منافذ السماء · وظهر الديناميت · ونسفت جسور السكك الحديدية وانفاقها ، ودمرت القطر · وصرع الفلاحون البائسون وشنقوا باعداد كبيرة · وكـان الاثئار مريرا ، فقتلت جمهرة من البلوتوقراطيين ومن ضباط الجيش · كانت الشهوة الى الدم والانتقام تغلي في عروق الناس · وقاتلت القوات النظاميـة المزارعين بمثل الوحشية التي كان خليقا بتلك القوات ان تقاتلهم بها لو كانوا هنودا حمرا · وكان لدى القوات النظامية سبب مبرر · فقد أبيد ألفان وثمانمئة جندي منهم في سلسلة رهيبة من انفجارات الديناميت في اوريغون · وعلى نحو مماثل اتلف عدد من احمال القطر الحديديـة في مواطن وأزمان متفاوتة · ومن اجل هذا كانت القوات النظامية تقاتل دفاعا عن ارواحها بقدر ما كـان المزارعون يقاتلون دفاعا عن أرواحهم ·

ووضع قانون عام ١٩٠٣ الخاص بالميليشيا موضع التنفيذ ، وأكـره عمال كل من الولايات ، بعد ان هددوا بالموت اذا لم يفعلوا ، على ان يصرعوا بنيـران البنـادق رفاقهـم العمـال فـي الولايـات الاخـرى · وليس من ريب في ان قانون الميليشيا لقي بادىء الامر مقاومة عنيفة · فقـد قتل كثير من ضباط الميليشيا واصدرت المحاكم العرفية الملتئمة في خط النـار احكامها بالموت على كثير من رجال الميليشيا · وصدقت على نحو مذهل نبوءة ارنست في حالتي مستر كووالت ومستر آسمونسين · كان كل منهما صالحـا للخدمة في صفوف الميليشيا ، ولقد اختير كل منهما للمشاركة في الحملة التأديبية التي جردت من كاليفورنيا ضد مزارعي ميسوري · وأبـى مستر كووالت ومستر آسمونسين المشاركة في تلك الحملة · ومنحا مهلـة وجيزة · واخيرا سيقا الى المحكمة العرفية فأصدرت حكمها عليهما بالموت · ولقد أعدما رميا بالرصاص ، موليين ظهريهما الشرذمة التي اطلقت النار عليهما ·

وفر كثير من الشبان الى الجبال تخلصا من الخدمة في صفوف الميليشيا· وهناك اصبحوا خوارج على القانون ، ولم تنزل عقوبتهـم بهم الا بعد ان هدأت الاحوال بعض الشيء · وكان ذلك رهيبا · فقد أصدرت الحكومة بيانـا دعت فيه جميع المواطنين الحريصين على اطاعة القانون الى مبارحة الجبال والاستسلام للسلطات في مدى ثلاثة اشهر · حتى اذا انتهى الاجل المضروب وجهت الى المناطق الجبلية في كل مكان قوات عسكرية تبلغ عدتها نصف مليون

رجل · ولم يكن ثمة تحقيق ، ولم يكن ثمة محاكمة · فما ان تلتقي القوات رجلا ما حتى تصوب اليه النار فترديه صريعا · ولقد عملت القوات على اساس من انه لم يبق في الجبال أيما رجل غير خارج على القانون · وقاتلت بعض العصابات ، المعتصمة في مراكز منيعة ، قتالا باسلا ، ولكن جميع الآبقين من الميليشيا لقوا حتفهم اخر الامر ·

وخلفت العقوبة التي انزلت بميليشيا اثرا أشد وقعا في نفوس الناس واذهانهم · والواقع ان تمرد كانساس العظيم حدث في مستهل العمليات العسكرية ضد الغراينجيين · فقد تمرد ستة آلاف من رجال الميليشيا على قادتهم · وكان النكد والاهتياج قد غلب عليهم ، قبل ذلك ، طوال اسابيع متعددة · بيد ان تمردهم الصريح انما احدثه العملاء المحرضون ، فجأة ، من غير ريب ·

في ليل الثاني والعشرين من نيسان (ابريل) اعلنوا العصيان واعملوا السيف في رقاب ضباطهم فلم تنج من هؤلاء غير قلة قليلة · وكان ذلك ابعد مما بيتته العقب الحديدية من مؤامرة ، ذلك بأن العملاء المحرضين كانوا قد أجادوا اداء مهمتهم اكثر مما ينبغي · ولكن العقب الحديدية عرفت كيف تفيد من كل شيء · كانت قد استعدت لذلك التمرد ، فاذا بمصرع هذا العدد الضخم من الضباط يقدم اليها مبررا لما حدث بعد ذلك · لقد طوق اربعون الفا من رجال الجيش النظامي ، بمثل السحر ، المتمردين من قوات الميليشيا · كان ذلك شركا · ووجدت قوات الميليشيا البائسة ان بنادقها الاوتوماتيكية كان قد عبث بها ، وان الخراطيش المصادرة من مستودعات السلاح التي استولوا عليها لم تلائم بنادقهم · ورفعوا راية الاستسلام البيضاء ، ولكنها تجوهلت · لم يبق على قيد الحياة احد منهم ، لقد أفني الآلاف الستة على بكرة ابيهم · لقد قذفوا من على مسافة يسيرة بالقنابل العادية وبقنابل « شرابنيل » ، حتى اذا هجموا ــ في يأسهم ــ على الخطوط التي كانت تطوقهم ، حصدوا بوابل من نيران البنادق الاوتوماتيكية · وتحدثت الى شاهد عيان فقال ان ادنى رجل من رجال الميليشيا الى البنادق الاوتوماتيكية كانت تفصله عنها مئة وخمسون ياردة · وفرشت الارض بجثث القتلى · ثم ان سلاح الفرسان حمل على المتمردين ، بحوافر خيله ومسدساته وسيوفه ، حملة اخيرة سحقت الجرحى المنطرحين على سطح الارض ·

وفيما كانت السلطات تضرب الغراينجيين هذه الضربة القاضية نشبت ثورة عمال مناجم الفحم الحجري · كانت تلك الثورة هي اخر جهد بذلته

الحركة العمالية المنظمة وهي على فراش الاحتضار · فقد أعلن الاضراب ثلاثة ارباع مليون عامل من عمال تلك المناجم · ولكنهم كانوا مشتتين في مختلف انحاء البلاد تشتتا أفقدهم القدرة على الافادة من قوتهم · لقد عزلوا في مناطقهم وأكرهوا على الاستسلام · وكانت هذه أول عملية استرقاق ضخمة· وفي أثنائها فاز بوكوك ٩٠ بشهرته كجلاد عبيد ، واكتسب مقت البروليتاريا الذي لا يموت · وجرت محاولات لا تحصى لاغتياله ، ولكنه بدا وكأن رقية كانت تصونه · لقد كان هو ، دون غيره ، المسؤول عن ادخال نظام الجواز الروسي الى دنيا المناجم والمسؤول عن حرمان عمالها حق الانتقال من جزء من أجزاء البلاد الى آخر ·

وفي غضون ذلك صمد الاشتراكيون · فبينا كان الغراينجيون يتلاشون نفسا في نفس ، والحركة العمالية المنظمة تمزق ، تعلق الاشتراكيون بأهداب الامن والهدوء وانصرفوا الى تعزيز منظمتهم السرية واضفاء صفة الكمال عليها · وتضرع الينا الغراينجيون ، ولكن على غير طائل · فقد ذهبنا الى القول ، بحق ، ان ايما عصيان نقوم به نحن معناه انتحار الثورة كلها فعليا · ذلك ان العقب الحديدية — وكانت في بادىء الامر مرتابة في مقدرتها على مواجهة البروليتاريا برمتها في آن معا — ما لبثت ان وجدت المهمة أيسر مما توقعت ، فهي لا ترحب بشيء اكثر من ترحيبها بانتفاضة من جانبنا · ولكننا اجتنبنا ذلك على الرغم من ان العملاء المحرضين اندسوا وسطنا بأعداد

٩٠ البرت بوكوك Pocock ، وكان مفسدا آخر شهيرا من مفسدي الاضرابات في تلك الايام ، وقد وفق حتى آخر يوم من أيام حياته الى حمل عمال مناجم الفحم الحجري في الولايات المتحدة على ملازمة أعمالهم على نحو موصول · وقد خلفه في هذه المهمة ابنه لويس بوكوك ، وطوال خمسة أجيال عرفت هذه السلالة من جلادي العبيد كيف تسيطر على عمال الفحم الحجري · وقد وصف بوكوك الكبير، المعروف ببوكوك الاول ، بما يلي : « رأس طويل مهزول تحيط به على شكل نصف دائرة ، حاشية من شعر اسمر وأشيب ، ضخم عظم الوجنتين كثيف اللحية ··· وجه شاحب ، وعينان رماديتان لا بريق فيهما ، وصوت معدني ، مترهل فاتر الهمة · » لقد ولد في اسرة متواضعة ، وبدأ حياته ساقيا في حانة · ثم انه أمسى شرطيا سريا خصوصيا عاملا في خدمة احدى شركات النقل بالاوتوبيسات ، ومن ثم تقدم في خطى وئيدة ليصبح مفسدا محترفا من مفسدي الاضرابات · أما بوكوك الخامس ، آخر السلالة ، فقد صرعته قنبلة خلال اضراب صغير أعلنه عمال المناجم في « المنطقة الهندية » · وقد حدث ذلك في عام ٢٠٧٣ لميلاد المسيح ·

كبيرة · في تلك الايام المبكرة كان عملاء العقب الحديدية خرقـــا في طرائقهم وأساليبهم · كان عليهم ان يتعلموا اشياء كثيرة ، وفي غضون ذلــك أعملـت « زمرنا المقاتلة » يد التنخيل والغربلة فيهم · كانت مهمـــة مريرة دامية ، ولكننا كنا ندافع عن حياتنا وعن الثورة ، وكان علينا ان نحارب العـــدو بأسلحته ذاتها · ومع ذلك فقد كنا عادلين · اننا لم نعدم أيما عميل مـــن عملاء العقب الحديدية دون محاكمة · جائز ان نكون قد ارتكبنا اخطاء ، ولكن هذه الاخطاء ــ اذا صح اننا اقترفناها ــ كانت نادرة جدا · لقد انضم أشجع رفاقنا وأصبرهم على النضال واكثرهم تضحية بالنفس الى « الزمـــر المقاتلة »· وذات يوم ، بعد انقضاء عشر سنوات على هذه الاحداث ، أجرى ارنست حسابا بناه على أساس من الارقام التي زوده بها زعماء « الزمـــر المقاتلة » ، فانتهى الى الاستنتاج ان متوسط عمر الرجل او المرأة بعد انتسابه (او انتسابها) الى تلك الزمر كان خمس سنوات ليس غير · كان رفاقنـــا المنضوون تحت راية « الزمر المقاتلة » ابطالا كلهم · ووجه الغرابة فيهم أنهم كانوا ضد القتل وازهاق الارواح · لقد خالفوا طبائعهم ذاتها ، ومع ذلك فقد أحبوا الحرية ، ولم يضنوا على القضية بأيما تضحية مهما غلت ٩١ ·

---

٩١ هذه « الزمر المقاتلة » نظمت الى حد ما على غرار « المنظمة المقاتلة » التي نشطت خلال الثورة الروسية · ورغم جهود « العقب الحديدية » الموصولة فقد عاشـت هذه الزمر طوال القرون الثلاثة التي ساد فيها حكم العقب الحديدية · لقد تألفت من رجال ونساء يحدوهم غرض رفيع وجرأة على الموت ، ومن هنا تمتعت بنفوذ هائل ، ولطفت من وحشية الحكام البربرية · ولم يكن عملهم مقصورا على محاربة عملاء الاوليغاركية السريين حربا خفية · فقد اكره الاوليغاركيون أنفسهم علـى الاصغاء الى قرارات « الزمر المقاتلة » ، وكثيرا ما كانت عقوبة الموت تنـــزل بهم اذا ما عصوا والشيء نفسه يصح في مرؤوسي الاوليغاركيين ، في ضبـــاط الجيش وزعماء الطوائف العمالية المقفلة ·

كان هؤلاء المنتقمون المنظمون يحرصون على الحكم بالعدل ما جهدوا الى ذلك سبيلا · ولكن أروع ما فيهم كان حرصهم على التقيد بالاجراءات القضائية في غير ما انفعال ولا ميل مع الهوى · لم تكن ثمة ، عندهم ، محاكمات ارتجالية · كانوا اذا ما القي القبض على امرىء منحوه حق المثول أمام محكمة عادلة وفرصـــة للدفاع عن نفسه · ولقد قضت الضرورات القاهرة بمحاكمة رجال كثيرين ثـــم بتنفيذ حكم الاعدام فيهم بالنيابة عن المحكمة · كالذي حدث للجنرال لامبتـــون **Lampton** · وكان ذلك عام ٢١٣٨ لميلاد المسيح · وكان لامبتون هذا اخبث

وكانت المهمة التي ندبنا لها أنفسنا ذات ثلاث شعب · أولا ، تطهير أوساطنا من عملاء الاوليغاركية السريين الذين اندسوا فيها · ثانيا ، تنظيم « الزمر المقاتلة » ومنظمة الثورة السرية العامة · ثالثا ، بث عملائنا السريين في كل شعبة من شعب الاوليغاركية ــ في الطوائف العمالية المقفلة ، وبخاصة بين عمال البرق وأمناء السر وموظفي المكاتب ، وفي الجيش ، وفي أوساط العملاء المحرضين وجلادي العبيد · كانت مهمة بطيئة وخطرة ، وكثيرا ما كانت جهودنا تمنى باخفاق يكلفنا غاليا ·

المرتزقة الذين قدر لهم ان يخدموا العقب الحديدية وأشدهم تعطشا للدماء ، وقد انبأته « الزمر المقاتلة » بأنها قد حاكمته ، فوجدته مذنبا ، فحكمت عليه بالموت ــ وذلك بعد ثلاثة انذارات وجهت اليه بضرورة الاقلاع عن الاساءة الى البروليتاريا ومعاملتها معاملة شرسة · وبعد الحكم عليه بالموت أحاط نفسه بعدد لا نهاية له من الوسائل الوقائية · وانقضت سنوات ، وعبثا كافحت « الزمر المقاتلة » في سبيل تنفيذ الحكم الذي أصدرته · فاذا بالرفيق اثر الرفيق ، والرفيقة اثر الرفيقة ، يخفقون في محاولاتهم ، فتنزل بهم الاوليغاركية عقوبة الاعدام في قسوة بالغة · وقضية الجنرال لامبتون هي التي أحيت الصلب كطريقة شرعية في الاعدام · ولكن لامبتون وجد آخر الامر جلاده في شخص فتاة نحيلة في السابعة عشرة من العمر تدعى مادلين بروفانس · وقد اضطرت لبلوغ هدفها الى ان تعمل خياطة في قصره طوال سنتين اثنتين · وقد ماتت في الحبس الانفرادي بعد تعذيب رهيب متطاول ، ولكنها مخلدة اليوم في تمثال برونزي اقيم في « بانتيون الاخاء » في مدينة سيرليس المعجزة ·

ان علينا نحن الذين لا نعرف بالاختبار الشخصي شيئا عن اراقة الدماء ان لا نقسو في حكمنا على أبطال « الزمر المقاتلة » · لقد باعوا أرواحهم في سبيل الانسانية ، وما كانوا ليبخلوا عليها بأيما تضحية مهما تكن · والواقع أن الضرورة التي لا ترحم هي التي اكرهتهم على تلويث أيديهم بالدم في عصر من عصور الدم · وان « الزمر المقاتلة » كانت شوكة في جنب « العقب الحديدية » لم تستطع هذه الاخيرة نزعها البتة · ولقد كان ايفرهارد أبا هذا الجيش العجيب ، وان منجزاته واستمراره الموفق طوال ثلاثمئة عام لتنهض دليلا على الحكمة التي اتسم بها تنظيمه للحركة النضالية وعلى الاساس المكين الذي وضعه للاجيال التالية لكي تشيد فوقه صرح الاشتراكية الحق · وأيا ما كان فان تنظيمه « للزمر المقاتلة » يجب ان يعتبر من بعض النواحي ، وعلى الرغم من مآثره العظمى في علمي الاقتصاد والاجتماع ومن عمله كقائد عام في الثورة ، أعظم مأثرة قدر له القيام بها ·

كانت العقب الحديدية قد انتصرت في الحرب المكشوفة ، ولكننا صمدنا في الحرب الجديدة ، الحرب الغريبة الرهيبة السرية ، التي ابتدعناها · كـان كل شيء غير منظور ، وكانت ثمة اشياء كثيرة مستغلقة على الفهـم · لقـد قاتل العميان العميان ، ومع ذلك فقد كانت العزيمة والنظام والضبط تنتظم هذا كله · لقد تخللنا منظمة « العقب الحديدية » كلها بعملائنا السريين ، في حين تخلل عملاء « العقب الحديدية » السريون منظمتنا نحن · كانت حربا مظلمة، ملتوية ، مفعمة بالمكائد والمؤامرات ، والدسائس ، المضادة · وراء ذلك كلـه كان الموت عنيفا رهيبا ، وكان متوعدا أبدا · لقد توارى الرجال والنساء عـن الانظار ، توارى رفاقنا الادنون الاحب الى قلوبنا · كانوا اليوم معنا ، حتى اذا كان الغد مضوا الى سبيلهم · ولم نرهم بعد ذلك البتة · وادركنا أنهـم كانوا قد قضوا نحبهم ·

ولم يكن ثمة ثقة في ايما مكان · فقد كان من الجائز ، بقدر ما نعرف ، ان يكون الرجل المتآمر في جانبنا عميلا من عملاء العقب الحديدية · لقد لغمنا منظمة العقب الحديدية بعملائنا السريين ، ولغمت العقب الحديدية ، بعملائها السريين منظمتها نفسهـا لغمـا معاكسا · والشيء نفسه حـدث لمنظمتنـا نحن · وبرغم انعدام الثقة كنا مضطرين ان نقيم جهودنا كلها على اساس من الثقة · ولقد خدعنا في احيان كثيرة · فقد كان الناس ضعاف النفوس · وكان في ميسور العقب الحديدية أن تقدم اليهم المال ، والراحة ، والمباهج ، والمتـع التي كانت تنتظرهم في المدن المعجزة · أما نحن فلم يكن في ميسورنا أن نقدم غير الارتياح المنبعث عن الوفاء لمثل أعلى نبيل · ليس هذا فحسب ، بل كانت أجور اولئك الذين اعتصموا بحبل الوفاء خطرا موصولا ، وتعذيبا سرمديا ، وموتـا ·

كان الناس ضعاف النفوس، كمـا قلت ، وبسبب من ضعفهم هـذا اضطررنا ان نقدم اليهم المكافأة الاخرى الوحيدة التي كانت في مستطاعنا · كانت هي مكافأة الموت · لقد اكرهتنا الضرورة القاهرة على معاقبة خونتنا · فكنا نطلق في اعقاب كل امرىء يخوننا منتقما مخلصا او أكثر ، وكثيـرا ما كان عدد اولئك المنتقمين يبلغ دزينة كاملة · كنا نحتمل الاخفاق في تنفيـذ احكام الموت التي نصدرها ضد اعدائنا من مثـل آل بوكوك ، ولكن الشيء الوحيد الذي كنا نعجز عن احتماله هو الاخفاق في معاقبة الخونة من رفاقنا · فكان بعض الرفاق ينقلبون الى خونة ، باذن منا وعلم ، لكي يتمكنوا من بلوغ المدن المعجزة حيث ينفذون مـا اصدرناه من أحكـام الموت ضد الخونـة

الحقيقيين ٠ والواقع اننا اخذنا بأسباب الارهاب الى درجة جعلت خيانة المرء ايانا احفل بالخطر من اقامته على الولاء لنا ٠

واتخذت الثورة صفــة الديــن الى حد بعيد ، لقد تعبدنا فــي هيكــل الثورة ، الذي كان هو هيكل الحرية ٠ كانت الشرارة الالهية تومض فــي نفوسنا ٠ ولقد وقف الرجال والنساء حيواتهم في سبيل القضية ٠ وكــــرس المواليد الجدد لخدمتها كما كانوا في العصور السالفة يكرسون لخدمة الله ٠ كان حب الانسانية يعمر قلوبنا ٠

الفصل السابع عشر

القسوة القرمزية

وبتدمير الولايات الغراينجية اختفى اعضاء الكونغرس الغراينجيون لقد حوكموا بتهمة الخيانة العظمى ، واستولى على مقاعدهم نفر من صنائع العقب الحديدية · وكان الاشتراكيون قلة هزيلة تدعو الى الرثاء ، وكانوا يعلمون أحسن العلم ان نهايتهم باتت قاب قوسين او ادنى · كان الكونغرس ومجلس الشيوخ مظهرين فارغين ـ كانا مهزلة · وكانت القضايا العامة تناقش في رصانة وتقر وفقا للتقاليد القديمة ، على حين ان كل ما صنعه اعضاء ذينك المجلسين ، في الواقع ، هو اضفاء الصفة الدستورية على أوامر الاوليغاركية ·

وكان ارنست يخوض غمرة النضال في أشد مراحله حرجا عندما دنت النهاية · وكان ذلك في المناقشة البرلمانية حول مشروع القانون القاضي بمد يد المساعدة الى العاطلين عن العمل · كانت ازمة السنة الماضية قد هبطت بجماهير كبيرة من البروليتاريا الى ما دون خط المجاعة ، وكان الاضطراب الموصول البعيد المدى قد زادهم هبوطا على هبوط · كان ملايين من الناس جائعين ، فيما كان الاوليغاركيون ومؤيدوهم متخمين بما لديهم من فائض ·٩٢

٩٢ لقد سادت الاحوال نفسها بلاد الهند خلال القرن التاسع عشر للميلاد في ظل الحكم البريطاني · كان الهنود يموتون جوعا بالملايين ، بينا كان حكامهم يسلبونهم ثمرات كدحهم وينفقونها على المهرجانات الفخمة وأعمال السحر الفارغة · وايا

لقد دعونا اولئك الناس « ابناء الهاوية » ، ٩٣ وانما قدم الاشتراكيون مشروع قانون العاطلين عن العمل ابتغاء التخفيف من آلام « أبناء الهاوية » هؤلاء · ولكن ذلك لم يرق للعقب الحديدية · كانت العقب الحديدية تعد العدة ، على طريقتها ، لتشغيل اولئك الملايين من العاطلين ، ولكن طريقها كانت غير طريقنا ، ومن أجل ذلك اصدرت اوامرها بضرورة العمل على رد مشروعنا · وأدرك ارنست ورفاقه ان جهدهم كان عبثا لا طائل تحته ، ولكنهم كانوا قد سئموا الانتظار · كانوا يريدون ان يحدث شيء ما · ذلك بأنهم لم يوفقوا الى انجاز ايما عمل ، وكان خير ما يرجونه هو وضع حد للمهزلة التشريعية التي كانوا – برغمهم – بعض ممثليها · كانوا يجهلون ما قد يتكشف عنه ذلك من نتيجة ، ولكنهم لم يتوقعوا قط شيئا أسوأ ولا أحفل بالارزاء مما حدث فعلا ·

وجلست ذلك اليوم في شرفة الكونغرس · كنا كلنا نعرف ان شيئا رهيبا يوشك ان يحدث · كان الناس يلغطون بذلك ، وكان في مرابطة القوات المسلحة صفوفا صفوفا في أروقة المجلس وفي تجمهر الضباط عند مداخله مصداق لما لغط به الناس · كانت الاوليغاركية على وشك أن تضرب ضربتها · وكان أرنست يخطب · كان يصف ما يقاسيه العاطلون عن العمل من بلاء ، وكأنما استحوذت عليه فكرة ضارية أطمعته بتحريك قلوبهم وضمائرهم · ولكن اعضاء الكونغرس الجمهوريين والديموقراطيين سخروا منه وتهكموا عليه ، وعلا

ما كان ، فان في اعمال أسلافنا ما يجب ان يشيع الدم في وجوهنا نحن أبناء هذا العصر المستنير ، ان عزاءنا الوحيد هو عزاء فلسفي · ان علينا ان نعتبر المرحلة الرأسمالية في التطور الاجتماعي وكأنها متوازية والعصر القردي الاقدم · لقد تعين على الانسان أن يجتاز هذه المراحل كلها في نهوضه من حمأة الحياة العضوية الوضيعة · وكان من المحتوم أن يعلق به شيء من ادران تلك الحمأة وأن لا تزول الادران عنه في سهولة ويسر ·

٩٣ The People of the abyss · هذه العبارة صاغتها عبقرية هـ· ج· ويلز في أواخر القرن التاسع عشر بعد الميلاد · لقد كان ويلز نبيا من انبياء علم الاجتماع عاقلا سويا بقدر ما كان انسانا تعمر الحماسة فؤاده · لقد تحدرت الينا مقاطع كثيرة من اثاره ، على حين ان اثنين من اعظم مؤلفاته ، وهما Anticipations و Mankind in the Making قد انتهيا الينا كاملين غير منقوصين · فقبل الاوليغاركيين ، وقبل ايفرهارد ، حدس ويلز بنشوء المدن المعجزة ، ولكنه أطلق عليها في كتاباته اسم « مدن البهجة » ·

الضجيج وسادت الفوضى · فما كان من ارنست الا أن غير لهجته فجأة ، وشن هجومه من زاوية جديدة ·

قال :

ـ « أنا أعلم انه ليس في استطاعة أيما شيء أقوله ان يعطف قلوبكم · لسبب بسيط ، هو أنكم بلا قلوب · انتم اشياء لا شوكية Spineless مترهلة · انكم تدعون انفسكم ، في ابهة ومباهاة ، « جمهوريين » و « ديموقراطيين » · ولكن ليس ثمة « حزب جمهوري » · وليس ثمة « حزب ديموقراطي » · ليس ثمة لا « جمهوريون » ولا « ديموقراطيون » في هذا المجلس· ان أنتم الا طفيليون وقوادون، ان أنتم الا صنائع البلوتوقراطية· انكم تتكلمون في كثير من اللغو وفي صيغ عتيقة بالية ، عن حبكم للحرية وتلبسون في الوقت نفسه كسوة « العقب الحديدية القرمزية » ·

وهنا طغى الصراخ وطغت صيحات « نظام ! نظام ! » على صوته ، فوقف في ازدراء حتى خمدت الضوضاء بعض الشيء · ولوح بيده ليشملهم جميعا والتفت الى رفاقه وقال :

ـ « اصغوا الى عواء البهائم المتخمة ! »

وانفجرت الضجة الضارية كرة اخرى · وأعمل رئيس المجلس مطرقته محاولا اقرار النظام ، ونظر الى الضباط المحتشدين عند الابواب · وانطلقت صيحات تقول « عصيان ! » وشرع نائب نيويوركي بدين يصيح مشيرا الى ارنست : « فوضوي ! » · ولم يكن مشهد ارنست بسائغ ولا عذب · وكان كل وتر من اوتاره المقاتلة يرتعش وكان وجهه اشبه بوجه حيوان مقاتل ، برغم انه كان رابط الجاش مالكا زمام نفسه ·

وقال ، في صوت فرض على الاعضاء سماعه من فوق الضوضاء :

ـ « اذكروا انكم كما تظهرون الرحمة الان للبروليتاريا فان هذه البروليتاريا نفسها سوف تظهر لكم الرحمة في يوم من الايام · »

وتضاعفت صيحات : « عصيان ! » « وفوضوي ! »

وتابع ارنست كلامه :

ـ « انا اعرف انكم لن تصوتوا مع مشروع هذا القانون · لقد تلقيتم امرا من أسيادكم بأن تصوتوا ضده ، ومع ذلك تقولون اني فوضوي · انتم الذين خربتم حكومة الشعب والذين تتباهون بعاركم القرمزي ـ في غير ما

خجل ــ في الاماكن العامة تقولون اني فوضوي · انا لا اؤمن بنار جهنم وكبريتها ، ولكني اسف في ساعات مثل هذه لقلة ايماني · لا ، اني في ساعات مثل هذه لاؤمن أو أكاد · فالذي لا ريب فيه هو ان جهنم واجبة الوجود ، اذ ليس ممكنا ان تلقوا ــ في مكان اقل منها هولا ــ عقابا متكافئا مع جرائمكم · ان ثمة حاجة حيوية الى نار جهنم في هذا الكون ما دمتم انتم على قيد الحياة ·»

وسمعت حركة عند الابواب · والتفت ارنست ، ورئيس المجلس ، والاعضاء كلهم ليروا ·

وتساءل ارنست :

ــ « لماذا لا تدعو جنودك ، يا حضرة الرئيس ، وتأمرهم باداء مهمتهم ؟ ان عليهم ان ينفذوا خطتك على وجه السرعة · »

فكان الرد :

ــ هناك خطط مبيتة أخرى · هذا هو السبب الذي من اجله حشد الجند في المجلس · »

فقال ارنست ساخرا :

ــ « تعني خططنا نحن ، على ما اظن · اغتيال ، او شيء من هذا القبيل · »

وما ان نطق بلفظة « اغتيال » حتى انفجرت الجلبة من جديد · ولم يوفق ارنست الى اسماع المجلس صوته · ولكنه ظل واقفا ينتظر ان تخمد الجلبة · ثم حدث ما كان متوقعا · ومن مكاني في الشرفة لم اعد أرى غير وميض الانفجار · لقد اصم هديره اذني ، ولقد رأيت ارنست يترنح وينهار في دوامة من دخان ، والجنود يندفعون خلال مماشي المجلس كلها · وهب رفاقه واقفين على اقدامهم ، وقد احالهم الغضب الى وحوش ضارية فهم قادرون على اصطناع ضروب العنف كلها · ولكن ارنست اثبت قدميه متماسكا ولوح بيديه داعيا الى الصمت ·

ورن صوته محذرا رفاقه :

ــ « انها مكيدة · لا تأتوا عملا ما والا دمرتم ! »

ثم انه هوى في اناة ، وانتهى الجند اليه · وفي اللحظة التالية كان الجند يجلون الناس عن الشرفات ، ولم اعد ارى شيئا ·

وبرغم انه كان زوجي فانهم لم يجيزوا لي ان اقترب منه · وحين عرفتهم الى نفسي سارعوا الى اعتقالي · وفي الوقت نفسه اعتقل جميع اعضاء

الكونغرس الاشتراكيين في واشنطون ، وفي جملتهم سيمبسون السيء الحظ ، الذي كان صريع التيفوئيد في فندقـه ·

وكانت المحاكمة عاجلة وموجزة · وحكم على المعتقلين بالهلاك قبل محاكمتهم · وكان اعجب ما في الامر ان القضاة لـم يحكمـوا على ارنست بالاعدام · وكانت هذه غلطة ارتكبتها الاوليغاركية ، غلطة كلفتها غاليا · ولكن الاوليغاركية كانت واثقة بنفسها اكثر مما ينبغي ، في تلك الايام · كانت نشوى بالنصر ، ولم تحلم قط بأن تلك الحفنة الصغيرة من الابطال كانت تملك القوة على ان تزلزلها من اساسها · وغدا ، عندما تنفجر الثورة العظمى ويردد العالم صدى وقع الاقدام ، وقع أقدام الملايين ، ستدرك الاوليغاركية ، ولكن بعد فوات الاوان ، اي مبلغ من القوة بلغته عصبة الابطال تلك · ٩٤

وبوصفي ثورية ، وبوصفي وثيقة الصلة بالثوريين عارفـة بآمالهـم ومخاوفهم وخططهم السرية ، اراني مؤهلة لان افند ـ شأن قلة قليلة مـن

---

٩٤ اعتبرت آيفيس ايفرهارد أن قصتها هذه سوف تقرأ في ايامها هي ، اعتبرت ذلك أمرا مفروغا منه ، وهكذا أغفلت الاشارة الى نتيجة محاكمة الاشتراكيين بتهمة الخيانة العظمى · ولسوف يلاحظ القارىء كثيرا من أمثال هذا الاغفال المشوش في المخطوطة · لقد حوكم اثنان وخمسون من أعضاء الكونغرس الاشتراكيين ، ولقد وجدوا كلهم مذنبين · ومن الغرائب أن احدا منهم لم يحكم عليه بعقوبة الموت · لقد حكم على ايفرهارد وأحد عشر اشتراكيا آخرين ، في جملتهم تيودور دونلسون وماتيو كنت ، بالسجن مدى الحياة · أما الاربعون الباقون فحكم عليهم بالسجن مددا تتروح ما بين ثلاثين عاما وخمسة وأربعين عاما ، في حين لم يحكم على آرثر سيمبسون ، الذي ذكرت المخطوطة انه كان مصابا بحمى التيفوئيد عندما حدث الانفجار ، الا بالسجن خمس عشرة سنة · وتذهب الروايات الى انه مات جوعا في محبسه الانفرادي ، وقد فسرت هذه المعاملة القاسية بانها ناشئة عن عناده الذي لا هوادة فيه وعن بغضه المتقد المتهور لجميع الرجال الذين خدموا الاستبداد · لقد مات في « كابانا » في كوبا ، حيث حبس ثلاثة من رفاقه ايضا · وحبس أعضاء الكونغرس الاشتراكيون الاثنان والخمسون في قلاع عسكرية متناثرة في ارجاء الولايات المتحدة · وهكذا قذف بـ « دوبوا » و « وودز » في غياهب السجن في بورتوريكو ، على حين قذف بأيفرهارد وميريواذر في الكاتراز Alcatraz ، وهي جزيرة في خليج سان فرانسسكو كانت السلطات قد اتخذت منها ، منذ عهد بعيد ، سجنا عسكريا ·

الرفاق ـ التهمة القائلة بأنهم هم الذين فجروا القنبلة في الكونغرس · وفي ميسوري ان اقول في صراحة ، من غير ما تحفظ او شك مهما يكن نوعه ، ان الاشتراكيين داخل الكونغرس وخارجه لم تكن لهم يد في المسألة · اننا لا نعرف من الذي القى القنبلة ، ولكن الشيء الذي نعرفه معرفة اليقين هو اننا نحن لم نلقها ·

ومن ناحية ثانية ، فثمة بينة تفيد ان العقب الحديدية كانت مسؤولة عن الحادث · نحن لا نستطيع ان نثبت ذلك طبعا ، واستنتاجنا هو استنتاج حدسي ليس غير · ولكن هي ذي بعض الحقائق التي نعرفها جيدا · لقد نمي الى رئيس المجلس ، على لسان عملاء الحكومة السريين ، ان اعضاء الكونغرس الاشتراكيين كانوا على وشك اللجوء الى اصطناع الاساليب الارهابية ، وانهم اتفقوا على اليوم الذي سيعمدون فيه الى وضع خطتهم موضع التنفيذ · وكان ذلك اليوم هو الانفجار ذاته · وهذا هو السبب الذي من اجله ملئت ارجاء « الكابيتول » بالقوات المسلحة مقدما · واذا كنا لا نعرف شيئا عن القنبلة ، واذ كانت القنبلة قد فجرت فعلا ، واذ كانت السلطات قد استعدت مقدما للانفجار ، فليس من الظلم في شيء ان نستنتج بأن العقب الحديدية كانت تعرف · وفوق هذا ، فنحن نتهم العقب الحديدية بارتكاب العدوان ، وبأنها بيتت ذلك العدوان واقترفته ابتغاء القاء وزر الجريمة على كواهلنا وابتغاء تحطيمنا والقضاء علينا ·

ومن رئيس المجلس تسرب ذلك التحذير الى جميع الصنائع الاعضاء في الكونغرس ، الصنائع المرتدين الكسوة القرمزية · لقد عرفوا ، فيما كان ارنست يتكلم ، ان عملا عنيفا ما سوف يقترف · وانصافا لهم اقول انهم اعتقدوا في اخلاص ان ذلك العمل العنفي سوف يقترفه الاشتراكيون · وفي المحكمة ، شهد جمهرة منهم ، في ايمان صادق ايضا ، انهم رأوا ارنست يستعد لالقاء القنبلة ، وانها انفجرت قبل الاوان · انهم لم يروا شيئا من ذلك طبعا · لقد توهموا ، تحت وطأة الخوف وخيالاته المحمومة ، انهم رأوا ذلك · هذا كل ما هنالك ·

وكما قال ارنست خلال المحاكمة : « هل يعقل ، لو كنت اعتزم القاء قنبلة ، ان اختار لهذا الغرض مفرقعة صغيرة واهنة كتلك التي القيت ؟ كان القدر الكافي من البارود يعوزها · ولقد احدثت سحابة كثيفة من الدخان ، ولكنها لم تؤذ احدا غيري · لقد انفجرت عند قدمي مباشرة ومع ذلك فانها

لم تقتلني · صدقوني اذا قلت لكم انه خليق بي ، لو عمدت الى القاء القنابل ، ان أوقع اذى كبيرا · اجل ، لو عمدت الى ذلك اذن لكان في قنابلي شيء اكثر من الدخان · »

ومقابل هذا ، ذهب الادعاء الى القول بأن ضعف القنبلة كان غلطة اقترفها الاشتراكيون ، كما ان انفجارها قبل الاوان ، ذلك الانفجار الناشيء عن فقدان ارنست اعصابه واسقاطها على الارض ، كان غلطة ايضا سواء بسواء · واثباتا لهذه الدعوى تقدم عدد غير يسير من اعضاء الكونغرس فشهدوا انهم رأوا ارنست يلتمس القنبلة ويلقيها ·

اما نحن فأن احدا منا لم يدر كيف القيت القنبلة · لقد قال لي ارنست انه سمعها ورآها ، قبل لحظة من انفجارها ، ترتطم بالارض عند قدميه · لقد شهد بذلك اثناء المحاكمة ، ولكن احدا لم يصدقه · والى هذا فقد كانت المسألة كلها ، كما يعبر العامة ، ملفقة · كانت العقب الحديدية قد وطنت العزم على تدميرنا ، ولم يكن ثمة مجال للمقاومة ·

هناك مثل يقول ان الحقيقة لا بد ان تذيع · ولكني انتهيت الان الى الشك في صحة هذا القول · لقد انسلخت تسع عشرة سنة ، ورغم جهودنا التي لا تعرف الكلل لم نوفق الى اكتشاف الرجل الذي القى القنبلة فعلا · لا ريب في انه كان عميلا من عملاء العقب الحديدية ، ولكنه استخفى عن اعين الباحثين عنه · اننا لم نهتد قط الى مفتاح يمكننا من معرفة هويته · والان ، وبعد هذه السنوات كلها ، لم يبق الا ان تأخذ المسألة مكانها بين ألغاز التاريخ · ٩٥

---

٩٥ كان ينبغي لأيفيس ايفرهارد ان تعيش أجيالا عديدة قبل أن ترى الى هذا اللغز يحل ويجلى · فمنذ أقل من مئة عام ، وبعد اكثر من ستمئة سنة على وفاتها اكتشف اعتراف « برفايز » Pervaise في محفوظات الفاتيكان السرية · ولعل من الخير ان نتحدث هنا قليلا عن هذه الوثيقة الغامضة التي لا تهم ، في الجملة ، الا المؤرخ ·

كان برفايز أميركيا من أصل فرنسي · وفي عام ١٩١٣ للميلاد كان نزيل سجن « تومز بريزون » في مدينة نيويورك ، ينتظر المحاكمة بتهمة القتل · ومن اعترافه نفهم انه لم يكن مجرما محترفا · كان رجلا انفعاليا حاد الطبع حار الدماء · وفي نوبة مجنونة من نوبات الغيرة قتل برفايز زوجته ـ وهو عمل كان مألوفا في ذلك العصر · واستبد خوف الموت بـ « برفايز » ، كما ورد ، على نحو مفصل ، في

اعترافه · ولقد كان مستعدا ، في سبيل النجاة من حكم الموت ، لان يقدم على أيما عمل مهما يكن ، ولقد أعده رجال الشرطة السريون لذلك بأن اكدوا له ان المحكمة لا بد ستدينه بجريمة القتل العمد · وكان القتل العمد في تلك الايام جزاؤه الموت· فكان المذنب (أو المذنبة) يجلس على « كرسي موت » صنع خصيصا لهذا الغرض، وتسلب منه الحياة ، بتيار كهربائي ، تحت اشراف أطباء أكفاء · وكان ذلــك يدعى الاعدام الكهربائي electrocution ، وكان ذا شعبية واسعة في ذلك العهد· أما التخدير ، كوسيلة من وسائل المو تالالزامي ، فلم يصطنع الا في ما بعد ·

هذا الرجل ، الذي كان طيبا في جوهره برغم البهيمية الضارية التي علــت سطح وجوده ، والذي كان يقضي ساعاته الاخيرة وراء قضبان السجن غيــر متوقع ايما شيء أقل من الموت ، أقنعه عملاء العقب الحديدية بالقاء القنبلة فــي مجلس النواب · وقد نص في اعترافه ، نصا صريحــا ، علــى انهم أخبروه أن القنبلة سوف تكون شيئا ضعيفا وانه لن ينشأ عنها أي خسارة في الارواح · وهذا ينسجم انسجاما تاما مع الحقيقة التي عرفها الناس آنذاك وهي أن القنبلة كانت ضئيلة الشحنة وأن انفجارها عند قدمي ايفرهارد لم يكن مميتا ·

وهرب برفايز الى احدى شرفات الكونغرس الموصدة ، ظاهريا ، لاجراء شيء من الترميم فيها · وكان عليه أن يختار بنفسه اللحظة المناسبة لالقاء القنبلــة ، وهو يعترف في سذاجة انه كاد ينسى المهمة الموكولة اليه في غمرة من استمتاعــه بالحملة التي شنها ايفرهارد وبالفوضى الشاملة التي نشأت بسببهــا ·

ولم تكتف العقب الحديدية باطلاق سراحه من السجن مكافأة له على فعلته ، بل منحته فوق ذلك دخلا دائما مدى الحياة · ولكنه لم ينعم بذلك فترة طويلة · ففي أيلول (سبتمبر) ١٩١٤ اصيب بروماتزم حادة فيالقلب لمتمهله غير أيامثلاثة· وعندئذ استدعى الكاهن الكاثوليكي ، الاب بيتر دوربان ، وأدلى اليه باعترافه · وبدا الاعتراف ذا أهمية بالغة في نظر الكاهن فآثر أن يدونه تدوينا وأن يقســم المحتضر على صحته · أما ما حدث بعد ذلك فلسنا نعرفه الا بالحدس والظن · ولا ريب في أن وصول الوثيقة الى رومة يؤذن بأن القوم اعتبروها ذات خطورة بالغة · ولا ريب ايضا في أن قوى كثيرة حاولت أن تطمسها منذ ذلك الحين · وطوال قرون متواصلة ظل العالم في جهل مطبق من أمرها · حتى اذا كان القرن الماضي عثر عليها العلامة الايطالي ، لوربيا ، مصادفة ، فيما كان يقوم بدراساته وتحقيقاته في الفاتيكان ·

وليس ثمة ، اليوم ، أيما ريب البتة في أن العقب الحديدية كانت هي المسؤولة

عن القاء القنبلة التي انفجرت في مجلس النواب عام ١٩١٢ لميلاد المسيح · وحتى لو لم ير اعتراف برفايز النور قط فلا مجال لبقاء أيما شك معقول في مسؤوليتها هذه · ذلك بأن الفعلة التي نحن بصددها ، والتي قذفت باثنين وخمسين مـــن رجال الكونغرس في غياهب السجن ، كانت شبيهة الى حد بعيد بفعلات اخـرى لا تعد ولا تحصى ارتكبها الاوليغاركيون في ذلك العهد ، وارتكبها الرأسماليون قبل ذلك ايضاً ·

ومن الامثلة الكلاسيكية على ذلك مصرع تلك الفئة البريئة التي دعيت بفوضويي سوق التبن في تشيكاغو ـ وكان مصرعا قضائيا ضاريا طائشا ـ في العقد قبل الاخير من القرن التاسع عشر للميلاد · أما احراق الممتلكات الرأسمالية وتدميرها احراقا وتدميرا متعمدا من جانب الرأسماليين أنفسهم فينبغي اعتبارهما ضربـــا من الاجرام قائما بنفسه · وما أكثر ما عوقب أناس أبرياء على مثل هذا الاحراق والتدمير · لقد كان القوم يتخلصون من اولئك الابرياء بارسالهم الى السجن بتهم زائفة أي كانوا ـ اذا أردنا أن نستعمل لغة ذلك العصر ـ « يشحنونهم » ظلمـا وعدوانـا rail-roaded.

وفي الاضرابات العمالية التي نشبت في العقد الاول من القرن العشرين بيـن الرأسماليين واتحاد عمال المناجم الغربي ، اصطنعت اساليب مماثلة ولكنها اكثر تعطشا للدم · فقد نسف عملاء الرأسماليين محطة السكة الحديدية في اينديباندس فقتل ثلاثة عشر شخصا وجرح اكثر من ذلك بكثير · وعندئذ عمد الرأسماليون ـ وكانوا يسيطرون على الاجهزة التشريعية والقضائية في ولاية كولورادو ـ الـى اتهام عمال المناجم بهذه الجريمة وكادوا يوفقون الى ادانتهم · وتفصيل الامـر ان رجلا اسمه روماينز Romaines ، احد الآلات التي سخرت في هذه القضية، كان ملقى به ـ مثل برفايز ـ في سجن من سجون ولاية اخرى ، كانساس ، في انتظار المحاكمة ، عندما اتصل به عملاء الرأسماليين السريون · ولكن اعتراف رومانيز ـ على عكس اعتراف برفايز ـ نشر على الملا في نفس العصر الذي عاش فيــه ·

ثم كانت ، خلال هذه الفترة نفسها ، قضية « مويار » و « هايوود » ، وكانا زعيمين قويين جريئين من زعماء العمال · كان احدهما رئيسا والآخر سكرتيرا لاتحاد عمال المناجم الغربي · وكان حاكم ايداهو السابق قد صرع في ظروف غامضة · واتهم الاشتراكيون وعمال المناجم ، آنذاك ، اصحاب المناجم بهـذه الجريمة اتهاما صريحا · ومع ذلك فقد تآمر حاكما ايداهو وكولورادو وعمـــلا

على اختطاف « مويار » و « هايوود » منتهكيــن بذلك دستور البلاد ودستوري الولايتين وقذفا بهما في السجن بتهمة القتل · وكانت هذه المناسبة هي التي دعت اوجين · ف· ديبس Debs ، زعيم الاشتراكيين الاميركيين في ذلك العصر ، الى القول : « ان الزعماء العماليين الذين يمتنعون على الرشوة والترهيب يجب ان تنصب لهم الكمائن ويصرعوا · ان جريمة « مويار » و « هايوود » الوحيـــدة هي انهما اخلصا لطبقتهما العمالية اخلاصا لا يعرف الميل او الانحراف · لقــد سرق الرأسماليون بلادنا ، وأفسدوا سياستنا ، ولوثوا قضاءنا وعاملونا في غير ما شفقة ولا فهم ، وهــا هم الان يقترحون أن يقتلوا كل من لا يستسلم بدنــاءة لسيطرتهم الوحشية · ان حاكمي كولورادو وايداهو لم يزيدا على ان نفذا اوامر أسيادهمــا : البلوتوقراطييــن · والقضيــة اليــوم هــي : « العمـــال » ازاء « البلوتوقراطية » · واذا ما اختارت البلوتوقراطية ان تضرب هي الضربة العنيفة الاولى ضربنا نحن الضربة الاخيرة · »

الفصل الثامن عشر

في ظـل سونومـا

اما في ما يتصل بي انا شخصيا ، خلال هذه الفترة ، فليس لدي شيء كثير أقوله · لقد ابقيت في السجن ستة اشهر ، برغم ان السلطة لم توجه الي ايما تهمة · لقد كنت مشتبها في أمري – وهو تعبير ترهيبي سرعان ما قدر لجميع الثوريين ان يعرفوه · ولكن جهازنا السري الناشىء كان قد بـــدأ نشاطه · ففي اواخر الشهر الثاني من شهور سجني عرفني احد السجانين الى نفسه بوصفه ثوريا متصلا بالمنظمة · وبعد أسابيع عدة عرفت في جوزيف باركهورست ، الذي اسند اليه قبيل اعتقالي منصب طبيب السجن ، عضــوا في احدى « الزمر المقاتلة » ·

وهكذا كانت منظمتنا الخاصة قد اخذت تندس ، على نحو عنكبوتــي متشعب ، في منظمة الاوليغاركية برمتها · وهكذا ابقيت على علم بكل ما كان يحدث في العالم الخارجي · وفوق هذا ، فقد كان كل من زعمائنا المسجونين على اتصال مع رفاق شجعان متنكرين في كسوة « العقب الحديدية » · وعلى الرغم من ان ارنست كان نزيل سجن يقع على مبعدة ثلاثة الاف ميل ، علـــى شاطىء المحيط الهادىء ، فقد كنت على اتصال به غير منقطع ، وكنا نتبـــادل الرسائل على نحو نظامي ·

كان في ميسور الزعماء ، داخل السجن وخارجه ، ان يناقشوا الحملــة ويوجهوها · لقد كان في امكاننا ، خلال بضعة اشهر ، ان ننقذ بعضهم مــن السجن ، ولكننا قررنا – بعد ان وجدنا ان السجن لا يعوق نشاطاتنا البتــة –

ان نجتنب ايما عمل خطير • كان اثنان وخمسون من اعضاء الكونغرس في السجن ، وثلاثمئة اخرون من زعمائنا ايضا • ولقد استقر رأينا على ضرورة انقاذهم كلهم في آن معا • اذ لو فر فريق منهم اذن لاستثير حذر الاوليغاركيين فعمدوا الى الحيلولة دون فرار سائرهم • ومن ناحية ثانية فقد ذهبنا الى الاعتقاد بأن انقاذ زعمائنا من سجونهم المنتشرة في طول البلاد وعرضها انقاذا جماعيا متواقتا جدير بأن يخلف في البروليتاريا اثر سيكولوجيا ضخما • لقد كان خليقا به ان يظهر مدى قوتنا وان يمنحنا الثقة بنفسنا •

وهكذا تم الاتفاق ، حين اطلق سراحي عند انقضاء الاشهر الستة ، على ان اتوارى عن الانظار واعد مخبأ امنا لارنست • ولم يكن التواري ، في ذات نفسه ، أمرا هينا • فما ان نعمت بحريتي حتى راح عيون « العقب الحديدية » وجواسيسها يتعقبون خطواتي • وكان علي قبل كل شيء ان اضللهم ، وان اوفق الى بلوغ كاليفورنيا • وان الطريقة التي انجزت بها ذلك لتثير الضحك حقا •

وكانت السلطات قد شرعت في اصطناع نظام الجوازات ، المضروب على الفرار الروسي • ولم أجرؤ على اجتياز القارة بشخصيتي الحقيقة • فقد كان متحتما على ان أتنكر تنكرا كاملا اذا ما طمعت في رؤية ارنست من جديد لانه كان خليقا بعملاء السلطة ، من طريق تعقبي بعد فراره ، ان يلقوا عليه القبض كرة اخرى • والى هذا فلم يكن في ميسوري ان اتنكر كامرأة بروليتارية وأمضي لسبيلي • فلم يبق الا ان اتنكر في زي عضو من اعضاء الاوايغاركية • فبينا كان الاوليغاركيون الاقطاب مجرد حفنة من الرجال ليس غير ، كان ثمة الاف مؤلفة من الاوليغاركيين الصغار ، كمستر ويكسون مثلا — رجال يسوون بضعة ملايين من الدولارات ، رجال كانوا اتباعا للاوليغاركيين الاقطاب • وكان عدد زوجات هؤلاء الاوليغاركيين الصغار وبناتهم ضخما من غير ريب ، فاستقر الرأي على ضرورة تنكري في زي واحدة منهن • ولقد كان خليقا بهذا الصنيع ، لو قمت به بعد بضع سنوات ، ان يكون متعذرا ، لان نظام الجوازات كان قد امسى محكما الى درجة لم يبق معها في البلاد كلها رجل واحد — بل لم تبق امرأة واحدة وطفل واحد — غير مسجل وغير خاضع في حركاته وسكناته لمراقبة دقيقة •

وعندما آن الاوان وفقت الى تضليل الجواسيس • وبعد ساعة ليس غير لم يكن لايفيس ايفرهارد وجود • في تلك اللحظة كانت امرأة تدعى فيليس فان

فيرديفان ، تصحبها خادمتان وكلب صغير وخادمة اخرى للكلب الصغير ٩٦ تدخل مقصورة من مقاصير « البولمان » ٩٧ ، وبعد بضع دقائق كانت تنطلق مسرعة في اتجاه الغرب ٠

وكانت الخادمات الثلاث اللواتي رافقنني ثوريات ٠ اثنتان منهن كانتا من « الزمر المقاتلة » ، والثالثة ـ غرايس هولبروك ـ انضمت الى واحدة من تلك الزمر في السنة التي تلت ، وبعد ستة اشهر اعدمتها « العقب الحديدية » ٠ كانت هي التي تولت امر العناية بالكلب ٠ ومن الاثنتين الاخريين اختفت « بيرتا ستول » بعد اثنتي عشرة سنة ، بينا لا تزال آنا رويلستون تحيا ولا تزال تلعب دورا ذا اهمية متعاظمة في الثورة ٠ ٩٨

وفي غير ما مغامرة عبرنا الولايات المتحدة الى كاليفورنيا ٠ وحين توقف القطار في المحطة السادسة عشرة ، في اوكلاند ، ترجلنا ، وهناك اختفت فيليس فان فيرديغهان ، مع خادمتيها وكلبها الصغير وخادمة كلبها الصغير ٠٠ اختفت الى الابد ٠ لقد ابعدت الخادمتان ، يقودهما رفاق موثوقون ، عن

---

٩٦ هذه الصورة الساخرة تصور أحسن تصوير مسلك الاسياد الخالين من الرحمة ٠ فبينا كان الناس يتضورون جوعا كان هؤلاء الاسياد يعهدون الى الخادمات في العناية بأمر كلابهم الصغيرة ٠ وكان هذا التنكر ، من جانب ايفيس ايفرهارد ، تنكرا جديا ٠ فقد كانت حياتها وحياة القضية الاشتراكية كلها معرضتين لاعظم الخطر ٠ ومن هنا يتعين علينا أن نقبل هذه الصورة بوصفها صورة صحيحة ٠ انها تقدم الينا شرحا رائعا لروح العصر ٠

٩٧ Pullman ـ علم يطلق على حافلات السكة الحديدية الاكثر أناقة في ذلك العصر ، وقد عرفت بذلك على اسم مخترعها ٠

٩٨ رغم المخاطر الموصولة التي يكاد العقل يعجز عن تصورها فقد عاشت آنا رويلستون حتى سن الحادية والتسعين الملكية ٠ وكما تحدى آل بيكوك جلادي « الزمر المقاتلة » كذلك تحدت هي جلادي « العقب الحديدية » ٠ كانت في برديها « روح مسحورة » فهي قادرة على النجاة من دروب المخاطر على اختلافها ٠ وكانت هي نفسها جلادا من جلادي « الزمر المقاتلة » ، ولقد أصبحت ـ وهي التي عرفت بالعذراء الحمراء ـ احدى شخصيات الثورة الملهمة ٠ وحين أمست امرأة عجوزا في التاسعة والستين من عمرها صرعت بنارها هالكليف « الدموي » وسط حاشيته المسلحة وولت فرارا من غير أن يمسها سوء ٠ وفي النهاية ماتت حتف أنفها موت الشيخوخة في ملجأ سري من ملاجىء الثوار في جبال اوزارك ٠

الانظار · على حين تولى اخرون امر العناية بي · وما ان انقضت نصف ساعة على مغادرتي القطار · حتى كنت على متن زورق صيد صغير ينساب بي فوق مياه خليج سان فرانسسكو · وهبت الرياح فعاقت سير الزورق ، فاذا بنا نهيم على وجهنا معظم ساعات الليل · ولكني لمحت اضواء الكاتراز حيث كان ارنست طريح السجن ، فوجدت عزاء في مجرد التفكير بأني امسيت على مقربة منه · ومع الضحى ، وبفضل تجذيف الصيادين ، انتهينا الى جزر مارين Marin · وهنا بقينا متوارين عن الانظار طوال النهار ، وفي الليلة التالية ساقنا مد عارم ونسيم عليل فاجتزنا خليج سان بابلو في ساعتين اثنتين ، ورحنا نصعد في نهر « بيتالوما » الصغير ·

وهنا كانت في انتظارنا خيول ورفيق اخر ، وفي غير ما تأخر انطلقنا تحت ضياء النجوم · والى الشمال كان في امكاني ان المح جبل سونوما الذي كانت خيلنا تعدو بنا نحوه · لقد تركنا بلدة سونوما القديمة عن يميننا وصعدنا في واد قائم بين اكتاف الجبل · وأمست طريق العربات طريق غابات ، وأمست طريق الغابات مجاز بقر ، وتضاءل مجاز البقر وانتهى عند المراعي القائمة في المرتفعات · وصعدنا قدما في جبل سونوما · لقد كانت هي اسلم الطرق وآمنها · ولم يكن ثمة من يلحظ مرورنا ·

وادركنا الفجر فوق انف الجبل الشمالي · وفي غمرة من الضياء الاشهب هبطنا الدغل الى اودية « الشجر الاحمر » العبيقة الدافئة بنسيم الصيف المتقضي · وكانت تلك الديار وطنا قديما بالنسبة الي ، وطنا عرفته واحببته ، وسرعان ما اصبحت انا دليل الرفاق · لقد اختبرت المخبأ بنفسي · وازلنا الحواجز ، وعبرنا مرجا مرتفعا · ثم اننا انطلقنا فوق سلسلة من الهضاب منخفضة مكسوة بشجرات السنديان ، وهبطنا نحو مرج اصفر · ثم اننا عدنا فارتقينا سلسلة من الهضاب ، منطلقين هذه المرة تحت شجرات المادرونيا الحمراء الثمار ، وشجرات المانزانيتا ذات الثمار الاشد حمرة · وتدفقت اشعة الشمس الاولى على ظهورنا فيما كنا نرتقي الهضاب · وداعب سرب من السماني اوتار الادغال · وعبر طريقنا أرنب بري ضخم كان يثب في رشاقة وصمت وكأنه ايل · ثم ان وعلا متعدد القرون تومض الشمس ذهبية حمراء من جيده وكتفيه ، شق امامنا الطريق ، وسط الاشجار الملتفة عند اعلى الهضبة ، ومضى لسبيله ·

وتبعنا اثاره · ثم هبطنا شعبا متعرجا ما لبث ان تنكبه متجها نحو مجموعة نبيلة من « الشجر الاحمر » قائمة حول بركة ماء داكنة بالمواد

المعدنية من سفح الجبل ٠ لقد عرفت كل انش من الطريق ٠ فقد كان كاتب من اصدقائي يملك ذلك الرنش * في يوم من الايام ، ولكنه هو الاخر كان قد أمسى ثائرا من الثوار ، وان يكن الرزء الذي اصابه من جراء ذلك اعظم من الرزء الذي اصابني ، ذلك بأنه كان قد مات وانتهى ، من غير ان يعرف احد اين مات وكيف ٠ وكان هو وحده ، في الايام التي عاشها ، يعرف سر المخبأ الذي كنت اقصد اليه ٠ كان قد اشترى « الرنش » لروعة جماله ، ودفع مبلغا ضخما فيه ، اثار استنكار المزارعين المحليين ٠ وكان من دأبه ان يتحدث واصفا في كثير من الحبور كيف كانوا يهزون برؤوسهم ، على نحو مأتمي، حين يسمعون بالثمن لكي يجروا شيئا من الحساب الذهني وليقولوا بعد ذلك : « ولكنك لن تستطيع ان تكسب منها ريعا مقداره ستة في المئة ٠ »

ولكنه كان قد مات الان ، من غير ان ينتقل « الرنش » الى اولاده ٠ لقد امسى اليوم ملكا لمستر ويكسون الذي يملك جميع المنحدرات الشرقية والشمالية من جبل سونوما ، الممتدة من اراضي « سبريكلز » الى هضبة وادي بينيت ٠ وكان قد صنع من تلك المساحة الكبيرة حديقة رائعة للايائل حيث كان الايل يجري ، فوق الاف الفدادين من المنحدرات العذبة والاودية والمجازات الخضراء وسط الغابات ، وكأنه في فلاة بدائية تقريبا ٠ كان اصحاب الارض السابقون قد طردوا منها ٠ وكان احد المصحات الرسمية المخصصة للمعتوهين قد هدم ايضا لكي يتسع المجال امام الايل فيروح ويجيء في حرية بالغة ٠

وتتويجا لهذا كله ، كان كوخ ويكسون الصيدي قائما على مبعدة ربع ميل من مخبأي ٠ ولقد كان في هذا ، بدلا من ان يكون خطرا ، امن اضافي ٠ والواقع اننا احتمينا خلف ترس احد الاوليغاركيين الصغار ، اجل خلف ترس احد الاوليغاركيين الصغار ، ومن هنا اطرح الارتياب جانبا بسبب من طبيعة الوضع ٠ فقد كانت حديقة ويكسون الايائلية هي اخر موطن في العالم يخطر لجواسيس العقب الحديدية ان يبحثوا فيه عني وعن ارنست حين يلتحق بي ٠

وربطنا خيلنا الى جذوع « الشجر الاحمر » ، عند البركة ٠ ومن مخبأ للمؤونة خلف قرمة خشب جوفاء مهترئه اخرج رفيقي جمهرة من الاشياء — كيس دقيق يزن خمسين رطلا انكليزيا ، واغذية معلبة من مختلف الصنوف ، وآنية طهو ، وبطانيات ، ومشمعات من الخيش وكتبا وادوات كتابة ، ورزمة كبيرة من الرسائل ، وصفيحة كيروسين تسع خمسة غالونات ، واخيرا — وهي

---

* ranch ارض واسعة تفرد لتربية الخيل والبقر في براري اميركة وغيرها ٠ (المعرب)

اهمها جميعا ـ لفة كبيرة من حبال متينة · وكانت الاشياء المدخرة موفورة جدا ، حتى لقد كان خليقا بنقلها الى الملجأ ان يقتضينا عددا من الرحلات ·

ولكن الملجأ كان دانيا جدا · واذ حملت لفة الحبال وسرت في المقدمة اجتزت ممرا تحف به العرائش والعليقات المتشابكة الممتدة بين اكمتين تكسوهما الاشجار · وانتهى الممر ، على نحو مفاجيء ، عند ضفة جدول شديدة الانحدار · كان جدولا صغيرا تمده عيون وينابيع ، ولقد عجزت اشد فصول الصيف حرارة عن تجفيفه · والى اليمين والشمال كانت اكام سامقة مكسوة بالاشجار ، مجموعة من الاكام تخيل الى الناظر وكأنها انبثقت هناك من يد مارد لا مبال · لم يكن في تلك الاكام ايما أساس صخري · لقد ارتفعت من قواعدها مئات الاقدام ، وكانت تتألف من تربة بركانية حمراء ، من تربة سونوما الخمرية الشهيرة · وخلال تلك الاكام كان الجدول الضئيل قد شق مجراه العميق الشديد الانحدار ·

كان علينا ان نهبط الى قاع الجدول حبوا ، حتى اذا بلغناه هبطنا الجدول نحوا من مئة قدم · ثم اننا انتهينا الى الجحر الكبير · لم يكن ثمة ما يؤذن بوجود جحر ، لا ، ولم يكن ذلك الجحر جحرا بمعنى الكلمة المألوف · كان على المرء ان يزحف وسط العواسج والاغصان الملتفة ليجد نفسه فجأة عند الحافة نفسها يحدق من خلال ستار اخضر · كان طوله نحوا من مئتي قدم ، وكان عرضه مثل ذلك · أما عمقه فكان مئة قدم · واغلب الظن ان الجحر انما جوف باندفاع المياه طوال قرون وقرون بسبب من خطأ حدث عندما انبثقت الآكام ، وليس من ريب في أن تعرية شاذة ، او تآكلا شاذا ، قد ساعدت على ذلك · ولم تكن عين الناظر لتقع في ايما مكان على أرض خام · كانت كلها مكسوة بالخضرة ، ابتداء من « كزبرة البئر » الضئيلة والخنشار الذهبي الظهر الى « الشجر الاحمر » وشجرات التنوب الفضي الجبارة · بل لقد انبثقت هذه الشجرات الضخام من جدران الجحر نفسها وانحنى بعضها بحيث شكل زاوية عريضة لا تقل عن خمسة واربعين درجة بالرغم من ان كثرتها سمقت على نحو مستقيم من الجدران الترابية الناعمة شبه العمودية ·

لقد كان مخبأ مثاليا · ان احدا لم يكن ليختلف قط الى هناك ، حتى صبيان قرية « غلين آلين » انفسهم · ولو قد كان هذا الجحر في قعر واد يبلغ طوله ميلا او عدة اميال اذن لعرفه الناس معرفتهم لشيء شهير · ولكنه

لم يكـــن في قعر واد • فمن أوله حتى آخره لم يكن طول الجدول ليزيد علـى خمسمئة ياردة • فعلى مسافة ثلاثمئة ياردة فوق الجحر انبثق الجدول ينبوعا من جوف مرج منبسط • وعلى مبعدة مئة ياردة من الجحر جرى الجدول الى الارض الفضاء ، منضمـا الى الجدول الرئيسي ومتدفقا عبر بقعة معشوشبة ذات منحدرات رفيقة •

وشد رفيقي طرف الحبل حول شجرة من الاشجار ، وشد طرفه الاخـر حولي ، فرحت اتدلى نحو القاع • وما هي الا فترة يسيرة حتى بلغته ، وحتى كان هو قد نقل جميع الاغراض من مخبأ المؤن ودلاها الي • ثم انـــه سحب الحبل واخفاه ، وقبل ان يمضي لسبيله وجه الي كلمة وداع بهيجة •

وأحب قبل المضي في سرد قصتي ان اقول كلمة في هذا الرفيق ، جـون كارلسون ، وهو شخصية متواضعة من شخصيات الثورة ، وأحد رجالهـــا المغمورين المخلصين الذين كانوا يمتنعون على العد والاحصاء • والواقـع أننا صعدنا في جبل سونوما ممتطيين جوادين من جياد ويكسون • لقد سلخ ، جون كارلسون ، الان ، نحوا من عشرين عاما وهو يتولى حراسة ذلك الملجأ• ولست اشك في ان طيف الخيانة لم يراود ذهنه قط خلال هذه الفترة كلها • لقد كان التقصير في اداء المهمة التي وكلت اليه شيئا يعجز عن تصوره • كان بارد الطبع بليدا الى درجة تجعل المرء لا يتمالك عن التعجب كيف جاز ان يكون للثورة اي معنى عنده على الاطلاق • ومع ذلك فقد تأجج حب الحريـة قائما راسخا في روحه الغبشاء • والحق ان ايثاره الاناة وحاجته الى الخيال الواسع كانا ، من بعض النواحي ، شيئا حسنا • فهو لم يضع صوابه البتة ، ولقد كان قادرا على اطاعة الاوامر • انه لم يكن لا فضوليا ولا مهذارا • ولقد سألته ذات مرة كيف اتفق له ان أمسى رجلا ثائرا ، فأجاب :

ــ « كنت في صباي جنديا ، وكان ذلك في المانية • فهناك كان على جميع الشبان ان ينضووا تحت لواء الجيش • وهكذا انضويت انا • وهناك كـان جندي اخر ، فتى في ريعان الشباب ايضا • كان ابوه من تلك الفئة التي يدعونها فئة المهيجين ، وكان ابوه هذا طريح السجن بتهة العيب في الذات الملكية ــ ما تسمينه قول كلمة الحق في الامبراطور • وتحدث الي الفتى ، الابن ، كثيرا عن الشعب ، والعمل ، وكيف كان الرأسماليون يسرقون الشعب • لقد جعلني ارى الاشياء بطرائق جديدة ، فأصبحت اشتراكيا • كان حديثه صحيحا جـــدا وصالحا جدا ، واني لم انسه قط • وحين وفدت على الولايات المتحدة رحت ابحث عن الاشتراكيين • واصبحت عضوا في احدى الشعب ــ كان ذلك أيام

كان الحزب يعرف بالـ (S.L.P.) وبعد ذلك ، حين حدث الانشقاق ، انضممت الى الشعبة المحلية من الحزب الاشتراكي (S.P.) ٠ كنت آنذاك اعمل في اسطبل عمومي في سان فرانسيسكو ٠ وكان ذلك قبل الزلزال ٠ ولقد دفعت الرسوم المفروضة علي طوال اثنتين وعشرين سنة ٠ وأنا لا أزال عضوا الى اليوم ، ولا أزال أدفع رسومي ، على الرغم من ان نشاطي أمسى الان سريا جدا ، ولسوف ادفع هذه الرسوم أبد الدهر ، ولسوف تغمرني السعادة حين تقوم الجمهورية التعاونية » ٠

حتى اذا تركت وشأني شرعت أعد طعام الصباح على الوجاق البترولي ، وارتب مثواي ٠ وكثيرا ما كان كارلسون يهبط متسللا الى الملجأ ، وفي الصباح المبكر او بعد هبوط العتمة ، ويعمل طوال ساعتين اثنتين ٠ وفي البدء كان المشمع هو مثواي ٠ وفي ما بعد نصبت خيمة صغيرة ٠ حتى اذا امسينا على ثقة من ان المكان آمن شيد بيت صغير ٠ وكان هذا البيت محجوبا حجبا كاملا عن ايما عين « عابرة » قد تختلس النظر من حافة الجحر ٠ وكانت النباتات الريا التي كست تلك الرقعة المظللة تشكل مجنا طبيعيا ٠ وانما شيد البيت تلقاء الجدار العمودي ٠ وفي الجدار نفسه ، المدعم بأخشاب قوية ، والمزود بأسباب التهوية وتصريف الماء على نحو حسن ، حفرنا غرفتين صغيرتين ٠ اوه ، وصدقوني اذا قلت اننا نعمنا بأسباب رفه كثيرة ٠ وحين اقبل بدينباتش، الارهابي الالماني ، واختبأ معي بعد ذلك بقليل اقمنا وسيلة مستنبطة لاستهلاك الدخان مكنتنا من الاصطلاء بنار الحطب المطقطقة في ليالي الشتاء ٠

وهنا يتعين علي ان اقول كلمة طيبة في ذلك الارهابي الدمث النفس الذي اسيء فهمه الى حد رهيب اكثر مما اسيء فهم ايما رفيق من رفاقنا ٠ ان الرفيق بيدينباتش لم يخن القضية ٠ لا ، ولم يصدر الرفاق حكما عليه بالاعدام كما يتوهم الناس ٠ تلك فرية روجها صنائع الاوليغاركية ٠ لقد كان الرفيق بيدينباتش شارد اللب كثير النسيان ٠ ولقد مات برصاص واحد من حرسنا عند « الملجأ ـ الكهف » في كارمل ، بسبب من نسيانه كلمة السر ٠ كان ذلك مجرد غلطة محزنة ٠ اما القول بانه خان « زمرته المقاتلة » فكذبة بلقاء ٠ والحق انه لم يخدم القضية رجل اكثر منه اخلاصا واصدق ولاء ٩٩ ٠

---

٩٩ لقد قمنا ببحث مضن عن حقيقة بيدينباتش هذا في جميع ما خلفته لنا تلك العهود من آثار مكتوبة فلم نهتد الى شيء ٠ ان ذكره لم يرد في أي من تلك الآثار ، ما خلا مخطوطة ايفرهارد ٠

لقد انقضت الان تسع عشرة سنة والملجأ الذي اصطفيته آهل على نحو موصول تقريبا ٠ وطوال هذه الفترة خلا مرة واحدة لم يكتشفه رجل غريب البتة ٠ ومع ذلك فقد كان يقع على مبعدة ربع ميل ليس غير من كوخ ويكسون الصيدي ، وعلى مسافة ميل واحد من قريـة غلين آلين ٠ ولقد كان فـي ميسوري ، دائما ، ان اسمع قطر الصبـاح والمساء ، تروح وتجيء ، ولقـد كان من دأبي ان اضبط ساعتي على الصفارة المنبعثة من الفناء الذي يصنـع فيه الآجر ١٠٠ ٠

---

١٠٠ اذا ما انعطف الرحالة الطلعة جنوبا من قرية غلين ايلين فعندئذ يجد نفسه على جادة هي عين تلك الطريق الريفية القديمة التي امتدت هناك منذ سبعة قرون ٠ فعلى ربع ميل من غلين آلين ، بعد أن يجتاز الجسر الثاني ، يلاحظ الى يمينه واديا ضيقا شديد الانحدار يمتد مثل ندبة عبر الارض المتموجة نحو سلسلة من الروابي المكسوة بالاشجار ٠ وهذا الوادي الضيق هو موضع الطريق العامة القديمة التي كانت تجري ، في أيام الملكية الخاصة للاراضي ، عبر ممتلكات رجل يدعى شوفيه ، وهو رائد فرنسي من رواد كاليفورنيا وفد من وطنه الاول في عهود الذهب الاسطورية ٠ والروابي المكسوة بالاشجار هي عين تلك الروابي التي أشارت اليها آيفيس ايفرهارد ٠

والواقع ان الزلزال العظيم الذي وقع عام ٢٣٦٨ للميلاد فصل سفح رابية مـن تلك الروابي والقى به في الجحر الذي اتخذت منه آيفيس ايفرهارد وزوجها ملجأ لهما ٠ ومنذ العثور على المخطوطة أجريت حفريات واسعة أخرجت الى النور ذلك البيت ـ الغرفتين الكهفيتين ـ وكل ما تراكم ، أثر سكنى متطاولة ، من سقـط المتاع ٠ لقد عثر على كثير من الاثار النفيسة ، ومن بينها ـ وهو أمر غريب ـ تلك الاداة المستهلكة للدخان التي استنبطها بيدينباتش وتحدثت عنها الرواية ٠ وعلى الباحثين الذين يعنون بهذه الشؤون أن يطالعوا الكراسة التي وضعها آرنولد بينثام والتي ستنشر عما قريب ٠

واذا ما اجتاز المرء ميلا واحدا الى الشمال الغربي من الروابي المكسـوة بالاشجار الملتفة انتهى الى موقع « وايك روبن لودج » عند ملتقى جدولي « وايلد ووتر » و « سونوما » ٠ ويحسن بنا أن نلاحظ ، بين هلالين ، أن جدول « وايلد ووتر » كان يدعى في الاصل جدول غراهام (غراهام كريك) وانه سمي بهـذا الاسم في الخرائط المحلية القديمة ٠ ولكن الاسم المتاخر غلب على المكان ٠ وفـي

« وايك روبن لودج » عاشت آيفيس ايفرهارد ، بعد ذلك ، فترات قصيرة ، عندما تمكنت ، متنكرة في زي « عميل محرض » من عملاء العقب الحديدية ، من ان تمثل دورها ، في أمن وحصانة ، وسط الناس وأحداث الايام · والاذن الرسمي باحتلال « وايك روبن لودج » لا يزال محفوظا في السجلات ، وهو مذيل بتوقيع رجل بارز هو ويكسون ، اوليغاركي المخطوطة الصغير ·

الفصل التاسع عشر

تحـــول

كتب الي ارنست يقول : « يتعين عليك ان تخلقي نفسك خلقا آخـر · يجب ان تكفي عن أن تكوني ما أنت · ان عليك ان تصبحي امرأة اخرى ـ لا بالملابس التي ترتدينها فحسب ، بل في ما وراء جلدك الذي تحت ملابسك · يجب ان تخلقي نفسك خلقا جديدا حتى يتعذر علي انا نفسي ان اعرفك ـ صوتك ، واشاراتك ، وعاداتك ، ومسالكك ، وشجاعتك ، ومشيتك ، وكـــل شيء » ·

وأطعت أمره هذا · رحــت ادرب نفسي ، كل يوم ، طوال ساعـات عديدة ، على دفن آيفيس ايفرهارد القديمة الى الابد تحت جلد امرأة ثانيــة استطيع ان ادعوها نفسي الثانية · ولم يكن في الامكان تحقيق مثل هــذه النتائج الا بالمران الطويل · ففي تنغيم الصوت ، مثلا تمرنت علـــى نحـــو سرمدي تقريبا حتى أصبح صوت نفسي الجديدة ثابتا واوتوماتيكيا · وهذا الانتحال الاوتوماتيكي لدور ما هو الذي كان يعتبر امرا الزاميا · كان علي ان ابلغ في هذا الانتحال غاية تنتهي بي الى أن أخدع عن نفسي · وكان ذلك اشبه بتعلم لغة جديدة ، تعلم الفرنسية مثلا · ففـــي بادىء الامر يكـــون التكلم بالفرنسية عملا واعيا ، مسألة ارادة · يفكر الطالب اولا ، بالانكليزية ثـــم يترجم افكاره ـ ذهنيا ـ الى الفرنسية ، او يقرأ بالفرنسية ولكنه يترجـــم الافكار ـ ذهنيا ـ الى الانكليزية قبل ان يوفق الى الفهم · حتى اذا تضلع الطالب من اللغة ، وتمت له فيها سليقة صالحة استطاع ان يقرأ ، ويكتب ، ويفكر بالفرنسية من غير ما استعانة بالانكليزية على الاطلاق ·

وكذلك كان حالنا في تنكرنا · كان علينا ان نتمرن حتى تصبح ادوارنا المنتحلة طبيعية ، لتتطلب العودة الى نفوسنا الاصلية تدريبا للارادة ساهرا قويا · وكان كثير من ذلك ، في باديء الامر ، مجرد مران حافل بالاخطاء · فقد كنا نبتدع فنا جديدا ، وكان علينا ان نتعلم اشياء كثيرة ونكتشف اشياء كثيرة · ولكن العمل كان يجري قدما في كل مكان · كان المران قد شرع يخلق منا اساتذة في ذلك الفن ، وكانت ذخيرة من الحيل والوسائل تتجمع وتتراكم · وهذه الذخيرة امست شبه كتاب تدريسي يمره الواحد منا الى الاخر ، او قل جزءا من منهاج التعليم — اذا جاز التعبير — في مدرسة الثورة · ١٠١

وفي هذا الوقت بالذات اختفى والدي · لقد انقطعت عني رسائله ، وكانت من قبل تردني على نحو نظامي · انه لم يعد يظهر في بيتنا بـ « بيل ستريت »· وبحث رفاقنا عنه في كل مكان · ومن طريق اجهزتنا السرية نقبنا عنه في كل مكان · ومن طريق اجهزتنا السرية نقبنا عنه في كل سجن من سجون البلاد تنقيبا · ولكنه اختفى اختفاء كليا ، فكأن الارض قد ابتلعته · وحتى يوم الناس هذا لم يكتشف ايما خيط يساعد على معرفة النهاية التي انتهى اليها ١٠٢

لقد قضيت في الملجأ ستة اشهر موحشة ، ولكنها لم تكن اشهرا متبطلة· لقد اندفعت منظمتنا قدما ، وكانت تنتظرنا دائما جبال من الاعمال المتراكمة

---

١٠١ الواقع أن التنكر أمسى في تلك الحقبة فنا حقيقيا · فكان الثائرون ينشئون في جميع ملاجئهم مدارس للتمثيل · لقد ازدروا اللمم المستعارة واللحى والحواجب الزائفة وغيرها من الاسباب واللوازم التي يستعين بها الممثلون المسرحيون · لقد كانت لعبة الثورة لعبة حياة أو موت ، وكانت الاسباب واللوازم وحدها أشراكا · كان على التنكر أن يكون أساسيا ، جوهريا ، وجزءا لا يتجزأ من كينونة المرء ، من طبيعته الثانية · وتقول المصادر ان « العذراء الحمراء » كانت واحدة من أبرع البارعين في هذا الفن ، والى هذه البراعة يجب أن يعزى عملها الطويل الناجح ·

١٠٢ كان الاختفاء أحد أهوال العصر · وهو يظهر مصادفة وعلى نحو غير متوقع ، في الاغنية والقصة ، بوصفه دافعا من الدوافع · كان مصاحبا محتوما للحرب السرية التي دارت رحاها خلال تلك القرون الثلاثة · وكانت هذه الظاهرة فاشية في الطبقة الاوليغاركية وفي الطوائف العمالية المنغلقة فشوها في صفوف الثوار تقريبا · فمن غير انذار ، ومن غير اثر كان الرجال والنساء ، وحتى الاطفال ، يختفون فلا تقع عليهم — بعد — عين ، ويغلف الغموض نهاياتهم ·

يجب اداؤها · وكان ارنست وزملاؤه القـــادة يقررون ، من وراء قضبـــان سجونهم ، ما الذي ينبغي ان يفعل ، وكان علينا نحن الذين كنـــا ما نزال متمتعيـن بنسيـم الحريـة ان تنفذ · كانـت ثمـة منظمـــة « الدعــــوة المشافهــــة » ومنظمـة جهازنــــا التجسسي بمختلـف فروعهـا وتشعباتها · وكان ثمة انشاء مطابعنا السرية ، وانشاء سككنا الحديدية السرية ، وهـــو امر كان يعني شد الآلاف المؤلفة من ملاجئنا بعضها الى بعض ، واقامة ملاجىء جديدة حيث كانت حلقات مفقودة في السلاسل التي طوقنا بها البلاد كلها ·

وهكذا اقول ان العمل لم ينجز البتة · وفي نهاية الشهور الستة قطع علي وحدتي وصول رفيقين اثنين · كانا فتاتين صغيرتين ، روحيـــن باسلتين ، ومحبتين متحمستين من محبي الحرية : « لورا بيترسون » التي اختفت عام ١٩٢٢ ، و « كايت بيرس » التي تزوجت في ما بعد من « دو بوا » ١٠٣ والتي لا تزال معنا مرفوعة العينين نحو شمس الغد التي تبشر باطلالة عصر جديد ·

ووصلت الفتاتان في غمرة من الاهتياج والخطر والموت المفاجىء · فقد كان بين ملاحي زورق الصيد الذي أقلهما عبر خليج سان بابلو جاسوس من صنائع العقب الحديدية تنكر على نحو ناجح في زي ثائر من الثوار ونفذ نفاذا عميقا الى أسرار منظمتنا · ولا ريب في انه كان يتعقب اثارنا ، ذلك بأننا علمنا منذ مدة غير يسيرة ان اختفائي كان مثار قلق عظيم عند جهاز الاوليغاركية الاستخباري السري · ومن حسن الطالع ، كما اثبتت النتائج ، انه لـم يبح بمكتشفاته لامرىء ما · كان واضحا انه قد أرجأ وضع تقريره مؤثرا الانتظار حتى ينتهي بالاشياء الى خاتمة ناجحة باكتشاف مخبأي والقاء القبض علي · لقد ماتت معلوماته معه · وبعد ان هبطت الفتاتان اليابسة عند « بيتالومـــا كريك » وامتطتا متني فرسين اثنتين ، تذرع بذريعة ما وغادر الزورق ·

وبعد ان صعدوا في جبل سونوما فاجتازوا جزءا منه ترك جون كارلسون الفتاتين تتابعان سبيلهما ، وقاد هو فرسه وانقلب راجعا سيرا على قدميه · كانت ظنونه قد أثيرت · ولقد القى القبض على الجاسوس ، وأعطانا فكـــرة واضحة عما حدث بعد ذلك ·

— « لقد قتلته » ، تلك كانت طريقة كارلسون المفتقرة الى نفحة مــــن نفحات الخيال في وصف المسألة ، « لقد قتلته » ، هكذا كان يكرر وضياء قاتم يتقد في عينيه ، ويداه الضخمتان المشوهتان بالكدح تنبسطان وتنقبضان في

---

١٠٣ ان « دو بوا » Du Bois ، قيم مكتبة أرديس الحالي ، متحدر من أصلاب هذين الثائرين اللذين جمع الزواج ما بينهما ·

فصاحة . « وانه لم يطلق ايما صوت . ولقد خبأته ، وهذه الليلة سوف انقلب راجعا وأدفنه عميقا في جوف الارض » .

وكان من دأبي خلال تلك الفترة ان اعجب لتحولي ، metamorphosis . ولقد تعذر علي في بعض الاحيان ان اصدق اني قد عشت حياة وادعة آمنة في مدينة جامعية او أن أصدق اني قد اصبحت ثائرة متمرسة بمشاهد العنف والموت . ان واحدة من تينك الحياتين لا يمكن ان تكون . لا ريب في أن احداهما كانت حقيقية وان الاخرى كانت حلما ، ولكن ايهما الحقيقة وايهما الحلم ؟ هل كانت حياتي الحالية هذه ، حياة المرأة الثائرة المختبئة في جحر ، كابوسا ؟ ام هل كنت امرأة ثورية رأت في ما يرى النائم ، في مكان ما وبطريقة ما . انها عاشت ـ في وجود سابق ـ في بيركلي ولم تعرف قط في الحياة ما هو اعنف من حفلات الشاي والرقص ، ومن جمعيات الخطابة والمناظرات ، ومن قاعات المحاضرات ؟ ولكني أحسب أن هذا كان شعورا عاما خبره كل امرىء منا نحن الذين انضوينا تحت راية الاخاء الانساني الحمراء .

وكثيرا ما تذكرت صورا من تلك الحياة الاخرى ، ومن عجب أنها كانت تبرز وتختفي بين الفينة والفينة في حياتي الجديدة . كان ثمة الاسقف مورهاوس . لقد بحثنا عنه ، على غير طائل ، بعد ان انشئت منظمتنا ونمت . كان قد نقل من مصحة الى مصحة ، وتعقبنا آثاره من مستشفى الولاية الخاص بالمجاذيب في « نابا » الى مستشفى المجاذيب في ستوكتون ، ومن هناك الى المستشفى الذي في وادي سانتا كلارا والمسمى « آغنيوز » ، وهناك انقطع الاثر . ولم يكن ثمة أيما رواية تؤذن بوفاته . ويستفاد من هذا انه لا بد قد فر على نحو ما . ولم أحلم الا قليلا بالطريقة الرهيبة التي قدر لي بعد أن أراه فيها من جديد ـ لمحه لمحا عابرا في اعصار مذبحة « كومون تشيكاغو » .

أما جاكسون الذي فقد ذراعه في مصانع سيرا والذي كان سبب انقلابي الى ثائرة فلم أره كرة اخرى قط ، ولكنا عرفنا جميعا ما الذي فعله قبل ان يموت . انه لم يلتحق بالثوريين قط . لقد حز في نفسه المصير الذي كتب عليه واستغرق في التفكير في الظلم الذي انزل به فأمسى فوضويا ـ لا فوضويا متفلسفا ولكن مجرد حيوان مسعور بالحقد وبالشهوة الى الانتقام . ولقد انتقم لنفسه احسن انتقام . لقد غافل الحرس ، في موهن من الليل ، لحظة كان القوم كلهم نياما ، ونسف قصر بيرتونوايث محيلا اياه الى ذرات . ان نفسا واحدة لم تنج ، حتى الحرس أنفسهم لم يوفقوا الى النجاة . وفي السجن ، بينا كان ينتظر المحاكمة ، خنق نفسه بين بطانياته .

وانتهى الدكتور هامرفيلد والدكتور بالينغفورد الى مصير مختلف جـدا عن مصير جاكسون · لقد كانا وفيين لسادتهما ولقد جزيا جزاء وفاقا فمنحا قصرين اكليركيين عاشا فيهما في سلام مع العالم · كلاهما كان منافحا عـن الاوليغاركية ، وكلاهما كان قد غدا بدينا الى حد بعيد · « لقد وفق الدكتور هامرفيلد » ــ كما قال ارنست ذات مرة ــ « الى تعديل فلسفته الميتافيزيقية بحيث تنتزع موافقة الله على سياسة « العقب الحديدية » ، وبحيث تشمل ايضا على كثير من عبادة الجمال وعلى احالة الكائن الفقاري الغازي الذي وصفه هايكـل الى طيف غيـر منظـور · والفرق بيـن الدكتـور هامرفيلـد والدكتور بالينغفورد هو ان الاخير قد جعل رب الاوليغاركيين اكثر غازية بقليل وأقل فقارية بقليل » ·

أما بيتر دونيلي ملاحظ العمال في مصانع سييرا ، وهو الوغد الـذي قابلته يوم كنت أقوم باستطلاعي حول قضية جاكسون ، فكان مفاجأة لنـا جميعا · ففي عام ١٩١٨ شهدت أحد اجتماعات الحمر السان فرانسيسكوويين· ومن بين « زمرنا المقاتلة » كلها كانت هذه الزمرة أفظعها واكثرها ضراوة وأبعدها عن الرحمة · ولم تكن في الواقع جزءا من منظمتنا · كان أعضاؤها متعصبين ، مسعورين · ولم نجرؤ على تشجيع مثل هذه الروح · ومن ناحية ثانية ، فقد بقينا على صلات ودية معهم ، برغم انهم لم يكونوا منضوين تحـت لواء منظمتنا · وكانت المسألة التي حملتني الى هناك ، تلك الليلة ، علـى جانب عظيم من الخطورة · وكنت أنا ، وسط عشرين من الرجال ، الشخص الوحيد غير المتقنع · وبعد أن أنجزت المهمة التي ساقتني الى هناك عاد بـي واحد منهم · وفي أحد المجازات المظلمة أشعل هذا الدليل عود ثقاب ، ثم انه رفعه على مقربة دانية من وجهه ، ورد قناعه الى الوراء · وحدقت لحظة الى أسارير وجه بيتر دونيلي المنفعل · ثم ان عود الثقاب انطفأ ·

وقال بيتر في الظلام :

ــ « كل ما أردته هو ان اعرفك أن دليلك هو أنا · هل تذكرين دالاس ، مدير المصنع ؟ »

وهززت رأسي معلنة تذكري مدير مصنع سييرا ذا الوجه الثعلبي ·

وقال دونيلي في اعتزاز :

ــ « لقد قتلته اولا · وبعد ذلك انضممت الى الحمر · »

فسألتــه :

ــ « ولكن كيف اتفق ان تكون هنا ؟ وزوجتك وأولادك ؟ »

فأجابني :
ـ « مـــاتوا · »
ثم تابع متعجـــلا :
ـ « هذا هو السبب · لا ، انه ليس على سبيل الثأر لهم · لقد قضوا حتف انوفهم في فرشهم ـ انه المرض ، كما ترين ، المرض الذي كان يلم بهـــم بين حين وحين · لقد كبلوا ذراعي خلال حياتهم · والان وقد مضوا لسبيلهم أراني التمس الاثئار لرجولتي المحطمة · لقد كنت ذات يوم بيتر دونيلي ملاحظ العمال الوغد · أما هذه الليلة فأنا رقم ٢٧ مـــن حمر سان فرانسيسكو · تعالي الان ، ولسوف أخرجك من هذا المجاز المظلم » ·

وسمعت عنه أشياء اضافية ، في ما بعد · كان قد نطق بالحقيقة ، علـــى طريقته ، حين قال انهم ماتوا جميعا · ولكن واحدا منهم كان على قيد الحياة، وكان هذا هو تيموثي ، ولقد اعتبره أبوه ميتا لانه انضم الـــى جماعـــة المرتزقة ١٠٤ العاملين في خدمة « العقب الحديدية » · وكان كل عضو مـــن أعضاء « حمر سان فرانسيسكو » يأخذ على نفسه عهدا بأن يقوم بتنفيذ اثني عشر حكما من أحكام الموت كل سنة · حتى اذا ما أخفق عضو في الوفـــاء بعهده هذا عمد الى الانتحار · وأحكام الموت هذه لم تكن تصدر كيفما اتفق · فقد كانت هذه الزمرة من المسعورين تجتمع على نحو مكرور وتصدر أحكامـــا بالجملة على خدام الاوليغاركية والمذنبين من أعضائها · وبعد ذلك كانت هذه الاحكام توزع ، بالقرعة ، على أفراد الجماعة لينهضوا بعبء تنفيذها ·

والواقع أن المهمة التي حملتني الى هناك ، ليلة قمت بزيارتي تلك ، كانت محاكمة من هذه المحاكمات · ذلك بأن « حمر سان فرانسيسكو » أهدروا دم رفيق لنا كان قد وفق الى تولي احدى الوظائف الكتابية في المكاتب المحليـــة لشعبة الاستخبارات التابعة للعقب الحديدية والاحتفاظ بها طوال سنـــوات ، وكانوا قد شرعوا في محاكمته · ولم يكن هو حاضرا طبعا ، ولم يدر قضاته ـ طبعا أيضا ـ انه كان واحدا من رجالنا · وكانت مهمتي أن أعرف القوم

---

١٠٤ بالاضافة الى الطوائف العمالية المنغلقة نشأت طائفة اخرى منغلقة هي الطائفة العسكرية · لقد انشيء جيش نظامي مؤلف من جنود محترفين ، يقوده ضباط اوليغاركيون ، ويعرف بجيش المرتزقة · وهذه المؤسسة حلت محل الميليشيا التي كانت قد اثبتت انها شيء غير عملي في ظل النظام الجديد · وخارج نطاق شعبة الاستخبارات النظامية الملحقة بالعقب الحديدية انشئت شعبة سرية اخرى قوامها المرتزقة ، وقد شكلت هذه الشعبة الاخيرة حلقة وصل بين الشرطة والجيش ·

بهويته وان اشهد امامهم على ولائه · وقد يتساءل القارىء كيف اتصل بنا نبأ المسألة · ولكن التفسير يسير · فقد كان الواجب يقتضينا أن نراقب الصديق بقدر ما نراقب العدو ، وهذه الجماعة من المسعورين لم تكن من الضآلة والتفاهة بحيث تنجو من مراقبتنا ·

ولكن فلنعد الان الى بيتر دونيلي وابنه · لقد جرى كل شيء على ما يرام ، بالنسبة الى موريلي ، حتى وجد ، في العام التالي ، بين أحكام الموت التي اصابته قرعتها اسم تيموثي دونيلي · وهنا اطلعت العصبية الاسرية رأسها ، وكانت عنيفة عنده الى حد استثنائي ، وأكدت نفسها · ولكي ينقذ ابنه خان رفاقه · وأفسدت خطة خيانته هذه جزئيا ، ولكن اثني عشر عضوا من « حمر سان فرانسيسكو » لقوا في ذلك حتفهم ، وكاد ان يقضى على الجماعة قضاء نهائيا · وانتقم الناجون من أفرادها لانفسهم ، فجرعوا دونيلي الموت الذي استحقه بخيانته ·

ولم يعمر تيموثي دونيلي بعد ذلك طويلا · لقد اخذ « حمر سان فرانسيسكو » على أنفسهم عهدا بأن يصرعوه · وبذلت الاوليغاركية قصارى جهدها لانقاذه · لقد نقل من بقعة من بقاع البلاد الى أخرى · وفقد ثلاثة من « الحمر » حياتهم في محاولات مخفقة للقضاء عليه · وكانت الجماعة مؤلفة من رجال فقط · وفي النهاية ، استعانوا امرأة · استعانوا احدى رفيقاتنا · ولم تكن هذه المرأة غير آنا رويلستون · ومنعتها « حلقتنا الداخلية » عن اداء هذه المهمة ، ولكنها كانت هي شديدة الرغبة في ذلك ، فازدرت النظام وتمردت عليه · والى هذا ، فقد كانت امرأة عبقرية ومحبوبة ، ولم يكن في ميسورنا ان « نضبطها » بحال · انها طبقة وحدها ، فليس في الامكان اخضاعها لمقاييس الثوريين العادية ·

وعلى الرغم من رفضنا أن نجيز لها اداء هذه المهمة مضت قدما في سبيل تنفيذها · والواقع ان آنا رويلستون كانت امرأة فاتنة · ولم يكن الامر يقتضيها اكثر من ايماءة تدعو بها رجلا من الرجال اليها · لقد حطمت قلوب عشرات من رفاقنا الشبان ، وأسرت قلوب عشرات آخرين ، وبنياط قلوبهم قادت منظمتنا كلها · ومع ذلك ، فقد ابت في عناد ان تتزوج · لقد احبت الاطفال حبا جما ، ولكنها اعتقدت ان انجابها طفلا من الاطفال خليق به ان يشغلها عن القضية الكبرى ، وانها انما وقفت حياتها على هذه القضية ليس غير ·

وكان اكتساب تيموثي دونيلي مهمة يسيرة على آنا رويلستون · ولم

يؤنبها ضميرها ، اذ حدثت في تلك الفترة بالذات « مذبحة ناشفيل » التي صرع فيها المرتزقة ، يقودها دونيلي ، ثمانمئة عامل من عمال النسيج في تلك المدينة. ولكنها لم تقتل دونيلي . لقد اسلمته أسيرا الى « حمر سان فرانسيسكو » . ولم يحدث هذا الا في العام الماضي ، وان اسما جديدا ليخلع عليها اليوم . لقد اخذ الثوريون في كل مكان يدعونها « العذراء الحمراء » ١٠٥ .

وكان الكولونيل اينغرام والكولونيل فان جيلبرت شخصيتين أخريين من معارفي قدر لي ان التقيهما بعد . ولقد لمع نجم الكولونيل اينغرام في سماء الاوليغاركية ، وأمسى وزيرا مفوضا للولايات المتحدة في المانية . لقد ابغضته البروليتاريا في كل من البلدين بغضا نابعا من القلب . وانما التقيته في برلين حيث استقبلني ، بوصفي جاسوسة دولية معتمدة من جاسوسات العقب الحديدية ، وأسدى الي عونا عظيما . وبالمناسبة ، يحسن بي أن أنص على اني في دوري المزدوج حققت للثورة بعض الاشياء الهامة .

وأصبح الكولونيل فان جيلبرت معروفا بفان جيلبرت « النابح » . وقد لعب أعظم ادواره في وضع مسودة القانون الجديد بعد « كومون تشيكاغو » . ولكنه كان قبل ذلك قد استحق ، بوصفه قاضيا ، حكم الموت ، بسبب من لؤمه وحقده الابليسيين . وكنت أنا في جملة الذين حاكموه وقضوا باعدامه . وقد تولت آنا رويلستون تنفيذ الحكم .

وثمة صورة اخرى أيضا ترتفع من الحياة القديمة ـ صورة محامي جاكسون . واذا كنت قد توقعت اشياء فقد كان اجتماعي من جديد بهذا الرجل ، جوزيف هيرد ، هو اقل ما توقعته . كان اجتماعا غريبا . ففي ساعة متأخرة من الليل وصلت انا وارنست ، بعد انقضاء سنتين على « كومون تشيكاغو » الى ملجأ ثغر بينتون . وكان ذلك الملجأ في ميشيغان ، عبر البحيرة الواقعة وراء تشيكاغو . لقد وصلنا ومحاكمة احد الجواسيس على وشك ان تختم . كان الحكم بالموت قد صدر ، وكان الجاسوس قد اقتيد ليلقى جزاءه . ذلك كان هو المشهد عندما وفدنا . وما هي الا لحظة حتى تملص الرجل البائس

---

١٠٥ لم تنشط جماعة « حمر سان فرانسسكو » وتزدهر من جديد الا بعد سحق « الثورة الثانية » . وطوال جيلين اثنين ازدهرت الجماعة . ثم ان احد عملاء « العقب الحديدية » احتال للدخول في الجماعة فنفذ الى اسرارها جميعا ، ومهد السبيل للقضاء عليها قضاء نهائيا . وانما حدث ذلك عام ٢٠٠٢ للميلاد . لقد أعدم الاعضاء واحدا اثر واحد في مدى ثلاثة اسابيع ، وعرضت جثثهم في حي العمال في سان فرانسسكو .

من بين أيدي آسريه وانطرح على قدمي ، وقد طوقت ذراعاه ركبتي تطويقا مؤثرا يذكر بصنيع العشاق وراح يلتمس مني الرحمة في انفعال مسعور · حتى اذا رفع وجهه الملتاع الي عرفت فيه جوزيف هيرد · وعلى كثرة ما شهدت من اشياء فظيعة لم يقدر لي أن أفقد اعصابي بقدر ما فقدتها لدن رأيت الى هذا المخلوق الهائج المتضرع من اجل الابقاء على حياته · كان يحرص على الحياة فـي سعر · وكان ذلك مثيرا للشفقة · لقد رفض ان يفلتني ، رغم ايـدي دزينـة من الرفاق · حتى اذا جروه اخر الامر وهو يعول ويصرخ سقطت مغشيـا علي · فلأن ترى البواسل يموتون اسهل بكثير من ان ترى جبانـا يتضرع ، سائلا خصمه الابقاء على حياته ١٠٦ ·

---

١٠٦ كان ملجأ ثغر بينتون قبوا يحتال للوصول اليه من طريق بئر من الآبار · ولقـد حوفظ عليه بقدر من حسن الصيانة صالح · وفي استطاعة الزائر الفضولي ، اليوم ، ان يطوف في متاهاته حتى يصل الى قاعة الاجتماع حيث حدث ، من غير شك ، المشهد الذي وصفته آيفيس ايفرهارد · وابعد بعض الشيء تقع الزنزانات التي كان السجناء يحبسون فيها ، وغرفة الموت حيث كانت احكام الاعدام تنفذ · وعلى مسافة ما ، وراء ذلك ، كانت المقبرة ، وهي بمثابة دهاليز طويلة متعرجة منحوتة في الصخر الصلد تكتنفها من كلا جانبيها تجاويف يرقـد فيها الثوار ، رقدتهم الاخيرة ، طبقات بعضها فوق بعض ، كما خلفهم رفاقهم منذ سنوات طوال ·

الفصل العشرون

اوليغاركي ضائع

ولكني في تذكري الحياة السالفة استبقت بعض الاحداث في حياتي الجديدة · فاستنقاذ رفاقنا من السجون ، زرافات زرافات ، لم يحدث الا بعد انقضاء بضعة اشهر من عام ١٩١٥ · صحيح انها كانت عملية معقدة ولكنها نفذت في غير ما توقف ، وأوقعت البهجة في نفوسنا بوصفها مأثرة حميدة · فمن كوبا الى كاليفورنيا ، وفي ليلة مفردة ، انقذنا من عشرات السجون والمعتقلات العسكرية والقلاع واحدا وخمسين نائبا من ممثلينا الاثنين والخمسين في الكونغرس ، وانقذنا الى جانبهم ثلاثمئة ونيفا من الزعماء الآخرين · ولم تجهض العملية في أيما مكان · ولم يتنشق الزعماء نسيم الحرية فحسب ، بل لقد استطاع كل منهم ان يصل الى الملجأ المعين له · وكان النائب الوحيد الذي لم نوفق – من بين رفاقنا نواب الكونغرس – الى تحريره هو آرثر سيمبسون ، وكان قد مات قبل ذلك في كوبانا بعد تعذيب وحشي ·

ولعل الاشهر الثمانية عشر التي تلت كانت أسعد فترة في حياتي مع ارنست · اننا لم نفترق قط طوال تلك الفترة · وفي ما بعد ، عندما رجعنا الى العالم ، فصل أحدنا عن الاخر فصلا كثيرا · والواقع اني لا انتظر لهيب ثورة الغد بفروغ صبر اشد من ذلك الذي انتظرت فيه مجيء ارنست تلك الليلة · كانت قد انقضت فترة طويلة لم اكحل خلالها عيني برؤيته ، وكان مجرد التفكير في ان خطأ ممكنا في تنفيذ خططنا أو تأخرا ممكنا في ذلك التنفيذ خليق به ان يبقيه في سجنه بالجزيرة ··· أقول كان في مجرد التفكير في ذلك ما أفقدني صوابي أو كاد · لقد انقضت الساعات وكأنها أجيال · وكنت انا

وحيدة . كان بيدينباتش ، والشبان الثلاثة الذين كانوا قد أقاموا في الملجأ قد غادروه وانطلقوا الى الجبل مدججين بالسلاح مستعدين لكل طارىء . ويخيل الي ان الملاجىء خلت كلها من الرفاق ، تلك الليلة .

وما ان شحب وجه السماء ايذانا بوشك ارتفاع الضحى حتى سمعت الاشارة من عل واعطيت الجواب . وفي الظلام كدت أعانق بيدينباتش الـذي هبط اولا ، ولكن سرعان ما امسيت بين ذراعي ارنست . وفي تلك اللحظـة كان تحولي كاملا الى ابعد حد حتى لقد اكتشفت اني لم استطع ، الا بجهد من الارادة ، ان اكون آيفيس ايفرهارد السابقة ،بعاداتي وابتساماتي القديمة، وبعباراتي ونبرات صوتي القديمة ايضا . ولم اوفق الا بجهد بالغ الـى الاحتفاظ بهويتي القديمة . انا لم أجز لنفسي ان انسى لحظة واحدة ، فالى هذا الحد من الالزامية الاوتوماتيكية كانت قد انتهت الشخصية الجديدة التي خلقتهـا .

ما ان امسيت داخل الكوخ الصغير حتى رأيت وجه ارنست في الضياء . وفي ما خلا شحوب السجن لم يطرأ عليه ايما تغير ــ او ايما تغير كبير على الاقل . كان هو عين حبيبي وزوجي وبطلي الذي عهدته من قبل . ومع ذلـك فقد كان ثمة شيء من التطاول التقشفي في أسارير وجهه . ولكنه استطاع ان يحتمله في غير انزعاج ، اذ بدا وكأن ذلك يضيف شيئا من نبل التهذيب الـى تطرف حياته المشاغب الذي طبع ، دائما ، قسمات وجهه . لعل امارات الصرامة كانت اغلب عليه بعض الشيء مما كانت في الايام السالفة ، ولكن وميـض الضحك كان لا يزال في عينيه . كان وزنه قد نقص عشرين رطلا انكليزيـا ، ولكنه كان في حال بدنية رائعة . لقد واصل تمريناته الرياضية طوال فتـرة سجنه ، فاذا بعضلاته تصبح كالحديد . وفي الحق انه كان في حال أفضل من تلك التي كان عليها يوم دخل السجن ، وانقضت ساعات قبل ان يمس رأسه الوسادة ، وكنت قد هدهدته * لينام . اما انا فلم تعرف الغمض عينـاي . لقد كانت السعادة تغمرني ، ولم يكن نصب الهروب من السجن وامتطاء صهوة الجواد من نصيبي .

وفيما استسلم ارنست للرقاد غيرت ملابسي ، وسرحت شعري علـى نحو مغاير وارتددت الى ذاتي الاوتوماتيكية الجديدة . حتى اذا افـاق بيدينباتش والرفاق الاخرون نسجت بمعاونتهم مؤامرة صغيرة . كان كـل شيء محضرا ، وكنا نحن في الحجرة الكهفية التي اتخذنا منها مطبخـا

---

* هدهد الصبـي هزه لينام .

وحجرة طعام عندما فتح ارنست الباب ودخل · وفي تلك اللحظة خاطبني بيدينباتش بقوله « يا ماري » فالتفت نحوه وأجبته · ثم انني رنوت الى ارنست في شوق فضولي كذلك الشوق الذي يجدر بكل رفيق ان يتكشف عنه اذ يرى للمرة الاولى زعيما من زعماء الثورة بارزا الى هذا الحد · ولم يعرفني ارنست ، وراح يجيل طرفه في ارجاء الغرفة ، في فروغ صبر ، بحثا عني · وفي اللحظة التالية قدمت اليه بوصفي ماري هولمز ·

واكمالا للخداع وضع على المائدة طبق اضافي · وحين جلسنا اليها ظل احد الكراسي شاغرا · ولقد كان خليقا بي ان اصرخ من البهجة عندما لاحظت قلق ارنست وفروغ صبره المتعاظمين · واخيرا لم يعد يستطيع الاحتمال اكثر مما فعل ·

وتساءل في فظاظة :

– « اين زوجتي ؟ »

فأجبته قائلة :

– « انها لا تزال نائمة · »

كانت تلك هي اللحظة الحرجة · ولكن صوتي كان صوتا غريبا ، ولم يلحظ فيه اي شيء مألوف لديه · وواصلنا تناول الطعام · وتحدثت في اسراف ، وفي حماسة ، كما يتحدث مريد يعبد البطولة ، وكان واضحا انه كان هو بطلي · وسموت الى ذروة من الحماسة والتعبد ، وقبل ان يوفق الى اكتشاف ما عزمت عليه طوقت جيده بذراعي وطبعت على شفتيه قبلة · ولكنه صدني حتى امسيت منه على مبعدة ذراع وانعم النظر في ما حوله في تبرم وارتباك . وابتدره الرجال الاربعة بضحكات مدوية ، وقدمت اليه تفسيرات وشروح . وغلب عليه الشك بادىء الرأي·وتفحصني مدققا ، واقتنع نصف اقتناع· ثم انه هز رأسه وابى ان يصدق · ولم يتيقن اني زوجته حقا الا بعد ان امسيت ايفيس ايفرهارد القديمة وهمست في اذنه اسرارا لا يعرفها غيره وغير ايفيس ايفرهارد ·

ولم يطوقني بذراعيه الا في ساعة متأخرة من النهار ، مظهرا ارتباكا كبيرا ، ومدعيا عواطف كعواطف الرجل الذي يجمع بين زوجتين او اكثر · لقد قال :

– « أنت آيفسي الحبيبة ، وانت ايضا امرأة اخرى · انما امرأتان اثنتان ، واذن فأنتما « حريمي » my harem · وعلى اية حال فنحن آمنان الان · واذا نبا بنا المقام في الولايات المتحدة فلا داعي لان نجزع : لقد حققت

الشرط الذي يؤهلني للفوز بالمواطنية التركية ٠ » ١٠٧

وامست حياتي في الملجأ سعيدة جدا ٠ صحيح اننا ارهقنا نفسينا في العمل ساعات طوالا ، ولكننا عملنا معا ٠ لقد فاز احدنا بالاخر طوال ثمانية عشر شهرا من انفس شهور الحياة ، ولم نكن لنستشعر الوحشة ، اذ كان يفد علينا دائما عدد غير يسير من الزعماء والرفاق ـ أصوات غريبة من عالم المؤامرة والثورة السري حاملة الينا حكايات كفاح وحرب من خط النار ليس أغرب منها ولا أعجب ٠ اننا لم نكن مجرد متآمرين كئيبين ٠ لقد كدحنا كدحا شاقا وقاسينا الاما كثيرة ، وملأنا الثغرات في صفوف اتباعنا ومضينا في سبيلنا قدما ، ومن خلال العمل الشاق كله واصطراع الحياة والموت وجدنا متسعا من الوقت لنضحك ونعشق ٠ كان بين ظهرانينا فنانون ، وعلماء ، وباحثون ، وموسيقيون ، وشعراء ، وفي ذلك الجحر الغائر في باطن الارض كانت الثقافة اسمى وارفع مما كانت في قصور الاوليغاركيين او في مدنهم المعجزة ٠ والحق ان كثيرا من رفاقنا كدحوا لاضفاء الجمال على هذه القصور والمدن المعجزة نفسها ٠ ١٠٨

ثم اننا لم نقض تلك الشهور ضمن جدران الملجأ الاربعة ٠ فكثيرا ما كنا نمتطي صهوات الخيل ، بعد ان تهبط العتمة ، وننطلق الى الجبال ابتغاء الرياضة ، ولقد كنا نركب خيل ويكسون ٠ ليته عرف كم ثوري حملته أفراسه! بل لقد قمنا بنزهات الى بقاع معزولة نعرفها ، حيث كنا نبقى طوال النهار : نذهب قبل طلوع الفجر ونرجع بعد هبوط الليل ٠ ليس هذا فحسب ، بل لقد اصطنعنا قشدة ويكسون وزبدته ١٠٩ ٠ ولم يكن ارنست ليتورع عن اطلاق النار على سماني ويكسون وأرانبه ، وفي بعض الاحيان على وعوله الصغيرة أيضا ٠

لقد كان ملجأ آمنا حقا ٠ ولقد قلت من قبل انه اكتشف مرة واحدة ليس غير ، وهذا يقودني الى كشف القناع عن سر اختفاء ويكسون الصغير ٠ اما وقد مات الان ، فقد أمسى في طوقي ان اتكلم ٠ كانت في قعر الجحر الكبير

---

١٠٧ في ذلك العهد كان تعدد الزوجات لا يزال مألوفا في تركية ٠

١٠٨ ليس هذا تفاخرا من جانب آيفيس ايفرهارد ٠ فقد كانت زهرة فناني العالم ومفكريه من الثوريين ٠ وباستثناء قلة قليلة من الموسيقيين والمغنيين وقلة قليلة من الاوليغاركيين كان جميع عباقرة ذلك العصر الذين وصلتنا اسماؤهم قوما ثوريين ٠

١٠٩ حتى في تلك الفترة المتأخرة من الزمان كانت القشدة والزبدة ما تزالان تستخرجان على نحو اخرق من لبن البقر ٠ فلم يكن اعداد الطعام في المختبرات قد بدأ بعد ٠

زاوية تنفذ اليها اشعة الشمس المشرقة ، زاوية محجوبة من فوق · الى هناك كنا قد نقلنا احمالا من حصى مجرى الجدول ، حتى لقد اصبحت تلك الزاوية موطننا عذبا ، جافا ، حارا ، نتمشى فيه ، وهناك غلبني النعاس ، ذات اصيل ، فأغفيت نصف اغفاءة فوق نسخة من ديوان ماندينهول [١١٠] كنت في غمرة من الراحة والامن حتى لقد عجزت قصائده الغنائية الملتهبة عن اثارتي ·

ثم انني أفقت على قطعة من طوب تسقط عند قدمي · وبعد ذلك سمعت من فوق صوت شيء يزحف · وما هي لحظة حتى ترجل عند قدمي ، منزلقا عن الجدار المتفتت ، فتى غض الاهاب · كان ذلك الفتى هو فيليب ويكسون ، على الرغم من اني لم اعرفه انذاك · لقد نظر الي في برود ، واطلق صفرة اندهاش خفيضة ·

لقد قال :

ـ « حسنا ! »

ثم اضاف بعد لحظة ، وقبعته في يده :

ـ « التمس عفوك · انا لم اتوقع ان اجد احدا هنا » ·

أما أنا فلم اكن باردة الى ذلك الحد · كنت لا ازال غرة جاهلة في ما يتصل بأمر السلوك في المواقف الحرجة · وفي ما بعد ، عندما امسيت جاسوسة دولية ، لم اعد على مثل ذلك الخرق من غير ريب · وايا ما كان ، فقد رحت ازحف على الارض مطلقة صيحة الخطر ·

وسألني ناظرا الي نظرات ثاقبة :

ـ « لماذا فعلت هذا ؟ »

كان واضحا انه لم يكن يتوقع ، عند هبوطه ، ان يجدنا هناك · ولقد ادركت ذلك في ارتياح ·

واجبته :

ـ « ولأي غرض تحسبني فعلت ذلك ؟ »

لقد كنت خرقاء ، حقا ، في تلك الايام ·

فقال وهو يهز برأسه :

ـ « لست ادري · الا اذا كان حولك ههنا بعض الاصدقاء · وعلى أية

---

١١٠ في جميع ما بقي لنا من كتابات تلك الفترة ووثائقها نجد اشارات متواصلة الى قصائد رودولف ماندينهول · لقد دعاه رفاقه « اللهب » ومع ذلك فلم يصل الينا من شعره غير بعض الابيات الغريبة التي نقع عليها في ثنايا كتابات الآخرين · لقد أعدمته « العقب الحديدية » في عام ١٩٢٨ للميلاد ·

حال فلا ريب في ان لديك تفسيرا · ان وجودك هنا يمثل عدوانا على أمـلاك الناس · فهذه الارض هي ملك ابي ، و ··· »

ولكن بيدينباتش ، الكيس ابدا اللطيف ابدا ، قال في تلك اللحظة مـن ورائه ، وبصوت خافت :

ـ « ارفع يديك يا سيدي الشاب ! »

ورفع ويكسون الشاب يديه اولا ، ثم استدار ليواجه بيدينباتش الـذي سدد اليه بندقية اوتوماتيكية من عيار ثلاثين بثلاثين · وكان ويكسون هادئا رابط الجأش ·

ـ « اوه ، هوه ! وكر جماعة من الثوريين ، بل انه ليبدو أشبه بوكـر دبابير كبار ! حسنا ، انكم لن تقيموا هنا طويلا ، في استطاعتي ان أقول لكم ذلـــك » ·

فقال بيدينباتش في هدوء :

ـ « ومن يدري ، لعلك أن تقيم هنا فترة كافية لحملك على اعادة النظر في حكمك هذا · وفي غضون ذلك يتعين علي أن أدعوك الى المضي معي الـى الداخـل » ·

فدهش الفتى دهشا عميقا وتساءل :

ـ « الى الداخل ؟ ألديكم سرداب أموات هناك ؟ لقد سمعت بأشيـــاء مثل هذه » ·

فأجابه بيدينباتش في نبرته الرائعة :

ـ « تعال وانظر ! »

فاحتج الفتى قائـلا :

ـ « ولكن هذا غير شرعي » ·

فأجابه الثوري :

ـ « أجل ، في نظرة قانونكم · أما في قانوننا فصدقني اذا قلت لك انـه عمل شرعي الى حد بعيد · يجب ان تألف هذه الحقيقة ، وهي انك في عالم اخر غير عالم الظلم والوحشية الذي عشت فيه من قبل » ·

فغمغم ويكسون :

ـ « ان ثمة متسعا للمناقشة » ·

ـ « اذن ابق معنا حتى نتناقش » ·

وضحك الفتى ولحق بآسره الى البيت · لقد اقتيد الى الحجرة الكهفية الداخلية ، حيث ترك أحد الرفاق الشبان لحراسته ، فيما رحنا نحن ندرس

الوضع في المطبخ ٠

لقد ذهب بيدينباتش ، والدموع في عينيه ، الى القول بأن ويكسون يجب ان يموت ، ولقد تنفس الصعداء عندما رجحت اصواتنا صوته فخذل اقتراحه الرهيب ٠ ومن ناحية ثانية ، فانه لم يكن في امكاننا ان ندع الاوليغاركي الشاب يمضي لسبيله ٠

وقال ارنست :

ـ « سأقول لكم ما الذي يجب ان تفعلوه ٠ سوف نبقيه بيننا ونثقفه » ٠

فصاح بيدينباتش :

ـ « اذن ، فأنا أطلب ان أمنح شرف تنويره في ميدان الشرع والقانون »

وهكذا توصلنا ، ضاحكين ، الى قرار ٠ اننا سوف نحتفظ بفيليب ويكسون أسيرا ، ونثقفه وفقا لمفهومنا من علم الاخلاق وعلم الاجتماع ٠ ولكن كان ثمة عمل يتعين علينا اداؤه في غضون ذلك ٠ يجب ان يطمس كل اثر من اثار الاوليغاركي الشاب ٠ كانت ثمة تلك البصمات التي تركها وهو يهبط جدار الجحر المتفتت ٠ وانما عهدنا بهذه المهمة الى بيدينباتش ، فراح يكدح بقية النهار كلها ، متدليا من فوق بحبل من الحبال ، حتى أزال في براعة بالغة اخر اثر من آثاره ٠ ومن فوهة الجحر ، ارتدادا الى أعلى الوادي ، أزيلت الاثار كلها ايضا ٠ ثم ان جون كارلسون اقبل مع الغسق وسأله ان يسلمه نعليه ٠

وأبى الشاب ان يتخلى عن نعليه ، بل لقد ذهب الى حد التصريح باستعداده للقتال في سبيل الاحتفاظ بهما ، الى ان استشعر قوة نعال الافراس في يدي ارنست ٠ ونص كارلسون بعد ذلك في تقرير له على ان صغر ذلك الحذاء قد أورثه قروحا عديدة وفقدانا كبيرا في الجلد ، ولكنه وفق الى أن ينجز به عملا ماجدا ٠ فارتدادا من فوهة الجحر ، حيث انقطعت اثار قدمي الشاب المحوة ، انتعل كارلسون الحذاء ومضى لسبيله متجها نحو اليسار ٠ لقد مشى أميالا وأميالا ، حول الروابي ، وفوق القمم ، وعبر الاودية ، وأخيرا أخفى آثار سيره هو بالخوض في مياه جدول متدفق ٠ لقد نزع نعليه ههنا ، وبالغ في اخفاء تلك الاثار بالسير مسافة اضافية على هذا النحو ثم عاود انتعال الحذاء اخر الامر ٠ وبعد اسبوع استرد ويكسون حذاءه ٠

في تلك الليلة أطلقت الكلاب البوليسية من عقالها ، ولم يعرف نزلاء الملجأ الرقاد الا غرارا ٠ وفي اليوم التالي هبطت الكلاب النابحة الوادي مرة ومرة ٠ لقد اندفعت في اتجاه اليسار ، فوق الاثر الذي رسمه كارلسون لها ، فتاهت

على وجوهها في الاودية النائية الجاثمة عند قدمي الجبل · وطوال تلك الفترة راح رجالنا ينتظرون في الملجأ ، وأسلحتهم في ايديهم : ـ مسدسات وبنادق اوتوماتيكية ، اذا أردنا ان لا نقول شيئا عن نصف دزينة من اسلحة الفتك الجهنمية التي صنعها بيدينباتش بيديه · ان المرء لا يستطيع ان يتخيل وضعا ادعى الى اذهال من كان يحاول انقاذ ويكسون انذاك من وضعنا الذي وصفت، هذا اذا ما خاطروا وهبطوا مخبأنا ·

وبهذا أكون قد سردت القصة الحقيقية لاختفاء فيليب ويكسون ، الاوليغاركي في وقت مضى ، ورفيقنا في الثورة في ما بعد · ذلك بأننا هديناه الى مذهبنا اخر الامر · كان عقله طريا لدنا ، وكان بطبيعته اخلاقيا الى ابعد الحدود · وبعد بضعة اشهر حملناه ، على صهوة فرس من افراس ابيه ، فوق جبل سونوما ، الى « بيتا لوما كريك » وأركبناه زورق صيد بخاريا صغيرا ، وشيئا بعد شيء هربناه في محاذاة خطنا الحديدي السري الى ملجأ من ملاجئنا ·

وهناك مكث ثمانية اشهر ابى عند انقضائها ، ولسببين اثنين ، ان يفارقنا · أما الاول فلأنه وقع في حب آنا رويلستون ، واما الثاني فلانه كان قد أمسى واحدا منا · ولم ينزل عند رغبتنا ويرجع الى ابيه الا بعد ان قنط من حب رويلستون ومن اكتساب قلبها · صحيح انه استمسك ، صوريا ، بأوليغاركيته حتى أدركه الموت ، ولكنه كان في الواقع واحدا من أقوى عملائنا واكثرهم قيمة وشأنا · ان « العقب الحديدية » كثيرا ما أذهلت باخفاق خططها وعملياتها ضدنا · ولكنها لو عرفت ان كثيرين من اعضائها كانوا عملاء لنا اذن لفهمت وقائع الحال ولزايلها ذلك الذهول · لقد اخلص ويكسون للقضية ومحضها ولاءه الكامل · والحق ان تفانيه في اداء واجبه نحوها هو الذي أورده مورد الردى · ففي اعصار عام ١٩٢٧ العظيم ، بينا كان يشهد اجتماعا من اجتماعات زعمائنا ، اصيب بذات الرئة وقضى نحبه · ١١١

١١١ ان هذا الشاب الغض الاهاب لم يكن نسيج وحده من هذه الناحية ·ذلك بأن عددا كبيرا من الشبان الاوليغاركيين اخلصوا للقضية العظمى ـ بدافع حس السلوك القويم أو بسبب من ان مجد الثورة استحوذ على مخيلاتهم ـ وضحوا بحياتهم ، تحدوهم حوافز اخلاقية او رومانتيكية ، من اجلها · وبالطريقة نفسها لعب كثير من أبناء طبقة النبلاء الروسية ادوارهم في المراحل الاولى والمتطاولة من الثورة التي اندلعت في ذلك البلد ·

الفصل الحادي والعشرون

زئير وحش الهاوية

لقد أبقينا ، خلال مقامنا الطويل في الملجأ ، على اتصال وثيق بما كان يجري في العالم الخارجي ، وكنا نلمس لمس اليد قوة الاوليغاركية التي خضنا الحرب ضدها · كانت المؤسسات الجديدة تتشكل ، بعد تغيرات مرحلة الانتقال المتواصلة ، على نحو اكثر وضوحا وتتخذ مظهر السرمدية وصفاتها · وكان الاوليغاركيون قد وفقوا الى استنباط ماكينة حكومية ، بالغة التعقيد ، بالغة الضخامة ، وكانت تلك الماكينة قد نجحت ، وذلك على الرغم من جميع جهودنا لعرقلتها واعاقتها ·

وكان هذا مفاجأة لكثير من الثوريين ، ذلك بأنهم كانوا قد تصوروه أمرا متعذرا · ومع ذلك فقد كان العمل في البلاد قائما على قدم وساق · لقد كدح الرجال في المناجم والحقول ــ ولم يكونوا ، بالضرورة ، اكثر من عبيد أرقاء · أما في الصناعات الرئيسية فقد عم الازدهار كل شيء · كان اعضاء الطوائف العمالية المقفلة الكبرى راضين ، وكانوا يعملون في بشر وابتهاج · لقد عرفوا الامن الصناعي لاول مرة في حياتهم · ان الاضرابات واغلاق المصانع وفترات الكساد وبطاقات النقابة لم تعد تؤرق مضاجعهم · لقد عاشوا في بيوت اكثر رفها وفي مدن بهيجة خاصة بهم ــ بهيجة اذا قورنت بالاحياء القذرة التي كانوا يقيمون فيها من قبل · كان لديهم طعام افضل ، وساعات عمل أقل ، وأيام تعطيل اكثر ، ومقدار من المتع والمباهج اعظم واشد تنوعا · ولم يبالوا البتة باخوانهم واخواتهم الاقل حظا منهم ، بالعمال المحرومين ، بأبناء الهاوية المسوقين الى العمل الشاق سوق العبيد · كان عصر من الانانية

يطل على الجنس البشري · ومع ذلك فليس هذا صحيحا مئة بالمئة · ذلـــك بأن عملاءنا تغلغلوا في الطوائف العمالية المقفلة تغلغلا بعيدا ، وكان أولئـك العملاء رجالا بصرت أعينهم ، وراء حاجة البطن ، بصورة الحرية والاخـاء المشرقـة ·

وكان المرتزقة يمثلون مؤسسة اخرى كبيرة كانت قد اتخذت شكلا سويا وانشأت تعمل في سلاسة · وكانت هذه القوة قد نشأت ، على نحو تدريجي ، من الجيش النظامي القديم ، وانتهت الان الى ان تنتظم مليون رجل ، هذا ان لم نذكر شيئا عن القوى الاستعمارية · وكان المرتزقة هؤلاء يؤلفون عرقـــا مستقلا بنفسه · لقد أقاموا في مدن خاصة بهم تمتعت ، او كادت ، بحكم ذاتي، ولقد منحوا امتيازات كثيرة · والواقع انهم ساعدوا على استهلاك جزء كبير من الفائض المربك · وكانوا قد شرعوا يفقدون كل اتصال وكل مشاركـــة وجدانية مع سائر افراد الشعب ، وكانوا في الحق قد اخذوا ينشئون اخلاقيتهم الطبقية الخاصة ووجدانهم الطبقي الخاص · ومع ذلك تغلغل في صفوفهم الاف من عملائنا وآلاف ١١٢ ·

وكان الاوليغاركيون انفسهم يجتازون ، كما ينبغي ان نعترف ، مرحلة تطور رائع وغير متوقع · لقد نظموا انفسهم ، بوصفهم طبقة ، تنظيما دقيقـا الى أبعد الحدود · فأسند الى كل امرىء منهم عمل يؤديه في هذه الحيـــاة ويؤديه على نحو الزامي · ولم يعد ثمة ، منذ اليوم ، شبان اثرياء متبطلون · فقد حشدت قوتهم لمنح الاوليغاركية قوة موحدة · ولقد خدموا كقادة للقـوات المسلحة وكزعماء للصناعة · ليس هذا فحسب ، بل انهم وجدوا الميدان متسعا أمامهم في العلم التطبيقي ، وكثير منهم أمسوا مهندسين كبارا · لقد نفذوا الى شعب الحكومة المتعددة ، وخدموا في مستعمرات الدولة ، وانضموا بعشرات الآلاف الى اجهزة الاستعلامات السرية على اختلافها ، واستطيع ان ازعم انهم دربوا على النهوض بعبء العمل في حقول التربية ، والفن ، والكنيسة ، والعلم، والادب جميعا ، ولقد أدوا في تلك الحقول مهمة خطيرة ، هي مهمة توجيـــه عمليات الامة العقلية وجهة تمكن للاوليغاركية وترسخ جذورها في الارض ·

لقد علموا ، ثم عادوا هم بدورهم فعلموا ، ان ما كانوا يفعلونه حق ·

---

١١٢ في الايام الاخيرة من عهد « العقب الحديدية » لعب المرتزقة دورا هاما · لقـــد أقاموا توازنا في القوى خلال الصراع الناشب بين طرائف العمال المنغلقة وبيــن الاوليغاركيين فكانوا يدعمون بقوتهم هذا الفريق حينا وذاك الفريق حينا ، وفقــا لمقتضيات الظروف ومقتضيات الكيد والتآمر ·

ولقد تمثلوا الفكرة الارستوقراطية منذ اللحظة التي شرعوا فيها ، وهم بعد اطفال ، يتلقون انطباعاتهم عن العالم · لقد خالطت الفكرة الارستوقراطية نسيجهم العضوي حتى أمست جزءا من لحمهم ومن عظمهم · وانما نظروا الى انفسهم كمروضي وحوش ضارية ، كحكام سباع كاسرة · فمن تحت أقدامهم كانت تنبعث ، دائما ، دمدمات الثورة السرية · كان الموت العنيف لا يفتأ يمشي مرحا في وسطهم · وكانوا ينظرون الى القنبلة والمدية والرصاصة نظرتهم الى أنياب متعددة لوحش الهاوية المزمجر الذي يتعين عليهم أن يسيطروا عليه اذا ما كان للانسانية ان تبقى وتستمر · لقد كانوا منقذي الانسانية ، ولقد اعتبروا انفسهم عاملين من اجل الخير الاسمى ، عاملين ملء ابرادهم بطولة وفداء ·

لقد آمنوا ، بوصفهم طبقة ، انهم وحدهم سناد الحضارة · وكانوا يعتقدون انه لو قدر لهم ان يهنوا ويضعفوا اذن لابتلعهم الوحش العظيم ولابتلع كل ما هو جميل ورائع وبهيج وخير ، ولقذف بهم الى كرشه الكهفي الراشح منه المخاط · ولولاهم لسادت الفوضى ولارتدت الانسانية الى الليل البدائي الذي لم تخرج منه الا بشق النفس · كانت صورة الفوضى الرهيبة ترفع دائما امام أعين اولادهم حتى لقد رفعوا هم بدورهم ، بعد ان استحوذ عليهم ذلك الخوف الذي نشئوا عليه ، صورة الفوضى امام اعين الاولاد الذين خلقوا من بعدهم · ذلك كان الوحش الذي يتعين على الناس ان يدوسوه بالاقدام ، والذي كان دوسه هذا أسمى واجب من واجبات الارستوقراطي · وبكلمة موجزة ، فأنهم هم وحدهم ، بكدحهم وتضحيتهم اللذين لا يفتران ، كانوا يقفون سدا منيعا بين الانسانية الضعيفة وبين الوحش القادر على ان يلتهم كل شيء · ولقد كانوا يؤمنون بذلك ــ كانوا يؤمنون بذلك ايمانا راسخا ·

ولست في حاجة الى المبالغة في التوكيد على هذه الاخلاقية العالية التي تكشفت عنها الطبقة الاوليغاركية كلها · فقد كانت تلك الاخلاقية هي سر قوة « العقب الحديدية » ، وما اكثر الرفاق الذين أبطأوا في ادراك هذه الواقعة أو أبوا ادراكها · ان كثيرا منهم قد عزوا قوة « العقب الحديدية » الى نظام الثواب والعقاب الذي تعتمده · وهذا خطأ · فالجنة والنار قد تكونان عاملي الحماسة الرئيسيين في المشاعر الدينية عند متعصب من المتعصبين ، ولكنهما ثانويتان ــ عند الكثرة العظمى من المتدينين ــ بالنسبة الى الحق والباطل · ان حب الحق ، والتوق الى الحق ، والابتئاس بكل ما هو دون الحق ــ وباختصار ، ان السلوك القويم هو العامل الرئيسي في الدين · والشيء نفسه

يصح في الاوليغاركيين ، فالسجون والنفي واسقاط الرتبة ، وضروب التشريف، والقصور ، والمدن المعجزة كلها أشياء عرضية · ان القوة العظمى التي تحفز الاوليغاركيين هي ايمانهم بأنهم مصيبون في ما يفعلون · ولندع جانبا مختلف الاستثناءات ، ولنضرب صفحا عن الاضطهاد والظلم اللذين جبلت « العقب الحديدية » من طينتهما · فأنا اسلم بذلك كله · ولكن النقطة الاساسية هي ان قوة الاوليغاركية كامنة اليوم في اقتناعها هي بصلاح موقفها وصوابيته · ١١٣

وخلال هذه السنوات العشرين الرهيبة لم تكمن قوة الثورة ، أيضا ، الا في ايمانها بصوابيتها وعدالتها · والا فكيف نستطيع ان نفسر تضحياتنا ودماء شهدائنا ؟ ان ذلك هو السبب الوحيد الذي من اجله ألهب رودولف ميندلهول روحه في سبيل القضية وأنشد اغنيته الاخيرة الشرود في الليلة التي لقي فيها حتفه · وذلك هو السبب الذي من اجله مات هولبيرت تحت سياط التعذيب ، رافضا حتى النهاية ان يخون رفاقه · ان هذا وحده هو الذي حمل آنا رويلستون على رفض الامومة المباركة · وهو الذي جعل من جون كارلسون حارس ملجأ « غلين آلين » الامين المتطوع للخدمة بالمجان · وسواء اكان رفاق الثورة صغارا او كبارا ، رجالا ام نساء ، رفيعي المقام ام حقيرين ، عباقرة أم حمقى ، فانك واجد ان القوة المحركة لهم هي التوق الى الحق توقا عارما مقيما ·

ولكني ابتعدت عن قصتي · لقد أدركت انا وارنست احسن الادراك ، قبل مغادرتنا الملجأ ، كيف كانت قوة « العقب الحديدية » تتكون مع الايام كانت الطوائف العمالية المنغلقة ، والمرتزقة ، وجيش العملاء السريين ورجال الشرطة على اختلاف انواعهم قد اخذوا على انفسهم ، جميعا ، عهدا بأن يخلصوا في خدمة الاوليغاركية · ولقد كانوا على الجملة ، اذا تجاهلنا فقدانهم

---

١١٣ من تناقض الرأسمالية وتنافرها الاخلاقيين خرج الاوليغاركيون باخلاقية جديدة ، اخلاقية متماسكة واضحة ، حادة قاسية كالفولاذ ، اخلاقية لم تمتلك أيما طبقة طاغية في ايما يوم ما هو أسخف منها وأبعد عن العلم وما هو في الوقت نفسه اشد فعالية وأقوى · ولقد آمن الاوليغاركيون باخلاقيتهم ، على الرغم من ان البيولوجيا والتطور evolution كانا يظهران كذبها وزيفها · وبسبب من ايمانهم هذا تمكنوا ، طوال ثلاثة قرون من ان يصدوا مد التقدم البشري الجبار ـ وهو مشهد مهول يذهل الاخلاقي الميتافيزيقي ، ويوقع في نفس المادي كثيرا من الشك واعادة النظر في الامور ·

الحرية ، احسن حالا من ذي قبل · أما كثرة السكان الكبيرة البائسة ، أبناء الهاوية ، فكانوا يترددون في نقمة على الشقاء شرسة · وكلما أقام بعض البروليتاريين الاشداء دليلا لا يتهم على قوتهم وتأثيرهم البالغ في الجماهير انتزعهم الاوليغاركيون من قلب الجماهير ، وأغدقت عليهم النعم بضمهم ما الى الطوائف العمالية المقفلة واما الى جيش المرتزقة · وهكذا عملت السلطة على تسكين الاشياء وتلطيفها ، وسلبت البروليتاريا زعماءها الطبيعيين ·

وكانت حال ابناء الهاوية تدعو الى الرثاء · كان التعليم الابتدائي ، بقدر ما يتعلق الامر بهم ، قد انتهى · لقد عاشوا كالبهائم في احياء عمالية كبيرة قذرة ، متقيحين بالبؤس والاذلال · لقد ضاعت حرياتهم القديمة كلها· ولقد أمسوا عبيد العمل الارقاء · كانوا قد حرموا حق اختيار العمل ، وكانوا الى ذلك قد حرموا حق الانتقال من مكان الى مكان ، او حق حمل السلاح او حيازته · انهم لم يكونوا اقنان ارض كالفلاحين · لقد كانوا اقنان ماكينات واقنان عمل · حتى اذا مست الحاجة اليهم ، على نحو استثنائي ، لشق الطرق العظمى ، وانشاء الخطوط الجوية ، وحفر القنوات والانفاق ، والطرق تحت الارضية واقامة التحصينات ، فعندئذ كان اصحاب السلطة يعمدون الى مصادرتهم وينقلونهم الى مسرح العمليات · ان جماعات غفيرة منهم لتكدح الان في بناء مدينة آرديس ، وقد حشدت في ثكنات حقيرة حيث لا مجال للحياة العائلية البتة ، وحيث حلت محل الحشمة بهيمية متلبدة ، وهناك في الاحياء العمالية القذرة يربض الوحش المزمجر ، وحش الهاوية ، الذي يخافه الاوليغاركيون وترتعد لذكره فرائصهم - ولكنهم هم خالقو ذلك الوحش· وهم لن يجيزوا للقرد وللنمر اللذين في جلد ذلك الوحش ان يموتا ·

وفي هذه اللحظة ذاع في الناس ان الحكومة قد عمدت الى مصادرة العمال من جديد لانشاء آزغارد ، المدينة المعجزة التي كان في النية بناؤها ١١٤ لتبز عند اكمالها مدينة آرديس ، وتتفوق عليها تفوقا بالغا · اننا نحن فتيان الثورة وفتياتها سوف نواصل هذا العمل العظيم ، ولكنه لن ينجز بأيدي الاقنان البائسين · ان اسوار هذه المدينة الفاتنة وابراجها وأعمدتها سوف ترفع على

---

١١٤ تم انشاء أرديس عام ١٩٤٢ للميلاد ، في حين ان ازغارد لم يتم بناؤها الا عام ١٩٨٤ للميلاد · لقد استغرق تشييدها اثنتين وخمسين سنة استخدم خلالها جيش دائم مؤلف من نصف مليون من الاقنان ، وكان هذا العدد يتضخم احيانا فينوف على مليون - هذا اذا أغفلنا مئات الالوف من اعضاء الطوائف العمالية المقفلة ومن اهل الفن ·

انغام الغناء ، ولسوف ينسج مع خيوط جمالها وروعتها لا تنهدات وأنات ولكن موسيقى وضحكات ٠

وكان ارنست ينتظر الخروج الى العالم الطلق في فروغ صبر ، وكان الاعداد لثورتنا الاولى المشؤومة ، ثورتنا التي اجهضت في « كومون تشيكاغو » ينضج في سرعة بالغة ٠ ومع ذلك فقد تدرع بالصبر ، وخلال فترة تحرقه تلك ، عندما خلقه هادلي الذي استقدم لهذا الغرض من ايلنويز خلقا اخر ١١٥ ، أدار في رأسه خططا لتنظيم المثقفين من البروليتاريا ، وللاحتفاظ على الاقل بجرثومة الثقافة عند ابناء الهاوية ـ كل ذلك ، طبعا ، في حال اخفاق الثورة الاولى ٠

ولم نوفق الى مغادرة الملجأ الا في كانون الثاني (يناير) عام ١٩١٧ ٠ كان كل شيء قد رتب ٠ واتخذنا مكاننا في الحال كعميلين محرضين agents provocateurs نعمل ضمن مخططات العقب الحديدية ٠ وكان مفروضا في انا أن أكون اخت ارنست ٠ وساعدنا الاوليغاركيون ورفاقنا الذين تغلغلوا بينهم ونعموا بنفوذ وسلطان عظيمين ٠٠٠ أقول انهم ساعدونا على الفوز بمنزل نأوي اليه ٠ وقدمت الينا جميع الوثائق الضرورية ، وفسر ماضينا وبرر ٠

١١٥ كان بين رجال الثورة كثير من الجراحين ، وكانت قد تمت لهم براعة اعجوبية في التشريع ٠ ولقد نصت ايفيس ايفرهارد ، بالحرف الواحد ، على انه كان في ميسورهم بالمعنى الحقيقي لا المجازي ، ان يخلقوا المرء خلقا آخر ويجعلوا منه انسانا جديدا ٠ وكانت ازالة المندوب وضروب التشويه أيسر شيء عليهم ٠ لقد غيروا ملامح الوجه وأساريره في عناية ميكروسكوبية الى حد مكنهم من اخفاء آثار صنيعهم اخفاء كاملا ، وكان الانف هو العضو الذي فضلوا تطبيق فنهم عليه ، وكان تطعيم grafting الجلد وازدراع الشعر hair-transplanting بعضا من وسائلهم الاكثر شيوعا ٠ ليس هذا فحسب ، بل ان التغييرات التي وفقوا الى احداثها في سيماء الوجه أشبه بسحر السحرة ٠ لقد عدلت الاعين ، والحواجب ، والشفاه ، والافواه ، والاذان تعديلا جذريا ٠ ومن طريق اجراء العمليات الجراحية البارعة في اللسان ، والحلق ، والحنجرة ، والتجاويف الانفية كان في الامكان تغيير نطق المرء كله وطريقته في الكلام ٠ لقد احوجتهم الايام العصيبة اليائسة الى اصطناع ضروب من المعالجة يائسة ، ولقد ارتفع جراحو الثورة الى مستوى الحاجة والتحدي ٠ وفوق هذا كله ، كان في امكانهم أن يطيلوا قامة الانسان الراشد أربعة انشات او خمسة وان يقصروها انشا او انشين ٠ ان ما وفقوا الى اجتراحه هو اليوم فن مفقود ٠ اننا في غير ما حاجةاليه

ولم يكن هذا عزيزا على من ينعم بالمساعدة من داخل العقب الحديدية ، لان الهوية كانت في عالم أجهزة الاستخبارات الطيفي ذاك شيئا سديميا • فمثل الاشباح كان العملاء يروحون ويجيئون ، ممتثلين الاوامر ، مؤدين الواجبات، متبعين الادلة ومفاتيح الاسرار ، مقدمين تقاريرهم في كثير من الاحيان الى رؤساء لم يروهم قط من قبل ، او متعاونين مع عملاء اخرين لم تقع عليهم أعينهم في الماضي ولن تقع عليهم ابد الدهر •

الفصل الثاني والعشرون

« كومون تشيكاغو »

وبوصفنا عميلين محرضين لم يكن في ميسورنا ان نكثر من الاسفار فحسب ، بل كان في ميسورنا ايضا ان نتصل ، بحكم عملنا ، بالبروليتاريا وبرفاقنا الثوريين · وهكذا كنا في المعسكرين كليهما في آن معا ، نخدم العقب الحديدية ظاهريا ، ونعمل بكل قوانا في سبيل القضية باطنيا · لقد كان كثير منا قد تسللوا الى مختلف اجهزة الاوليغاركية السرية · وعلى الرغم من ضروب الغربلة واعادة التنظيم التي اخضعت لها تلك الاجهزة السرية فانهم لم يوفقوا قط الى اقصائنا كلنا عنها ·

كان ارنست قد اوشك على انجاز تخطيط الثورة الاولى ، وكان احد أيام الربيع المبكرة من عام ١٩١٨ قد حدد موعدا لها · ففي خريف عام ١٩١٧ لم نكن على استعداد لاعلان الثورة ، كانت قد بقيت اشياء كثيرة يتعين علينا القيام بها ، وحين اندلعت قبل اوانها كان محتوما اخفاقها · كانت الخطة ، طبعا معقدة الى حد رهيب ، وكان أيما شيء فطير قادرا على افسادها من غير ريب · وذلك ما ادركته العقب الحديدية ، فوضعت خططها وفقه ·

وكنا قد عقدنا النية على تسديد ضربتنا الاولى الى جهاز الاوليغاركية العصبي · ذلك بأن الاوليغاركية كانت قد تذكرت الاضراب العام ، وكانت قد احترزت من ارتداد عمال التلغراف باقامة محطات لاسلكية يشرف عليها المرتزقة · وكنا نحن بدورنا قد قمنا بحركة معاكسة · فأوعزنا الى جمهرة من رفاقنا المتفانين في خدمة القضية ان ينفروا ، حالما تعطى الاشارة ، من الملاجىء كلها في طول البلاد

وعرضها ، من المدن الكبيرة والمدن الصغيرة والثكنات ، وينسفوا المحطات اللاسلكية · وهكذا تسقط « العقب الحديدية » عند الصدمة الاولى ، وتنطرح على الارض مقطعة الاوصال ·

وفي الوقت نفسه كان على عدد اخر من الرفاق ان ينسفوا الجسور والانفاق وان يمزقوا شبكة السكك الحديدية كلها · وفوق هذا ، فقد كان على مجموعات اخرى من الرفاق ان يلقوا القبض ، عند الاشارة ، على ضباط الشرطة والمرتزقة ، وعلى كل ذي كفاءة استثنائية من الاوليغاركيين وكل من يحتل منهم مركزا تنفيذيا حساسا على السواء · وهكذا يقصى زعماء العدو عن ميدان المعارك المحلية التي لا بد ان تدور رحاها في ارجاء البلاد كلها ·

كان التدبير يقضي بأن تحدث اشياء كثيرة ، على نحو متواقت ، عندما تعطي الاشارة بالثورة · فكان على الوطنيين الكنديين والمكسيكيين ، الذين كانوا أقوى بكثير مما حلمت به العقب الحديدية ، ان يقوموا في بلادهم بأعمال هي نسخة طبق الاصل عن اعمالنا · ثم كان ثمة رفاق (او على الاصح رفيقات ، لان الرجال سوف يكونون في شغل شاغل في مواطن اخرى) مكلفون بحمل البيانات من مطابعنا السرية الى دائرة البريد · وكان على رفاقنا الذين احتلوا مناصب عالية في « العقب الحديدية » ان يسارعوا لتوهم الى اشاعة الاختلاط والفوضى في جميع الدوائر والشعب · فقد كان في صفوف المرتزقة الاف من رفاقنا والاف · وكانت مهمتهم ان ينسفوا مخازن الذخرة ويدمروا ميكانيكية آلة الحرب الدقيقة كلها · وفي مدن جيش المرتزقة والطوائف العمالية المقفلة كان التدبير يقضي بتنفيذ برامج تخريبية مماثلة ·

وباختصار ، كانت ضربة هائلة صاعقة على وشك ان تسدد · وعندئذ تقضي الاوليغاركية نحبها قبل ان توفق الى استعادة وعيها · وخليق بذلك ان يعني اياما رهيبة وخسارة ضخمة في الارواح ، ولكن ايما امرىء ثوري يتردد امام اشياء كهذه · والواقع اننا ذهبنا الى حد الاتكال اكثر مما ينبغي ، في خطتنا ، على ابناء الهاوية غير المنظمين · ولقد كانت هذه الخطة تقضي باطلاقهم على قصور السادة ومدنهم · ولا بأس اذا ما نشأ عن ذلك ازهاق للارواح وتدمير للممتلكات · دع وحش الهاوية يزأر ، ودع الشرطة والمرتزقة يسفكون الدماء · فوحش الهاوية سوف يزأر على أية حال ، والشرطة والمرتزقة سوف يسفكون الدماء على أية حال · ان ذلك لن يعني اكثر من ان ضروبا من الاخطار التي تهددنا كانت تصطرع ويدمر بعضها بعضا من غير ان يصيبنا من اذاها شيء · وفي امكاننا خلال ذلك ان نؤدي عملنا ، غير

معترضين ولا معوقين الا قليلا ، ونفرض سيطرتنا على المجتمع كله ٠

تلك كانت خطتنا ، وقد رسمت خطوطها كلها في الكتمان ، حتى اذا اقترب الموعد المضروب أطلعنا عليها عددا من رفاقنا اكثر فأكثر ٠ وكانت هذه هي نقطة الخطر : اتساع حلقة العارفين بالمؤامرة ٠ ولكننا لم نبلغ نقطة الخطر تلك ، البتة ٠ فقد عرفت العقب الحديدية بنبأ المؤامرة ، من طريق شبكتها التجسسية ، واستعدت لاعطائنا درسا جديدا من دروسها الدامية ٠ وكانت تشيكاغو هي المدينة التي اختيرت لاعطائنا ذلك الدرس ٠ ولقد تعلمناه احسن ما يكون التعلم ٠

كانت تشيكاغو ١١٦ انضج المدن على الاطلاق ـ تشيكاغو التي كانت في الايام السالفة مدينة الدم والتي كان عليها ان تستعيد شهرتها هذه من جديد ٠ هناك ، كانت الروح الثورية قوية عارمة ٠ لقد قمع فيها ، خلال ايام الرأسمالية ، عدد من الاضرابات المريرة اكثر واعنف من ان ينساه العمال او يغفروه للقامعين ٠ وحتى الطوائف العمالية المنغلقة في المدينة كانت تتحرق الى الثورة ٠ كانت قد حطمت في الاضراب السابق رؤوس كثيرة ٠ وعلى الرغم من محاباة الاوليغاركيين لهم وما طرأ على احوالهم من تحسن فان حقدهم على الطبقة السيدة لم يكن قد مات بعد ٠ وكانت هذه الروح قد أعدت جماعة المرتزقة ، فاذا بثلاث كتائب منهم بخاصة ، على استعداد للانضمام الينا جملة واحدة en masse ٠

وكانت تشيكاغو ، دائما ، « مركز العاصفة » في الصراع بين العمال ورأس المال ٠ كانت دائما ، مدينة معارك شوارعية وموت عنيف ٠ وكان فيها منظمة رأسمالية تعي طبقيتها ، ومنظمة مالية تعي طبقيتها ايضا ، فاذا بالمدرسين أنفسهم ينخرطون ، في الايام الخالية ، في نقابات عمالية وينضمون مع الطيانين وبنائي البيوت الآجرية الى اتحاد العمال الاميركي ٠ وهكذا

---

١١٦ كانت تشيكاغو هي جحيم القرن التاسع عشر الصناعي ٠ وقد انتهت الينا رواية غريبة عن جون بيرنز ، وكان زعيما عظيما من زعماء العمال الانكليز وعضوا سابقا في الوزارة البريطانية ٠ وتفصيل الرواية ان صحافيا سأله في تشيكاغو خلال زيارة قام بها للولايات المتحدة رأيه في تلك المدينة ، فأجابه قائلا : « تشيكاغو نسخة شعبية عن الجحيم » A pocket edition of hell وبعد فترة يسيرة ، فيما كان يصعد الباخرة ليبحر الى انكلترة تقدم اليه صحافي آخر أراد ان يعرف هل غير رأيه في تشيكاغو أم لا ، فكان جوابه : « أجل لقد غيرت رأيي ٠ ان رأيي الحالي هو ان الجحيم نسخة شعبية عن تشيكاغو ! »

أمست تشيكاغو « مركز العاصفة » في الثورة الفطيرة الاولى ٠

وعمدت العقب الحديدية الى تعجيل البلاء ٠ ولقد فعلت ذلك في براعة٠ ذلك بأنها راحت تعامل افراد الشعب كلهم ، حتى الطوائف العمالية المقفلة المحاباة ، معاملة فاضحة شائنة ٠ لقد نكلت بكـــل عهد ومزقت كل اتفاق ، وأنزلت اقسى العقوبات بالمذنبين والمخالفين مهما تكن ذنوبهم ومخالفاتهـــم طفيفة ٠ وهكذا أوقظ ابناء الهاوية ، بسياط التعذيب والتنكيل ، من سباتهـم ولامبالاتهم ٠ والحق ان العقب الحديدية كانت تعد العدة لاكراه الوحش ــ وحش الهاوية ــ على الزئير والزمجرة ٠ وجنبا الى جنب مع هذا كله عمدت العقب الحديدية الى اغفال جميع التدابير الوقائية في تشيكاغو اغفالا لا يتصوره عقل ٠ وارخيت قبضة النظام الاخذة بخناق من بقي من المرتزقــة ، في حيــن سحبت كتائب عديدة ووجهت الى اجزاء مختلفة من البلاد ٠

ولم يستغرق انفاذ هذا البرنامج فترة طويلة ــ بضعة اسابيع ليس غير ٠ وتناهت الينا ، نحن ابناء الثورة ، اشاعات غامضة عن حقيقة الحال ، ولكننا لم نقع على شيء محدد يمكننا من فهم الموقف على نحو جلي ٠ والواقـــع اننا حسبنا ذلك روحا ثورية تلقائية ينبغي علينا ان نكبحها في عناية بالغة ، ولم يخطر ببالنا قط انها مفتعلة عن عمد وتصميم ــ ولقد كانت ، في الحق ، مفتعلة من جانب زعامة « العقب الحديدية » نفسها على نحو مغرق في السرية الى درجة جعلتنا نعجز عن تكوين فكرة ضبابية عنها ٠ لقد كانت المؤامرة المعاكسة عملا بارعا ، ولقد نفذت في براعة ايضا ٠

وكنت في نيويورك عندما تلقيت الامر بالمضي ، في الحال ، الى تشيكاغو ، وكان الرجل الذي اصدر الي الامر اوليغاركيا من الاوليغاركيين ــ لقد استطعت ان ادرك ذلك من كلامه ، برغم اني لم اعرف اسمه ولم ار وجهه ٠ وكانــت تعليماته واضحة الى حد لا يبقي لي مجالا للخطأ أو سوء الفهم ٠ وفي وضوح قرأت بين السطور ان مؤامرتنا قد اكتشفت ، وان مكيدة مضادة قد دبرت ضدنا وكان الانفجار ينتظر شرارة تلم بالبارود ، ولقد كلف عدد لا يحصى من عملاء العقب الحديدية ، وكنت انا منهم ــ سواء لزم اولئك العمــلاء مواطنهــم ام وجهوا الى هناك ــ بأن يوجدوا تلك الشرارة ٠ واظهرت من براعة التمثيل قدرا مكنني من الاحتفاظ برباطة جأشي تحت عين ذلك الاوليغاركي الثاقبة ، ولكن قلبي كان يخفق خفقانــا مسعورا ٠ وكنت علــى وشك ان اصرخ وان انقض بيدي العاريتين على حنجرته قبل ان ينهي اصدار تعليماته ، في كثير من البرود ، الي ولكنني عرفت كيف اضبط اعصابي ٠

حتى اذا انصرفت من لدنه اجريت حسابا للوقت ، فاذا بي أجد انه لا يسمح لي ــ هذا اذا كنت حسنة الطالع ــ بأكثر من بضع لحظات اتصل خلالها بزعيم من الزعماء المحليين قبل ان ادرك القطــار الحديدي المفروض فيه ان يقلني الى طيتي · وعلى جناح السرعة انطلقت ، محاذرة ان يقتفي احد اثري ، الى مستشفى الطوارىء ، وحالفني الحظ الحسن فأدخلت في الحال على الرفيق غالفين ، كبير جراحي المستشفى · وشرعت في الادلاء ، لاهثة ، بما لدي من معلومات ، ولكنه صدني عن سبيلي ·

لقد قال لي في سكينة ، برغــم ان عينيــه الايرلنديتين كانتا تقدحـــان شـــررا :

ــ « أعرف ذلك · لقد عرفت ما الذي اقبلت من اجله · لقد بلغنـــي نبأ ذلك منذ خمس عشرة دقيقة ، وأمررتــه ايضــا · اننا سوف نتخــذ جميــع الاجراءات الضرورية لحمل الرفاق على الاحتفاظ بهدوئهم · سوف يضحــى بتشيكاغو ، ولكن ذلك لن يتكرر في أية مدينة اخرى · »

ــ « هل حاولت ان تبلغ تشيكاغو النبأ ؟ »

فهز برأسه ، ثم قال :

ــ « ليس ثمة اتصال تلغرافي · لقد عزلت تشيكاغو · ان أبواب جهنــم لتوشك ان تفتـــح هناك · »

وتمهل لحظة · وبصرت بأصابع يده البيضاء تنطبق لتشكل قبضـــة متلاحمة · ثم انفجــر قائلا :

ــ « لشد ما أتمنى ، وحق الالــه ، لو يقدر لي ان اكون هناك ! »

فقلت :

ــ « لا يزال ثمة مجال للحؤول دون الكارثة ، اذا لم يصب القطـــار الحديدي اذى ما ، واذا وصلت الى هناك في الوقت المناسب · او اذا ما وفق بعض رفاقنا الاخرين ، الذين يعملون في أجهزة الاستخبارات السرية والذيــن قدر لهم الاطلاع على الحقيقة ، الى الوصول الى هناك في الوقت المناسب · »

وقـــال :

ــ « لقد اظهرت الاحداث انكم كنتم ــ انتم الذين تعملون للقضية الكبرى من داخل العقب الحديدية ــ مستسلمين للكرى هذه المرة · »

فهززت برأسي في ذلـــة ·

ثم قلـــت :

ــ « لقد اصطنعوا السرية التامة في ذلك · وما كان في ميسور احد غير

زعماء العقب الحديدية انفسهم ان يعرفه ، حتى فجر هذا اليوم · اننا لما ننفذ بعد الى قلب العقب الحديدية النابض ، ومن هنا لم يكن لنا مندوحة عن التخبط في ديجور الجهل · آه ، ليت ارنست كان هنا · لعله ان يكون في تشيكاغو الان ، وعندئذ يمسي كل شيء على ما يرام · »

وهز الدكتور غالفين برأسه وقال :

ـ « اخر نبأ سمعته انه ارسل الى بوسطن او نيو هايفن · وهذا العمل السري في خدمة العدو سوف يعوقه كثيرا ، ولكنه خير من الانكماش في ملجأ · »

واستعددت للانصراف ، فضغط غالفين على يدي ، وودعني بهذه الكلمات :

ـ « اعتصمي بجراءة الفؤاد · وما ضرنا لو خسرنا الثورة الاولى ؟ سوف يكون ثمة ثورة ثانية ، ولسوف نكون اعقل واكثر حكمة انذاك · وداعا ، وحظا طيبا · انا لا ادري هل يقدر لي ان اراك بعد اليوم ام لا ؟ ان ابواب جهنم سوف تفتح هناك ، ولكني مستعد لان اتنازل عن عشر سنوات من حياتي اذا كان في ذلك ما يمكنك من الوصول في الوقت المناسب · »

وغادر « القرن العشرون » [117] نيويورك في الساعة السادسة مساء ، وكان مفروضا فيه ان يصل الى تشيكاغو في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي · ولكنه اضاع بعض الوقت تلك الليلة · كنا منطلقين خلف قطار اخر · وبين المسافرين في القطار « البولمان » الذي اقلني كان الرفيق هارتمان ، وكان يعمل مثلي في استخبارات « العقب الحديدية » السرية · وكان الرفيق هارتمان هو الذي حدثني حديث القطار الذي يتقدمنا مباشرة · لقد كان نسخة طبق الاصل عن قطارنا ، برغم خلوه من الركاب · وكان المراد به ان يتلقى هو الضربة اذا ما جرت محاولة الى نسف قطارنا ، « القرن العشرين » · ومن اجل ذلك لم يكن على متن القطار غير قلة قليلة من الناس ـ ففي حافلتنا نحن كان ثلاثة عشر شخصا ليس غير · وخلص هارتمان الى القول :

ـ « لا ريب في ان القطار يقل نفرا من ذوي الشأن والخطر · لقد لاحظت ان في مؤخرته حافلة خصوصية · »

وكان الليل قد هبط عندما انتقلنا ، اول مرة ، الى قطار اخر ، ورحت اتمشى على رصيف المحطة التماسا للهواء الطلق وابتغاء مشاهدة ما كان

---

١١٧ كان معروفا بانه أسرع قطار في العالم ، في تلك الايام · وكان قطارا يتمتع بشهرة عظيمة حقا ·

في امكاني ان اشاهده · ومن خلال نوافذ الحافلة الخصوصية لمحت ثلاثة رجال لم يكونوا غرباء عني ، لقد عرفتهم · وكان هارتمان على صواب · فأحد اولئك الرجال كان الجنرال التندورف ، وكان الرجلان الاخران هما مايسون وفانديربولد ، دماغي شعبة الاستخبارات السرية الاوليغاركية المفكرين ·

كانت ليلة قمراء ساجية ، ولكن القلق غلب علي فلم تغتمض عيناي البتة · وفي الساعة الخامسة صباحا ، ارتديت ثيابي وغادرت السرير ·

وسألت الخادمة في حجرة الملابس والزينة كم ساعة تأخر القطار ، فقالت انه تأخر ساعتين اثنتين · كانت امرأة خلاسية ، ولقد لاحظت انها كانت شاحبة الوجه ترتسم تحت عينيها حلقات كبيرة ، على حين كانت عيناها نفساهما متسعتين بضرب من الخوف ملازم مقلق ·

وسألتها :

ـ « ما المسألة ؟ »

فكان جوابها :

ـ « لا شيء ، يا سيدتي · أحسب اني لم انعم بنصيب كاف من النوم · »

وامعنت النظر اليها ، وامتحنتها باحدى اشاراتنا · فاستجابت ، واستوثقت منها ·

وقالت :

ـ « ان شيئا فظيعا سوف يحدث في تشيكاغو · وهناك هذا القطار الزائف المنطلق امامنا · ان ذلك القطار والقطر التي تقل القوات هي التي اخرتنا هذا التاخير كله · »

فسألتها :

ـ « القطر التي تقل القوات ؟ »

فهزت برأسها وقالت :

ـ « الخط حافل بهذه القطر · ولقد كنا نجتاز بها طوال الليل · وهي كلها منطلقة الى تشيكاغو · وان في تسييرها على الخط المباشر ما يدل على ان ثمة شيئا يبيت · »

وصمتت لحظة ، ثم اضافت في لهجة اعتذارية :

ـ « ان لي عشيقا في تشيكاغو · انه واحد منا ، وهو يعمل في جيش المرتزقة ، واني لخائفة عليه · »

يا لها من فتاة مسكينة ! لقد كان عشيقها في احدى تلك الكتائب التي خانت عهد الاوليغاركية وانضمت الى صفوفنا ·

وتناولت الفطور مع هارتمان في حجرة الطعام ، واكرهت نفسي على الاكل · كانت السحب قد حجبت السماء ، واندفع القطار مثل صاعقة متجهمة عبر الحجاب الاشهب الذي كان يلف النهار المقترب · وكان الزنوج انفسهم ، الزنوج القائمون على خدمتنا ، يعرفون ان شيئا فظيعا على وشك ان يقع · كان ضيق الصدر قد ران عليهم ثقيل الوطأة · وكان مرحهم الطبيعي قد زايلهم · كانوا متوانين في الخدمة ذاهلين عن واجباتهم ، ولقد تهامسوا باكتئاب في الطرف الاقصى من الحافلة المحاذية للمطبخ · وكان هارتمان شديد التشاؤم ، شبه يائس من الوضع ·

وتساءل للمرة العشرين ، في هزة من الكتفين ترشح بالعجز :

ـ « ما الذي نستطيع ان نفعله ؟ »

واشار الى النافذة ، وأضاف :

ـ « انظري ، كل شيء جاهز · وفي استطاعتك ان تثقي انهم يحتجزونهم على هذا النحو ، على مبعدة ثلاثين او اربعين ميلا خارج المدينة ، عند كل طريق · »

كان يشير الى القطر الحاملة قوات من الجيش ، والواقفة عند حاشية المحطة · وكان الجنود يطهون فطورهم على نيران اضرمت على الارض الى جانب حاشية المحطة ، ولقد رفعوا ابصارهم نحونا في فضول بينا كنا ننطلق راعدين ، من غير ان نخفف شيئا من سرعتنا المروعة ·

كان كل شيء هادئا عندما دخلنا تشيكاغو · وكان واضحا ان ايما شيء لما يحدث بعد · وفي الضواحي جاءتنا صحف الصباح فطالعناها ونحن على متن القطار · لم يكن فيها شيء ، ومع ذلك فقد كان فيها اشياء كثيرة بالنسبة الى من برع في القراءة ما بين السطور ، اشياء قصد بها الى ان لا يتلوها القارىء العادي في المتن · كانت يد « العقب الحديدية » الرشيقة جلية في كل عمود من اعمدتها · لقد ألمعت الماعات خفية الى ما يعتري سلاح الاوليغاركية من وهن · طبعا ، لم يكن ثمة شيء محدد واضح · فقد كان التدبير يقضي بأن يتلمس القارىء سبيله بنفسه وسط هذه الالماعات كلها · ولقد وفق الصحافيون الى النجاح في ذلك في كثير من البراعة · ان صحف الصباح الصادرة في اليوم السابع والعشرين من تشرين الاول (اكتوبر) كانت ، من حيث ما حفلت به من روايات خيالية ، روائع يندر ان يجود الزمان بمثلها ·

كانت تلك الصحف خلوا من الانباء المحلية ·وكانت هذه في ذات نفسها « ضربة معلم » · لقد سربلت تشيكاغو بستار من الالغاز الغامضة ، وأوحت

الى القارىء التشيكاغووي العادي ان الاوليغاركية لم تجد في نفسها الجرأة على نشر الانباء المحلية · وحفلت تلك الصحف بتلميحات كاذبة طبعا ، عن عصيان عم البلاد من اقصاها الى اقصاها ، تلميحات قنعت باشارات مغرورة الى اجرءات انتقامية سوف تتخذ وكانت ثمة انباء تقول ان كثيرا من محطات اللاسلكي قد نسفت ونص على ان مكافآت ضخمة سوف تقدم الى من يدل على الجناة · ان ايما محطة من محطات اللاسلكي لم تنسف ، طبعا · واوردت الصحف انباء عن كثير من الاعتداءات المماثلة انسجمت مع خطة الثوريين · وكانت الانطباعة المراد تركها في اذهان رفاقنا التشيكاغوويين هي ان الثورة العامة قد اندلعت ، مع اشارات مشوشة الى اخفاقها في كثير من النقاط التفصيلية · ولقد كان من المتعذر على غير الملم بحقيقة الوضع ان لا يستشعر، استشعارا غامضا ولكنه راهن ، ان البلاد كلها أمست يانعة للثورة التي كانت قد انفجرت فعلا ·

واوردت الصحف ايضا ان ردة المرتزقة في كاليفورنيا كانت قد امست من الخطورة بحيث ان نصف دزينة من الكتائب قد انحلت وتفسخت وان أفرادها وأسرهم قد أخرجوا من مدينتهم نفسها الى احياء العمال القذرة · هذا مع العلم ان مرتزقة كاليفورنيا كانوا في الواقع اكثر الناس ولاء لاسيادهم ! ولكن انى كان لتشيكاغو ، المعزولة عن سائر العالم ، ان تعرف ؟ ثم انه كان ثمة برقية مهلهلة الحواشي تصف انتفاضة قام بها سكان مدينة نيويورك واشتركت فيها الطوائف العمالية المقفلة · وقد ختمت تلك البرقية بنص يقول (بطريقة قصد بها الى ايهام القارىء انها خدعة) ان قوات الحكومة تسيطر على الموقف ·

وكما فعل الاوليغاركيون بصحف الصباح كذلك فعلوا بالف طريقة اخرى · وهي طرائق عرفنا بها في ما بعد ، ومنها مثلا رسائل الاوليغاركيين السرية التي ارسلت ابتغاء غرض واحد : هو ان تتسرب ، عمدا ، الى آذان الثوريين التي اصاخت ، بين الفينة والفينة ، الى اسلاك البرق خلال الهزيع الاول من الليل ·

ولاحظ هارتمان ، طارحا الصحيفة التي كان يطالعها ، عندما تقدم القطار نحو المستودع المركزي :

ـ « لقد اضاعوا وقتهم بارسالنا الى هنا · فقد نجحت خططهم ، من غير ريب ، نجاحا فاق كل ما توقعوه · ان نيران جهنم سوف تندلع في اية لحظة · »

والتفت وأطل من القطار فيما كنا نترجل ٠ وغمغم قائلا :

ـ « لقد توقعت ذلك ٠ لقد فصلوا تلك الحافلة الخصوصية عن القطار عندما تناهت الصحف الى متنه ٠ »

كان هارتمان مكتئبا على نحو يائس ٠ وحاولت ان ادخل شيئا من البهجة على قلبه ، ولكنه تجاهل جهدي ، وفجأة شرع يتحدث في عجلة بالغة ، وفي صوت خفيض ، فيما كنا نغادر المحطة ٠ ولم استطع ان افهم ، في بادىء الامر ٠ كان يقول :

ـ « انا لم اكن واثقا ، ومن اجل ذلك لم ابلغ احدا ٠ لقد سلخت اسابيع في التفكير في هذه المسألة ولكني عجزت عن الوصول الى شيء يقيني ٠ احترسوا من نولتون وراقبوه ٠ انا ارتاب فيه ٠ وهو يعرف اسرار عشرين من ملاجئنا ٠ ان حيوات مئات منا هي رهن يديه ، وانا احسب انه خائن ٠ وهو مجرد شعور باطني عندي اكثر منه اي شيء اخر ٠ ولكني اعتقد اني لاحظت تطورا طرأ عليه منذ فترة قصير ٠ واخشى ما اخشاه ان يكون قد باعنا للعدو او ان يكون معتزما ان يبيعنا للعدو ٠ انا على مثل اليقين من ذلك ٠ اني لن اهمس بشكوكي في اذن احد ، ولكن يخيل الي بطريقة ما اني لن اغادر تشيكاغو حيا ٠ افتحوا اعينكم على نولتون ٠ انصبوا له شركا٠ ابحثوا واستطلعوا ٠ انا لا اعرف شيئا اضافيا ٠ انه مجرد حدس ، ولقد عجزت حتى الان عن العثور على اضأل دليل ٠ »

وكنا الان قد وصلنا الى رصيف الشارع ٠ وختم هارتمان كلامه في حماسة :

ـ « اذكري ما قلته ٠ افتحوا اعينكم على نولتون ! »

وكان هارتمان على صواب ٠ فلم يكد ينقضي شهر واحد حتى دفع نولتون حياته ثمنا لخيانته ٠ ولقد نفذ الرفاق حكم الموت به ، رسميا ، في ميلووكي ٠

كان كل شيء هادئا في الشوارع ـ هادئا اكثر مما ينبغي ٠ كانت تشيكاغو مسجاة على فراش الموت ٠ فلم يكن ثمة لا هدير مواصلات ولا قرقرة سيارات ٠ بل لم يكن في الشوارع حتى عربات اجرة ٠ وكانت القطر الحديدية السطحية * والقطر الحديدية المعلقة ** قد كفت عن الانطلاق ٠ وبين الفينة والفينة فحسب ، كنت ترى مشاة معدودين على الاصابع ، ولكن هؤلاء المشاة

---

* التي تجري على سطح الارض ٠

** الجارية فوق الطرق والشوارع ٠

لم يكونوا يتولنون في السير البتة · لقد مضوا لطياتهم في عجلـة واندفـاع بالغين ، ومع ذلك فقد كان في حركاتهم قلق غريب ، وكأنهم كانوا يتوقعون ان تنهار الابنية على رؤوسهم او ان تسيخ الارصفة تحت اقدامهم او تتطاير في الفضاء · بيد ان بضعة نفر من المتشردين كانوا يتسكعون ههنا وههناك · وفي اعينهم تلهف مكبوح مترقبين ان تحدث اشياء رائعة ومثيرة ·

ومن مكان ما ، بعيدا الى ناحية الجنوب ، تناهى الى اذاننا صـدى انفجار خافت · ذلك كان كل شيء · ثم ران السكون من جديد ، برغم ان المتشردين كانوا قد اجفلوا واصاخوا للصوت كما تصيخ صغار الايائل · كانت مداخل الابنية كلها موصدة ، وكانت المحال التجارية كلها مغلقة · ولكن كان ثمة عدد كبير من العسس ورجال الشرطة · وبين الفينة والفينة كانت سيارة من سيارات المرتزقة تنهب الشارع نهبا ·

وانعقد رأينا ، انا وهارتمان ، على ان من العبث الذي لا طائل تحته ان نمضي لاثبات وجودنا امام زعماء شعبة الاستخبارات المحليين · فقد عرفنا انهم خليقون بأن يغفروا لنا مثل هذا التقصير على ضوء الاحداث التاليـة · وهكذا شخصنا الى حي العمال الكبير في « الجانب الجنوبي » (ساوث سايد) آمليـن أن نتصـل ببعض الرفـاق · كان الاوان قـد فـات ، لقـد عرفنا ذلك ، ولكنه لم يكن في ميسورنا ان نقف مكتوفي الايدي في تلك الشوارع الصامتة الشاحبة شحوب الموت · اين كان ارنست ؟ ذلك مـا كنت أتساءل عنه · ما الذي كان يحدث في القلاع والحصون ؟

وانطلق ، وكأنه يجيبني عن تساؤلاتي ، هدير زاعق ضخم ، باهت بحكم البعد ـ هدير قطعه الانفجار اثر الانفجار ·

فقال هارتمان :

ـ « انها القلاع · فليرحم الله تلك الكتائب الثلاث ! »

وعند ملتقى من ملتقيات الطرق لاحظنا في اتجاه مرابط الماشية عمـودا هائلا من دخان · وعند الملتقى التالي كانت اعمدة دخان اخرى مماثلة ترتفع نحو السماء في اتجاه « الجانب الجنوبي » (ساوث سايد) · وفوق مدينـة المرتزقة بصرنا بمنطاد حربي ضخم من النوع الذي يثبت في مكان ما بواسطة حبل او سلك · ولم تكد اعيننا تقع عليه حتى انفجر وسقط حطاما ملتهبا على سطح الارض· ولم نستطع ان نهتدي الى سر تلك الكارثة الجوية · ولقـد عجزنا عن ان نعلم علم اليقين هل كان يحمل رجـالا من الرفـاق ام من الاعداء · وتناهى الى سمعنا صوت غامض ، اشبه ما يكون ببقبقة مرجـل

هائل يغلي على مبعدة نائية ، وقال هارتمان انه صدى المدافع السريعة الطلقات والبنادق الاوتوماتيكية ·

ومع ذلك ، واصلنا سيرنا في سكينة مباشرة · ان شيئا لم يحدث حيث كنا · كل ما في الامر ان رجال الشرطة كانوا يطوفون ههنا وههناك ، وكذلك فعلت دوريات الامن في سياراتها المصفحة · وذات مرة رأينا دزينة من سيارات الاطفاء راجعة ، على نحو واضح ، من حريق ما · ووجه احد ضباط دوريات الامن ، من سيارته ، سؤالا الى رجال الاطفاء ، ولقد سمعنا احدهم يصيح مجيبا :

ـ « لا ماء ! لقد نسفوا الانابيب الرئيسية ! »

وصاح هارتمان في اهتياج ، موجها حديثه الي :

ـ « لقد قطعنا المدد المائي · واذا كان في استطاعتنا ان نفعل ذلك كله في محاولة فطيرة ، معزولة ، عقيم ، فما الذي لا نستطيع ان نفعله في جهد ناضج ، متسق ينتظم البلاد كلها ؟ »

وانطلقت السيارة التي كان فيها الضابط الذي طرح السؤال على رجال الاطفاء · وفجأة دوى انفجار يصم الآذان · لقد ارتفعت السيارة ، بحملها البشري ، في الفضاء يكتنفها حجاب من دخان ، ثم سقطت على الارض كتلة من حطام وموت ·

وغمر الابتهاج هارتمان ، وراح يكرر ، في همس ، مرة ومرة ومرة :

ـ « رائع ! رائع ! ان البروليتاريا تتلقى اليوم درسا ، ولكنها في الوقت نفسه تلقي على الاوليغاركية درسا ايضا » ·

كان رجال الشرطة يهرعون الى مكان الحادث · وهرعت دورية ميكانيكية اخرى الى ذلك المكان ايضا · اما انا فقد عصف براسي دوار · كانت فجائية هذا كله مذهلة صاعقة · كيف حدث ذلك ؟ انا لست ادري كيف ، ومع هذا فقد كنت أرى اليه مباشرة · وكان الدوار العاصف براسي شديدا الى درجة كدت لا أعي معها ، لحظة من زمان ، أننا وقعنا في أيدي الشرطة · وفجأة رأيت شرطيا يسدد مسدسه الى هارتمان · ولكن هارتمان كان رابط الجاش، وكان يدلي بكلمات السر · وبصرت بالمسدس المسدد يتردد ، ثم يهوي ، وسمعت نخرة الشرطي المشمئزة · كان مغضبا الى ابعد حدود الغضب ، وكان يلعن شعبة الاستخبارات السرية كلها · لقد اكد ان هذه الشعبة كانت تعترض سبيلهم دائما ، فيما كان هارتمان يرد عليه ويشرح له ، في اعتزاز خليق بأفراد شعبة الاستخبارات ، خرق رجال الشرطة ورعونتهم ·

وفي اللحظة التالية عرفت كيف حدث ذلك · كان يحيط بحطام السيارة جمع غفير ، وكان رجلان اثنان يرفعان الضابط الجريح لحمله الى السيارة الاخرى · وعصف الذعر بهم كلهم ، وتناثروا في كل اتجاه ، راكضين في رعب أعمى ، مخلفين الضابط الجريح وراءهم وقد أسقط على الارض بفظاظة · والشرطي المجدف من حولي أطلق ساقيه للريح أيضا ، وكذلك فعلت انا وهارتمان ، من غير ان ندري لماذا ، وقد استبد بنا الرعب الاعمى نفسه ودفعنا الى الابتعاد عن تلك البقعة بالذات ·

ولم يحدث آنذاك شيء ، فعلا ، ولكن كل شيء ما لبث ان اتضح · كان الهاربون يرجعون على استحياء ، ولكن أعينهم كانت ترنو أبدا ، وفي جزع ، الى البناية الشاهقة ، المتعددة النوافذ ، التي ارتفعت مثل جدران واد من الاودية على جانبي الشارع · لقد ألقيت القنبلة من واحدة من هذه النوافذ التي لا تحصى ، ولكن اي نافذة ؟ لم تكن ثمة قنبلة ثانية · لا ، كان ثمة خوف من قنبلة ثانية ليس غير ·

ورحنا من ثم نرنو ، في جزع تأملي ، الى النوافذ · كانت كل منها تنطوي على موت محتمل · وكان من الجائز ان يكون في كل مبنى كمين · كانت هذه حربا تدور في ذلك الدغل الحديث ـ المدينة الكبيرة · كان كل شارع واديا ، وكان كل مبنى جبلا · اننا لم نختلف كثيرا عن الانسان البدائي ، برغم السيارات الحربية التي كانت تذرع الشوارع ·

واذ انعطفنا عند زاوية ، التقينا باحدى النساء · كانت منطرحة على الرصيف وسط بركة من دماء · وانحنى هارتمان فوقها وراح يفحصها · أما أنا فاستبد بي غثيان مهلك · لقد قدر علي أن أرى قتلى كثيرين ذلك اليوم ، ولكن تلك الاشلاء كلها لم تؤثر في نفسي بقدر ما أثرت تلك الجثة المهملة ، المطروحة عند قدمي على رصيف الشارع · وقال هارتمان : « لقد أصابها الرصاص في صدرها · » وبين يديها كانت تحتضن ، كما يحتضن طفل ، رزمة من مطبوعات · لقد بدا أنها كرهت ، حتى بعد الموت ، ان تنفصل عن تلك الرزمة التي كانت سببا في قتلها ، اذ ما ان وفق هارتمان الى سحب الرزمة حتى وجدنا أنها تتألف من أوراق كبيرة مطبوعة ـ من بيانات رجال الثورة ·

وقلت :

ـ« رفيقة من الرفاق » ·

ولكن هارتمان اجتزأ بلعن « العقب الحديدية » ، وتابعنا طريقنا · وأوقفنا رجال الشرطة والعسس مرات عديدة ولكن كلمات السر التي كنا ندلي

بها مكنتنا من مواصلة السير · ولم تسقط بعد أية قنابل من النوافذ ، وبـدا وكأن اخر فرد من المشاة قد توارى من الشوارع ، وأمسى هدوؤنا المفـاجىء اكثر عمقا ، على الرغم من ان المرجل الجبار واصل بقبقته في المدى البعيد ، وتناهت الينا من جميع الجهات اصداء انفجارات خافتة ، فيما كانت أعمدة الدخان تحلق في السماء على نحو أحفل بالشؤم ·

الفصل الثالث والعشرون

أبنـاء الهاويـة

وفجأة تغير وجه الاشياء · لقد سرى في الجو كله خدر اهتياج · وولت السيارة مسرعة ، مثنى ، وثلاث ، ودزينة دزينة ، ومنها أرسلت الينا تحذيرات وتنبيهات · وانحرفت احداها انحرافا ضاريا ، في سرعة بالغة ، على مبعدة بضعة مبان متلاحقة ، فاذا بالرصيف الذي خلفتـــه وراءها يمزقه ، بعد لحظات ، انفجار قنبلة فيحيله الى حفرة ضخمة · ورأينا رجال الشرطـــة يتوارون هابطين الشوارع المعترضة فرارا بأنفسهم من الهلاك ، وعرفنا ان شيئا رهيبا يوشك ان يحدث · كان في ميسورنا ان نسمع هديره الصاعد ·

وقال هارتمان :

ـ « ان رفاقنا البواسل قادمون » ·

لقد استطعنا ان نرى مقدمة كتيبتهم تملأ الشارع من البالوعة الـــى البالوعة ، بينا كانت اخر السيارات الحربية تنجو بنفسها · ووقفت السيـــارة لحظة ، ازاءنا تماما · ووثب منها جندي ، حاملا بيديه شيئا ما في احتراس· وبالاحتراس نفسه وضع ذلك الشيء في البالوعة · ثم انه وثب مرتدا الـــى مقعده ، وانطلقت السيارة على جناح السرعة ، وانعطفت عند الزاوية متوارية عن العيان · وهرع هارتمان الى البالوعة وانحنى فوق ذلك الشيء الــذي وضع فيها ·

وحذرني قائلا :

ـ « ارتدي الى الوراء ! »

لقد استطعت ان ارى أنه كان يعمل ، في سرعة ، بيديه الاثنتين · وحين

انقلب الي كان العرق يتصبب غزيرا من جبينه ٠

وقال :

ـ « لقد عطلتها ، وكان ذلك في اخر لحظة ٠ لقد كان الجندي أخرق ٠ وقد استهدف بها رفاقنا ، ولكنه لم يعطها وقتا كافيا ٠ لقد كان خليقا بها ان تنفجر قبل الاوان ٠ أما الان فانها لن تنفجر أبد الدهر ! »

كان كل شيء يحدث الان في سرعة ٠ وعبر الشارع ، على مبعدة بضعة مبان فيه ، استطعت ان أرى رؤوسا تطل من أعلى أحد المباني ٠ وما أن لفت نظر هارتمان اليها حتى حجب ذلك الجزء من وجه المبنى ، حيث كانت الرؤوس قد برزت ، حجاب غليظ من لهب ودخان ، وحتى زلزل الهواء بالانفجار ٠ وفي بعض المواطن كانت الطبقة الحجرية التي مزقت كاشفة عن الحديد الذي كان من قبل محجوبا خلفها ٠ وما هي غير لحظة حتى اكتنفت مقدمة المبنى القائم تجاهه ، عبر الشارع ، حجب مماثلة من لهب ودخان ٠ وبين الانفجار والانفجار كان في ميسوري ان اسمع قعقعة المسدسات والبنادق الاوتوماتيكية ٠ واستمرت هذه المعركة « الجوية » بضع دقائق ، ثم خمدت نارها ٠ وكان واضحا ان رفاقنا كانوا في مبنى ، وان المرتزقة كانوا في اخر ، وانهم كانوا يتقاتلون عبر الشارع ٠ ولكننا لم نستطع ان نحزر في اي مبنى كان الرفاق ، وفي اي مبنى كان المرتزقة ٠

وفي هذه اللحظات كانت الكتيبة قد واجهتنا او كادت ٠ وما ان حاذت البنايتين المتحاربتين حتى نشطتا كلتاهما للعمل من جديد ـ وكانت احدى البنايتين تلقي القنابل في الشارع ، بعد ان هوجمت من عرضه فراحت تجيب على الهجوم بهجوم مضاد ٠ وهكذا عرفنا اي البنايتين كان يحتلها رفاقنا ، ولقد أبلوا في الحق بلاء حسنا منقذين اولئك الذين كانوا في الشارع من قنابل العدو ٠

وامسك هارتمان بذراعي ، واقتادني الى مدخل عريض ٠

وصاح في أذني :

« انهم ليسوا رفاقنا » ٠

كانت ابواب المدخل الداخلية مقفلة مرتجة * بالحديد ٠ ولم يكن في ميسورنا ان نفر ٠ وما هي الا لحظة حتى مرت الكتيبة بحذائنا ٠ انها لم تكن كتيبة ، ولكن جماعة من الغوغاء ـ نهرا رهيبا غمر الشارع ، أبناء الهاوية وقد خبلتهم الخمرة والظلم ، وثاروا اخر الامر وزمجروا ظامئين الى

* ارتج الباب : أغلقه اغلاقا وثيقا ٠

دم اسيادهم · لقد رأيت ابناء الهاوية من قبل ، وطوفت في احيائهم وحسبت اني عرفتهم ، ولكني وجدت الان اني كنت انظر اليهم للمرة الاولى · كـان التلبد الابكم قد تلاشى · لقد أمسوا الان مشهدا ديناميا ، بل مشهدا فاتنا من الرعب · ولقد اصطخبوا تحت ناظري امواجا من غيظ ، مدمدمين مزمجرين ، قرمين الى اللحم ، سكرى بالويسكي التي نهبوهـا من مخازنهـا ، سكرى بالبغض ، سكرى بالشهوة الى الدم ــ رجال ، ونساء ، وأطفال ، في أسمال بالية ، أرواح قائمة ضارية محي من أساريرها كل ما هو الهي ، وطبع عليها كل ما هو ابليسي ، قردة ، ونمورة ، ومصدورون مصابون بفقر الدم ،ووحوش ضخمة كثة الشعر من بهائم حمل الاثقال ، ووجوه شاحبة امتص المجتمـع السلاب نسغ الحياة منها ، وأشكال منتفخة متورمـة بالجلافة الجسديـة والفساد ، عجائز شمط ذابلات ، وجماجم وقورة ملتحية ككهان النصـارى القدماء ، شباب متقيح ، وشيخوخة متقيحة ، وجوه عفاريت، وهولات شائهة ممسوخة اذبلتها غوائل المرض وجميع أهوال سوء التغذية المزمن ــ حثالـة الحياة ونفايتها ··· قطيع ، زاعق ، صائح ، ركبه عفريت !

ولم لا ؟ ان ابناء الهاوية لم يكن لديهم ما يخسرونه غير الشقاء ومتاعب العيش · وما يربحونه ؟ لا شيء ، ما خلا تخمة نهائية رهيبة من انتقام · وفيما كنت اراقب ذلك كله خطر لي ان في سبيل الحمم البشرية المتدفق هذا رجـالا ورفاقا وابطالا كانت رسالتهم اثارة وحش الهاويـة وابقـاء العدو مشغولا بمصاولته ومقارعتـه ·

وألم بي ، في تلك اللحظة ، شيء عجيب · لقد عرفت تحولا باطنيـا غامرا · ان خوف الموت ، بالنسبة الي وبالنسبة الى الاخرين ، زايلنـي فجاءة · لقد عصف بي اهتياج غريب ، فاذا انا كائن جديد في حياة جديدة · لم يبق ثمة معنى او قيمة لايما شيء · وضاعت القضية الكبرى مؤقتـا ، ولكن هذه القضية سوف تكون هنا غدا ، القضية نفسها ، ولسوف تكون غضة ابدا ، متقدة ابدا · وفي ما بعد ، في غمرة الرعب الذي عصف خـلال الساعات التي تلت ، استطعت ان اتخذ موقف الاهتمام الهادىء · ان المـوت لم يعد يعني شيئا ، وان الحياة لم تعد تعني شيئا · وكنت انا مراقبة يقظة للاحداث ، وفي بعض الاحيان الفيت نفسي ، وقد جرفني تيار الصراع ، مشاركة فضولية في المعركة · ذلك بأن عقلي كان قد وثب الى منزلة عالية من البرود ، وأعاد النظر في القيم على نحو خلو من الانفعال · ولو انه لم يفعل ذلك ، اذن للقيت حتفي من غير ريب ·

كان نصف ميل من الغوغاء قد اجتاز بنا عندما اكتشف امرنا · لقد لمحتني ولمحت هارتمان امرأة ترتدي اسمالا غريبة ـ امرأة ذات وجنتين غائرتين على نحو كهفي ، وعينين ضيقتين سوداوين مثل مثقبين ملتهبين · لقد اطلقت صيحة حادة ، واقتربت منا · وانفصل فريق من الغوغاء عن الحشد العارم ، واندفعوا نحونا · وفي ميسوري ان اراها الان ، وانا اكتب هذه السطور ، وقد تطاير شعرها الاشيب خصلا رقيقة متداخلة ، وجرى الدم على جبينها من جرح في رأسها ، وحملت في يدها اليمنى فأسا ، بينا كانت يدها اليسرى ـ المهزولة المتغضنة ، الشبيهة بمخلب اصفر ـ تحاول ان ان تقبض على الريح في تشنج · ووثب هارتمان ليحميني بجسده · ولم يكن المجال يتسع لاعطاء تفسيرات للموقف · لقد كنا حسني البزة ، وهذا وحده كان كافيا · وسدد الى المرأة ، بجمع كفه ،لكمةاصابتها بين‌عينيها الملتهبتين · فردتها الضربة الى الوراء ، ولكنها اصطدمت بجدار رفاقها الزاحفين ، وارتدت طافرة الى امام ، كرة اخرى ، وقد عصف بها دوار ويأس في حين سقطت الفأس ، التي كانت تلوح بها في يدها ، سقوطا واهنا على كتف هارتمان ·

ولم ادر ، بعد ذلك ، ما الذي كان يحدث · لقد سحقني الحشد سحقا وملىء المجال المطوق بالزعقات والصيحات واللعنات · كانت الضربات تنصب علي · وكانت الايدي تمزق لحمي وملابسي · واستشعرت اني مزقت اربا اربا · وخارت قواي ، واحسست بالاختناق · وامسكت يد بكتفي ، وسط الحشد ، وراحت تضغط علي في ضراوة · وبين الالم والضغط اغمي علي · ولم يغادر هارتمان ذلك المدخل قط · كان قد جعل من جسده ترسا لي ، وتلقى صدمة الهجوم الاولى · وكان هذا قد انقذني ، ذلك بأن الزحام كان قد أمسى ، بسرعة ، كثيفا الى حد امتنع معه كل شيء ما خلا الامساك بالايدي وتمزيقها على نحو مسعور ·

وثبت الى رشدي وسط حركة ضارية · كان كل ما حولي هو تلك الحركة نفسها · كنت أسيرة طوفان عارم كان يجرفني الى حيث لا ادري · وكان الهواء الطلق يداعب وجنتي ، ويلسع رئتي لسعا عذبا ·واستشعرت استشعارا ضبابيا ، وقد استبد بي الدوار والاغماء ، يدا قوية تطوقني من تحت ابطي ، وترفعني نصف رفعة وتجرني الى أمام · وفي وهن ، كانت قدماي نفساهما تساعدانني · وتجاهي ، استطعت ان ارى الظهر المتحرك من سترة رجل · كانت قد شقت من اعلاها الى ادناها عند الدرزة المركزية ، وكانت تخفق

خفقا ايقاعيا : ذلك بأن ظهر الستره المشقوق كان ينفرج وينغلق ، على نحو نظامي ، مع كل خطوة من خطوات اللابس • وفتنتني هذه الظاهرة برهة ، فيما كنت أثوب الى رشدي • وبعد ذلك اصبحت اعي لسعا في وجنتي وانفي ، واستطعت ان احس بالدم يجري على وجهي • كانت قبتي قد ضاعت • وكان شعري ينوس على جبيني ويتطاير في الهواء ، ومن اللسع الذي كان يعتري جلدة رأسي حاولت ان استحضر صورة يد كانت قد شدتني من شعري عندما احاط بي الحشد عند مدخل المبنى • كان صدري مرضوضا وكانت ذراعاي مرضوضتين ، وكانت كلها تؤلمني في نواح منها كثيرة •

وغدا ذهني اشد صفاء ، واستدرت وانا اعدو ونظرت الى الرجل الذي كان يحملني • لقد كان هو الذي جرني وانقذني • ولاحظ حركتي فصاح في صوت أجش :

ـ « لا بأس ! لقد عرفتك في الحال • »

ولم استطع ان اتبينه ، ولكني دست ـ قبل ان اوفق الى الكلام ـ شيئا كان حيا وكان يتلوى تحت قدمي • وجرفني من كان خلفي ، ولم استطع ان اخفض بصري وارى ، ومع ذلك فقد عرفت اني كنت ادوس امرأة كانت قد سقطت على الارض وكانت آلاف الاقدام المتعاقبة قد داستها ودفعتها الى عرض الشارع •

وكرر قائلا :

ـ « لا بأس • انا غارثوايت • »

كان ملتحيا ، شاحب الوجه ، قذرا ، ولكني وفقت الى تذكره • لقد كان هو الشاب الباسل الذي كان قد قضى بضعة اشهر في ملجأنا في « غلين آلين » قبل سنوات ثلاث • واعطاني كلمة السر الخاصة بشعبة استخبارات « العقب الحديدية » السرية دلالة على انه هو ، ايضا ، يعمل في خدمتها •

وطمأنني مؤكدا :

ـ « سوف انقذك من هذا المكان حالما تسنح لي فرصة • ولكن اصطنعي الاحتراس في خطوك • وحذار ان تتعثري وتقعي • • »

لقد حدثت الاشياء كلها ، فجأة ، ذلك اليوم • وفي فجاءة تثير الغثيان كبحت الغوغاء جماح نفسها وجمدت في مكانها • فارتطمت ارتطاما عنيفا بامرأة ضخمة كانت امامي (كان الرجل ذو السترة المشقوقة قد توارى) في حين ارتطم بي من كان خلفي • وسادت ضجة ضارية ـ زعقات ، لعنات ، وصيحات تهدد بالموت ، في حين غلبت على ذلك كلة قعقعة المدافع الآلية

السريعة الطلقات المضطربة اضطرابا عنيفا ، وطقطقة البنادق · ولم استطع ، بادىء الامر ، ان افهم شيئا · كان الناس يتساقطون من حولي يمنة ويسرة · وانثنت المرأة التي امامي وانحنت انحناءة شديدة منشبة اظافرها في بطنها على نحو مسعور · كان احد الرجال يرتعد عند رجلي ارتعاد الاحتضار ·

وخطر لي اننا كنا نقف في مقدمة الكتيبة · كان نصف ميل منها قد اختفى – اما اين او كيف فذلك ما لم اعرفه قط · وحتى يوم الناس هذا لا ادري ما الذي حل بنصف الميل من النفوس البشرية ذلك – هل محته صاعقة رهيبة من صواعق الحرب ، ام بدد واهلك شيئا بعد شيء ، ام لاذ بالفرار ؟ ولكن ها نحن هناك ، في مقدمة الكتيبة لا في وسطها ، وها ان سيلا من الرصاص الزاعق ينتزع الحياة من صدورنا ·

ولم يكد الموت يرقق حاشية الزحام حتى قاد غارثوايت ، وكان لا يزال ممسكا بذراعي ، دفقا ممن كتبت لهم النجاة الى مدخل واسع لاحد المباني الحافلة بمكاتب الشركات واصحاب الاعمال · وهنا ، في المؤخرة ، زحمتنا عند الابواب جمهرة من المخلوقات اللاهثة · وبقينا على هذه الحال ، فترة من الزمان ، لم يطرأ خلالها على وضعنا تغير ما ·

وراح غارثوايت يندب في وجهي :

– « لقد وفقت الى ذلك على نحو رائع · لقد حملتك مباشرة الى شرك من الاشراك · كان لنا في الشارع حظ في النجاة اشبه بحظ المقامر ، اما هنا فليس لنا ايما حظ البتة · لقد انتهى كل شيء ما عدا الصياح · فلتحي الثورة ! »

ثم بدا ما توقعناه · كانت قوات المرتزقة تسفك الدماء من غير هوادة · وفي بادىء الامر كان السيل البشري الذي يزحمنا ساحقا ولكن سفك الدماء الموصول ما لبث ان خفف عنا الضغط · لقد خر الموتى والمحتضرون على الارض مفسحين موطئا لقدم · ووضع غارثوايت فمه في اذني وصاح ، ولكن الدندنة الرهيبة حالت بيني وبين التقاط أي كلمة مما قال · ولم ينتظر · لقد امسك بي وطرحني ارضا · ثم انه سحب امرأة تلفظ انفاسها الاخيرة والقاها فوقي ، وبكثير من الضغط والدفع زحف الى جانبي وانطرح فوقي على نحو جزئي · وفي الحال شرعت أكمة من الموتى والمحتضرين تتراكم فوقنا ، وفوق تلك الاكمة ، دب اولئك الذين ظلوا على قيد الحياة منشبين اظفارهم فيها مرسلين انات متوجعة · ولكن هؤلاء ، ايضا ، ما لبثوا ان همدوا وران صمت نصفي متقطع بأنين الاختناق وزفراته واصدائه ·

لقد كان خليقا بي ، لولا غارثوايت ، ان اسحق سحقا · ولقد بدا ، وانا على تلك الحال ، ان من المتعذر علي ان احتمل الثقل الذي رزحت تحته وان احتفظ بآخر نفس من أنفاس الحياة · ومع ذلك ، فقد كان الشعور الوحيد الذي استحوذ علي ، وبالاضافة الى الالم ، هو الفضول · على اي نحو سوف ينتهي ذلك ؟ وعلى اية صورة سيكون الموت ؟ وهكذا عمدت عمادتي الحمراء في تلك المذبحة التشيكاغووية · لقد كان الموت عندي ، قبل ذلك ، مجرد نظرية ليس غير · اما في الايام التي تلت فقد امسى الموت عندي ، ولا يزال ، واقعة بسيطة لا تقدم ولا تؤخر ، انه امر هين الى ابعد الحدود ·

ولكن المرتزقة لم يقنعوا بما فعلوا · لقد غزوا مدخل المبنى ، مجهزين على الجرحى ، مفتشين عن امثالنا ممن لم يصابوا بأذى وممن كانوا يتظاهرون بأنهم موتى · وأذكر انهم سحبوا من ركام بشري رجلا راح يتوسل اليهم في ضراعة حتى اكرهته طلقة مسدس على الايجاز · وكانت ثمة امرأة تشحن بندقيتها وسط احدى التلال البشرية ، وتزمجر وتطلق النار · لقد اطلقت ست رصاصات قبل ان يمسكوا بها ، برغم اننا لم نستطع ان نعرف اي اذى انزلته · كان في ميسورنا ان نتابع هذه المآسي من طريق الصوت ليس غير · وكانت حالة تخبط مماثلة تحدث بين الفينة والفينة ، ثم تبلغ ذروتها بطلقة المسدس التي تضع لها حدا · وخلال الفترات استطعنا ان نسمع الجنود يتحدثون ويشتمون فيما هم يبحثون بين الجثث ، وقد استحثهم ضباطهم على الاسراع ·

واخيرا ، اقبلوا للعمل في ركامنا البشري ، ولقد تمكنا من ان نستشعر الضغط يتناقص كلما سحبوا جثة ميت او جسد جريح · وشرع غارثوايت يطلق كلمات السر في صوت جهير · ولم يسمعه ، بادىء الامر ، احد ، وعندئذ رفع صوته ·

وسمعنا احد الجنود يقول :

ـ « اسمعوا ! اسمعوا ! »

وبعد ذلك تناهى الينا صوت ضابط حاد :

ـ « تصبر قليلا ! وانتم ايها الجنود اصطنعوا الحذر ! »

اوه ، يا لانفاس الهواء الاولى التي ملأنا بها رئاتنا ونحن نسحب من تحت الاجساد والجثث ! وتولى غارثوايت الكلام بادىء الامر ، ولكني اضطررت الى الخضوع لفحص وجيز لكي اثبت اني اعمل في خدمة « العقب الحديدية · »

وخلص الضابط الى هذا الاستنتاج :

ـ « آه ! من العملاء المحرضين ! لا بأس ٠ »

كان فتى أمرد ، تلميذا من تلامذة المدارس العسكرية ينتسب الى احدى الاسر الاوليغاركية الكبيرة ٠

ودمدم غارثوايت متذمرا :

ـ « يا لها من مهمة لعينة ! سوف احاول ان استقيل والتحق بصفوف الجيش ٠ ان لكم يا رجال الجيش ، لنشاطا وحيوية ! »

فكان جواب الضابط الشاب :

ـ « لقد استحققت ذلك ٠ ان لي بعض النفوذ ، ولسوف ارى ما اذا كان في الامكان تسوية امر الانتقال هذا ٠ في استطاعتي ان اخبرهم كيف وجدتك ٠ »

ودون اسم غارثوايت ورقمه ، ثم التفت الي وقال :

ـ « وأنت ؟ »

فاجبته في مرح :

ـ « اوه ، اني على وشك الزواج ٠ عندئذ انسحب من هذا كله ٠ »

وهكذا تجاذبنا اطراف الحديث ، بينا كان قتل الجرحى قائما على قدم وساق ٠ ان ذلك كله لا يعدو ان يكون ، حين أعود بالذاكرة اليه ، حلما من الاحلام ، ولكنه في تلك الاونة اكثر الاشياء طبعية في العالم ٠ واستغرق غارثوايت والضابط الفتى في حديث مستحر حول الفرق بين ما يدعى الحرب الحديثة وقتال الشوارع الحالي ومعارك ناطحات السحاب التي كانت دائرة الرحى في طول المدينة وعرضها ٠ واصخت الى حديثهما في انتباه ، مسوية شعري في الوقت نفسه ، ومثبتة تنورتي الممزقة بالدبابيس ٠ وطوال الوقت كان قتل الجرحى مستمرا ٠ وكانت طلقات المسدس تطغى ، في بعض الاحيان ، على صوتي غارثوايت والضابط ، فيضطران الى تكرير ما كانا يقولانه ٠

لقد عشت ثلاثة ايام من ايام كومون تشيكاغو ، وفي امكان المرء ان يتخيل اتساعها واتساع المذبحة اذا قلت اني ، طوال تلك الفترة لم أكد ارى شيئا غير قتل أبناء الهاوية وغير القتال الدائر ، فوق الارض ، بين ناطحات السحاب ٠ والواقع اني لم أر شيئا من العمل البطولي الذي قام به الرفاق ٠ كان في ميسوري ان اسمع انفجارات الغامهم وقنابلهم ، وان اشهد دخان حرائقهم ليس غير ٠ وعلى اية حال فقد شهدت الجزء الفضائي من احدى المنائر ، وكان ذلك هو الهجمات المنطادية التي شنها رفاقنا على القلاع ٠ وانما كان هذا في اليوم الثاني ٠ كانت الكتائب الثلاث غير الموالية قد أفنيت

في القلاع حتى الرجل الاخير • وكانت القلاع غاصة بالمرتزقة ، وهبت الريح في الاتجاه الصحيح ، والى أعلى ارتفعت مناطيدنا من احد مباني المكاتب في المدينـــة •

وكان بيدينباتش قد اخترع ، بعد مغادرته « غلين آين » ، متفجـرة ليس أقوى منها ـ متفجرة دعاها « الطليقة » • وكان هذا هو السلاح الذي استعملته المناطيد • انها لم تكن غير مناطيد ملأى بالهواء الحار ، صنعت في خرق وعلى عجل ، ولكنها أدت العمل الموكول اليها • لقد رأيت ذلك كله من قمة مبنى من مباني المكاتب • وأخطأ المنطاد الاول تلك القلاع فلم يصب أيـا منها ، واختفى في الفضاء ، ولكنا عرفنا بمصيره في ما بعد • كان بورتون » و « اوساليفان » في المنطاد • وبينا كانا يهبطان وجدا نفسيهما مباشرة فوق قطار من قطر الجند مندفع بأقسى سرعته نحو تشيكاغو • فما كان منهما الا ان اسقطا كامل ذخيرتهما من المتفجرات على القاطرة • واعترض الركـام الناشىء عنها سبيل القطر البخارية اياما عدة • وخير ما في الامر ان المنطاد ، وقد حرر من ثقل المتفجرات ، اندفع في الهواء ولم يهبط الا بعد ان حلق ستة اميال في الفضاء ، وبذلك نجا البطلان لم يمسهما اذى •

اما المنطاد الثاني فمني بالاخفاق • لقد كان ارتفاعه في الفضاء ارتفاعا اعرج • لقد طفا على نحو ادنى مما ينبغي ولقد اصابه الرصاص فأحاله الى ثقوب قبل ان يوفق الى بلوغ القلاع • وكان « هيرتفورد » و « غينيس » فيه ، ولقد مزقا اربا ونسفا كما نسف الحقل الذي هبطا عليه • واستبد اليأس ببيدينباتش ـ لقد سمعنا بهذا في ما بعد ـ فامتطى متن المنطاد الثالث منفردا • وقام هو ، ايضا ، بطيران خفيض ، ولكنه كان حسن الطالـــع ، اذ اخفـق رصاصهم في خدش منطاده او ثقبه ولو في موضع واحد • ان في استطاعتـي ان اراه الان ، كما قد رأيته انذاك ، من قمة المبنى الشاهقة ـ ذلـك الكيس المنتفخ بالهواء منساقا مع الهواء ، وذلك الرجل الضئيل كالذرة ملتصقـا بقعره • انا لم استطع ان أرى القلعة ، ولكن اولئك الذين كانوا معي علـى السطح رأوا انه كان فوقها مباشرة • ولم استطع ان أرى المتفجرة تسقـــط عندما اطلقها ولكني وفقت الى رؤية المنطاد يثب فجأة نحو السماء • وبعـد ذلك ببرهة حلق عمود الانفجار الضخم في الفضاء ، ومن ثم سمعت تهداره • كان بيدينباتش اللطيف قد دك قلعة • وانطلق منطادان اخران على الاثر • ولكن احدهما انفجر اربا في الهواء بعد ان فجرت القذائق « الطليقة » التي فيه ، فمزق المنطاد الاخر الذي سقط سقوطا رائعا على القلعة الباقية • ان ذلك

ما كان يمكن ان يدبر على نحو افضل ، على الرغم من أن الرفيقين اللذين كانا فيه ضحيا بحياتهما ٠

ولكن فلنعد الى ابناء الهاوية ٠ فقد قصرت خبراتي عليهم ٠ لقد اندفعوا هائجين معملين يد الفتك والتدمير في ارجاء المدينة الاصلية ، ثم اهلكوا بدورهم ، ولكنهم لم يوفقوا ولو مرة واحدة للوصول الى مدينة الاوليغاركيين القائمة في الجانب الغربي ٠ كان الاوليغاركيون قد وقوا انفسهم وقاية حسنة ، لقد عرفوا كيف ينجون هم ونساؤهم من التدمير الذي احال قلب المدينة الى ركام ٠ ولقد قيل لي ان اولادهم لعبوا في الحدائق العامة خلال تلك الايام الرهيبة ، وان لعبتهم المفضلة كانت محاكاة آبائهم في الدوس على اجساد البروليتاريا ٠

ولكن المرتزقة وجدوا من العسير عليهم ان يقفوا في وجه ابناء الهاوية وان يقاتلوا الرفاق في آن معا ٠ وكانت تشيكاغو امينة لتقاليدها ، وعلى الرغم من ان جيلا من الثوريين كان قد محي فقد قضت في الوقت نفسه على ما يقارب جيلا بكامله من اعدائها ٠ لقد كتمت « العقب الحديدية » ارقام الضحايا طبعا ، ولكن مئة وثلاثين الفا من قوات المرتزقة لاقوا حتفهم على الاقل ، وفقا لاكثر التقديرات اعتدالا ٠ ولكن الرفاق كانوا في وضع يائس ٠ فبدلا من ان تهب البلاد كلها للثورة هبة رجل واحد الفى الرفاق انفسهم وحيدين وكان في امكان الاوليغاركية ان توجه اليهم كامل قوتها اذا اقتضى الامر ذلك ٠ وساعة بعد ساعة ، ويوما بعد يوم كان المرتزقة يتدفقون على تشيكاغو في قطر لا نهاية لها ، وبمئات الآلاف ٠

وما كان اكثر أبناء الهاوية ! واذ سئم الجنود الفتك وسفك الدماء فقد استهلوا حركة « سوق اظعان » ضخمة قصد بها دفع الغوغاء ، كقطعان الماشية ، نحو بحيرة ميتشيغان ٠ وكانت هذه الحركة في مستهلها عندما التقيت أنا وغارثوايت بالضابط الفتى ٠ والواقع ان حركة « سوق الاظعان » تلك اخفقت اخفاقا كاملا ، بفضل العمل الرائع الذي قام به الرفاق ٠ فبدلا من الحشود الهائلة التي منى المرتزقة نفوسهم بحشرها لم يوفقوا الا الى سوق اربعين الفا من البؤساء ، ليس غير ، الى البحيرة ٠ وبين الفينة والفينة كان رفاقنا يتصدون لالهاء المرتزقة وشغلهم كلما وفق هؤلاء الى دفع حشد من البؤساء الى البحيرة ، فينجو ابناء الهاوية من خلال الثقب الذي احدث في الشرك المطوق ٠

وشهدت أنا وغارثوايت مثلا من ذلك بعيد التقائنا بالضابط الفتى ٠

وتفصيل ذلك ان الغوغائيين الذين كنا نؤلف جزءا منهم ، والذين ردوا على أعقابهم ، حيل بينهم وبين الفرار جنوبا او شرقا بحراب قوات شديدة البأس ٠ كانت القوات التي طوقتنا قد صدتهم من ناحية الغرب وكان الشمال هو المنفذ الوحيد الباقي امامهم ، فاندفعوا نحو الشمال ، حيث البحيرة ، مسوقين من ناحية الشرق والغرب والجنوب جميعا بنار البنادق والمسدسات الالية السريعة الطلقات ٠ ولكن الحشد الغوغائي ما لبث ان اندفع نحو شارع يؤدي ، على نحو مستعرض ، الى الغرب ــ ولست أدري أكان ذلك بسبب من ادراك القوم انهم يساقون الى البحيرة ، ام بسبب من تلوي الوحش تلويا اعمى ــ وانعطف الى الشارع التالي ، وانقلب على اعقابه مندفعا في اتجاه الجنوب نحو حي العمال الكبير ٠

وكنت أنا وغارثوايت نحاول ، انذاك ، ان نشق طريقنا غربا لكي ننجو بنفسينا من نطاق قتال الشوارع ، ولكنا ما لبثنا ان غرقنا في خضمه مـن جديد ٠ وفيما كنا نتقدم الى الزاوية رأينا الغوغاء المزمجرين يندفعون نحونا ٠ فأمسك غارثوايت بذراعي ، ولم نكد نشرع في العدو حتى ردني الى الوراء من أمام دواليب نصف دزينة من السيارات الحربية المزودة بالرشاشات كانت تحث الخطى الى تلك البقعة ٠ وخلف تلك السيارات أقبل الجند ببنادقهـم الاوتوماتيكية ٠ وما ان اتخذوا مواقعهم حتى كانت الغوغاء قد حملت عليهم وبدا وكأن المد الشعبي الزاخر سوف يغمرهم قبل ان يوفقوا الى العمل ٠

وههنا وههناك كان جندي يطلق النار من بندقيته ، ولكن هذه النـار المبعثرة عجزت عن صد الغوغاء ٠ لقد اندفعت جموعها على الجند وهي تجأر في حنق ضار ٠ ولقد بدا وكأن من المتعذر حمل الرشاشات على الانطلاق ٠ كانت السيارات التي نصت عليها تسد الشارع ، مكرهة الجند على البحث عن مواقع بين الارصفة او عليها ٠ وتدفقت أمداد من الجند جديدة ، وعجزنا في غمرة الزحام عن الفرار ٠ وأمسك غارثوايت بي من ذراعي ، والصقنـا جسدينا ، في احكام ، بواجهة احدى البنايات ٠

ولم يكد الغوغاء يصبحون على مبعدة خمسة وعشرين قدما حتى فتحت الرشاشات النار ٠ ولكن ايما شيء ليس بقادر الاحتفاظ بالحياة تحت غطاء الموت الملتهب هذا ٠ وحث الغوغاء الخطى ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يتقدموا الى امام ٠ لقد تكدس بعضهم فوق بعض ركاما ، بل رابية ، بل موجة عارمة متعاظمة من الموتى والمحشرجين ٠ وحثهم الذين خلفهم على التقدم ، وهرس الغوغاء بعضهم بعضا من البالوعة الى البالوعة ٠ وتقيىء الجرحى نسـاء

ورجالا ، فوق قمة تلك الموجة الرهيبة ، وتهاووا متلوين من على وجهها حتى تقلبوا تقلب المحموم تحت السيارات وفوق أقدام الجند · وسدد هؤلاء حرابهم الى صدور البؤساء المحشرجين ، برغم اني رأيت بائسا منهم يوفق الى النهوض على قدميه ويثب على حنجرة احد الجند يعضها بأسنانه · وهوى الرجلان كلاهما ، الجند والعبد ، في الخضم المتلاطم ·

وتوقف اطلاق النار · فقد انجزت المهمة ، بعد ان احبطت المحاولة التي قام بها الرعاع لشق طريق لهم · وصدرت الاوامر بتحرير عجلات السيارات الحربية · ذلك بأنه لم يكن في ميسورها ان تتقدم فوق تلك الموجة من الموتى ، وكان التدبير يقضي بدفعها الى الشارع المعترض · وكان الجند يسحبون الجثث عندما حدث ذلك · ولقد عرفنا في ما بعد كيف حدث · فعلى مبعدة بضعة مبان كان مئة من رفاقنا معتصمين في احد المباني · وعبر السطوح وخلال الابنية شقوا طريقهم وتقدموا ، حتى ألفوا أنفسهم مطلين على الجند المتراصين · ومن ثم دارت مذبحة معاكسة ·

ومن غير ما انذار هطل من أعلى المبنى وابل من قنابل مزق السيارات اربا اربا ومزق معها كثيرا من الجند · وانقلبنا نحن على اعقابنا ، مع من كتبت لهم النجاة ، مرتدين ارتدادا مسعورا · وبعد ان اجتزنا بضعة ميان فتحت علينا النار من مبنى اخر · وكما سبق للجند ان غطوا الشارع ببساط من الارقاء الموتى عادوا هم بدورهم فأمسوا بساطا للشارع · أما انا وغارثوايت فكانت رقية ما تصون حياتنا · وكفعلنا من قبل التمسنا كرة اخرى ملجأ في مدخل ما · ولكن غارثوايت لم يجز لنفسه ان يؤخذ على حين غفلة منه ، هذه المرة · ولم يكد دوي القنابل يخفت حتى شرع يحدق وينعم النظر ·

وناداني قائلا :

— « الغوغاء مقبلون من جديد ! يجب علينا ان نغادر هذا المكان ! »

وفررنا ، ويدي في يده ، هابطين الرصيف الدامي متعثرين منزلقين متقدمين نحو الزاوية · وعبر الشارع المعترض كان في ميسورنا أن نرى بضعة جنود ونحن ما نزال نعدو · ان شيئا ما لم يكن يصيبهم انذاك · وكانت الطريق سالكة · وهكذا تمهلنا لحظة ، والتفتنا الى الوراء · واقبل الغوغاء في بطء · كانوا في شغل شاغل بالاستيلاء على بنادق القتلى وبالاجهاز على الجرحى · ورأينا نهاية الضابط الفتى الذي كان قد انقذنا · لقد رفع نفسه موجعا ، على مرفقه ، وأفلت مسدسه الاوتوماتيكي ·

وضحك غارثوايت فيما كانت امرأة تهرع الى الجريح ملوحة بساطور جزار ، وقال :

ـ « لقد ضاع أملي في الترقية ! هيا ! هذا هو الاتجاه الخاطىء ، ولكننا سوف ننجو بطريقــة ما • »

وفررنا في اتجاه الشرق عبر الشوارع الساكنة ، مستعدين عند كــل شارع من الشوارع المعترضة لايما شيء قد يحدث • والى الجنوب كــان حريق عملاق يملأ السماء ، وعرفنا ان حي العمال الكبير كان قد أمسى طعاما للنار • وأخيرا ارتميت على الرصيف • كنت خائرة القوى ، ولم يعد فـــي ميسوري ان اخطو ايما خطوة الى أمام • كان جسمي مرضوضا ، متقرحا ، وكانت اوصالي كلها تؤلمني • ومع ذلك فلم اتمالك عن الابتسام لغارثوايت ، الذي كان يلف سيكارة ويقول :

ـ « انا أدري أني اسأت انقاذك ، ولكني لا استطيع ان افهم من الوضع شيئا، انها ورطة حقا • فكلما حاولنا الفــرار حدث شيء ما وردنا علــى اعقابنا • فنحن ما زلنا الان على مبعدة بضعة مبان ليس غير المكان الذي اخرجتك فيه من ذلك المدخل • لقد اختلط الاصدقاء والاعداء اختلاطا مشوشا • انها اشبه بحالة اللاتكون Chaos وانك لا تستطيعين ان تحزري من في تلك المباني اللعينة • حاولي ان تستطلعي حقيقة الوضع تنقض على رأســك قنبلة • وحاولي ان تمضي لسبيلك بسلام تجدي نفسك في خضم من الغوغاء وتلقي حتفك بنار الرشاشات ، او تجدي نفسك وسط قوات المرتزقة وتلقي حتفك بنار رفاقك انفسهم من سطح مبنى ما • وفوق هذا كله ، يندفع الغوغاء نحوك ويفتكون بك ايضا • »

وهز رأسه في اكتئاب ، واشعل لفافته ، وقعد الى جانبي •
وأضاف :

ـ « واني لاكاد أموت جوعا • ان في ميسوري أن آكل حصباء الطريق!»

وما هي الا لحظة حتى انتصب على قدميه واندفع الى الشارع وراح يمعن النظر الى حصاة من الحصى • ثم انه عاد بهــا واغــار على نافــذة دكــان خلفنــا •

واوضح غارثوايت فيما هو يساعدني على ولوج الثقب الذي كان قـــد احدثــــه :

ـ « انه دور ارضي ، وليس هو بصالح • ولكن ذلك خير ما نستطيع ان نفعله • خذي انت سنة من النوم ، ولسوف اذهب انا واستطلع حقيقة

الموقف · سوف اتم عملية الانقاذ هذه على خير وجه ، ولكني احتاج الى وقت ، وقت ، الى كثير منه والى شيء أتبلغ به · »

وكان دكانا من دكـاكين عدد الخيـل ذلك الذي وجدنا نفسينا فيه ، ووضعني في فراش من بطانيات في المكتب الخاص القائم في المؤخرة · وزاد في تعاستي ان صداعا قاسيا كان قد شرع يستبد بي ، فابتهجت ابتهاجا غامرا باغماض عيني وبمراودة النوم عن نفسه ·

وودعني بهذه الكلمات :

ـ « سوف ارجع عما قريب · انا لا اتوقع ان آتيك بسيارة ، ولكنـي سوف احمل اليك بعض الطعام من غير ريب · »

وكانت تلك هي اخر مرة رأيت فيها غارثوايت خلال ثلاث سنوات · فبدلا من ان يرجع الي ، حمل الى احد المستشفيات ، وقد اخترقت رئتيه رصاصة ، واخترقت اخرى الجزء اللحيم من عنقه ·

الفصل الرابع والعشرون

كابوس

لم اكن قد اغمضت عيني ليلة البارحة على متن قطار « القرن العشرين »، وبسبب من ذلك وبسبب من الاجهاد الذي انهك قواي استسلمت لنوم عميق ٠ وحين افقت ، اول ما افقت ، كانت الدنيا ليلا ٠ ولم يكن غارثوايت قد عاد ٠ وكنت قد فقدت ساعتي ، فليست لدي ايما فكرة عن الوقت ٠ وفيما كنت مضطجعة مغمضة العينين تناهى الي صدى الانفجارات البعيدة الخافت نفسه ٠ كانت نار جهنم لا تزال تتلظى ٠ وزحفت خلال الدكان الى المقدمة ٠ فاذا بالحرائق الواسعة المنعكسة من السماء تسكب على الشارع ضياء يكاد يضارع ضوء النهار ٠ كان في ميسور المرء ان يقرأ أدق الحروف المطبعية في سهولة ويسر ٠ ومن على مبعدة بضعة مبان اقبل دوي القنابل اليدوية الصغيرة واصداء الرشاشات ، ومن على مدى امعن في البعد اقبلت سلسلة من الانفجارات الثقيلة ٠ ودببت عائدة على بطانيات الخيل واستسلمت للرقاد من جديد ٠

وحين استيقظت كرة اخرى كان ضوء اصفر واهن يرشح الي ٠ كان ذلك هو فجر اليوم الثاني ٠ ودببت الى مقدمة الدكان ٠ فاذا بي اجد حجابا من دخان يغطي السماء تتخلله ومضات قاتمة ٠ وعلى الجانب المقابل من الشارع ترنح عبد بائس ٠ كان يضغط باحدى يديه على جنبه ضغطا محكما ،

وكان يخلف وراءه أثرا داميا · وهامت عيناه في كل مكان ، ولقد كانتا مفعمتين بالتوجس والذعر · وحدق الي ، ذات مرة ، تحديقا مباشرا ، وكان وجهـه ينطق بمختلف الاشجان الخرساء التي تعصف بأسارير حيوان جريح مطارد · لقد بصر بي ، ولكن لم يكن بيننا اي نسب ، وبالنسبة اليه على الاقل لـــم يستشعر نحوي اية مشاركة وجدانية ، ذلك بأنه انحنى وراح يجر نفسه الى امام · انه كان في ميسورة ان يتوقع اية مساعدة من احد في ارض الله الواسعة كلها · كان عبدا رقيقا في حفلة صيد العبيد الارقاء التي كان الاسياد يحيونها · وكان كل ما في ميسورة ان يرجوه ، وكل ما التمسه وبحث عنه ، مجرد ثقب يستطيع ان يدب اليه ناجيا بنفسه مختبئا فيه مثل اي حيوان من الحيوان · وأجفل اذ سمع قعقعة سيارة اسعاف مندفعة عند الزاوية · فسيارات الاسعاف لم تجعل لمثله · وبأنة تضج بالالم طرح نفسه عند مدخل احد المباني وما هي الا دقيقة واحدة ، حتى انطلق الى الشارع من جديد وراح يعرج متقدما على نحو يائس ·

ورجعت الى بطانيات الخيـل التي كنت قـد رقدت عليهـا ، وانتظرت غارثوايت طوال ساعة · ان الصداع لم يزايلني البتة · على العكس ، كـان آخذا في الاسفحال · وبجهد من الارادة فحسب استطعت ان افتح عيني وان انظر الى الاشياء · ومع فتح العينين والنظر الى الاشياء الم بي عذاب لا سبيل الى احتماله · والى هذا ، فقد كان دماغي ينبض في قوة وعنف · وغادرت المكان ، واهنة مترنحة ، من خلال النافذة المكسورة وهبطت الشارع ، محاولة الفرار ، على نحو غرزي تلمسي ، من تلك المجزرة الرهيبة · وبعد ذلك رزحت تحت وطأة كابوس · والذي اتذكره مما حدث في الساعات التي تلت هو مـا يتذكره المرء من كابوس · وان كثيرا من الاحداث لتتبار * في ذهني · ولكن بين هذه الصور التي لا تمحى والتي احتفظ بها في ذاكرتي فتـرات من اللاوعي · اما ما حدث في تلك الفترات فذلك ما لا ادريه ، وما لن ادريه أبد الدهر ·

واذكر اني تعثرت عند الزاوية بقدمي رجل · كان هو ذلك البائس المسكين

---

* تجتمع في بؤرة ·

المطارد الذي كان قد جر نفسه في محاذاة مخبأي · وما اوضح ما اذكر يديه السقيمتين الذاويتين المثيرتين للرثاء فيما كان منطرحا هناك على حصبـــاء الطريق ـ يدين كانتا الى الاظلاف والمخالب اقــرب ، يديــن شوههما الكدح الموصول طوال العمر ، وقد علت راحتيهما طبقة قرنية من الجلد القاســـي تبلغ سماكتها نصف انش · وفيما كنت انهض من كبوتي ، واتابع سيــري نظرت الى وجه ذلك الشيء فرأيت انه لا يزال على قيد الحياة ، ذلك بأن عينيه ، الذكيتين في قتام ، كانتا تنظران الى وترياني ·

وبعد ذلك اقبل فراغ رؤوف · انا لم اعرف شيئا ، ولم ار شيئا ، لقــد ترنحت التماسا للسلامة ليس غير · وكان الكابوس التالي الذي ناء بكلكلــه علي شارعا من الموتى ترين عليه السكينة · لقد انتهيت اليه فجاءة ، كما ينتهي تائه في الريف الى جدول متدفق · مع فارق واحد ، هو ان الجدول الذي رنوت اليه لم يكن متدفقا · كان متجمدا بالموت · فمن شارع الى شارع ، وعلـــى طول الارصفة ومداها انطرح ثمة وامتد في استواء كامل ، لا يعترضه شيء البتة ما خلا كتلة او رابية من الاجساد ، قائمة ههنا وههناك · يا لابناء الهاوية المساكين ! يا للعبيد الارقاء المطاردين ! انهم منطرحون ثمة كالارانب فـــي كاليفورنيا بعد مطاردة رهيبة · ١١٨ وأجلت بصري في طول الشارع وعرضه · لم يكن هناك حركة او ركز · واطلت المباني الهادئة على المشهد من نوافذها العديدة · ومرة ، مرة واحدة ليس غير ، رأيت ذراعا تتحرك في ذلك الجــدول الميت · واقسم اني رأيتها تتحرك ، في ألم احتضار ملتاع عجيب ، ومعهــا ارتفع رأس دام بضرب من الرعب لا سبيل الى وصفه ، رأس راح يتمتم موجها الخطاب الي ، ثم استلقى على الارض من جديد ولم يتحرك بعد ذلك قط ·

---

١١٨ في تلك الايام كانت البلاد متناثرة السكان الى درجة جعلت من الحيوانات الضارية بلاء منغصا في كثير من الاحيان · وفي كاليفورنيا شاعت عادة مطاردة الارانب فكان من دأب الفلاحين في كل منطقة من المناطق ان يجتمعوا كلهم ، في يوم معلوم ، ويندفعوا عبر الريف في صفوف متقاربة ، دافعين الارانب بعشرات الالوف نحــو حظيرة مهيأة لهذا الغرض ، حيث ينهال عليها الرجال والصبيان بهراواتهم حتى الموت ·

وانا اذكر شارعا اخر ، تكتنفه من جانبيه مبان هادئة ، والذعر الــذي هزني حتى الوعي عندما بصرت بأبناء الهاوية كرة اخرى ، ولكن هذه المرة في جدول يجري ويتقدم الى امام · ثم اني لم اجد هناك شيئا اخافه · وجرى الجدول في بطء ، بينا تصاعدت منه انات ، وانتحابات ، ولعنات ، وهذيــان خرف ، وهستيريا ، وجنون · ذلك بأن اولئك كانوا هم اصحاب الشباب النضر والطاعنون في السن ، والضعاف والمرضى ، والعاجزون واليائسون ··· حطام حي العمال القذر كله · كان احراق حي العمال الكبير في « ساوث سايد » قد ساقهم الى جحيم قتال الشوارع ، اما الى اين مضوا وما الذي حل بهم فذلك شيء لم اعرفه ولم يتصل بي نبأه البتة · ١١٩ ·

اني لاحتفظ بذكريات باهتة عن كسري احدى النوافذ واختبائي في دكان من الدكاكين لكي انجو بنفسي من رهط من الرعاع كــان الجند يطاردهم · وانفجرت ذات مرة ايضا ، على مقربة مني ، قنبلة في شارع يرين عليه السكون وبالرغم من اني رفعت بصري وخفضته على نحو مكرور فلم اوفق الى رؤية اي كائن بشري · ولكن أول ذكرى حادة من ذكرياتي التالية بدأت مع صلصلة بندقية ووعي مفاجيء بأن جنديا في سيارة قد اطلق النار علي · واخطأنــي الطلق الناري ، واذا بي في اللحظة التالية اعول واعطي كلمات السر · واني لاذكر على نحو ضبابي جدا امتطائي متن السيارة ، على الرغم من ان هذا الامتطاء انقطع ، بدوره ، بصورة من الصور النابضة بالحياة · ان صلصلة بندقية الجندي الجالس في جانبي جعلتني أفتح عيني ، فرأيت جورج ميلفورد ، الذي كنت عرفته في ايام « شارع بيل » يسقط في تؤدة على الرصيف · وحتى فيما هو يسقط ، اطلق الجندي النار من جديد ، وانطوى ميلفورد متثنيا ، ثم دفع جسده وخر على الارض محشرجا · وضحك الجندي ، وانطلقت السيارة في سرعــــة ·

وكان الشيء التالي الذي عرفته بعد ذاك هو اني أوقظت من نوم عميق

---

١١٩ اختلف الناس دهرا طويلا في حريق حي العمال في « ساوث سايد » هل كان ابــن المصادفة أم كان من فعل المرتزقة · ولكن الراي منعقد الآن ، نهائيا ، على ان ـوات المرتزقة هم الذين أضرموا النار في ذلك الحي تنفيذا لاوامر رؤسائهم ·

على وقع قدمي رجل كان يذرع المكان ، على مقربة دانية مني ، جيئة وذهوبا ٠ كان وجهة مكفهرا متوترا ، وكان العرق المتحدر من جبينه يقطر من ارنبة أنفه٠ كانت احدى يديه تثبت يده الاخرى على صدره في احكام ، وكان الدم يسيل منه ، على الارض ، في اثناء مشيه ٠ لقد ارتدى بزة المرتزقة الرسمية ٠ ومن خارج ، وكأنما عبر جدران غليظة ، أقبل هدير القنابل المنفجرة المكظوم ٠ لقد كنت في مبنى ما ، وكان هذا المبنى يخوض معركة ضد مبنى اخر ٠

وأقبل طبيب ليضمد جراح الجندي ، وعرفت ان الساعة كانت هي الثانية بعد الظهر ٠ وكان صداعي لا يزال على حاله من الشدة ، وانصرف الطبيبعن عملــه ليعطيني مخدرا قويــا يخفف مــن نشاط القلب ويحمــل الي فرجا ٠ واستسلمت للنوم من جديد ، وكان الشيء التالي الذي عرفته هو اني كنت أراقب هجوم المناطيد على المعاقل ٠ وكان امرؤ ما قد طوقني ، وكنت ملتزة به اشد التزاز ٠ وخطر لي ، خطور الامر الراهن الذي لا ريب فيه ، أنه كان أرنست والقيت نفسي أتساءل كيف اجاز لشعره ولحاجبيه ان تكوى على هذا النحو الرديء كلــه ٠

لقد اهتدى احدنا الى الاخر ، في تلك المدينة الرهيبة ، بمجرد المصادفة ليس غير ٠ لم يكن لديه اقل علم بأنني غادرت نيويورك ، وحين اجتاز بالغرفة التي كنت ارقد فيها لم يستطع ان يصدق ، بادىء الامر ، ان عينيه انما تقعان علي انا نفسي ٠ وشاهدت طرفا اضافيا من « كومون تشيكاغو » ٠ فبعد مراقبة هجوم المناطيد هبط بي ارنست الى قلب المبنى ، حيث سلخت الاصيل والليل في رقاد طويل وانفقنا اليوم الثالث في المبنى ٠ وفي اليوم الرابع ، وكان ارنست قد اخذ من قوات المرتزقة اجازة وسيارة ، غادرنا تشيكاغو ٠

كان صداعي قد زال ، ولكني كنت مرهقة جــدا ، جســدا وروحــا ٠ واستندت في السيارة ، الى ارنست ، وبعينين لا مباليتين رحت اراقب الجنود وهم يحاولون ان ينطلقوا بالسيارة الى خارج المدينة ٠ كان القتال لا يزال دائرا ، ولكن في مواقع منعزلة ليس غير ٠ وكان الرفاق لا يزالون يسيطرون ، هنهاوهناك ، على مناطق كاملة ، ولكن هذه المناطق كانت تطوقها قــوات ضخمة ٠ وهكذا حوصر رفاقنا في مئة او اكثر من الاشراك المعزولة ، بينا كانت

عملية اخضاعهم قائمة على قدم وساق · وكان الاخضاع يعني الموت ، اذ لم يكن في ذلك القتال هوادة البتة ، ولقد قاتلوا في بطولة حتى الرجل الاخير · ١٢٠

وكنا كلما اقتربنا من مثـل هذه المواقع ردنا الحرس على اعقابنـــا واعادونـا من حيث أقبلنا · وذات مـرة ، كانت الطريق الوحيدة المؤديـــة الى موقعين منيعين من مواقع الرفاق تقتضينا اجتياز جزء من المدينة محروق واقع بينهما · ومن كلتا الناحيتين كان في استطاعتنا ان نسمع صلصلة الحرب وهديرها ، بينا كانت السيارة تتخذ سبيلها في احتراس عبر الخرائب الداخنة والجدران المتداعية للسقوط · وفي كثير من الاحيان كانت جبال من الانقاض تسد الشوارع على نحو اضطرنا الى العودة من حيث جئنا · كنا في تيه من خرائب . وكان تقدمنا بطيئا ·

كانت مرابط الماشية (وحي العمال ، والمصنع ، وكل شيء) خرائب تحترق · وعلى مبعدة بعيدة الى اليمين كانت غشاوة هائلة من دخان تكدر وجه السماء · كانت تلك كما اخبرنا الجندي السائق ، هي مدينة « بولمان » ، او ما كان من قبل مدينة « بولمان » ، اذ كانت قد دمرت تدميرا كاملا · كان قد قاد السيارة الى هناك ، حاملا بعض الرسائل ، أصيل اليوم الثالـث · وحدثنا قائلا ان معركة من اعنف المعارك دارت رحاها هناك ، فاذا بكثيـــر من الشوارع يصبح غير سالك بسبب من أكداس الموتى ·

ولم تكد السيارة تنعطف حول جدران مبنى متهدم ، في منطقة مرابـــط

---

١٢٠ صمدت مبان كثيرة فترة تنوف على اسبوع ، في حين صمد واحد منها احـــد عشر يوما · كان لا بد من اقتحام كل مبنى وكانه قلعة ، ولقد شق المرتزقة طريقهم الى ادوار المباني العليا طابقا طابقا · كان قتالا رهيبا ، فلا هوادة تعطى ولا هوادة تؤخذ · وفي المعركة كان للثوريين ميزة على اعدائهم : كانوا يحتلـــون المواقع العليا · وعلى الرغم من ان الثوريين ماتوا حصدا فان الخسارة لم تكن وحيدة الطرف · لقد كانت بروليتاريا تشيكاغو الفخور على مستوى أمجادهـا القديمة ، اذ استطاعت ان تجندل من أفراد العدو مثل العدد الضخم الذي جندله من رجالهـــا ·

الماشية ، حتى اعترضت سبيلها موجة من القتلى · لقد كانت ، على وجه الضبط ،اشبه شيء بموجةيلفظها البحر · اماكيف نشأتفذلك ما لميخفعلينا· فبينا كان الغوغاء يهجمون مجتازين الزاوية حصدتهم على زوايا مستقيمة وعلى مرمى افقي ، نيران الرشاشات المرصوفة عند الشارع المعترض · ولكن كارثة كانت قد حلت بالجند · فلا ريب في ان قنبلة كانت قد انفجرت بينارجلهم، ذلك أن الغوغاء الذين صد هجومهم حتى شكل قتلاهم ومحتضروهم تلكالموجة، كانوا قد اندفعوا اندفاعا عارما وقذفوا بزبدهم المؤلف من عبيد احياء مقاتلين· وهكذا جندل الجنود والعبيد معا ، مشوهين ممزقي الاوصال ، حول حطام السيارات والبنادق وفوقها ·

ووثب ارنست فجأة · كانت عينه قد بصرت بكتفين مالوفتين يعلوهما قميص قطني وبهداب شعر اشيب غير غريب عنه · ولم الح انا احدا ، حتى اذا عاد الى جانبي وانطلقت بنا السيارة قال :

ـ « كان ذلك الرجل هو الاسقف مورهاوس · »

وسرعان ما بلغنا الريف الاخضر ، والقينا نظرة أخيرة على السماء الحافلة بالدخان · وعلى نحو واهن ناء اقبل دوي انفجار بطيء · ثم انـي ارحت وجهي على صدر ارنست وذرفت العبرات أسفا على القضية التي خسرنا · وكانت ذراع ارنست التي تطوقني بليغة بالحب ·

لقد قال :

ـ « خسرناها مؤقتا ، يا مهجتي الحبيبة · ولكن ليس الى الابد · لقد تعلمنا · وغدا سوف تنهض القضية الكبرى من كبوتها ، قوية بالحكمة والنظام · »

وتقدمت بنا السيارة نحو محطة من محطات السكة الحديدية · وهناك كنا نتوقع ان ندرك قطارا يقلنا الى نيويورك · وفيما كنا ننتظر على المحطة ارعدت قطر ثلاثة واجتازت بنا ، متجهة غربا الى تشيكاغو · كانت تغص بعمال في اسمال بالية ، عمال لا حظ لهم من البراعة الفنية ـ بأبناء الهاوية ·

وقال ارنست :

ـ « عبيد ارقاء جندوا لتعمير تشيكاغو ٠ ذلك ان عبيد تشيكاغو ارقاء ، قد صرعوا كلهم كما تعلمين ٠ »

الفصل الخامس والعشرون

الارهابيــون

ولم اوفق انا وارنست الى فهم مدى الكارثة التي حلت بالقضية الكبرى فهما كاملا الا بعد ان رجعنا الى نيويورك · كان الوضع مريرا وداميا · وفي كثير من المواطن ، المتناثرة في طول البلاد وعرضها ، ثار الارقاء وسفكت دماؤهم · وتكاثر عدد الشهداء تكاثرا هائلا · وفي كل مكان تم اعدام اناس لا سبيل الى احصائهم · وغصت الجبال والقفار بطريدي العدالة وباللاجئين الذين طوردوا في غير رحمة · وملئت ملاجئنا الخاصة برفاق لنا كانت الحكومة قد جعلت لرأس كل منهم ثمنا · وغزا جنود « العقب الحديدية » عشرات من ملاجئنا بعد ان هداها اليها عيونها وجواسيسها ·

واسقط في يد عدد من رفاقنا كبير ، وانتقموا لانفسهم بأساليب ارهابية · ان الخيبة التي منيت بها امالهم جعلتهم يستسلمون لليأس والقنوط · وبرزت الى الوجود منظمات ارهابية عديدة غير منتسبة الينا ، فأورثتنا كثيرا من البلاء · ١٢١ ان هؤلاء القوم المضللين قد ضحوا بحياتهم في نزق وطيش ،

---

١٢١ ان حوليات هذه الحقبة الوجيزة المفعمة باليأس دامية السطور والصفحات · كان الانتقام هو الحافز المهيمن ، وكان اعضاء المنظمات الارهابية غير مبالين بأرواحهم نفسها ، يائسين من المستقبل · كان الدانيون * Danites ، الذين استمدوا اسمهم من ملائكة الانتقام في الميثولوجيا المورمونية ، قد انبثقوا في جبال

وكثيرا ما افسدوا علينا خططنا ، وعاقوا تقدم منظمتنا ٠

وخلال ذلك كله اندفعت « العقب الحديدية » حازمة عديمة الشفقة ، مزلزلة تركيب البنية الاجتماعية كله في بحثها عن الرفاق ، منقبة عن المفقودين من المرتزقة ، والطوائف العمالية المقفلة ، وسائر شعبها السرية ، منزلة العقاب في غير رحمة وفي غير حقد ، متحملة في صمت حملات الثأر التي شنت

« الغرب الكبير » Great West وانتشروا في طول الشاطىء الباسيفيكي وعرضه ، من باناما الى آلاسكا ٠ أما « الفالكيرات » ** Valkyries فكن كلهن نساء ، ولقد كانت منظمتهن أفظع هذه المنظمات على الاطلاق ٠ ولم تكن ايما امرأة لتفوز بعضويتها الا اذا كانت ممن فقدن قريبا من اقربائها الادنين على يدي الاوليغاركية ٠ ولقد اتهم افرادها بتعذيب أسراهن حتى الموت ٠ وكانت ثمة منظمة نسائية اخرى شهيرة هي منظمة « أرمل الحرب » ٠ أما جماعة « البيرسيركرز » *** Berserkers فكانت منظمة « شقيقة » لجماعة « الفالكيرات » ٠ والواقع ان هؤلاء الرجال كانوا لا يبالون بأي خطر مهما عظم ، فكأن حيواتهم لا قيمة لها في نظرهم البتة ٠ والواقع انهم هم الذين دمروا مدينة المرتزقة الكبرى ، وتدعى بيلونا Bellona ، تدميرا كاملا ، وفتكوا بسكانها البالغ عددهم مئة الف نسمة ونيفا ٠ أما جماعتا « المجانين Bedlamites و « الجهنميين » Heudamites فكانتا منظمتين توأمين من منظمات العبيد الارقاء ، في حين ان تلك الفترة عرفت فرقة دينية جديدة لم تعمر طويلا ، وقد دعيت تلك الفرقة « غضب الله » ٠ ومن الجماعات الاخرى التي برزت ايضا ، والتي نذكرها ههنا ـ اظهارا لجديتها المهلكة وأطوارها الغريبة ـ المنظمات التالية: « القلوب الدمية » ، « أبناء الصباح » ، « نجوم الصبح » ، « الدواسون » Flamingoes ، الزوايا الثلاثية » ، « القضبان الثلاثة » ، والروبونيقيون » Rubonics ، و « المنتقمون » و « الكومانشيون » **** Comanches و « الاريبوسيون » ***** Erebustes

* نسبة الى دان Dan احد اولاد يعقوب الاثني عشر ٠ وكان الدانيون هم أعضاء احدى المنظمات المورمونية السرية التي يظن انها شكلت عام ١٨٣٧(المعرب)

** كانت الفالكيرات Valkyries ، في الميثولوجيا السكندينافية ، خادمات لكبير الالهة « أودين » Odin ٠ وكانت مهمتهن ان يركبن متن الهواء الى ساحات القتال ليخترن الابطال الذين قدر عليهم ان يسقطوا صرعى وليحملن أرواحهم الى قاعة الخلود المسماة « فالهالا » Valhallo (المعرب)

عليها ، مالئة الثغرات في خط قتالها حال ظهورها · وفي الوقت نفسه كـان ارنست وبعض الزعماء الاخرين عاكفين على اعادة تنظيم قوى الثـورة · وفي استطاعة المرء ان يدرك عظم المهمة اذا ما ١٢٢ ....

(انتهـى)

*** البيرسيركر Berserker ، في الميثولوجيا السكندينافية ، احد المحاربيـن النورديين القدماء الذين تميزوا بقوة وشجاعة عظيمتين والذين اشتهروا بالضراوة البالغة في ميدان القتال · (المعرب)

**** نسبة الى الـ Erebus ، وهو في الميثولوجيا الاغريقية مكان ذو ظلمـة جحيمية تجتازه ظلال الموتى في طريقها الى سقر المعروفة عندهم بـ « Hades » (المعرب)

١٢٢ هذه هي خاتمة مخطوطة السيدة ايفرهارد · انها تنقطع على نحو فجائي عنـد منتصف جملة · ولا ريب في انها تلقت تحذيرا بأن قوات المرتزقة مقبلة ، بدليل انها وجدت متسعا من الوقت لاخفاء المخطوطة قبل ان تفر او يلقى عليها القبض · ومن اسف انها لم تعش لتكمل قصتها ، ولو انها فعلت اذن لتبدد الغموض الذي احاط ، طـوال سبعة قرون ، بمصرع ارنست ايفرهارد ·

الفهرس

٨

هذه الرواية

• هذه الرواية الفذة تعتبر اليوم انجيل الاشتراكية والاشتراكيين . لقد وضعها جاك لندن . وهو كاتب اميركي مناضل ، عام ١٩٠٧ فصور فيها حتمية انتصار الاشتراكية وحتمية انهيار الرأسمالية . والصراع الرهيب الذي لا بد أن يدور بين معسكري التقدمية والرجعية ، والأساليب الجهنمية التي تلجأ اليها الرأسمالية في صراعها من أجل البقاء ...

• وأطرف ما في هذه « الرواية — المعجزة » أن جاك لندن وضعها على لسان زوجة البطل ، وتخيّل أنه عثر عليها من طريق المصادفة بوصفها مخطوطة كُتبت في عهود الظلام ، ومن أجل ذلك راح يضع لها الحواشي والشروح ، مفترضاً أنه يكتب تلك الحواشي والشروح بعد بضعة قرون انقضت على بزوغ فجر الاشتراكية ليصف بعض ظواهر الحياة الغريبة في العهد القديم ...

• والأمة العربية اليوم في نضالها المظفّر من أجل انشاء مجتمع اشتراكي جديد أحوج ما نكون إلى الاطلاع على هذه الرواية الفريدة لتزداد ايماناً بالمبادئ الاشتراكية ولتزداد يقظة واحتراساً من مؤامرات « العقب الحديدية » ... وهو الاسم الذي أطلقه جاك لندن على الرأسمالية الاحتكارية التي تتطلع إلى سحق الطبقات الكادحة بالنار والحديد .

الثمن ١٠ ل. ل. او ما